

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الرَّافِعِي

عصر أسما عيل

الجزء الثاني



دارالمحارف

عصر إسماعيل

بقلم

عبد الرحمن الراجحي

الخبر الثاني

يشتمل على ختام الكلام عن عصر إسماعيل

الطبعة الثالثة

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م



دارالمحارف



عبد الرحمن الرافعي

ولد في ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ - وتوفي في ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦

مقدمة الطبعة الثالثة

نحمدك يا رب . والطبعة الأولى من هذا الكتاب
كانت سنة ١٩٣٢ والثانية كانت سنة ١٩٤٨ - وفيه ختام
الكلام عن عصر إسماعيل
والله المستعان

كريمات المؤلف
عبد الرحمن الرافعي

يناير سنة ١٩٨٢

بيان

اشتمل الجزء الأول على الفصول الآتية من الكتاب :

الفصل الأول : الرجعية في عهد عباس الأول .

الفصل الثاني : النهضة الوطنية في عهد سعيد باشا .

الفصل الثالث : عصر إسماعيل . سياسته الخارجية

الفصل الرابع : قناة السويس

الفصل الخامس : السودان

الفصل السادس : الجيش

الفصل السابع : البحرية .

الفصل الثامن : حروب مصر في عهد إسماعيل

الفصل التاسع : التعليم والنهضة العلمية والأدبية

ويحتوى الجزء الثانى على الفصول الباقية من « عصر إسماعيل » .

الفصل العاشر

أعمال العمران

بذل الخديوى إسماعيل جهوداً كبيرة فى إقامة أعمال العمران التى عادت على البلاد بالمزايا الجمّة ، ولقد ذكرنا فى الفصول السابقة ما أسسه من معاهد التعليم والمنشآت البحرية والبحرية التى تعد من أجل أعماله العمرانية ، والآن نتكلم عن أعمال العمران الأخرى فى ميادين الري والزراعة والصناعة وتعمير المدن .

منشآت الري والزراعة

كان من أول ما وجه إليه همته العمل على إنماء ثروة مصر الزراعية بتوفير وسائل الري ، فكان لهذه الوسائل الفضل الكبير فى زيادة إنتاج الأراضى المزروعة وإحياء موات الأراضى القابلة للزراعة .

الترع

فشق كثيراً من الترع فى الوجه البحرى والوجه القبلى ، وبلغ عدد ما حفر أو أصلح فى عهده نحو ١١٢ (اثنى عشرة ومائة) ترعة^(١) ، وأهمها الترعة الإبراهيمية والترعة الإسماعيلية .

(١) مصر كما هى Egypt as it is للسرت ماك كون Mac Coan ص ٢٤٦ .

الترعة الإبراهيمية

هى أعظم الترع التى أنشئت فى عهد إسماعيل ، وتعد من أعظم منشآت الري فى العالم قاطبة ، تأخذ مياهها من النيل عند أسيوط ، وتنتهى عند (أشمنت) بمديرية بنى سويف ، ويبلغ طولها ٢٦٧ من الكيلومترات ^(٢) ، وهذا يدل على عظم شأنها واتساع مداها ، وهى تروى مديريات أسيوط والمنيا وبنى سويف ^(٣) .

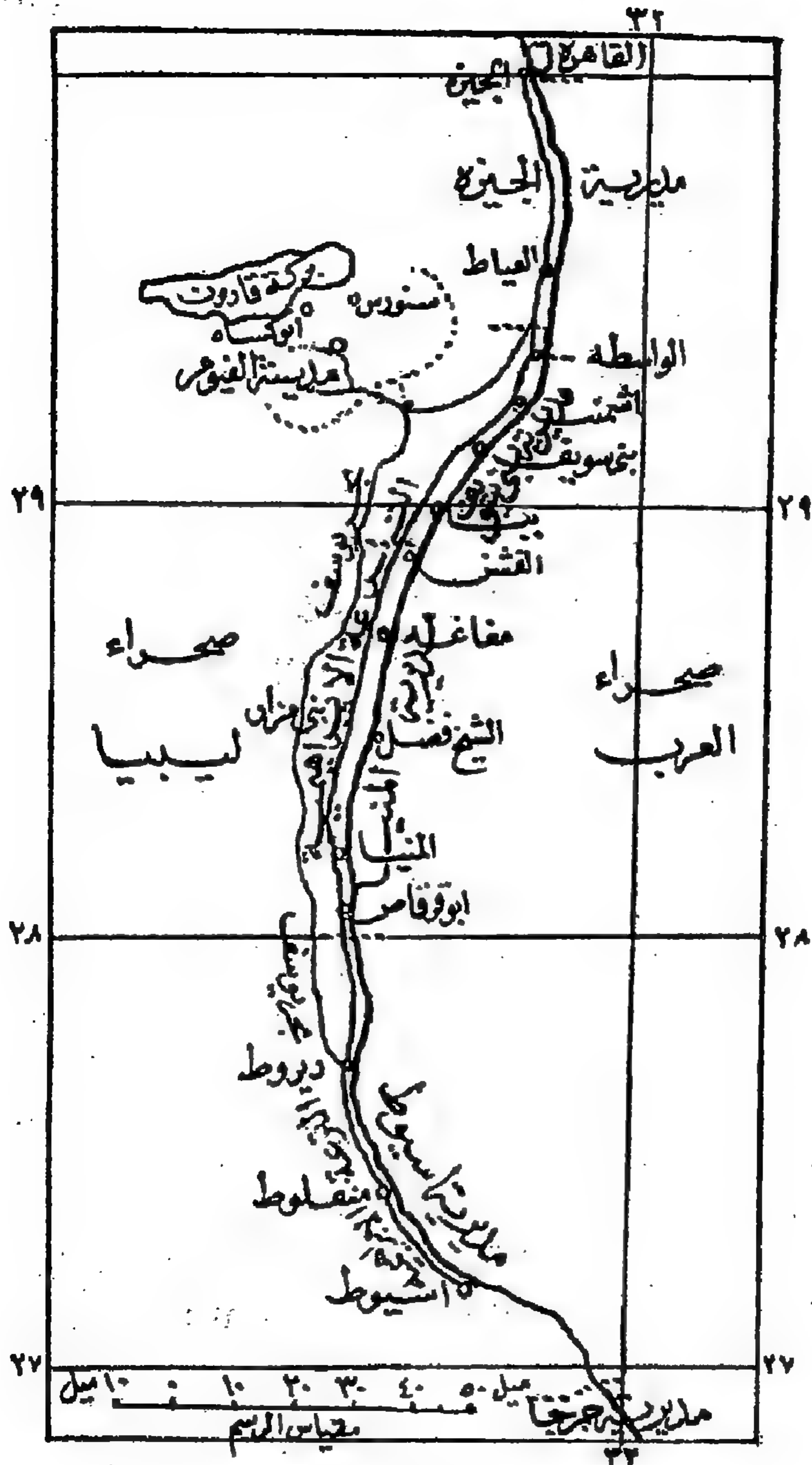
ويرجع الفضل فى وضع تصميمها وإنشائها إلى المهندس المصرى الكبير مصطفى بهجت باشا ، إذ كان مفتشاً لهندسة الوجه القبلى ، وقد بدئ بإنشائها سنة ١٨٦٧ ، واشتغل فى حفرها نحو مائة ألف نسمة بطريق السخرة (العونة) ، وتم حفرها سنة ١٨٧٣ ، أى أن إنجازها اقتضى ست سنوات تقريباً ، وتولى بهجت باشا ملاحظة العمل طبقاً للتصميم الذى وضعه ، ولما انتقل فى خلال العمل إلى الوجه البحرى خلفه المهندس الكبير سلامة باشا ، الذى تولى إنشاء قناطر الترعة ، ثم خلفه إسماعيل باشا محمد ، وكان فى عهده تمام العمل ، ولما أنشئت الترعة وقاطعت بحر يوسف القديم تحول فيه من النيل وصار يستمد ماءه منها عند « قناطر التقسيم » المقامة عليها ، وأنشئت أيضاً ترعة « الديروطية » وترعة « الفشن » المستجدة ، واستمدتا مياههما منها ، وقد كان لهذه الترعة الفضل العميم على أطيان الوجه القبلى من أسيوط إلى بنى سويف ، إذ زاد خصبها وتحول الري فيها من رى الحياض إلى نظام الري الصبى ، واتسعت فيها زراعة قصب السكر والقطن .

قناطر التقسيم

أقيمت على هذه الترعة عدة قناطر ، وهى : « قناطر التقسيم » بديروط عند تقاطع الترعة وبحر يوسف ، وقناطر المنيا ، ومطاي ، ومغاغة ، وبيا .

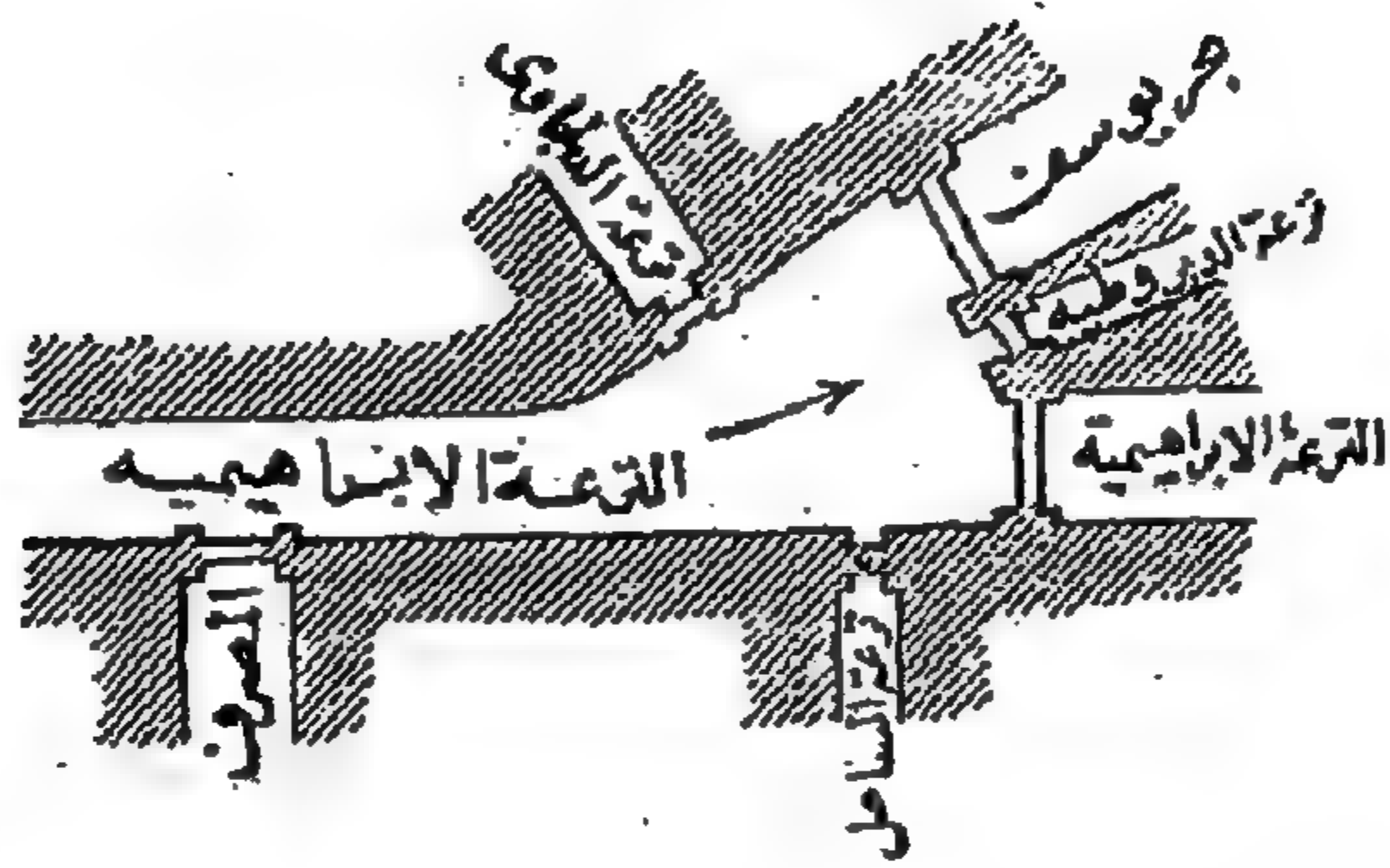
(٢) الخطط التوفيقية ج ١٩ ص ١١٤ .

(٣) هامش الطبعة الثانية - بفضل هذه الترعة تحول نظام الري فى المديريات المذكورة من رى الحياض إلى الري الصبى ، فتوافرت زراعة قصب السكر وتيسرت زراعة القطن بها ، ونمت الصناعات المتصلة بالقصب .



خريطة التربة الإبراهيمية
المنشأة في عهد إسماعيل

وأعظمها شأناً « قناطر التقسيم » التي أقيمت عند ديروط ، على بعد ٦٠ كيلو متراً من فم
الترعة ، وهي مجموعة قناطر عدة ، متصلة بعضها ببعض ، ومشيدة بشكل هندسي بديع ،
توزع كل منها المياه على فرع من الفروع الآخذة من الترعة ، وهالك بيان هذه القناطر : قنطرة
ترعة الدجاوى ، وقنطرة بحر يوسف ، وقنطرة الترعة الديروطية ، وقنطرة موازنة الترعة
الإبراهيمية ، وقنطرة ترعة الساحل ، ثم قنطرة الصرف التي تصرف المياه إلى النيل وتستعمل
للتخفيف .



قناطر التقسيم بديروط ، أنشئت سنة ١٨٧١

وتعد « قناطر التقسيم » من أعظم قناطر الري في الدنيا ، وهي من تصميم المهندس الكبير
بهجت باشا ، وتناوب بناءها هو وسلامة باشا ثم إسماعيل باشا محمد ، ومن المهندسين الذين
كانوا يلاحظون أعمال الحفر والبناء فيها : محمد بك أبو السعود ، يوسف بك الحكيم ، رجب
بك سرى ، أحمد بك سعيد ، على بك برهان ، محمد بك فهمي ، حسن بك وصفي . وكان
ابتداء بنائها سنة ١٨٦٩ م وتتمامها سنة ١٨٧١ م (١٢٨٨ هـ) . وقد نظم الشعراء القصائد
تاريخاً لهذا العمل العمراني الجليل ، فما قاله في هذا الصدد السيد علي أبو النصر المنفلوطي أحد
شعراء ذلك العصر :

أحيّت	عناياتُ	الخدوي	ملكه	فَسما	بطالع	سعد	التنظيم
وأفاد	بحر النيل	حسن	تصرف	حتى	ارتوى	بالراحة	الإقليم
وأراد	ثروته	فأحكم	ترعة	أبدى	على	عنوانها	إبراهيم
وبنى	بديروط	القناطر	مورداً	تقسيمها	قد	زانه	التصميم
فكانها	جبل	بذروته	بدت	آثار	مصر	حادث	وقديم

وبرسم (إسماعيل) بعد (سلامة) وفى (بهيجة) شكلها التعظيم
 فلملك (إسماعيل) فى إنشائها فصل يدوم لربه التعظيم
 عمت منافعها فقلت مؤرخا إن القناطر نفعها التقسيم^(٤)
 سنة ١٢٨٨ هجرية (١٨٧١ م).

وكانت هذه القناطر ولم تزل محل إعجاب من شاهدوها من المهندسين الوطنيين والأجانب ، مما يسجل الفخر لمهندسى مصر العظام ، فقد وضعوا تصميمها ، تولوا إقامتها ، دون أن يرجعوا إلى رأى خبراء أو مستشارين من الأجانب ، وجاءت آية فى الفن والإبداع ، وقد شاهدتها المستر (فولر) المهندس الإنجليزى فى ذلك العهد ، وقال عنها ما معناه : « يحسن بالسياح الذين يجيئون مصر لمشاهدة الآثار القديمة أن يشاهدوا الآثار الجديدة وهى ترعة الإبراهيمية وقناطرها » .

الترعة الإسماعيلية

هى الترعة التى تبدأ من النيل بحوار قصر النيل (الآن بحوار شبرا) وتصل إلى قناة السويس عند الإسماعيلية ، ثم تتفرع إلى فرعين أحدهما يسير إلى السويس والآخر إلى بورسعيد ، وطول هذه الترعة ١٢٩ كيلومتر (تسعة وعشرون ومائة كيلومتر) من قها إلى « نفيشة » ، و « ٨٩ كيلومتر من نفيشة إلى السويس »^(٥) ، وقد احتفرت شركة قناة السويس جزءاً منها وأكمل إسماعيل حضرها طبقاً لما تم الاتفاق عليه بينهما كما بينا ذلك فى الفصل الرابع (ص ٩١ ج ١ الطبعة الأولى) .

وهذه الترعة تروى مديرتى القليوبية والشرقية وجهات قناة السويس .

(٤) عن كتاب تحفة الخديوى إسماعيل لصعيد وادى النيل (الترعة الإبراهيمية) لمحمد بك إسماعيل حب الرمان مهندس الترعة الإبراهيمية سنة ١٩٠٠ .

(٥) الخطط التوفيقية ج ١٩ ص ٤٢ .

الترع الأخرى

ومن أهم أعمال الري في ذلك العهد إصلاح رياح المنوفية التي أنشئ في عهد سعيد باشا وإعادة احتفاره وتعميقه ، وبناء قناطره ، وقد اجتمع لهذا العمل نحو ثمانين ألفاً من العمال والفلاحين ، وتم حفره من القم إلى التقائه ببحر شبين سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) في مدة ستين يوماً^(٦) ، ولما تم حفره تحولت منابع جميع الترع التي كانت تأخذ مياهها من النيل ، فصارت تستمد مياهها من الرياح المذكور ، وصار أهم مصدر للري في مديرتي المنوفية والغربية .

وفي سنة ١٨٧٠ أصلحت طلببات العطف وزيدت قوتها ، فصار في مقدورها تغذية ترعة المحمودية يوماً بثمانمائة ألف متر مكعب من المياه^(٧) . وأنشئت ترع ناطورة ، والمكاسر ، وجناية السكة الحديد ، وجناية أبي كبير ، والعصلوجي (بالشرقية) .

وترعة الحاجر الغربية ، وترعة الحاجر الشرقية ، وتمديد مصرف النظامية (بمديرية البحيرة) .

وتحول كثير من الترع القديمة إلى ترع صيفية ، كالسرساوية ، وخليج عشنا ، والسمنية ، والملوانية ، وترعة الثعالب ، وترعة قطور ، وترعة سبطاس ، وجناية القرشية ، وبحر دخميش ، وترعة نوري أغا ، وترعة الألفي ، وترعة الساحل ، وترعة الخط ، وترعة بحيرم ، وترعة قويسنا ، والعطف ، والخضارات ، وترعة حسن ، وميت خلف الخ (وجميع هذه الترع بالمنوفية والغربية) .

وترعة القرطامية ، والفليفل ، ومصرف العموم (بالقليوبية) .

وترعة مصطفى أفندي ، وبحر الرمل (بالشرقية) .

ووسعت ترعة الساحل^(٨) بالدقهلية ، وجرى امتدادها إلى البوهية ، وأعيد حفر ترعة

(٦) الخطط ج ١٩ ص ٢ .

(٧) كتاب الري في مصر للمسيو بارواص ١٦٣ .

(٨) هي التي أنشأها سلامة باشا كما تقدم بيان ذلك بالصفحة ٢٦٩ من الجزء الأول (الطبعة الأولى) ، وصارت الآن الرياح التوفيقى في الجزء المار بالدقهلية .

الدنديطية ، والصافورية ، وجعلت كلتاها صيفية ، ووسعت ترعة أم سلمى ، وصار تعميقها وتوصيلها بالبحر الصغير ، فم منها النفع الكبير .

ومن الترع التى جعلت صيفية بالدقهلية : ترعة جصفه ، والغفارة ، ومصرف المقدام ، وترعة الأفندية ، والخزان الجديد ، وترعة معاند ، والبزراى ، وبحر طناح ، وميت سويد ، وميت يعيش .

وكانت العناية مبذولة لتطهير الترع فى مختلف المديرىات .

القناطر

وأنشئ من قناطر الترع والرياحات ٤٢٦ قنطرة ، منها ١٥٠ فى الوجه القبلى و ٢٧٦ فى الوجه البحرى^(٩) وعينت الحكومة بالمحافظة على جسور النيل والترع .

إصلاح القناطر الخيرية

وقد ظهر خلل فى بعض عيون القناطر الخيرية سنة ١٨٦٧^(١٠) بسبب ضغط المياه ، فوجه إسماعيل عنايته إلى ملافاة هذا الخلل ، وعهد بذلك إلى فطاحل المهندسين فى عصره ، وهم : موجيل بك (وكان قد غادر مصر إلى فرنسا) ، ومهجت باشا ، ومظهر باشا ، ثم المستر فولر المهندس الإنجليزى ، وأنجز هذا الإصلاح فى عهد إسماعيل .

مجالس تفتيش الزراعة ووزارة الزراعة

وتقرر إنشاء مجالس بالأقاليم سميت (مجالس تفتيش الزراعة) ، منها مجلسان بالوجه البحرى وثلاثة مجالس فى مصر الوسطى والوجه القبلى^(١١) ، والغرض منها البحث فى الوسائل

(٩) كتاب إحصاء مصر سنة ١٨٧٣ ص ١٩٤ .

(١٠) لبنان باشا - مذكرات عن أهم أعمال المنفعة العامة فى مصر ص ٤٧٤ .

(١١) انظر لائحة هذه المجالس فى قاموس الإدارة والقضاء لفيليب جلاد ج ٤ ص ١٣ طبعة سنة ١٨٩٢ .

الكفيلة بتحسين الزراعة وإثمارها وتوزيع مياه الري ، وكان تأليفها تنفيذاً لقرار مجلس شورى النواب .

وأنشئت وزارة الزراعة للعناية بالشؤون الزراعية عامة ، وجعلت مرجع مجالس تفتيش الزراعة .

التوسع في زراعة القطن والقصب

وعنى الخديو بالتوسع في زراعة القطن لما ظهر من ارتفاع أسعاره أثناء الحرب الأهلية الأمريكية وما كانت قدره زراعته على البلاد وقتئذ من الأرباح العظيمة ، وجلب من أوروبا العدد الوفير من آلات الري لتوفير المياه وتحسين طرق الري ، وأمدت الحكومة المزارعين بالبذور التي يحتاجون إليها ، وازداد الناتج من القطن في ذلك العهد كما سيجئ بيانه بالفصل الخامس عشر .

ووجه الخديو همته إلى الإكثار من زرع قصب السكر ، وخاصة في أملاكه بالوجه القبلى ، وازدادت عنايته به بعد أن تراجعت أسعار القطن وهبطت إلى مستواها العادى عقب انتهاء الحرب الأمريكية ، فرأى من الحكمة أن ينهض بزراعة القصب لاستحداث صناعة السكر بإنشاء معاملته الكبيرة ، ولكى تجدد البلاد محصولاً آخر تعتمد عليه بجانب محصول القطن .

زيادة مساحة الأقطان المزروعة

كان لأعمال العمران التى قام بها إسماعيل فى ميادين الزراعة فضل كبير فى ازدياد مساحة الأقطان الزراعية وزيادة محصولها ، فقد كانت مساحة الأراضى المزروعة فى أواخر عهد محمد على ٣,٨٥٦,٠٠٠ فدان^(١٢) ، فبلغت فى أواخر عهد إسماعيل ٤,٨١٠,٠٠٠ فدان^(١٣) ، أى

(١٢) إحصاء كلوت بك فى كتابه (لمحة عامة إلى مصر) ج ١٢ ص ٢٦٤ (من الأصل الفرنسى) .

(١٣) إحصاء لجنة التحقيق العليا فى تقريرها الذى قدمته عن حالة مصر المالية فى أبريل سنة ١٨٧٩ والمنشور فى الكتاب

الأصفر (مجموعة الوثائق الدبلوماسية الفرنسية عن سنة ١٨٧٨ - ١٨٧٩) ص ٢٢٢ .

أنها زادت في هذا العهد بمقدار مليون فدان تقريباً ، ويدخل في هذا الإحصاء ما زاد من الأطنان في عهد سعيد . لما اشتمل عليه ذلك العهد من الإصلاحات الزراعية التي سبق الكلام عنها بالجزء الأول ص ٢٤^(١٤) . (الطبعة الأولى)

منشآت الصناعة

معامل السكر

أنشأ إسماعيل باشا المعامل الكبرى لصناعة السكر في الوجه القبلي^(١٥) ، وقد نشطت هذه الصناعة بما أنشأه من تلك المعامل وما جلبه إليها من الآلات الحديثة ، وما خصصه لها من الأطنان لزراعة القصب ، وتعددت معامل السكر ، فبلغت سبعة عشر معملاً أنشئت في المدن الآتية :

في مديرية بني سويف

معمل بيا

في مديرية المنيا

معامل الفشن . مغاغة . أبا الوقف . مطاى . المنيا . أبو قرقاص . الشيخ فضل . سمالوط .
بني مزار .

في مديرية أسيوط

الروضة .

(١٤) جاء في خطبة العرش التي تليت بمجلس شورى النواب في يناير سنة ١٨٦٩ أن ما صار إصلاحه وزراعته في عهد الخديو إسماعيل لغاية تلك السنة بلغ ٣,٢٧,٤٥٨ فدان كما سيجيء بيانه بالفصل الثاني عشر ، وجاء في تقرير بعثة « كيف » الإنجليزية التي سird الكلام عنها أن مساحة الأطنان المزروعة في عهد سعيد باشا ٤,٥١,٠٠٠ فدان ، أي أن زيادتها في عهد إسماعيل بلغت ١٨,٥ في المائة (ص ٣٩١ كتاب مصر كما هي لماك كون) .

(١٥) هامش الطبعة الثانية - ذكرنا في كتاب عصر محمد علي (ص ٥٦٥ من الطبعة الأولى و ٤٦٠ من الطبعة الثانية) إنشاء محمد علي ثلاثة معامل للسكر في الوجه القبلي ، ولكن إنتاج هذه المعامل كان محدوداً ولم تقو على مزاحمة السكر المكرر الوارد من معامل أوروبا لجودته ورخص أسعاره .

في مديرية قنا

الضبيعية . أرمنت . المطاعنة .

في مديرية الفيوم

سنورس . أبو كساه . وكان بأبو كساه مصنعان مصنع (أبو كساه) ومصنع (الدودة) . وكانت هذه المعامل تابعة للدائرة السنية ، أي ملكا خاصا للخديو ، وقد نجح بعضها نجاحاً كبيراً ، وتعطل البعض الآخر بسبب كثرة النفقات والارتباك المالي ، وسوء الإدارة . وبذل إسماعيل في إقامة هذه المعامل أموالاً طائلة استوفى معظمها من القروض . وصف العلامة على باشا مبارك بعض هذه المعامل لمناسبة كلامه عن البلاد القائمة بها ، وأنا ناقلون هنا ، على سبيل المثال ، ما ذكره عن مصنع الضبيعية^(١٦) بمركز قوص (الآن بمركز الأقصر) ، قال : « وفي الضبيعية للدائرة السنية تفتيش أطيان عشرة آلاف فدان تزرع قصباً ، وتسقى بالوابورات ، وبها فاوريقة فرنساوية ذات عصارتين ، وآلات كاملة لعصره وعمل السكر منه . وينقل إليها القصب بسكك حديد زراعية معموله هناك ، وشغلها دائماً ليلاً ونهاراً ، كباقي الفاوريقات ، بواسطة وابور نور تتفرق أنواره على العنابر والآلات والمخازن وجميع الأماكن اللازمة للشغل ، ويستمر شغلها كل سنة نحو خمسة أشهر ، وتعصر كل يوم محصول ستة وستين فدانا ، وتنتج في اليوم من السكر الأبيض المكرر فوق ثمانمائة قنطار سكرًا حباً ، ومن السكر الأحمر فوق أربعمائة قنطار أقماعاً ، وينقل منها العسل ثمرة ٣ إلى ورشة الروم بفاوريقة المطاعنة ليستخرج منه السبرتو ، وقد عملت تجربة الفدان من هذا التفتيش ، فوجد متحصله من السكر بأنواعه اثنين وعشرين قنطاراً ، ثم إن الفاوريقة يخرج منها فرع من سكة الحديد يوصل إلى البحر (النيل) لنقل الآلات التي تأتي بطريق البحر » .

معامل النسيج

وعاد النشاط إلى معمل الطرايش بفوه ، ومعامل النسيج بها ، وهما المنشآن من عهد محمد على .

وأنشئ مصنعان لعمل الجوخ ، أحدهما ببوراق ، والثاني بشبرا ، وكانا يصنعان الأجواخ التى تلزم لجنود البر والبحر .

معامل الطوب والدباغة والزجاج والورق

وأنشئ معمل لضرب الطوب فى قلوب ، ومصنع لدبغ الجلود بالإسكندرية ، ومعامل للزجاج ، ومعمل للورق فى بوراق وهو الذى أسلفنا الكلام عنه (ص ٢٥١ ج ١ طبعة ثانية) .

المواصلات والسكك الحديدية

وأصلحت إدارة السكك الحديدية بعد أن كانت مختلة فى أواخر عهد سعيد ، وبذل إسماعيل جهداً كبيراً فى مد السكك الحديدية فى أنحاء القطر ، فقد كان طول ما أنشئ منها قبل ولايته الحكم ٢٤٥ ميل (خمسة وأربعون ومائتى ميل) ، فأنشأ هو نحو ١٠٨٥ ميل « خمسة وثمانين وألف ميل »^(١٧) .

وبحسب إحصاء بعثة « كيف » الإنجليزية ، بلغ طول السكك الحديدية التى أنشأها إسماعيل ١٢٠٠ ميل ، وقدرت البعثة نفقات إنشائها بمبلغ ١٣,٢٠٠,٠٠٠ جنيه ونيف ، بواقع الميل ١١,٠٠٠ جنيه^(١٨) .

(١٧) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٨٧ .

(١٨) تقرير بعثة كيف Cave المشور ذبلا لكتاب (مصر كاهى) للاك كون ص ٣٩١ و ٤٠٤ .

وهناك بيان أهم الخطوط التي أنشئت في ذلك العهد وتاريخ إنشائها وطولها بالكيلومتر (١٩).

الخطوط التي أنشئت في عهد عباس وسعيد

الخط	السنة التي أنشئ فيها	طوله بالكيلو متر
من القبارى (الإسكندرية)	١٨٥٤	١٠٧
إلى كفر الزيات		
من كفر الزيات إلى طنطا	١٨٥٥	١٨
من طنطا إلى القاهرة	١٨٥٦	٨٦
من القاهرة إلى السويس رأساً	١٨٥٨	(ثم ألغى سنة ١٨٦٩ بعد إنشاء خط مصر - الإسماعيلية - السويس)
من طنطا إلى كفر الزيات	١٨٥٩	١٨
من القاهرة إلى قليوب	١٨٦١	١٤
من بنها إلى ميت بره	١٨٦١	١٠
من بنها إلى الزقازيق	١٨٦٠	٣٧
من طنطا إلى محلة روح	١٨٥٧	١٤
من محلة روح إلى سمود	١٨٥٩	٢١

الخطوط التي أنشئت في عهد إسماعيل

من دمهور إلى القبارى	١٨٦٤	٦٤
من بنها إلى طنطا	١٨٦٥	٤١
من كفر الزيات إلى دمهور	١٨٦٥	٤٣

الخط	السنة التي أنشئ فيها	طوله بالكيلو متر
من قلوب إلى بنها	١٨٦٦	٣١
من القاهرة إلى سراى القبة	١٨٦٥	٧
من القاهرة إلى المحطة	١٨٦٥	١٣
خط الجبل الأحمر	١٨٦٥	٤
من المكس إلى محاجر الدخيلة	١٨٧٠	١٦
من سيدى جابر إلى رشيد	١٨٧٦	٦٦
من المعمورة إلى أبو قير	١٨٧٦	٣
من قلوب إلى القناطر الخيرية	١٨٦٥	١٠
من شبن الكوم إلى طنطا	١٨٦٦	٢٨
من محلة روح إلى دسوق	١٨٦٥	٥٢
من الزقازيق إلى الإسماعيلية	١٨٦٨	٧٨
من نفيشة إلى السويس	١٨٦٨	٩١
من الزقازيق إلى بنها	١٨٧٠	٣٧
من قلوب إلى الزقازيق	١٨٦٥	٦٣
من الزقازيق إلى المنصورة	١٨٦٥	٧٠
من أبو كبير إلى الصالحية	١٨٦٩	٣٤
من سمند إلى طلخا	١٨٦٣	١٧
من طلخا إلى دمياط	١٨٦٩	٦٦
من محلة روح إلى طنطا	١٨٧٦	١٤
من قلين إلى كفر الشيخ	١٨٧٥	١٧
من محلة روح إلى زفتى	١٨٦٥	٣٢
من بولاق الدكرور إلى بشتيل	١٨٧٢	٤
من بشتيل إلى اتياى البارود	١٨٧٢	١١٦
من بولاق الدكرور إلى المنيا	١٨٦٧	٢٣٨
من المنيا إلى ملوى	١٨٧٠	٤٨

الخط	السنة التي أنشئ فيها	طوله بالكيلو متر
من ملوى إلى أسيوط	١٨٧٤	٨٢
توصيلة معمل بيا	١٨٧٠	١
توصيلة النيل إلى أسيوط	١٨٧٥	١
من الواسطة إلى الفيوم	١٨٦٨	٣٨
من الفيوم إلى أبوكساه	١٨٦٩	٢٤
من باب اللوق إلى حمامات حلوان	١٨٧٢	٢٥

وعملت التحويلة من الملاحة إلى محطة الباب الجديد بالإسكندرية سنة ١٨٧٦ ،
 وخصصت محطة القبارى من ذلك الحين للبضائع والقطارات الخاصة الواصلة إلى الميناء .
 ومد الخط الحديدى من وادى حلفا جنوبا على مسافة ٥٧ كيلو مترا كما تقدم بيانه
 (ص ١٦٢ ج ١ الطبعة الأولى) .

التلغرافات

وعملت الخطوط التلغرافية التى بدئ إنشاءها فى عهد سعيد باشا ، وتألفت منها شبكة
 ممتدة الفروع بين مختلف البلدان ، ومدت أيضا الخطوط التلغرافية بين مصر والسودان وبين
 المدن المهمة فى الأقاليم السودانية كما تقدم بيانه (ص ١٦٥ ج ١) .
 وبلغ طول الخطوط التلغرافية سنة ١٨٧٢ فى مصر والسودان ٥٥٨٢ كيلو متر وطول
 أسلاكها ١١,٩٥١ كم^(٢٠) .

وهاك أهم هذه الخطوط فى مصر .

الخطوط	عدد الأسلاك	طول الخط بالكيلومتر
من مصر إلى الإسكندرية	٦	٢٢٣ * (٢١)
من مصر إلى ضواحيها	٢	٨٠
من القاهرة إلى قليوب والقناطر الخيرية	٢	٢٨

(٢٠) عن كتاب إحصاء مصر سنة ١٨٣٧ ص ١٨٥ .

(٢١) هذه العلامة * تدل على أن الخط منشأ من عهد سعيد باشا .

الخط	السنة التي أنشئ فيها	طوله بالكيلو متر
من القاهرة إلى غزة (فلسطين) بطريق بنها	٢	٤٥٥
من القاهرة إلى السويس بطريق بنها	١	٢٤٢
من القاهرة إلى المنصورة بطريق قليوب	٢	١٥٤
من القاهرة إلى السويس رأساً	٤	١٤٤ (٢٢)
من بنها إلى سراي ميت بره	٢	١٤
من بنها إلى الزقازيق فالسويس	٢	١٩٧
من طنطا إلى طلخا قديمياط	٢	١١٥
من طنطا إلى زفتى	٢	٥٣
من طنطا إلى دسوق	٢	٧٤
من طنطا إلى شبين الكوم	٢	٣٠
من الإسماعيلية إلى بورسعيد	١	٧٤
من القنطرة إلى بورسعيد	١	٤١
من دمنهور إلى العطف ورشيد	٢	٩٠
من القاهرة إلى المنيا	٢	٢٧٦
من المنيا إلى أسيوط	٢	١٤٤
من أسيوط إلى قنا	٢	٢٢٥
من قنا إلى أسوان	٢	٢٥٧
من قنا إلى القصير	٢	١٨٨
من أسوان إلى وادى حلفا	٢	٣٣٧

هذا عدا خطوط السودان وقد سبق الكلام عنها .

ويبلغ عدد مكاتب التلغراف في مصر والسودان سنة ١٨٧٨ : ١٥١ مكتب ، منها ٨٦ مكتباً بالوجه البحرى و ٤٤ مكتباً بالوجه القبلى و ٢١ مكتباً بالسودان .
وأنشأت الشركة الإنجليزية الشرقية في عهده خطأً تلغرافياً بحرياً من الإسكندرية إلى مالطة وصقلية فأوروبا ، وخطاً آخر من الإسكندرية إلى السويس إلى عدن فالهند ، ويتصل بخط

(٢٢) هذه العلامة * تدل على أن الخط منشأ من عهد سعيد باشا .

الشرق الأقصى وأستراليا ، فاتصلت مصر بأوروبا بخط الشركة الإنجليزية وبالخط الذي أنشأته الحكومة المصرية إلى غزة ومنها إلى الآستانة .

البريد

استمر البريد في عهد عباس وسعيد يسير على الطريقة التي كانت متبعة في عصر محمد علي ، فكان يحمل براً على يد السعاة وبحراً على ظهر السفن في النيل (انظر عصر محمد علي ص ٥٦٧ الطبعة الأولى) .

وكان للجاناليات الأوروبية مكاتب للبريد بالإسكندرية والقاهرة ، يقوم عليها طائفة من الأفراد يتولون أمر إرسال الخطابات إلى أصحابها ، واشتهر منهم رجل يسمى المسيو موتسي Muzzi فكان له شبه إدارة لتوزيع البريد بين مصر وأوروبا .

فاعتزم إسماعيل إنشاء مصلحة بريد مصرية ، تكون فرعاً من فروع الحكومة ، فاشترى إدارة البريد التي أنشأها المسيو موتسي ، وصارت إدارة مصرية تابعة للحكومة من يناير سنة ١٨٦٥ ، وأبقى المسيو موتسي مديراً لها ، بعد أن أنعم عليه بلقب بك ، فصار أول مدير لمصلحة البريد في مصر .

واعترل موتسي بك العمل سنة ١٨٧٦ ، فعين مكانه المستر كليار Caillard الإنجليزي وأنعم عليه فيما بعد بالباشوية ، فعرف بكليار باشا المسمى باسمه الشارع الذي به دار مصلحة البريد العامة بالإسكندرية (نقلت إلى القاهرة) .

وقد نظمت إدارة البريد وأنشئت لها المكاتب في الإسكندرية والقاهرة والأقاليم ، وبلغ عددها في عهد إسماعيل ٢١٠ مكتب (عشرة ومائتي مكتب) .

المتحف المصري

تقدم القول في كتاب « عصر محمد علي » (ص ٤٦٢) أن محمد علي أمر بمنع خروج الآثار القديمة من مصر ، وبالمحافظة عليها ، وأنشأ داراً للآثار بجهة الأزبكية بمترل المدفردار ، ونضيف إلى ذلك أن هذا الأمر لم يمنع يد السرقة والنهب أن تمتد إلى الآثار والعاديات

القديمة ، فكان الإفرنج ينهبون منها ما تصل إليه أيديهم ، وينقلون منها إلى بلادهم من بدائع الآثار المصرية ما تزدان به الآن متاحف أوروبا .

وكانت الحكومة ذاتها ، وخاصة في عهد عباس الأول ، تهب من هذه الآثار إلى الأمراء والعظماء من الأجانب بغير حساب ، حتى تضاعفت مجموعة العاديات التي جمعت في دار الآثار ، فأمر عباس بنقلها إلى القلعة ، فنقلت إليها .

وحدث سنة ١٨٥٥ أن جاء مصر الأرشدوق ماكسمليان النمساوي زائراً ، فأعجبه تلك الآثار ، فطلب إلى عباس باشا أن يهبه شيئاً منها ، وكان عباس لا يقدر قيمتها الفنية أو التاريخية ، ولا يشعر بواجب المحافظة عليها ، فوهبها إياه كلها ، ولم يثور عن التفريط في تلك الكنوز القومية الثمينة .

وفي غضون هذه المآسي جاء مصر عالم من علماء العاديات كان له الفضل الكبير في الاحتفاظ بآثار مصر ، ذلك هو العالم الفرنسي المسيو « مارييت » Mariette الذي اشتهر ذكره وعرف فيما بعد بمارييت باشا .

جاء المسيو مارييت مصر سنة ١٨٥٠ ، موفداً من قبل الحكومة الفرنسية للبحث عن بعض الآثار والمخطوطات ، فعكف على التنقيب عن آثار سقاره ، وأجرى حفائر عظيمة حتى كشف مدفن العجول (السرابيوم) ، وكان يعمل في التنقيب منفرداً ، دون أن تكون له بالحكومة صلة رسمية ، وقد نقل إلى فرنسا كثيراً مما عثر عليه من العاديات واللوحات الأثرية ، وظل يعمل على هذا النحو حتى جعله سعيد باشا سنة ١٨٥٨ مأموراً لأعمال العاديات بمصر ، وكان ذلك بسعي المسيو فردينان دلسبس صديق سعيد الحميم ، وقد بذل مارييت جهوداً موفقة في التنقيب عن العاديات والآثار ونقلت إلى مخازن أعدت لها ببولاق .

ولما مات سعيد لقي مارييت من إسماعيل تعظيماً كبيراً ، فأمره الخديو بإصلاح مخازن بولاق وتوسيعها ، وافتتحها في حفلة رسمية حافلة يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٣ ، وظلت دار العاديات في تقدم مستمر بفضل مثابرة مارييت ومؤازرة إسماعيل إياه طوال مدة حكمه . وبقي مارييت مثابراً على تعهد متحف الآثار حتى توفي سنة ١٨٨١ ، وقد نقل المتحف إلى الجزيرة سنة ١٨٩١ ، ثم إلى مكانه الحالي بجوار قصر النيل سنة ١٩٠٢ ، ودفن جثمان مارييت باشا في تاووس بمدخل المتحف .

دار الآثار العربية

وأصدر إسماعيل أمراً بإنشاء دار الآثار العربية سنة ١٨٦٩ ، وعهد بإنفاذ المشروع إلى المسيو فرانس بك (باشا) كبير مهندسى الأوقاف ، ليجمع فيها ما كان مبعثراً فى المساجد من الآثار العربية والإسلامية ، ولكن المشروع لم يتحقق فى عهد إسماعيل وإنما نفذ فى عهد توفيق باشا .

دار الرصد

وأنشأ الرصدخانه (دار الرصد) بالعباسية وعهد برآستها إلى إسماعيل بك (باشا) الفلكى العالم المشهور الذى تقدم الكلام عنه (ج ١ ص ٢٦٨) .

مصلحة الإحصاء

وأنشئت مصلحة الإحصاء تولاها المسيو دى رينى بك ، ثم عهد برآستها إلى المهندس الإيطالى المسيو امتشى Amicci ولها إحصاءات قيمة عن أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية .

وقد اقترحت هذه المصلحة عمل إحصاء جديد للسكان فى أواخر عهد إسماعيل ، ولكنه لم ينفذ إلا فى أوائل عهد توفيق باشا ، وعرف بإحصاء ٤ مايو سنة ١٨٨٢ .

مصلحة المساحة

وأنشئت (مصلحة المساحة) فى أواخر عهد إسماعيل ، وهى من أهم أعمال العمران المرتبطة بالزراعة والملكية الزراعية ، وعهد بإدارتها إلى السير كلفين والسيو كليجور ، ثم أسندت إدارتها فى أبريل سنة ١٨٧٩ إلى الجنرال إستون باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى .

الأعمال الصحية

كانت المسائل الصحية موضع عناية إسماعيل ، وشاركه في هذه العناية نوابغ الأطباء في مصر وأعضاء مجلس شورى النواب ، فقد وجهوا همهم جميعاً إلى تحسين أحوال البلاد الصحية ، وكان للإدارة الصحية فضل كبير في مقاومة الأمراض ومكافحة الأوبئة ، وخاصة وباء الكوليرا الذي حل بالبلاد سنة ١٨٦٥ ، وكان أشد ما أصيبت به البلاد من الأوبئة في ذلك العصر.

وأنشئت مستشفيات عدة ، وهاك بيان المستشفيات التي كانت موجودة بمصر والسودان في ذلك العهد : (٢٣)

عدد الأسرة	المستشفيات
١١٥٣	القاهرة - المستشفى الأميري
١٥٠	القاهرة - المستشفى الأوروبي (٢٤)
٣٥٠	الإسكندرية - المستشفى الأميري
١٥٠	الإسكندرية - المستشفى الأوروبي (٢٥)
٦٠	الإسكندرية - المستشفى اليوناني (٢٦)
٨٠	الإسكندرية مستشفى الديا كونيس (٢٧)
٥٠	رشيد
٤٥	بورسعيد
٣٤	الإسماعيلية
٤٠	السويس : المستشفى الأميري
٥٠	السويس : المستشفى الأوروبي (٢٨)
٢٥	القصر
٤٠	سواكن

(٢٣) عن كتاب إحصاء مصر سنة ١٨٧٣ ص ٢٣٤ .

(٢٤) ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨) مستشفيات أوروبية .

عدد الأسرة	المستشفيات
٤١	مصوع
٥٠	دمهور
١٥	العطف
٣٠	طنطا
٢٥	المحلة الكبرى
٢٥	شبين الكوم
٥٥	الزقازيق
٥٠	المنصورة
٢٥	بها
٢٥	الجيزة
٣٠	النقاطر الخيرية
٥٠	بنى سويف
١٠	الفيوم
٣٠	أسيوط
٢٥	سوهاج
٢٥	قنا
٢٥	إسنا
١٥	دنقله
٣٨	كسلا
٣٢٠	بربر
٣٥	الأبيض (كردفان)
٦٠	سنار
٧٠	الخرطوم

عموان المدن

كان إسماعيل أثناء دراسته بباريس ميالا إلى علوم الهندسة ، ومن هنا اتجهت ميوله إلى تنظيم المدن وتخطيطها وتجميلها ، وقد وجه جل عنايته في هذا الصدد إلى القاهرة والإسكندرية .

في القاهرة

فن أعماله في القاهرة إزالة تلال الأتربة التي كانت تحيط بها ، والتي بدأ محمد علي وإبراهيم في إزالتها ، وتخطيط شوارع وميادين جديدة ، كشارع الفجالة الجديد ، وشارع كلوت بك ، وشارع محمد علي ، وشارع عبد العزيز ، وشارع عابدين . وأنشأ أحياء بأكملها ، كحي الإسماعيلية ، والتوفيقية ، وعابدين ، وميدان الأوبرا ، ونظم جهات الجزيرة ، والجزيرة ، بعد أن أنشأ بهما قصوره العظيمة ، وأنشأ حديقة النبات بالجزيرة^(٢٩) .

وكان لفتح الشوارع والميادين والأحياء الجديدة فضل كبير في توسيع المدينة وتجميلها ، وتوفير الهواء النقي وتدبير الوسائل الصحية للسكان ، وارتفاع قيمة الأراضي والمباني وازدهار العمران .

وأهم الأحياء التي أنشأها حي (الإسماعيلية) ، وقد سمي باسمه ، لأنه هو الأمر بإنشائه ، وكانت جهاته من قبل أراضي خربة تحتوي على كثبان من الأتربة وبرك للمياه ، وأراضي سباح ، فخططها وأنشأ فيها الشوارع والحارات على خطوط مستقيمة ، وأغلبها متقاطع على زوايا قائمة ، ودكت شوارعها وحاراتها بالحجر (الدقشوم) ، ونظمت على جوانبها الأرصفة ، ومدت في أرضها أنابيب المياه ، وأقيمت فيها أعمدة المصابيح لإنارتها بغاز الاستصباح ، فأصبحت كما يقول العلامة على باشا مبارك « من أبهج أخطاط القاهرة

(٢٩) هامش الطبعة الثانية - وقد بقي منها الآن حدائق الحيوان الحالية وجزء من حديقة الأورمان ، وأنشأ حدائق الجزيرة التي بقي منها الآن حدائق الزهور والأسماك .

وأعمرها ، وسكنها الأمراء والأعيان » (٣٠) .

وبنى مسرح الكوميدي ومسرح الأوبرا ، ونسق حديقة الأزبكية تنسيقاً جميلاً .
 وأنشأ كوبرى قصر النيل البديع ليصل الجزيرة بمصر ، وتم إنشاؤه على يد شركة فيف ليل
 Fives Lille الفرنسية سنة ١٨٧٢ ، وتكلف ١٠٨,٠٠٠ جنيه ، والكوبرى المسمى
 الكوبرى الإنجليزى أو كوبرى البحر الأعمى (كوبرى الجلاء الآن) لوصل الجزيرة بالجزيرة ،
 وقامت بإنشائه شركة إنجليزية وتكلف ٤٠,٠٠٠ جنيه وتم إنشاؤه أيضاً سنة ١٨٧٢ .
 وردم بركة الرطلى وأنشأ بها الشوارع المستقيمة .

وأنشأ الطريق المعبد بين القاهرة والأهرام ، ورصفه بالحجارة ، وكان إنشاؤه سنة ١٨٦٩
 لمناسبة زيارة الإمبراطورة أوجيني مصر لحضور حفلات افتتاح قناة السويس .
 ومد أنابيب المياه فى أحياء المدينة لتوزيع مياه النيل العذبة فى البيوت بعد أن كان يحملها
 السقاةون فى القرب .

وعنى بتعميم الكنس والرش فى شوارع القاهرة ، وأدخل فيها نظام الإنارة بغاز
 الاستصباح ، فأكسب المدينة بالليل بهجة وجالاً وبهاء ، وساعدت الأنوار على حفظ الأمن
 ليلاً .

وهو أول من شرع فى إقامة تماثيل العظماء فى الميادين العامة تخليداً لذكراهم ، فأمر بصنع
 التماثيل الكبيرين اللذين يزينان أهم ميادين القاهرة والإسكندرية ، الأول لمحمد على ، وقد
 نصب فى الإسكندرية ، والثانى لإبراهيم باشا وقد نصب فى القاهرة سنة ١٨٧٣ .
 وعمر المسجد الحسينى ، وأصلح ميدان الرملة ، الواقع بجانب القلعة ، ووسعه وغرس به
 الأشجار وأوصله بشارع محمد على فصار من أفسح ميادين القاهرة .

وأمر ببناء حمامات حلوان ، لما تبين من مزايا مياهها المعدنية الكبريتية ، وعنى بعمارة هذه
 المدينة وشيد بها قصرأ فخماً وهو المعروف بقصر الوالدة على النيل ، وخطط طريقاً معبداً من
 النيل إلى حلوان ، ورغب إلى السراة سكنها ، وأنشأ السكة الحديدية التى تصلها بالقاهرة
 وبلغ عدد سكان العاصمة فى ذلك العهد ٣٥٠,٠٠٠ نسمة .

في الإسكندرية

تكلمنا عن عمران الإسكندرية في عهد محمد علي (عصر محمد علي ص ٣٤٠ و ٤٦٢) ، وقد ازدادت عمراناً في عهد إبراهيم وعباس ، ثم في عهد سعيد الذي كان يحب الإقامة فيها ، ويؤثرها على عاصمة البلاد ، وقد جدد بها مسجد البوصيري بالميناء الشرق ، وبلغ عدد سكانها في عهده نحو مائة ألف من السكان .

وازداد عمرانها في عهد إسماعيل ، فاخترت فيها شوارع وأحياء جديدة ، كشارع إبراهيم الممتد من مدرسة السبع بنات إلى ترعة المحمودية ، وشارع الجمرك ، وشارع المحمودية ، وفتح ستة شوارع أخرى ممتدة بين سكة باب شرق والطريق الحرلي الذي كان يحيط بالمدينة . وأنيرت أحيائها بغاز الاستصباح بواسطة شركة أجنبية ، وأنشئت بلديتها للاعتناء بتنظيم شوارعها وللقيام بأعمال النظافة والصحة والصيانة فيها ، وتم تبليط كثير من شوارع الإسكندرية ، وعملت المجارى تحت الأرض لتصريف مياه الأمطار وغيرها ، وعهد الخديو إلى إحدى الشركات الأجنبية^(٣١) توصيل المياه العذبة من المحمودية إلى المدينة وتوزيعها بواسطة وابور مياه الإسكندرية .

وعمرت جهة الرمل في عهده عمراناً كبيراً ، واتصلت بالمدينة بخط حديدي ، وأنشأ بها الخديو عدة قصور له ولذويه للإقامة بها في الصيف ، وإليه يرجع الفضل في جعلها مصيف القطر المصري ، وفتح شارعاً عظيماً يبتدى من باب رشيد وينتهي إلى حدود الملاحة بزم (المنذرة) ماراً بالسراي الخديوية بالرمل ، طوله من باب شرق إلى السراي ٤٠٠ متر في عرض ١٢ متراً ، ومن السراي إلى الملاحة ٤٠٠٠ متر في عرض ثمانية أمتار ، ومد طريقاً من الملاحة إلى ترعة المحمودية .

وأنشأ حديقة التزهة على ترعة المحمودية ، وجعلها متزها عاماً ، وبنى سراي الحقانية التي أنشئت بها المحكمة المختلطة ، وأصلح ميناء الإسكندرية ، كما بيناه في الفصل السابع ، وبلغ عدد السكان المدينة في عهده ٢١٢,٠٠٠ نسمة^(٣٢) .

(٣١) تأسست هذه الشركة وأبرم العقد الأول معها في عهد سعيد ثم تحرر العقد النهائي في عهد إسماعيل .

(٣٢) كتاب إحصاء مصر سنة ١٨٧٣ صحيفة ٢٠ .

القصور

وأنشأ عدداً كبيراً من القصور ، منها سراى عابدين التى جعلها مقراً للحكم ، وحلت محل سراى القلعة التى بناها محمد على باشا ، وسراى الجزيرة ، وسراى الجزيرة ، وسراى بولاق الذكرور . وقصر القبة ، وقصر حلوان ، وسراى الإسماعيلية ، وسراى الزعفران بالعباسية . وسراى الرمل بالإسكندرية ، وجدد القصر العالى ، وقصر التزهة بشبرا (المدرسة التوفيقية الآن) ، وسراى المسافر خانة ، وقصر النيل ، وسراى رأس التين بالإسكندرية . وأنشأ عدة قصور أخرى فى مختلف البنادر كالمنيا ، والمنصورة والروضة .

* * *

الفصل الحادى عشر

مأساة الديون

مسألة الديون هى الجانب المظلم من تاريخ إسماعيل ، لأنها المأساة التى انتهت بتصدع بناء الاستقلال ، وتدخل الدول فى شئون البلاد المالية والسياسية ، فمن الواجب أن نوفى الكلام عنها فى شئ من الإيضاح والبيان .

بقيت مصر سليمة من آفة الاستدانة فى عهد محمد على وإبراهيم وعباس ، وبدأت حكومتها تمد يدها إلى الاقتراض فى عهد سعيد باشا ، فاستدان سنة ١٨٦٢ قرضاً مقداره ٣,٢٤٢,٨٠٠ جنيه إنجليزى ، واستدان عدا ذلك مبالغ أخرى من الديون السائرة ، فبلغ الدين العام عند وفاته ١١,١٦٠,٠٠٠ جنيه كما تقدم بيانه (ج ١ ص ٦٦) .

أما الخديو إسماعيل ، فكانت آفته الإسراف والاقتراض من البيوت المالية والمرابين الأجانب من غير حساب أو نظر فى العواقب ، حتى كبل البلاد حكومة وشعباً بالقروض الفاحشة .

وفى الجدول الآتى بيان الديون التى اقترضها أو اقترضتها الحكومة فى عهده :

ديون مصر فى عهد إسماعيل

تاريخ القرض	قيمة القرض	جنيه إنجليزى
سنة ١٨٦٤	٥,٧٠٤,٢٠٠	جنيه إنجليزى
سنة ١٨٦٥	٣,٣٨٧,٣٠٠	»
سنة ١٨٦٦	٣,٠٠٠,٠٠٠	»
سنة ١٨٦٧	٢,٠٨٠,٠٠٠	»
سنة ١٨٦٨	١١,٨٩٠,٠٠٠	»

تاريخ القرض	قيمة القرض	
سنة ١٨٧٠	٧,١٤٢,٨٦٠	جنيه إنجليزي
الديون السائرة	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	» »
سنة ١٨٧٣	٣٢,٠٠٠,٠٠٠	» »
سنة ١٨٧٨	٨,٥٠٠,٠٠٠	» »
يضاف إلى ذلك المبالغ الآتية التي تلحق بالقروض وترد في سياقها وهي :		
المتحصل من المقابلة	١٣,٥٠٠,٠٠٠	جنيه إنجليزي
دين الرزنامة	٣,٣٣٧,٠٠٠	» »
ثمن أسهم مصر في قناة السويس	٤,٠٠٠,٠٠٠	» »
ما أخذ من الأوقاف الخيرية		
وبيت المال	٥٣٧,٠٠٠	» »
مطلوبات من الحكومة لم تدخل في تسوية		
الدين العام سنة ١٨٧٦	٦,٢٧٦,٠٠٠	» »
المجموع	١٢٦,٣٥٤,٣٦٠	جنيه إنجليزي

بيان هذه القروض وهل كانت مصر في حاجة إليها ؟

ونريد الآن أن نتابع سلسلة القروض وتواريخها من عهد ولاية إسماعيل الحكم سنة ١٨٦٣ ، ونبحث ملابساتها وأسبابها ، وفيم أنفقت ، لنعرف هل كانت البلاد في حاجة إليها ؟

١ - قرض سنة ١٨٦٤

(٥,٧٠٤,٢٠٠ جنيه)

كان على البلاد من الدين العام عند وفاة سعيد باشا نحو أحد عشر مليون جنيه كما أسلفنا ، وهو في الواقع مبلغ جسيم إذا قورن بميزانية مصر في ذلك العصر . وقد ندد إسماعيل حينما تبوأ عرش مصر بإسراف سلفة سعيد ، واعتزم أن يسير طبقاً لقواعد

الاقتصاد والتدبير ، ونوه بذلك في خطبة ألقاها^(١) بحضور وكلاء الدول ، وأوضح فيها برنامجه الذى اعترم اتباعه فى الحكم ، فهى بمثابة (خطبة العرش) تفيض بالآمال الكبار والآمانى الحسان .

قال فيها : « أن أساس الإدارة هو النظام والاقتصاد فى المالية ، وسأبذل كل جهدى فى اتباع قواعد النظام والاقتصاد ، وقد عزم أن أرتب لنفسى مخصصات محدودة ، لا أتجاوزها أبداً ، وسأعمل على إبطال السخرة التى اعتمدت عليها الحكومة فى أعمالها ، وآمل أن تؤدي حرية التجارة إلى نشر الرفاهية والرخاء بين جميع طبقات الشعب ، وسأعنى كل العناية بتوطيد دعائم العدالة » .

تلك عهود الخديو فى خطبة العرش وأولها اتباع قواعد النظام والاقتصاد . ولكن لم تكد تمضى عدة أشهر على هذه الدعوة حتى أخذ ينقضها ، ففتح باب القروض متلاحقة بعضها إثر بعض ، واتخذها عادة تكاد تكون سنوية .

ولم تكن حالة البلاد المالية مما يستدعى الاقتراض ، لأن مصر تعد من أغنى بلاد العالم ، وتستطيع إذا هى وجدت إدارة حكيمة أن تسلك سبيل التقدم والعمران دون أن تحتاج إلى القروض ، وعلاوة على ذلك فإن ما نشأ عن الحرب الأمريكية الأهلية من ارتفاع أسعار القطن فى أوائل حكم إسماعيل ، قد جعل البلاد فى حالة يسر ورخاء .

واشتملت ميزانية سنة ١٨٦٤ على زيادة فى الدخل على الخرج ، فلم يكن ثمة حاجة إلى قرض جديد كما يقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) الذى عاش فى ذلك العصر وألف فيه كتابه القيم .

ولكن إسماعيل اقترض أول قروضه سنة ١٨٦٤ ، وتذرع لتسويغه بحاجة الحكومة إلى المال لمقاومة الطاعون البقرى الذى انتاب البلاد فى ذلك العهد ، ولسداد أقساط ديون سعيد باشا ، ويقول مؤلف (تاريخ مصر المالى) « ص ١٨ » إن مقاومة الطاعون البقرى كانت حجة واهية ، لأن الفلاحين والملاك هم الذين احتملوا وحدهم الخسائر الناشئة عن هذا الطاعون ، ولم يرد بميزانية سنة ١٨٦٤ مما أنفقته الحكومة فى هذا الصدد سوى ١٢٥٠٠٠ جنيه ، ولذلك أبدى دهشته من أن الحكومة تلجأ إلى الاقتراض على ما فى ميزانية سنة ١٨٦٤ من زيادة

(١) فى ٢٠ يناير سنة ١٨٦٣ .

الدخل على الخرج (٢).

وقال إن السبب الحقيقي لقرض سنة ١٨٦٤ أن إسماعيل لم يحقق وعود الاقتصاد التي قطعها على نفسه ، بل سار سيرة بذخ وهوى وإسراف ، واستكثر من شراء الأتبان والأملك لنفسه والإنفاق عليها ، فهذه الأسباب هي التي جعلته يعقد القرض الأول ، وما كان سداد ديون سعيد ولا الإنفاق على مقاومة الطاعون البقري ، إلا ذريعة شكلية لذر الرماد في العيون . هذا ما يقوله مؤلف تاريخ مصر المالي ، وهو كاتب مشهود له بتحرى الحقائق والاعتدال في الرأي ، وليس في كلامه مبالغة ، لأن المعروف عن إسماعيل باشا أنه كان بطبعه ميالا إلى الاستكثار من المال والعقار ، وظهرت عليه هذه الميول منذ ولايته الحكم ، فقد كان نظار أملاكه ومفتشوها يفتنون في حمل الفلاحين على بيع أطيانهم أو التنازل عنها للخديو ، حتى صار مالكا لخمس أطيان القطر المصري .

كتبت مدام (أولب إدوار) في كتابها عن مصر تقول عن الخديو إسماعيل : إنه لم يكن يهتم إلا بجمع الملايين ، وكان يقتنى الأطيان في كل ناحية قدر ما يستطيع ، ويلجأ إلى السخرة لزرعها واستصلاحها ، ويعقد القرض تلو القرض لآجال طويلة ، تاركاً لمن يخلفه في الحكم أن يسدد ديونه ، حتى كأنه يقصد أن يعقد مهمة الحكم لمن يأتي من بعده (٣) .

كتب هذا الكلام في ديسمبر سنة ١٨٦٤ ، ولم يكن مضي عامان على اعتلاء إسماعيل العرش ، فهذا الوصف يعطيك صورة عن ميوله الأولى ، فهو قد بدأ يستدين في الوقت الذي لم تكن البلاد في حاجة ما إلى الاستدانة ، واستدان ليقتنى الأطيان والعقار .

استدان القرض الأول في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٦٤ من بيت فروهلينج وجوشن Fruhling and Goschen الإنجليزي ، وقيمته ٥,٧٠٤,٢٠٠ جنيه إنجليزي بفائدة ٧ في المائة لمدة ١٥ سنة ، وبلغت الفائدة الحقيقية مع الاستهلاك ١٢ ٪ ، وهي كما ترى فائدة فاحشة ، ولذلك لقي القرض إقبالا عظيماً من المكتتبين في سندات ، وقد رهنّت ضرائب الأطيان بمديريات الدقهلية والشرقية والبحيرة لسداد أقساطه .

(٢) تاريخ مصر المالي ص ١٨ و ١٩ .

(٣) كشف الستار عن أسرار مصر لمدام أولب إدوار ص ٤٩ .

٢ - قرض سنة ١٨٦٥

(٣,٣٨٧,٣٠٠ جنيه)

لم يتفق إسماعيل شيئاً يذكر من قرض سنة ١٨٦٤ على مرافق البلاد العامة ، بل أنفق معظمه على توسيع دائرة أطيانه وأملاكه ، واشترى في ذلك الحين قصر (ميركون) على ضفاف البوسفور ، ليتخذ موقراً له عندما يتزل الآستانة ، ولم يكن لولاية مصر قصور خاصة بهذه المدينة يتزلون بها من قبل ، ولكن إسماعيل رأى من إستكمال مظاهر البذخ أن يكون له قصر فخم لا يقل بهاء ورواء عن قصور السلاطين ، فابتاع ذلك القصر وأنفق المبالغ الطائلة في توسيعه وزخرفته .

وفي ذلك العهد بدأ ينشئ القصور الفخمة في مصر ، فشرع في إقامة سراى الجزيرة المشهورة ، وكان التصميم على أن تكون داراً أنيقة ، ثم اتسعت فصارت قصراً فخماً ، وتعددت المباني حولها ، ومدت الطرق الجميلة بين الجزيرة والجزيرة ، وأنفقت الأموال جزافاً في سبيل إنشائها .

فهذه النفقات الباهظة جعلت إسماعيل يفكر في قرض آخر ، ولما تمضي ثمانية أشهر على القرض الأول .

وليس من خير أن يبتنى ولي الأمر ما شاء من القصور والساريات ، ولكن إذا كانت مالية البلاد لا تسمح بنفقات تلك المباني ، ولا سبيل إلى إقامتها إلا من القروض ، فلا تسوغ الاستدانة لهذا الغرض ، لأنه لا يجوز أن تقرض حكومة رشيدة قرضاً ما لا ينفق قيمته على مثل هذه الكماليات .

وقد جد سبب آخر دعا إسماعيل إلى عقد القرض الثاني ، وهو الأزمة المالية التي عقت هبوط أسعار القطن ، ذلك أن انتهاء الحرب الأمريكية الأهلية في أوائل سنة ١٨٦٥ فتح الأسواق أمام القطن الأمريكى ، فتراجعت أسعار القطن المصرى إلى مستواها القديم ، وقد حل الضيق بالأهالى من الفلاحين والملاك ، لأنهم اعتادوا أثناء ارتفاع أسعار القطن أن ينفقوا عن سعة ويستدينوا المال بفوائد فاحشة من المرابين^(٤) ، على أمل سداده من ثمن القطن في

(٤) ذكر مؤلف تاريخ مصر المالى ص ٣٣ أن الفائدة كانت من ٣ إلى ٤٪ في الشهر الواحد أى بواقع ٣٦٪ و ٤٨٪ في السنة ، وهذا من أفحش ما سمع عن القوائد الربوية .

الموسم المقبل (كما حدث سنة ١٩١٩ ، والتاريخ يعيد نفسه) ، فلما هبطت أسعار القطن وقعوا في أزمة شديدة عرفت بأزمة سنة ١٨٦٥ ، ولم يدروا كيف يوفون ديونهم ، فاعترم إسماعيل أن تتدخل الحكومة في هذه الأزمة ، فحصرت ديون الأهالي وسددتها عنهم للدائنين والمرابين ، على أن ترجع بها على المدينتين مقسطة على سبع سنوات بفائدة ٧ ٪ ونخصص لهذه العملية ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيه .

والفكرة في ذاتها فكرة حكيمة ، تدل على عطف إسماعيل على الشعب ، ولكن اقترانها باستدانة قرض جديد من الخارج يفقدها بهاءها ، ولا شك في أن إسماعيل لو اتبع التدبير والاقتصاد ، لما كانت الحكومة في حاجة إلى هذا القرض الجديد ، ولا الذي سبقه ، فضلاً عن الديون السائرة التي لم يكن يعرف مقدارها ، وهي الديون التي كان الخديو يقترضها بسندات على الخزنة كما سيجيء بيانه .

اقترض إسماعيل قرض سنة ١٨٦٥ من بنك الأنجلو ، وقدره ٣,٣٨٧,٣٠٠ ج ، ولم يقبض منه سوى ٣,٠٠٠,٠٠٠ ج ، ورهن في مقابله ٣٦٥,٠٠٠ فدان من أملاكه ، ويسمى هذا الدين قرض (الدائرة السنية الأول) .

٣ - قرض سنة ١٨٦٦

(٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه)

هو القرض الذي استدانه إسماعيل من بنك أوبنهايم في ٥ يناير سنة ١٨٦٦ ، وقدره ٣,٠٠٠,٠٠٠ ج ، ورهن في مقابلة إيرادات السكك الحديدية (٥) .

وقد جرت المفاوضات بشأن هذا القرض أثناء مفاوضات القرض السابق ، وهذا من أغرب ما سمع في معرض التبذير وقصر النظر ، وكان قرض أوبنهايم هو الأسبق ، لكن المفاوضات بشأنه طالّت ، فلم يطق إسماعيل صبراً ، واستدان من بنك الأنجلو القرض السابق ، ثم تمت المفاوضات الخاصة بقرض أوبنهايم ، فأتم صفقته أيضاً .

واستدان إسماعيل في تلك السنة أيضاً دينين آخرين من الديون السائرة ، ولم يكن في حاجة إلى هذه القروض ، ولكنه أنفقها على بناء قصوره ، ودفع ثمنها ثمن أملاك الأميرين .

مصطفى فاضل ومحمد عبد الحليم ، فقد كان ميالا إلى الاستكثار من الأملاك بكل الوسائل كما أسلفنا ، وامتدت أطماعه إلى تجريد الأميرين المذكورين من أملاكهما بالقطر المصري ، وكان يحقد عليهما لمنافستهما إياه على العرش ، واشتد عداؤه لهما لمقاومتها إياه في تغيير نظام التوارث ، وقد أسلفنا أن إسماعيل حصل على فرمان مايو سنة ١٨٦٦ الذي جعل وراثته العرش في بكر ابنائه (ج ١ ص ٧٣) .

ومن قرض سنة ١٨٦٦ والديون السائرة أدى الرشوة التي بذلها للسلطان ولحكام الآستانة للحصول على هذا فرمان ، وقد بلغت هذه الرشوة ثلاثة ملايين جنيه تقريباً ، ودفع ثمن أملاك الأميرين مصطفى فاضل ومحمد عبد الحليم ، فاشترى أملاك الأمير مصطفى فاضل في نوفمبر سنة ١٨٦٦ بثمن بلغ ٢,٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، مقسماً على خمس عشرة سنة وبلغت السمسرة في هذه الصفقة ٨٠ ألف جنيه .

واشترى أملاك الأمير محمد عبد الحليم بثمن مقداره ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه تسلم منه البائع ٣٠٠,٠٠٠ جنيه سندات على الدائرة السنوية بضمانة الحكومة ، وتعهد بأداء القرض الذي استدانته الأمير من قبل ^(٦) .

فترى مما تقدم أن هذه القروض ضاعت فيما لا ينفع البلاد ، لأن تغيير نظام توارث العرش مسألة شخصية لإسماعيل ، وكذلك شراء أملاك أخيه وعمه ، فكان إسماعيل اقترض هذه الديون لكي تتسع أملاكه ، وتحقيقاً لأطماع شخصية ، وإرضاء لحزازات عائلية لا شأن للبلاد فيها .

٤ - قرض سنة ١٨٦٧

(٢,٨٠٠,٠٠٠ جنيه)

اقترض إسماعيل سنة ١٨٦٧ قرضاً جديداً قيمته ٢,٨٠٠,٠٠٠ جنيه ، ولم يعرف سبب

(٦) تاريخ مصر المال ص ٤٤ ، والمعروف أن الخديو اشترى أطيان الأمير محمد عبد الحليم وحقوقه وما يحتمل أن يؤول له بالإرث وألا يرجع للقطر المصري بمقتضى حجج ، إحداهما في ١٤ أبريل سنة ١٨٦٦ ، والثانية في ١١ يولية سنة ١٨٧٠ ، وبمقتضى الحجة الأخيرة تعهد الخديو والخزانة المصرية بالتضامن أن يدفعاً للأمير كل سنة ٦٠,٠٠٠ جنيه لمدة أربعين سنة متوالية ، بشرط أن يتسلم من خزانة مصر ثمانين سنداً على المالية ، قيمة كل سند ٣٠,٠٠٠ جنيه ، وهي المسماة (بونات حلیم باشا) ومجموع ذلك ٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه .

ظاهر لهذا القرض ، واختلفت الآراء في تعليله ، ولكن التعليل الصحيح أن الخديو علاوة على القروض السابقة كان لا يفتأ يستدين ديوناً سائرة من المرابين الأجانب المقيمين في مصر ، ولم يكن لهذه الديون حساب ظاهر ولا حد معلوم ، وكل ما عرف عنها أنها كانت ذات فوائد فاحشة جداً ، وكان العمل في ذلك الحين قائماً على قدم وساق لتجديد حديقة الأزيكية ، وبناء دار التمثيل ، ومضمار لسباق الخيل ، وبناء قصور عابدين والقبة والزعفران والجيزة والقصر العالى وسراى مصطفى باشا برمل الإسكندرية ، فكل هذه المباني كان ينفق عليها من الديون ثابتة كانت أو سائرة ، لأن ميزانية الحكومة ما كانت تسمح بإقامتها .

وقد بلغت الديون السائرة إلى ذلك الحين نحو عشر ملايين جنيه ، وهو مبلغ باهظ يثقل كاهل الخزانة ، وفوائده تبتلع جزءاً كبيراً من الإيراد ، فتذرع الخديو إلى عقد قرض سنة ١٨٦٧ برغبته في سداد فوائد هذه الديون التي لا يعرف لها أول ولا آخر ، وفي تحويل الديون السائرة جميعاً إلى دين ثابت ، على أن الديون وفوائدها بقيت كما كانت ، فلا سددت وفوائدها ، ولا تم تحويلها .

ظهور إسماعيل باشا صديق (المفتش)

(سنة ١٨٦٩)

إذا تأملت في القروض السابقة ، وجدت أنها قروض كمالية كانت البلاد في غنى عنها ، لأنها أنفقت في الجملة فيما لا يهم مصالح البلاد الحيوية ، ولكنك إذا قارنتها بالقروض اللاحقة لها تجدها أقل منها مقداراً وأخف عبئاً .

ذلك إنه حدث في سنة ١٨٦٨ حادث مالى كان له شأن كبير في زيادة القروض ، والمخدار مالية البلاد إلى الهاوية ، وهو إسناد وزارة المالية إلى إسماعيل صديق باشا المشهور (بالمفتش) . كان وزير المالية سنة ١٨٦٨ إسماعيل راغب باشا ، فعزله الخديو بحجة عدم خبرته في المسائل المالية ، وعين مكانه إسماعيل صديق باشا المعروف بالمفتش ، فكان هذا الرجل في ذاته من الكوارث التي حلت بمصر في عهد إسماعيل .

نشأ إسماعيل صديق نشأة بؤس وعوز ، ثم صار موظفاً في الدائرة السنية ، ولكنه نال عطف الخديو لأنه أخوه من الرضاعة ، فما زال يرقى حتى نال رتبة الباشوية ، وبلغ منصب

مفتش عموم الأقاليم ، ومن هنا جاء لقبه (المفتش) الذى لازمه وصار علماً له ، فلما عزل الخديو راغب باشا عين مكانه إسماعيل صديق ، فتسلم خزائن مصر ، وظل يتصرف فيها نحو ثمانى سنوات طوال ، إلى أن لقي مصرعه فى نوفمبر سنة ١٨٧٦ ، وهذه السنوات المشثومة هى التى جرت الخراب المالى على البلاد ، وهى أتعس فترة فى تاريخ مصر الحالى .

بقى المفتش متقلداً وزارة المالية طول هذه المدة ، اللهم إلا فترة وجيزة تولاهما عمر باشا لطفى سنة ١٨٧٣ ، ثم عادت إلى المفتش ثانية ، وظل طوال هذه السنين حائراً لرضا الخديو وعطفه ، وقد كسب هذا الرضا لافتتانه فى جمع المال من القروض ، أو من إرهاب الأهلى بمختلف أنواع الضرائب ، فكان الخديو يجد ما يطلبه من المال كلما أراد ، وكما هو أيضاً يقطع نصيبه فى الغنمة ، أثرى إثراء فاحشاً ، وقلد مولاه فى عيشة البذخ والإسراف والاستكثار من القصور والأماكن والجوارى والحظايا ، وإليه يرجع السبب فى استدانة الحكومة نحو ثمانين مليون جنيه ضاع معظمها سدى ، أو ذهبت إلى جيوب الأجانب ، وكان لنيله رضا الخديو حائراً سلطة واسعة المدى فى إدارة شؤون الحكومة ، وصاحب الأمر والنهى بين الموظفين وغيرهم ، فكان بلا مرأى أقوى رجال الدولة نفوذاً فى مصر بعد الخديو .

وسرى فى ما يلى مبلغ تأثير اصطفاء الخديو لمثل إسماعيل صديق فى تضخم الديون وتبديد الملايين من الجنيهات حتى وصلت البلاد إلى حالة الإفلاس .

٥ - قروض سنة ١٨٦٨

(١١,٨٩٠,٠٠٠ جنيه)

اشترك الخديو فى المعرض العام الذى أقيم بباريس سنة ١٨٦٧ ، وظهر فيه بمظهر فخم يأخذ بالألباب ، فأنفق فى هذا السبيل وفى رحلته بباريس ملايين الجنيهات ، وغرضه من هذا الإسراف هو الظهور بمظهر العظمة واجتذاب ثقة البيوت المالية الأجنبية لتقرضه من جديد ، وضاع من قبل جانب من هذه الملايين فى الرشا والهدايا التى بذلها فى الآستانة ليحصل على لقب (خديو) ، وقد نال فرمان الذى منحه هذا اللقب فى ٨ يونيه سنة ١٨٦٧ (ج ١ ص ٧٦) .

فلهذه الأسباب خلت خزانة الحكومة من المال ، ولجأ الخديو إلى الاستدانة من جديد .

واقترض فعلا سنة ١٨٦٨ قرضاً جديداً قدره ١١,٨٩٠,٠٠٠ جنيه من بنك أوبنهايم^(٧) .
وحقيقة هذا القرض ، أى صافي ما دخل منه خزانة الحكومة ٧,١٩٥,٣٨٤ جنيه ، أى
أن سعر القرض ٦١ في المائة ، فحلت بالخزانة خسارة فادحة من شروط هذا القرض ،
وخصص لسداد أقساطه السنوية إيرادات الجمارك وعوائد الكبارى وإيراد المصلح (الملح)
ومصايد الأسماك ، وقدر دخل هذه الموارد بمليون جنيه في السنة ، وكان من شروط هذا
القرض أن يكف الخديو عن الاستدانة مدة خمس سنوات .
أنفق إسماعيل نحو مليونين من هذا القرض في الآستانة على حفلات وولائم ورشا للسلطان
ولرجال الماين .

وأنفق جزءاً منه في إتمام بناء قصوره في عابدين والقبة والعباسية والجيزة وسراى مصطفى
باشا بالإسكندرية وتأثيثها بفاخر الأثاث والرياش ، ومن هذا القرض أيضاً أنفق النفقات
الباهظة على حفلات افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، وقد بلغت مليوناً ونصف مليون جنيه
تقريباً .

فانظر كيف أن نفقات تلك الحفلات كانت من القرض ، فكان الخديو في هذا الموقف
شبيها ببعض الدوات والأعيان في الاستدانة للإنفاق على إقامة الحفلات والولائم ، والظهور
بمظهر الفخفة والبذخ ، أمام قوم ليس في قلوبهم ذرة من الإخلاص لمضيفهم ، فإن ضيوف
القناة ومعظمهم من ذوى الرؤوس المتوجة ، وأصحاب النفوذ والسلطان المالى والسياسى فى
أوروبا ، هم الذين استعبدوا مصر بعد انتهاء تلك الحفلات ، وهم الذين ضربوا عليها الوصاية
المالية الشديدة الوطأة .

أحدثت نفقات حفلات القناة فراغاً كبيراً في الخزنة ، وبدأت مظاهر الضيق والارتباك
تبدو على وزارة المالية ، لقرب المواعيد المضروبة لأداء أقساط الديون ، ولم يكن فى خزائنها
ما يفي بذلك ، فاضطر الخديو تفريجاً للضائقة ، وكتماً لأسرارها ، أن يستدين من أحد معارفه
٣٠٠,٠٠٠ جنيه ، وقبلت وزارة المالية أن تخضم البنوك سنداتاً بفائدة ١٤ في المائة لمدة ثلاثة
أشهر ، ويدهى أن قبول هذه الشروط القاسية دليل على ما وصلت إليه الحالة من الضيق
والإعسار .

وكان الدين السائر يزداد يوماً بعد يوم ، بسبب حاجة الحكومة إلى المال ، حتى بلغ

١٢ مليوناً جنيهه في أواخر عام ١٨٦٩ ، أى بعد انتهاء حفلات القناة ، وهو مبلغ فادح تنوء به ميزانية البلاد .

فتأمل فيما جرّت حفلات القناة على البلاد من فادح الأضرار ، ومع أن الخديو كان قد وعد أن ينفق على هذه الحفلات من ماله الخاص ، إكباراً لشأنها ، فإن البلاد وحدها هي التي احتملت نفقاتها .

قال مؤلف (تاريخ مصر المالي) في كتابه ص ٩٥ : « إن بهر هذه الحفلات قد أنسى الناس إلى وقت ما أخطار الحالة المالية ، ولكن لم تكن تنطقى شعلة الحماسة التي أثارها ، حتى بدأ الناس يشعرون بأن هذه الأخطار آخذة في ازدياد ، وأن هذه الحفلات ذاتها لم تكن إلا سلسلة متصلة الحلقات من أعمال جنونية لا فائدة منها ، فإن البلاد لم تنل أى فائدة مقابل النفقات الفادحة التي بذلت فيها » .

أما الخديو إسماعيل فإنه لم يظن إلى الأخطار التي استهدفت لها البلاد ، ومن المؤلم أن حفلات القناة قد زادت غروراً وإمعاناً في عدم التبصر ، فاستمر ينحدر في طريق الإسراف والاستدانة .

الحصول على المال باستعمال الحيلة

لم تكد تنتهى حفلات القناة حتى أخذ معين المال ينضب في الخزانة ، وكان إسماعيل مقيداً بما اشترطه في القرض السابق ، وهو عدم الاقتراض لمدة خمس سنوات ، فضلاً عن أنه خرج من حفلات القناة وقد ألقى في روع ضيوفه الأوروبيين أن خزائن مصر تفيض بالمال ، وفي الواقع أن مظاهر هذه الحفلات وما أنفق عليها من الملايين ، لا تدع مجالاً للشك في ذلك ، فلم يجد من اللائق ولا من السائغ أن يمد يده إلى البيوت المالية ويطلب قرضاً جديداً . ولكنه كان في حاجة إلى المال ، فابتكر له وزيره المفتش طريقة خطيرة اتبعها في صيف سنة ١٨٦٩ ، وهي أنه باع إلى التجار الإفرنج مقادير كبيرة من بذرة القطن ، تربي على خمسمائة ألف أردب ، قبض ثمنها نقداً ، ووعد بتسليمها بعد خمسة أشهر ، أى بعد جني محصول القطن الجديد .

ولما انقضى الميعاد اتضح أن الحكومة باعت ما لديها من محصول القطن مرة ثانية وقبضت

ثمنه ، وقد سويت هذه الفضيحة بأن طلبت الحكومة من التجار أن يبيعوها بسعر ٧٨ قرشاً ما اشتروه منها بسعر ٧١ ، واتفقوا على أن تدفع لهم القيمة إفادات مالية تسرى عليها فوائد ١٢ ٪ سنوياً ، أى أن ربحهم بلغ ١٨ ٪ سنوياً .

وتكررت هذه العملية غير مرة في سنوات عدة ، فقد تبين للجنة التحقيق الأوروبية سنة ١٨٧٨ أن الحكومة كانت تبيع للتجار الأجانب غلالاً ليست في حوزتها ولا يتظر أن تحوزها ، وتتسلم الثمن فوراً ، فإذا جاء موعد تسليم الغلال اشترتها من ذات التاجر الذى باعته إياها ودفعت ثمنها أوراقاً وسندات على الخزنة ، مع فوائد لا تقل عن ١٨ ٪ أو ٢٠ في المائة ، ولا تحتسب الفوائد على المبلغ الأصيل الذى أخذته من التاجر ، بل على المبلغ التالى المقدر ثمناً لغلاله ، وناهيك بما يصيب الحكومة من جراء هذه العمليات من الخسائر الفادحة .

٦ - قرض سنة ١٨٧٠ (دين الدائرة السنية)

(٧,١٤٢,٨٦٠ جنية)

كان إسماعيل مقيداً بعدم الاقتراض طبقاً لشروط سلفة سنة ١٨٦٨ ، ومن جهة أخرى فقد لفتت القروض وضخامتها أنظار الباب العالى ، فحاول وضع حد لها ، فحظر على الخديو بمقتضى فرمان سنة ١٨٦٩ أن يقترض إلا بإذنه ، ولكن إسماعيل كان يريد الاقتراض بأية وسيلة ، فلم ير بداً من أن يعقد قرضاً لحسابه الخاص .

فاستدان في أبريل سنة ١٨٧٠ من البنك الفرنساوى المصرى ٧,١٤٢,٨٦٠ ج ، بفائدة ٧ ٪ بضمانة أطيانه الخاصة ، عدا الأطيان التى رهنها سابقاً ، ولذلك سمي هذا القرض قرض الدائرة السنية الثانى ، وصدر بواقع ٦٧ في المائة ، بعد استبعاد السفرة والعمولة والمتعة ^(٨) ، فكانت النتيجة أنه لم يدخل منه إلى خزائن الخديو سوى ٥,٠٠٠,٠٠٠ جنية ، ولكنه يسدد على القيمة الاسمية وهى ٧,١٤٢,٨٦٠ جنية في عشرين سنة ، وبلغ العبء الذى احتملته الدائرة السنية سنوياً لأداء هذا الدين ٦٦٨,٩٦٠ جنية أى ١٣ في المائة تقريباً من رأس المال المدفوع .

وكانت حجة إسماعيل التى تدرع بها لعقد هذا القرض أنه احتاج إليه لإنشاء مصانع السكر

(٨) تاريخ مصر المالى ص ١٠٥ .

ومد سكك الحديد الزراعية لأطيانه التي خصصها لزراعة القصب ، وقد أنشئت المصانع فعلاً ، ولكنها استلزمت من النفقات أضعاف ما تستحقه ، فضلاً عن أن أرباحها تقل عن فوائد الدين ، ومن جهة أخرى فليس من الحكمة اقتراض دين جسيم بهذا المقدار لإنشاء مصانع في الوقت الذي تنوء فيه الخزنة بالقروض السابقة .

٧ - الديون السائرة

(٢٥ مليون جنيه)

الدين الثابت أو المنتظم هو القرض الذي يحصل الاكتاب فيه بواسطة أحد البنوك بفائدة مقررة ، ويسدد في مواعيد محدودة بتأمين معين أو ضمانات معينة ، وبشرط إتمام استهلاكه في مدة معينة .

أما الدين السائر فهو الذي ينشأ عن الاستجارات والمعاملات المدنية ، والمشتريات والتوصيات ، ويشمل نوعاً آخر من الدين ، وهو ما يعرف بالإفادات أو البونات (الأذون) المالية ، أو بونات الرزنامة ، أو بونات الدائرة السنية ، والبونات عبارة عن كمبيالات تكتب بقيم مختلفة مسحوبة على الدواوين المتقدمة تحت الإذن ، موقعاً عليها من وزير المالية ، أو من يفوضه الوزير بالتوقيع ، وتستحق الوفاء في الميعاد الموضح بها ، وكانت هذه البونات تودع بالخزائن ، فيأبى الراغبون ويطلبون شراءها ، وبعد مساومتهم على سعر الفائدة والاتفاق معهم عليها يدفعون صافي قيمتها للخزانة ويتسلمون الكمبيالات ، ويتجرون بها ، وعند حلول موعد الدفع يقدمونها للخزانة ويأخذون قيمتها ، ولم يكن للديون السائرة حساب معروف ، بل كان الخديو كلما احتاج إلى المال استدان ما تصل إليه يده من المرابين الأجانب المقيمين بمصر ، وقد اختلفت الآراء في تقديرها لأنه لا سبيل لحصرها .

فمؤلف (تاريخ مصر المالي) يقدرها سنة ١٨٧٤ بـ ٢٦ مليون جنيه ، وقدرها بعضهم بـ ٢٨ مليون جنيه ، وجاء في (الوقائع المصرية)^(٩) أنها بلغت (سنة ١٨٧٣) ٢٥ مليون جنيه ، وهو الإحصاء الذي اعتمدناه .

أما فوائد الديون السائرة ، فلم يكن لها حساب معلوم ، فالسيو جليون دنجلار يقول في

(٩) العدد ٥٠١ - أول أبريل سنة ١٨٧٣ .

رسائله^(١٠) إن الدائرة الخاصة وهى دائرة الخديو إسماعيل كانت تقرض بفائدة ٢٠ ٪ و ٢٤ ٪ فى السنة ، وأن الحالة المالية فى السنة التى كتب فيها رسائله (عام ١٨٦٧) كانت سيئة لدرجة أن الموظفين لم تدفع لهم رواتبهم مدة ثمانية أشهر .

الحالة المالية سنة ١٨٧٠

رأيت مما تقدم مبلغ ما بهظ كاهل الخزنة العامة من القروض المتتابعة التى عقدها إسماعيل ، ومقدار الارتباك الذى وقعت فيه الحكومة وأوصلها إلى حالة سيئة من فقدان التوازن .

على أن هذه الحالة ، لو عولجت بالحكمة وحسن التدبير ، لأمكن إنقاذ البلاد من الكوارث المالية التى وقعت من بعد ، فلو وضع إسماعيل حداً لإسرافه وأهوائه ، لسار بالبلاد فى طريق مأمون ، وأمكنه مع الزمن إعادة التوازن إلى مالية الحكومة ، ولكنه على العكس استمر فى خطته ، وتلت القروض قروض ، حتى فقدت البلاد استقلالها المالى . ويؤكد مؤلف (تاريخ مصر المالى) أنه كان يمكن فى سنة ١٨٧٠ تلافى الحالة إذا عدل إسماعيل عن خطته وتنكب سبيل الإسراف الذى جعله يقرض فى أقل من سبع سنوات مبالغ تربى على ثلاثة وثلاثين مليون جنيه ، على حين كانت البلاد فى حالة رخاء وسلم لا تستدعى هذه القروض^(١١) .

ولكن من عيوب إسماعيل أنه كان من الناحية المالية لا ينظر فى العواقب ، ولا يحفل إلا بيومه . ومن هنا جاءت أخطاؤه التى أودت بعرشه وتصعد لها بناء الاستقلال ، وفى كل القروض التى استدانها لم يكن يبحث مطلقاً كيف يؤديها ، بل كل ما يشغله أن يبحث كيف يقرض . وكيف يحصل على المال ، ويدع ما عدا ذلك من غير بحث أو تفكير .

ومما جعل إسماعيل يتأدى فى الإسراف والاستدان أنه لم تكن فى البلاد هيئات نيابية تراقب تصرفات الحكومة ، وتحاسبها على الأموال التى تبدها ، أما مجلس شورى النواب فكان يكتفى بالبيانات الملفقة أو المبهمة التى يقدمها وزير المالية إسماعيل باشا صديق فى كل انعقاد ، ولم

(١٠) رسائل عن مصر ص ٦٦ .

(١١) تاريخ مصر المالى ص ١١٠ .

يكن بالمجلس شعور بالمسئولية يدفع أعضائه إلى الاعتراض على سياسة الحكومة المالية ، وما جرته من الخراب على البلاد ، وكذلك لم يوجد من بين بطانة إسماعيل من كان يعترض إعتراضاً جدياً على تلك السياسة ، أو يبصر الخديو بعواقبها الوخيمة ، ولو وجدت حكومة مسئولة أمام هيئة نيابية صحيحة لما استمر الخديو وحاشيته على هذه السياسة المحزنة .

٨ - قانون المقابلة

(٣٠ أغسطس سنة ١٨٧١)

في سنة ١٨٧٠ نشبت الحرب بين فرنسا وألمانيا ، وهى الحرب المشهورة بالحرب السبعينية ، فاضطربت الأسواق في أوروبا ، وقبضت البيوت المالية يدها عن الإقراض ، وكان الخديو في حاجة إلى المال ، فعمد وزير ماليته إلى زيادة الضرائب ، ولكن هذا المعين لم يف بطلباته ، فابتدع المفتش طريقة تعد بمنزلة قرض إجبارى يحى من الأهالى ، أو ضريبة جديدة تفرض على أطيانهم ، وصدر بها القانون المشهور بلائحة المقابلة في ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧١ (١٢) . يقضى هذا القانون بأنه إذا دفع ملاك الأطيان الضرائب المربوطة على أطيانهم لمدة ست سنوات مقدماً تعفى الحكومة أطيانهم على الدوام من نصف المربوط عليها (مادة ٣) ، ولكى يحصلوا على هذه الميزة يدفعون ضرائب السنوات الست دفعة واحدة أو على أقساط متتابعة ، لا تزيد مدتها عن ست سنوات ، علاوة على الضريبة السنوية ، وتحسب لهم فوائد عما يدفعونه مقدماً بواقع $8\frac{1}{4}\%$ (مادة ٤) .

وأساس هذا المشروع على حسابان إسماعيل صديق أن الدين العام يبلغ ضعف الضرائب العقارية عن ست سنوات ، فإذا دفع الأهالى الضرائب مضاعفة عن هذه السنوات الست ، سدد الدين كله ، وفى مقابل ذلك تعفيهم الحكومة إلى الأبد من نصف الضريبة المربوطة على أطيانهم وتعهدت الحكومة في هذا القانون (مادة ٣ ومادة ٢٠) بأن من يدفعون المقابلة لا يزداد سعر الضريبة على أطيانهم في المستقبل ، ولا يجوز مطالبتهم بسلفة ولو مؤقتة ، وقضت المادة ٢٩ بأنه لا يجوز لناظر المالية بعد الحصول على المبالغ المطلوبة إصدار سندات على الخزنة

(١٢) الوقائع المصرية العدد ٤٢٥ (٢٦ سبتمبر سنة ١٨٧١) والأعداد التالية ، ونجد نص القانون أيضاً في قاموس جلال

ج ٣ ص ٦٢٥ (طبعة سنة ١٩٠٠) .

أو استدانة ديون جديدة ، ولا تجوز المطالبة بسلف مؤقتة ولو تحت تأثير قوة القاهرة كشرق أو غرق إلا بعد التصديق على ذلك من مجلس النواب (مادة ٣٨) ، وحتمت المادة ٤٣ أن تخصص المبالغ المدفوعة من المقابلة لسداد ديون الحكومة .

جعل هذا القانون دفع المقابلة اختيارياً ، ولكن الحكومة لجأت في تنفيذه إلى التوريط بالنسبة للباشوات وكبار الأعيان ، وإلى الضغط والإكراه والضرب بالكرباج بالنسبة لسائر الأهلين ، ولولا الإكراه لما ارتضى الناس المخاطرة بأموالهم ، لأنهم يعلمون مبلغ عهود الحكومة ، وخاصة في المسائل المالية ، فهم لم يدفعوا المقابلة إلا مكرهين ، فكانت ضريبة جديدة أو سلفة إجبارية زادتهم إرهاباً وضنكاً .

وقد استطاعت الحكومة أن تجبى من هذه الضريبة خمسة ملايين من الجنيهات لغاية آخر سنة ١٨٧١ ، وبلغ مجموع ما جبته منها نيفاً وثلاثة عشر مليون جنيه ونصفاً لغاية سنة ١٨٧٧ (١٣) .

وغنى عن البيان أنه لم يدفع شئ من هذه الملايين في الدين العام ، ثابتاً كان أو سائراً ؛ بل ابتلعها هاوية الإسراف التي ابتلعت القروض الأخرى ، وعلاوة على ذلك فإن وزير المالية نقض عهده الذي أعلنه في الوثائق المصرية (١٤) ووعد فيه بامتناع الحكومة عن إخراج بونات (سندات) على الخزنة ، فإنه رغم هذا العهد أصدر إفادات مالية استدان بها عدة ملايين أخرى بلغت اثني عشر مليون جنيه ، كما يقدرها مؤلف (تاريخ مصر المالي) (١٥) ، ونقضت الحكومة عهدها أيضاً فزادت الضرائب على ذات الأطيان التي دفعت المقابلة .

وقد وقف العمل بقانون المقابلة مؤقتاً بالمرسوم الصادر بتوحيد الديون (٧ مايو سنة ١٨٧٦) ووعدت الحكومة برد المبالغ التي حصلت من أصحاب الأطيان أو تخفيض الضريبة عنهم تخفيضاً يناسب قيمة هذه المبالغ ، على أن مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ أعاد العمل بالمقابلة ، واحتسبها ضمن إيرادات الحكومة ، وخصصها لاستهلاك الدين العام .

كانت « المقابلة » طريقة معوجة في الاستدانة ، لأنه معلوم أن معظم إيرادات الحكومة السنوية في بلاد زراعية كمصر تجبى من الضرائب على الأطيان ، فإنقاص نصف المربوط من

(١٣) تقرير وزير المالية المقدم في يناير سنة ١٨٨٠ تمهيداً لإلغاء قانون المقابلة . قاموس الإدارة والقضاء ج ١ ص ٦٦٩ .

(١٤) العدد ٤٢٨ (١٢ أكتوبر سنة ١٨٧١) .

(١٥) ص ١٤١ .

الضرائب إلى الأبد في مقابل سداد ضعف الضريبة مقدماً عن ست سنوات يؤدي إلى نضوب معين المال بعد إنتهاء السنوات الست ، وهذا يوقع الحكومة في الضيق المالى الشديد ، وليس من القواعد الاقتصادية الصحيحة تقييد الحكومة بعدم زيادة سعر الضريبة ، لأن الضرائب تتبع الحالة المالية العامة ، فتزيد وتنقص بحسب تطور الأحوال ، هذا فضلاً عن أن الحكمة التي تذرعت بها الحكومة لوضع قانون المقابلة وهى وفاء الدين العام لم تتحقق البتة ولم يسدد شىء من هذا الدين ، بل زاد عما كان عليه ، فكان المقابلة كانت وسيلة لاقتناص الأموال من الأهلين وتبديدها .

وقد ألغيت هذه الضريبة بمقتضى المرسوم الذى أصدره الخديو توفيق باشا فى ٦ يناير سنة ١٨٨٠ ، وقضى قانون التصفية الصادر فى ١٧ يولييه سنة ١٨٨٠ بأن ما دفع منها يخصم منه ما عسء يكون مطلوباً للحكومة من متأخرات الأموال أو الديون أو غيرها ، والباقي يرد إلى أصحابه مقسطاً على خمسين سنة ، وخصص لهذه الأقساط كل سنة ١٥٠,٠٠٠ جنيه .

٩ - القرض المشئوم سنة ١٨٧٣

(٣٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه)

انتظر إسماعيل بفارغ الصبر إنتهاء السنوات الخمس التى حظرفيها على نفسه عقد قروض جديدة تنفيذاً لشروط سلفة سنة ١٨٦٨ ، وسعى جهده فى الآستانة وبذل فيها الأموال الطائلة من الرشا والهدايا ليلغى فرمان سنة ١٨٦٩ ويحصل على فرمان الذى يبيح له الاقتراض من غير حاجة إلى إذن الحكومة التركية ، فناله فى سنة ١٨٧٢ (ج ١ ص ٧٩) .

فلم تكد تنتهى هذه المدة ويشعر إسماعيل بفك اعتقاله من هذا القيد ، حتى عقد قرضاً جديداً من بيت أوينهام المالى قدره ٣٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، وهو أكبر القروض من جهة القيمة وأسوؤها من جهة الشروط ، وقد دعاها المليون « القرض الكبير » ، وهو حقيق بأن يسمى « القرض المشئوم » .

وكانت حجته فى هذا القرض أنه اعترم سداد الديون السائرة ، ولكنه فى الواقع لم يخصص شيئاً منه لهذه الغاية ، وبقيت الديون السائرة كما كانت .

عقد هذا القرض بفائدة ٧٪ وقيمة سنداته ١/٨٤ فى المائة ، وبلغ ما دخل الخزانة منه بعد

استبعاد النفقات والخصم والسمسرة ٢٠,٧٤٠,٠٧٧ جنيه ، أى بنقص ٣٧٪ من قيمة الدين الاسمية ، فخسرت الحكومة من أصل القرض نيافاً وأحد عشر مليون جنيه ، فى حين أنها التزمت بقسط سنوى لسدادته يبلغ ٢,٢٦٥,٦٧١ جنيه ، ثم إنها لم تقبض المبلغ نقداً ، بل تسلمت منه فقط أحد عشر مليون جنيه ، والباقى وقدره تسعة ملايين جعلت سندات للخزانة المصرية^(١٦) .

ومن هذا يتبين أن قرضاً ألقى على عاتق البلاد عبثاً جسيماً مقداره اثنان وثلاثون مليون جنيه ، بلغ صافى ما تسلمته الحكومة منه نقداً أحد عشر مليون جنيه فقط ، وليس فى تاريخ القروض ، فى العالم قاطبة ، قرض يعقد بمثل هذه الشروط الجائرة ، بل هذه السرقة العلنية ، كما أنه لا يمكن أن توجد حكومة عندها قليل من الشعور بالمسئولية تقبل التعاقد على مثل هذه الشروط .

وقد رهن إسماعيل لسداد هذا الدين ما بقى من موارد الإيراد التى لم تخصص كلها أوبعضها للقروض السابقة وهى :

أولاً : إيرادات السبك الحديدية وقد قدرت بـ ٧٥٠ ألف جنيه فى السنة .

ثانياً : الضرائب الشخصية والضرائب غير المقررة وقدرها مليون جنيه .

ثالثاً : عوائد الملح وقدرها ٢٠٠,٠٠٠ جنيه .

رابعاً : مليون جنيه من ضريبة المقابلة .

خامساً : كل الموارد التى خصصت للقروض السابقة متى أصبحت حرة^(١٧) .

ومن تهكم الأقدار أن السنة التى عقد فيها إسماعيل هذا القرض المنجوس هى ذات السنة التى نال فيها فرمان سنة ١٨٧٣ الجامع الذى خوله أقصى ما حصل عليه من المزايا ، أوبعبارة أخرى إن إسماعيل قد بلغ أوج نفوذه الرسمى فى علاقته مع تركيا فى الوقت الذى أشرفت فيه البلاد على حالة من الإفلاس أفقدتها استقلالها المالى ثم السياسى .

(١٦) مصر كما هى Egypt as it is للمستر ماك كون Mac Coan ص ١٣٦ ، وتقرير لجنة كيف ص ٣٩٣ .

(١٧) انظر تاريخ مصر المالى ص ١٤٣ ، وتقرير لجنة « كيف » ص ٣٩٦ من كتاب « مصر كما هى » للمستر ماك كون .

الشعور بسوء الحالة المالية سنة ١٨٧٤

تفاقت الديون ، وعجزت الموارد العامة عن أداء أقساطها المتراكمة ، وثقلت وطأتها على الخزانة ، واشتد شعور الخديو بسوء الحالة سنة ١٨٧٤ ، وأدرك أن الدائنين لابد أن يرجعوا يوماً على أملاكه الخاصة من عقار وأطيان ، فبادر إلى التصرف فيها إلى أولاده وزوجاته ، وشغلت المحاكم الشرعية مدى شهرين في تحرير حجج هذه التصرفات وتسجيلها ولم يبق باسمه خاصة سوى مصانع السكر التي كانت مرهونة على قرض سنة ١٨٧٠ ، ونحو مائة ألف فدان .

١٠ - دين الرزنامة

(سنة ١٨٧٤)

احتاج إسماعيل إلى قرض آخر سنة ١٨٧٤ ، فابتدع له المفتش وسيلة جديدة يقترض بها من الأهالي ديناً سمي (دين الرزنامة) .

كانت مصلحة « الرزنامة » تودع فيها رعوس أموال للمستحقين مقابل دفع معاشات لهم ، فابتكر إسماعيل صديق فكرة جديدة ، وهي أن يستثمر الأهالي أموالهم في مصلحة الرزنامة ، بأن يودعوا فيها المدخر من هذه الأموال على أن تستثمرها المصلحة في مشروعات صناعية وتجارية ، وتصدر الرزنامة سندات إيراد دائم بما لا يزيد عن خمسة ملايين من الجنيهات ، على أن تكون المائة فيها مائة ، ويكون ثمن هذه السندات متراوحاً بين جنيهين ونصف وخمسة جنيهات ، وتدفع المصلحة فوائد عنها بحساب ٩٪ .

وقد أوجس الأهلون شراً من هذه الطريقة في ابتزاز أموالهم ، لأنهم عالمون بمصيرها ، ولكن الحكومة لجأت إلى الطريقة التي اتبعتها في تحصيل المقابلة ، فبلغ ما ساهم فيه الأهالي من سندات هذا القرض الإجباري ٣,٣٣٧,٠٠٠ جنيه ، لم يدخل الخزانة منها سوى ١,٨٧٨,٠٠٠ جنيه ، ولم تدفع من فوائدها سوى جزء من فوائد السنة الأولى .

١١ - ما أخذ من بيت المال والأوقاف الخيرية

ولم تكف هذه القروض طلبات الخديو ويطانته ، بل استولوا أيضاً على ما في خزائن بيت المال والأوقاف الخيرية من الأموال المودعة على ذمة الخيرات أو لحساب القصر والأيتام وبلغ ما أخذ من هذا الباب ٥٣٧,٠٠٠ جنيه^(١٨) .

واستمر إسماعيل صديق يستدين بواسطة المالية من المرابين الأجانب ، فيزداد الدين السائر تضخماً .

١٢ - مطلوبات من الحكومة لم تدفع قيمتها لغاية سنة ١٨٧٨

(٦,٢٧٦,٠٠٠ جنيه)

هي ديون حصرتها لجنة التحقيق العليا حين فحصها ديون الحكومة سنة ١٨٧٨ ولم تدخل في الدين العام الذي صارت تسويته في نوفمبر سنة ١٨٧٦ ، وهي مطلوبات لتجار ومقاولين ودوائر ، أورصيد حسابات جارية للبنوك ورواتب متأخرة للموظفين وأرباب المعاشات^(١٩) . وقد حققت لجنة التحقيق هذه المطلوبات فبلغت ٦,٢٧٦,٠٠٠ جنيه^(٢٠) أضيفت إلى الدين السائر .

مقدار ما دخل خزانة الحكومة من القروض

رأيت مما تقدم أن الفائدة الإسمية للقروض كانت تتراوح بين ٦ و ٧٪ ، ولكن فائدتها الحقيقية كانت تصل إلى ١٢ و ١٨ و ٢٦ و ٢٧ في المائة ، وكان الخديو كلما أعوزه المال يستدين

(١٨) إحصاء لجنة التحقيق العليا في تقريرها المقدم إلى الخديو إسماعيل بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٧٨ ص ٦٢ ، ٦٧ (طبعة مورييس) .

(١٩) بلغ للتأخر من رواتب الموظفين والعمال ومن المعاشات ٧٧٣.٨٦٠ ج « إحصاء لجنة التحقيق العليا ص ٥٣ من التقرير المتقدم ذكره » .

(٢٠) ص ٧٨ تقرير لجنة التحقيق .

بفوائد باهظة جالبة للخراب ، وزادت هذه الفوائد الربوية في أواخر سنة ١٨٧٥ وأوائل سنة ١٨٧٦ ، لاضطرار الحكومة إلى أداء أقساط الديون المتراكمة وفوائدها ، فكانت تتحايل للحصول على المال بأية وسيلة ، ومنها الاستدانة بواسطة السندات على الخزنة بفوائد فاحشة ، بالغة ما بلغت ، فكانت سائرة في سبيل الخراب لا محالة .

ولم تكن قيمة القروض تصل كاملة إلى الخزنة ، بل كان أصحاب البيوت المالية والمرابون ينحسمون منها مبالغ طائلة لحساب السمسرة والمصاريف والفوائد ، وما إلى ذلك ، ولم يكن إسماعيل يدقق أو يعارض في الحسابات التي يقدمها له المليون والسماصرة .

فالقرض المشثوم الذي عقد سنة ١٨٧٣ بلغ مقداره الإسمي ٣٢ مليون جنيه لم يدخل منه الخزنة سوى ٢٠,٧٠٠,٠٠٠ جنيه ، منها إحد عشر مليوناً من الجنيهات نقداً ، والتسعة الملايين سندات .

ولم يتسلم من القرض الذي عقده سنة ١٨٧٠ سوى خمسة ملايين فقط ، وكان أصله سبعة ملايين ، وقس على ذلك باقى القروض .

أما الديون السائرة فلم يكن لها ضابط ولا حساب ، وكانت تبلغ ثلاثة أمثال قيمتها الحقيقية ، وفي بعض الأحوال أربعة أمثالها .

وقد أحصى بعض المالىين مقدار ما تسلمه الخديو من القروض فبلغ ٥٤ مليوناً من الجنيهات تقريباً في حين أن قيمتها الرسمية ٩٦ مليوناً .

وقال المسيو جابريل شارم Gabriel Charmes أحد كتاب فرنسا السياسيين ومن محررى جريدة (الدنيا) وقد عاصر إسماعيل ودرس حالة مصر في عهده : « إن إسماعيل باشا قد اقترض في الثمانية عشر عاماً التي تولى الحكم فيها نحو ثلاثة مليارات من الفرنكات (١٢٠ مليون جنيه تقريباً) ، ولكن الواقع أن نصف هذا المبلغ على الأقل بقى في يد المالىين وأصحاب البنوك والمصارين من مختلف الأجناس ممن كانوا يحيطون به على الدوام »^(٢١) وهذا هو الخراب بعينه .

الخلاصة

يتضح مما تقدم بيانه أن القروض شغلت معظم سنى حكم إسماعيل ، وأن الاقتراض كان له عادة سنوية ، لم يكن يقوى على التخلص منها ، ويتبين أيضاً أنه كان يقترض المال بشروط خاسرة ، وأن القروض التى عقدها لم تكن البلاد فى حاجة إليها ، ومعظمها كان الغرض منه سداد الديون السائرة ، وهذه الديون لم تعرف لها حكمة ، ولم ينفق منها على الضرورى من مصالح البلاد سوى التزير اليسير ، وأن ميزانية الحكومة لو حسن تدبيرها كانت تفى بنفقاتها المعتدلة ، وتبقى بأعمال العمران دون حاجة إلى الاستدانة .

وفى ذلك يقول المستر « كيف » الذى عهد إليه إسماعيل فحص مالية مصر سنة ١٨٧٥ : « إن المبالغ الحاصلة من ميزانية مصر عن المدة الواقعة بين سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٧٥ بلغت ٩٤,٨٢١,٤٠٠ جنيه ، وإن مقدار المنصرف فى هذه المدة على نفقات الحكومة وعلى الجزية المدفوعة لتركيا وعلى أعمال العمران بلغ ٩٧,٢٤٠,٩٦٦ جنيه ، ومعنى ذلك أن إيرادات الحكومة أقل بقليل مما اقتضته مصروفاتها وأعمال العمران التى قامت بها ، فالديون الجسيمة الحالية كانت بلا داع أوجب اقتراضها ، فيما عدا ما اقترض لقناة السويس ، وكل المبالغ المقرضة والديون السائرة ضاعت فى سبيل الفوائد الربوية والاستهلاك ، ما عدا المبلغ الذى أنفق على العمل الضخم السابق ذكره » (٢٢) .

وقد استنفدت فوائد الديون معظم دخل الخزانة ، فقد كانت إيرادات الحكومة (سنة ١٨٧٧) ٩,٥٨٩,٠٠٠ ج ، خصص منها لحملة الأسهم نحو ستة ملايين من الجنيهات (٢٣) ، أى أن مخصصات الديون ابتلعت معظم الميزانية ، وظهر فى ميزانية تلك السنة عجز مقداره ١,٣٨٢,٢٠٠ ج (٢٤) ، نشأ عن فداحة مخصصات الديون .

ولا يمكن أن تستقيم شؤون دولة تفقد توازنها المالى بهذه الحالة الخيفة .

(٢٢) تقرير المستر كيف عن مالية مصر سنة ١٨٧٦ المنشور ذيلاً لكتاب (مصر كما هى) للمستر ماك كون ص ٣٩٥ .

(٢٣ ، ٢٤) التقرير النهائى للجنة التحقيق العليا ص ٢٠٦ من الكتاب الأصفر (مجموعة الوثائق الدبلوماسية الفرنسية)

إسراف إسماعيل

إذا لم تكن حاجات البلاد هي التي دعت إلى اقتراض تلك الملايين فقيم كانت تنفق إذن ؟ إن الجواب لا يحتاج إلى عناء كبير ، فإن إسراف إسماعيل هو الباعث الأكبر على مأساة القروض .

إن الجانب السيئ من شخصية إسماعيل هو إسرافه وإنفاقه الأموال من غير حساب أو نظر في العواقب ، وهو بلا مرء مضرب الأمثال في هذا الصدد ، فقد كان متلافاً للمال ، وظهر هذا العيب في حياته العامة ، وحياته الخاصة ، ظهر في بناء قصوره ، وتأثيرها ، وتجميلها ، كما ظهر في حياته الخاصة ، في حفلاته وأفراحه ، ومراقصه ، ورحلاته وسياحاته ، وأهوائه وملذاته .

أمثلة من إسراف إسماعيل

بنى الخديو إسماعيل نحو ثلاثين قصراً من القصور الفخمة ، فلم هذا العدد ومالية البلاد لا تسمح به ؟ وكان دائم الرغبة في التغيير والتبديل ، وكان بعض القصور التي يبنها لا يكاد يتم بناؤها وتأثيرها حتى يعرض عنها ويهبها لأحد أنجاله أو حاشيته .

وذكر العلامة على باشا مبارك عن قصرى الجزيرة والجزيرة : « أنها من أعظم المباني الفخيمة التي لم يُبن مثلها ، وتحتاج لوصف ما اشتملت عليه من المحلات والزينة والزخرفة والمفروشات ، وما في بساتينها من الأشجار والأزهار والرياحين والأنهار والبرك والقناطر والجبلات إلى مجلد كبير »^(٢٥) ، وذكر عن أرض سراى الجزيرة أن مساحتها ستون فدانا ، وأن ما صرف عليها على كثرته قليل بالنسبة لما صرف على سراى الجزيرة ، وكانت هذه السراى في منشأها قصراً صغيراً وحاماً بناهما سعيد باشا ، ثم اشتراها إسماعيل من ابنه طوسون مع ما يتبعها من الأرض ومساحتها ثلاثون فدانا ، ثم هدم القصر وبناه من جديد ، وأضاف إليه أراضى أخرى ، وأحضر المهندسين والعمال من الإفرنج لبناء القصر وملحقاته ، وأنشأ بستانه

(٢٥) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٤ .

العظيم وبستان الأورمان ، وبلغت مساحة الأرض التي شغلها سراى الجزيرة وسراى الجزيرة وحدائقها ٤٦٥ فدان (خمسة وستين وأربعمائة فدان) .

وذكر (ص ٨٥) أن ما أنفق على إنشاء سراى الجزيرة بلغ ١,٣٩٣,٣٧٤ ج

وسراى عابدين	٥٦٥,٥٧٠	جنيه
وسراى الجزيرة	٨٩٨,٦٩١	»
وسراى الإسماعيلية (الصغيرة)	٢٠١,٢٨٦	»
وباقى القصور	٢,٣٣١,٦٧٩	»
من ذلك سراى الرمل	٤٧٢,٣٩٩	»

وبالرغم مما وصلت إليه حالة الحكومة المالية من الارتباك وتوقفها عن الدفع فى سنة ١٨٧٦ ، فإن الخديو استمر فى تلك السنة يكمل سراى الجزيرة الفخمة التى لم تتم إلا قبيل خلعها (٢٦) .

وتكلف تجميل هذه القصور وتأثيثها ما لا يحصى من الملايين ، فقد بلغت النقوش والرسوم فى قصور الجزيرة والجزيرة وعابدين مليونى جنيه ونيفاً ، وبلغت تكاليف الستارة الواحدة ألف جنيه ، أما الطنافس والأرائك والأبسطة والتحف والطرف والأوانى الفاخرة ، فلا يتصور العقل مبلغ ما تكلفته من ملايين الجنيهات .

ومن أسباب إسراف إسماعيل ميله إلى الملذات ، وهذه مسألة تعد مبدئياً من المسائل الشخصية ، التى لا يصح التعرض لها ، ولكن إذا تعدى أثرها إلى حياة الدولة العامة كانت من المسائل التى لا حرج من الخوض فيها ، وقد تعرض لهذه الناحية الكتاب والمؤرخون حتى الذين كانوا من أصدقاء إسماعيل ، ويلوح لنا أنها كانت من العيوب التى أخذت عليه وهو بعد أمير ، قبل أن يتولى العرش ، فقد ذكر المسيو فردينان دلسبس أنه رآه فى عهد سعيد قبل أن تؤول إليه ولاية العهد ، وكان عمره وقتئذ خمساً وعشرين سنة ، وقال عنه إنه على جانب عظيم من الذكاء والحصافة والجاذبية ، وأنه إذا لم ينهمك فى ملذاته بمقدار ما هو عليه الآن (سنة ١٨٥٤) فإنه سيعرف قدر نفسه ويأتى منه النفع الكبير (٢٧) .

(٢٦) مصر وأوربا . للقاضى المختلط فان بلمن Van Bemmelen ج ١ ص ١٥٥ .

(٢٧) ذكريات أربعين سنة ، للمسيو فردينان دلسبس ج ٢ ص ٥٨ .

ومما يدعو إلى الأسف أن أمواله التي كانت تتدفق ذات اليمين وذات الشمال لم يكن ينال الوطنيون منها إلا التزر اليسير ، بالنسبة لما ينال الأجانب الذين كانوا يحيطون به ويشملهم بثقته ورعايته ، قال المسيو جابريل شارم في هذا الصدد :

« كان إسماعيل يغترف المال من الخزانة العامة بكلتا يديه لا ليرضى أهواءه الشخصية فحسب ، بل ليسدّ بهم الطامعين المتفنين حوله ، فكم من الفرنسيين والإيطاليين والإنجليز كانوا تعساء في بلادهم ، ثم نالوا بعد أن هبطوا مصر الرخاء والنعم ! لقد كان الخديو مستعداً على الدوام أن يهبهم المراكز والقصور والمنح (البقاشيش) ، أو يعهد إليهم بالتوصيات على التوريدات ، وما كان أشد دهشة السياح إذ يرون في القاهرة أو الإسكندرية جماعة من الأوروبيين ليس لهم من المزايا إلا مظهر الرجل الأنيق ، يقومون بمهمة الموردين لنائب الملك (الخديو) ، ويربحون من هذه التجارة أرباحاً باهظة ، لا يتصورها العقل ، فليس ثمة وسيلة لجمع الثروة الطائلة أسهل من الحصول على عطاء تأثيث إحدى السرايات الخديوية ، أو توريد بعض الصور أو التحف والطرف ، وكم من أناس جاءوا من أوروبا مثقلين بالديون ، فما كادوا يستقروا في القاهرة ويأوون إلى إحدى قاعات الانتظار في سراي عابدين ، حتى صاروا طفرة من أصحاب الملايين » (٢٨) .

وقد فحصت لجنة التحقيق الأوروبية سنة ١٨٧٨ أسباب تراكم الديون والعجز في ميزانية الحكومة ، فكشفت عن تصرفات مدهشة تدل على أقصى أنواع الإسراف والتبذير ، فمن ذلك أن إحدى الأميرات من بيت إسماعيل بلغ المطلوب منها لخياط فرنسي ١٥٠ ألف جنيه ، وأن مبالغ طائلة ضاعت في الاستانة دون أن تعرف أبواب إنفاقها ، وأن الخديو كان يشترك مع إسماعيل باشا صديق في مضاربات البورصة ، وأن الحكومة أرادت يوماً أن تؤدي بعض ما عليها من الدين لأحد البنوك المحلية ، فأعطته سندات من الدين الموحد قيمتها ٢٣٠ ألف جنيه بحساب السند ٣١ ج ، أو بعبارة أخرى لكي تسدد ديناً قدره ٧٢ ألف جنيه حملت البلاد ديناً مقداره ٢٣٠,٠٠٠ جنيه (٢٩) .

وكان الإسراف قاعدة إسماعيل المتبعة ، حتى في أعمال العمران ، فقد اتفق مع شركة

(٢٨) مجلة العالمين عدد ٥ أغسطس سنة ١٨٧٩ ص ٧٨١ .

(٢٩) مصر الحديثة Modern Egypt للورد كرومر ج ١ ص ٥١ ، ٥٢ (من الأصل الإنجليزي) .

جرنفلد الإنجليزية على إصلاح ميناء الإسكندرية في مقابل ٢,٥٠٠,٠٠٠ جنيه في حين أن أعمال الإصلاح لم تتكلف سوى ١,٤٤٠,٠٠٠ جنيه كما اعترف بذلك اللورد كرومر^(٣٠).

التدخل الأجنبي في شؤون مصر المالية

لم يكن ممكناً أن يبقى استقلال البلاد سليماً مع بلوغ القروض الحد الذي شرحناه ، لأن هذه القروض هي أموال أجنبية ، دفعها مالئون ومرابون يتمنون إلى دول أوروبية تطمح من قديم الزمن إلى التدخل في شؤون مصر ، وهذه الملايين من الجنيهات المفترضة من شأنها أن تفقد البلاد استقلالها المالي ، كما يفقد الفرد استقلاله وكيانه الذاتي إذا ركبته الديون ، فيصبح أسير دائنيه ، والقروض التي استدانها الخديو صار لها من الفوائد ما يتلع معظم ميزانية الحكومة ، وهذا وحده يعطيك فكرة عن فداحتها ، فلا عجب أن تكون النتيجة فتح أبواب التدخل الأجنبي في شؤون مصر على مصراعيه ، وقد بدأ هذا التدخل مالياً ، ولكنه كان يطوى في ثناياه عوامل التدخل السياسي ، فكان تدخلاً مزدوجاً :

بيع أسهم مصر في قناة السويس

(نوفمبر سنة ١٨٧٥)

أخذ هذا التدخل شكلاً خطيراً لافتاً للأنظار سنة ١٨٧٥ ، حين اشترت إنجلترا أسهم مصر في قناة السويس .

تكلمنا بإيجاز عن هذه الصفقة الخاسرة (ج ١ ص ١٠١) ، والآن نعود إليها في شيء من التفصيل ، إذ يجب علينا أن نتعرف أصول الكوارث التي حلت بالبلاد ، ولا شك أن شراء الحكومة البريطانية أسهم مصر في القناة كان كارثة على مصر ، إذ كانت أول خطوة خطتها إنجلترا نحو الاحتلال .

كانت الحكومة في سنة ١٨٧٥ على شفا الإفلاس ، فقد ركبها الديون ، ورهن إسماعيل موارد الدولة مورداً بعد آخر في سبيل القروض المتلاحقة ، وفوائدها الباهظة ، وكان عليه أن يؤدي في ديسمبر من تلك السنة مبالغ جسيمة قيمة بونات (سندات) على الخزنة تستحق في

(٣٠) في كتابه مصر الحديثة ج ١ ص ٥١ (من الأصل الإنجليزي) .

هذا الموعد ، فإما الوفاء ، وإما إعلان الإفلاس ، وكان معين المال قد نصب بين يديه . فبحث في خزائن الحكومة عن مورد من الموارد المالية لم يُرهن بعد ، فرأى أن لمصر في أسهم تأسيس قناة السويس ١٧٦,٦٠٢ سهم لا تزال ملكاً خالياً من الرهن ، وهي توازي $\frac{7}{16}$ من رأس مال الشركة ، أى أنها تكاد تبلغ نصف رأس المال ، ففكر في أن يقترض بضامتها عدة ملايين من الجنيهات ، كى يؤدي قيمة المبالغ المستحقة ، أو أن يبيعها إذا تعذر الاقتراض . بدأت هذه الفكرة تساور إسماعيل في أوائل نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، وكان يباريس في ذلك الحين أحد المالين الفرنسيين واسمه إدوارد درفيو Edouard Dervieu له اتصال بالحالة المالية في مصر ، ويعرف ارتباط الخديو واضطراره إلى المال ، فأرسل إلى أخ له في الاسكندرية يدعى المسيو أندريه درفيو André Dervieu وهو أيضاً من رجال المال ، يطلب إليه أن يعرض على الخديو بيع أسهم مصرفي القناة ، وأنه مستعد إذا قبل الخديو البيع أن يجد المشتري لها في باريس ، فذهب أندريه درفيو إلى القاهرة ، وهناك تلقى تلغرافاً من أخيه بتاريخ ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ يبعث على الأمل في نجاح الصفقة ، فقابل على أثره إسماعيل باشا صديق « المفتش » وزير المالية في ذلك العهد ، وصاحب الخطوة الكبرى عند الخديو ، وعرض عليه الفكرة ، فلقبت منه قبولاً ، إذ كان المفتش يبغي تدبير المال اللازم بأية وسيلة ، ولو بتضحية تلك الذخيرة العظيمة ، لأداء المبالغ المستحقة في ديسمبر ، ويادر إلى تقديم الرسول الفرنسي إلى الخديو ، فقص عليه نبأ مهمته ، فارتاح الخديو إلى الفكرة وقبل البيع مقابل ٩٢ مليون فرنك (٣١) .

وكانت الحكومة مدينة لشركة القناة في عدة ملايين من الفرنكات تعهدت بأدائها نفاذاً للاتفاقات المبرمة بينها من قبل ، ووفاء لهذه المبالغ كانت الحكومة قد نزلت للشركة عما ينحصر أسهمها من الربح لمدة خمس وعشرين سنة تنتهى في سنة ١٨٩٤ ، وذلك خصماً مما عليها للشركة ، وكان مفهوماً بالطبع أن من يشتري هذه الأسهم يسرى عليه هذا الاتفاق ، فلا يأخذ ربحاً عنها حتى سنة ١٨٩٤ ، فكان مما عرضه المسيو أندريه درفيو أن يدفع الخديو للمشتريين فائدة سنوية مقدارها ١٢٪ عن مبلغ الثمن ، يعوض عليهم الحرمان من الربح من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٨٩٤ ، فرضى الخديو أن تكون الفائدة ٨٪ بضمانة إيراد جمرك بورسعيد ، وترك

(٣١) انظر بحث المسيو شارل لساج Charles Lesage في (شراء أسهم قناة السويس) المنشور في مجلة باريس Revue de Paris بالعدد ٢٢ من السنة الثانية عشر (١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٥) ص ٣٢٥ .

للمسيو درفيو خيار القبول لغاية ١٦ نوفمبر ، فأبقر درفيو إلى أخيه بباريس بنتيجة المفاوضة الأولى ، فبادر هذا إلى السعى الخثيث لدى جماعة من الممالين الفرنسيين لإعداد الثمن ، وإتمام الصفقة قبل فوات الفرصة ، ولعدم اتفاق الممالين الفرنسيين طلب درفيو مد أجل الخيار ، فده الخديو ثلاثة أيام أخرى ، تنهى فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٧٥ .

تمت المفاوضة الأولى بين درفيو والخديو فى طى الخفاء ، دون أن يعلم بها أحد من رجال المال والسياسة فى القاهرة ، وخفى نبؤها على قنصل إنجلترا العام فى مصر ، الماجور جنرال ستانتون Stanton ، ولكن عين السياسة الإنجليزية فى لندن وباريس ، كانت ساهرة ، ترقب كل كبيرة من الأمور وصغيرها ، فبلغها نبأ المساعى التى يبذلها إدوار درفيو فى باريس ليجمع الثمن المطلوب ، فأبقر اللورد دربى Derby وزير خارجية إنجلترا إلى الماجور جنرال ستانتون الرسالة التلغرافية الآتية :

« علمت حكومة جلالة الملكة أن نقابة من الممالين الفرنسيين عرضت على الخديو شراء أسهمه فى قناة السويس ، وأن الصعوبات المالية التى تكتنف سموه تجعل قبوله فى حيز الإمكان ، فالمرجو أن تتحققوا من صحة هذا النبأ - دربى » .

وصلت هذه الرسالة إلى القاهرة صبيحة يوم الثلاثاء ١٦ نوفمبر ، فبادر القنصل البريطانى إلى مقابلة نوبار باشا ، وكان وقتئذ وزيراً للخارجية ، وسأله عن الحقيقة ، فأخبره بالواقع من الأمر ، فأبدى القنصل دهشته من أن الحكومة المصرية لم تكشف حكومة إنجلترا بنبأ هذه الصفقة ، وقال إن الخديو يجب أن يعتقد أن تنازله عن أسهم مصر فى قناة السويس لا يمكن أن تقابله إنجلترا بعدم الاكتراث ، وأنه إذا كان الخديو راغباً حقاً فى بيع هذه الأسهم ، فمن المحقق أن إنجلترا ستعرض عليه أعلى ثمن ، فأجاب نوبار باشا أن الحكومة المصرية فى حاجة ملحة إلى مبلغ يتراوح بين ١٠٠,٧٥ مليون فرنك (أربعة ملايين من الجنيهات) ، ولكن ليس ثمة ما يضطرها إلى بيع هذه الأسهم للحصول على هذا المبلغ ، ويكفى أن تقرضها البنوك قيمته بضمانة الأسهم المذكورة ، فطلب الجنرال ستانتون من نوبار باشا ومن إسماعيل باشا صديق وقف المفاوضة مع البيوت المالية الفرنسية ، إلى أن يتلقى رأى وزارة الخارجية الإنجليزية فى مسألة القرض بضمانة الأسهم ، فوعده نوبار بوقف المفاوضة لمدة ثمان وأربعين ساعة ، تنهى يوم الخميس ١٨ نوفمبر ، وقابل القنصل الخديو فى اليوم نفسه ، وأقضى إليه بمحدثه مع نوبار ، فلم يخرج جواب الخديو عن جواب وزيره ، غير أنه طلب إلى القنصل شروط الحكومة

الإنجليزية ، ولما لم يكن لدى القنصل تعليمات من حكومته في هذا الشأن ، استمهل الخديو إلى أن ينتهى الموعد الذى حدده نوبار باشا .

وفي اليوم الثانى (الأربعاء ١٧ نوفمبر) قابل القنصل البريطانى نوبار ثانياً ، فعلم منه شدة اضطرار الحكومة إلى الخمسة والسبعين أو مائة المليون من الفرنكات ، لتدفع السندات التى تستحق فى ديسمبر ، ورأى منه ميلاً إلى إثارة بيع الأسهم على رهنها ، وذلك أنه لم يكن ثمة أمل فى أن تؤدى الحكومة ما تقرضه ، وأن الأسهم فى حالة الرهن مآلها حتماً إلى الضياع ، فأبرق القنصل نبأ هذا التحول فى رأى إلى حكومته .

وفي الساعة الثامنة من مساء ١٨-نوفمبر وصلت القنصل الرسالة البرقية حاملة جواب الحكومة الإنجليزية ، وفيها يطلب اللورد دربي « إبلاغ الخديو قبول حكومته شراء ال ١٧٧,٦٤٢ سهم بشروط معقولة » ، فذهب القنصل من فوره إلى الخديو ، وأبلغه النبأ ، فشكر الخديو الحكومة الإنجليزية على ما عرضته ، ولكنه اعتذر عن القبول ، قائلاً إنه يرغب تحويل الديون السائرة إلى دين ثابت ، وإنه فى حاجة إلى تقديم هذه الأسهم ضماناً لهذا التحويل ، على أنه إذا عدل عن رأيه وآثر البيع فإنه يفضل الحكومة الإنجليزية على سواها . هذا ما صرح به الخديو القنصل البريطانى مساء ١٨ نوفمبر ، على أنه فى بضعة الأيام التالية لهذا الحديث ، رجحت عنده كفة البيع على الرهن ، فأبرق القنصل البريطانى إلى حكومته يوم ٢٣ نوفمبر ينبئها بأن الخديو رضى بأن يبيع ال ١٧٧,٦٤٢ سهم مقابل مائة مليون فرنك (أربعة ملايين جنيه) ، فجاءه الرد فى اليوم ذاته بطريق البرق بأن الحكومة الإنجليزية قبلت الثمن المطلوب ، وأن بنك روتشيلد بلندن تعهد بأدائه للخديو فوراً .

وصل هذا الرد ليلاً ، وتلقاه القنصل فى صبيحة اليوم التالى (٢٤ نوفمبر) ، فذهب مبكراً إلى سراى الخديو ، حيث قابل نوبار باشا وإسماعيل باشا صديق ومهردار الخديو ، وأنبأهم بفحوى الرسالة ، فانعقد الاتفاق على البيع والشراء ، وفى يوم ٢٥ نوفمبر تحرر عقد البيع ، ووقع عليه كل من إسماعيل باشا صديق نائباً عن الحكومة المصرية ، والجنرال ستانتون نائباً عن الحكومة الإنجليزية (٣٢) .

وتبين قبل إبرام العقد أن الأسهم لم تكن ١٧٧,٦٤٢ سهم كما كان مفهوماً بل هى ١٧٦,٦٠٢ ، أى أنها تنقص ١٠٤٠ سهم (أربعين وألف سهم) ، فسوى حساب الثمن بعد

استبعاد الأسهم الناقصة ، فصار صافي الثمن ٣,٩٧٦,٥٨٢ جنيهًا إنجليزيًا ، بعد أن كان أربعة ملايين ، واتفق الطرفان على أن يدفع من الثمن ٢٥ مليون فرنك في أول ديسمبر ، والباقي خلال شهر ديسمبر ويناير الذي يليه ، في المواعيد التي تحددها الحكومة المصرية ، باتفاقها مع بيت روتشلد بلندن ، والتزمت الحكومة المصرية بأن تدفع للحكومة الإنجليزية كل سنة ابتداء من عام ١٨٧٥ حتى سنة ١٨٩٤ فوائد ٥٪ عن قيمة الثمن ، أي ١٩٨,٢٩ ج سنويًا ، مقابل حرمان الحكومة الإنجليزية من أرباح الأسهم طوال هذه المدة ، وعلى ذلك تمت الصفقة ولما تمضي عشرة أيام على علم الحكومة الإنجليزية برغبة الخديو في البيع ، ففي هذه المدة الوجيزة فحصت الوزارة البريطانية أمر الصفقة وأجمعت رأيها فيها ورسمت خطتها وأعدت المال اللازم لإتمامها ، وفازت بها ، على حين كانت المفاوضات بشأنها دائرة بين الخديو والدوائر الفرنسية . واستعجلت الحكومة الإنجليزية تنفيذ العقد ، فاشتطت فيه أن لا يدفع الثمن إلا بعد تسليم الأسهم ، ولذلك بادر إسماعيل باشا صديق في صبيحة ٢٦ نوفمبر ، أي غداة توقيع العقد بتسليم القنصلية البريطانية جميع الأسهم ، مودعة في سبعة صناديق كبيرة ، وانتهت عملية التسليم في ذلك اليوم ، بأن بصمت الأسهم بأختام كل من إسماعيل صديق ، والقنصلية البريطانية ومحكمة القنصلية ، واهتمت الحكومة البريطانية بأمر نقلها إلى إنجلترا ، فأصدرت وزارة البحرية أمرها في أوائل ديسمبر إلى الباخرة ملابار Malabar القادمة من الهند أن تعرج على الإسكندرية في منتصف هذا الشهر ، وإذ علم الجنرال ستانتون باجتياز الباخرة قناة السويس استقل من القاهرة قطاراً خاصاً ، سار به إلى الإسكندرية وحمل معه الأسهم محفوظة بعناية تامة في أربعة صناديق مصفحة بالزنك ، ولما رست الباخرة في ميناء الإسكندرية نقلوا إليها الصناديق ، ثم أقلعت رأساً إلى بورتسموث ، فبلغتها يوم ٣١ ديسمبر ، وفي أول يناير سنة ١٨٧٦ جاء موظف من الخزانة البريطانية وتسلم الصناديق من قومندان الباخرة ، وأودعت الأسهم في اليوم نفسه بنك إنجلترا .

كانت هذه الصفقة فوزاً عظيماً للسياسة الإنجليزية ، ويرجع هذا الفوز إلى التلكؤ الذي بدا من المالين الفرنسيين في الشراء ، فقد اختلفوا في أن تكون الصفقة شراء أو قرضاً ، وكان لابد من تضامن عدة مالين لتقديم مبلغ المائة المليون من الفرنكات ، فكان اختلافهم عقبة عطلت المفاوضات التي تولاهما المسيو درفيو ، وبلغ المسيو فردينان دلسبس نبأ هذا التلكؤ ، فطلب إلى وزير الخارجية الفرنسية ، الدوق دي كاز Decazes ، أن يبذل نفوذه لإتمام

الصفقة ، وفي خلال المفاوضات انعقد الاتفاق بين درفيو والحديو على أن يقترض هذا من نقابة المالىين الفرنسيين ٨٥ مليون فرنك بضمانة الأسهم بحيث تصبح ملكا للنقابة إذا لم يردّها في ثلاثة أشهر ، وهذا معناه البيع المستروراء الرهن ، وتححر بذلك العقد الابتدائى ، ولم يكن باقياً لنفاذه إلا قبول المالىين الفرنسيين ، وكان فى مقدور الدوق ديكاز أن يتدخل فى الأمر ويتعجل القبول قبل أن تفوز إنجلترا بالشراء ولكن العوامل السياسية ثبّطت عزيمته ، ذلك أنه خشى إذا آلت الأسهم إلى فرنسا بأية طريقة ما ، سواء بالبيع أو بالرهن ، أن تؤدى إلى تكدير علاقات الوديين الدولتين ، وكانت فرنسا وقتئذ فى حاجة إلى صداقة إنجلترا بعد أن خرجت مهزومة من الحرب السبعينية وصارت هدفاً لحرب جديدة تشنها عليها ألمانيا ، وكانت هذه الدولة لا تفتأ تهددها وتتوعدها بالحرب ، وتبغى الغارة عليها حتى تحول دون استعادة مركزها وتجديد قوتها ، من أجل ذلك أحجمت وزارة الخارجية الفرنسية عن إبرام الصفقة لحساب المالىين الفرنسيين ، وزاد فى إحجامها أنها فى خلال المفاوضات استطلعت رأى وزارة خارجية إنجلترا فيما يكون لإبرامها من الأثر فى العلاقات الودية بين الدولتين ، فجاءها الجواب بما يدل على معارضة إنجلترا فى أيلولة الأسهم المصرية إلى أيدي المالىين الفرنسيين فثبط هذا الجواب عزيمة الدوق دى كاز ، وجعله يرى أن لا يتم التعاقد عليها ، وانتهزت إنجلترا هذه الفرصة لتبادر إلى الشراء ، وكان لمهارة دسرايلى (لورد بيكنسفيلد) رئيس الوزارة الإنجليزية وعظيم كفاءته ، وصلته بالبارون روتشلد ، فضل كبير فى إبرام العقد ، فإنه لم يكد يتصل بعلمه سعى المالىين الفرنسيين فى شراء الأسهم حتى بادروا إلى الاتفاق مع البارون روتشلد ، وكانت تربطها صداقة قديمة ، فضلاً عن اتفاقها فى الدين لأن كليهما إسرائيلى ، على أن يقدم لحساب الحكومة الإنجليزية ثمن الأسهم ، فقبل البارون عن طيب خاطر تقديم المال اللازم فوراً ، فى الوقت الذى كان المالىيون الفرنسيون مختلفين فى أن تكون الصفقة شراء أو إرتهاناً ، وقد لجأ دسرايلى إلى روتشلد لأن الفرصة عرضت فى غيبة مجلس العموم ، ولم يكن فى مقدور الحكومة فتح اعتماد بمبلغ الثمن دون موافقة المجلس ، وكان الوقت لا يسمح بالتأجيل أو انتظار عقد البرلمان ، فتغلب دسرايلى على هذه الصعوبة بالاتفاق مع البارون روتشلد على أن يدفع هذا المبلغ عن الحكومة الإنجليزية مقابل سمسة ٢١٪ من الثمن علاوة على فائدة ٥٪ سنوياً تحتسب له من يوم أدائه المبلغ إلى الحكومة المصرية إلى أن يتسلمه من الحكومة الإنجليزية .

أذاعت الصحف نبأ هذه الصفقة غداة إبرام عقدها ، فكان لها دوى كبير فى الدوائر

السياسة الدولية ، فقبلت في فرنسا بالألم والاستياء ، واعتبرت هزيمة للسياسة الفرنسية ، وقابلتها ألمانيا بالسرور لأنها رأت فيها سبباً لفتور العلاقات الودية بين فرنسا وإنجلترا ، واستاءت روسيا منها ، إذ رأت فيها خطوة جريئة من السياسة الإنجليزية لتحقيق أطماعها في المسألة المصرية .

ولما اجتمع البرلمان الإنجليزي في فبراير سنة ١٨٧٦ أُلعت خطبة العرش إلى شراء الأسهم ، فقبل العمل من المجلس بالابتهاج والاستحسان العام ، ووافق البرلمان على الاعتماد المطلوب وعلى عقد الاتفاق .

أضاع اسماعيل بهذه الصفقة الخاسرة رأس مال عظيم القيمة في شركة القناة ، وجعل استقلال مصر هدفاً للخطر ، دون أن تنال فائدة من الثمن ، إذ ماذا تنفع أربعة ملايين في إنقاذ الخزانة من الهاوية التي انحدرت فيها ؟ أضف إلى ذلك أن مصر خسرت خسارة مالية هائلة في بيع أسهمها ، فقد اشترتها إنجلترا بثمن بخس أربعة ملايين من الجنيهات ، على حين أن ثمنها بلغ ٣٢ مليون جنيه سنة ١٩٠٥ ، ثم صعد إلى ٧٢ مليون جنيه سنة ١٩٠٩ ، هذا فضلاً عما فقدته مصر من أرباح هذه الأسهم كما يبيناه في موضعه (ج ١ ص ١٠٢) .

وإن المرء ليدهش كيف تصل الحالة بالخدو اسماعيل إلى حد التفريط في هذه الذخيرة القومية الكبيرة ، وأين ذهبت تلك الملايين التي جباها من الضرائب أو حصل عليها من القروض طوال هذه السنين ؟ وهل يتفق هذا التصرف مع قوله حين ولي الحكم : « إني أريد أن تكون القناة ملكاً لمصر لا أن تكون مصر ملكاً للقناة » ؟ .

لا شك أن تلك الأسهم كانت رمزاً حياً ومظهراً فعلياً للملكية مصر للقناة ، فتفريطه فيها قضى على أمل مصر في أن تكون القناة على عهده ملكاً لمصر .

وقد كان لهذا العمل عواقب سياسية تفوق العواقب المالية ضرراً ، فإن إنجلترا إنما قصدت بهذه الصفقة أن تجعل لنفسها الكلمة العليا في شؤون القناة ، ومن ثم تمهد لنفسها سبيل التدخل في شؤون مصر ، بواسطة إمتلاك القناة ، وقد صار لها فعلاً صوت مسموع في التحدث عن القناة ومصيرها ، ومصير الأرض التي تجتازها ، ولم يفت كتاب أوروبا وساستها أن يلمحوا الخطر المائل في هذه الصفقة ، غداة عقدها ، فقد كتب المسيو شارل مازاد Mazade في « مجلة العالمين » الفرنسية بالعدد المؤرخ أول ديسمبر سنة ١٨٧٥ يقول : « إن هذا العمل سياسى محض ، وهنا وجه الخطر فيه ، فإذا لم يكن في ذاته احتلالاً

لمصر ، فإنه الخطوة الأولى لهذا الاحتلال ، والآن وقد أصبح لإنجلترا عميل يحتاج إلى أن تعطيه مائة مليون فرنك لتسوية ديونه ، فهي لن تتركه وشأنه ، بل تراقب ماليته ، وتقرضه وتبدل له المال من جديد ، وستطلب منه طبعاً ضمانات وتأمينات أخرى ، وهكذا بعد أن كانت إنجلترا تعارض في إنشاء القناة تحولت سياستها إلى العمل لامتلاكها » (٣٣) .

كُتب هذا الكلام سنة ١٨٧٥ ، وقد حققت الأيام مع الأسف هذه النبوءة ، فإن إنجلترا أخذت تحقق أطماعها في التدخل في شؤون مصر ، حتى احتلت البلاد سنة ١٨٨٢ ، أى قبل أن تنقضى سبع سنوات على حيازة أسهمها في القناة ، فالعوامل المالية للاحتلال الإنجليزي ترجع إذن إلى قروض إسماعيل ، ومنها الأربعة الملايين من الجنيهات التي اشترت بها إنجلترا أسهم مصر في القناة ، فلا جرم أن كانت هذه الصفقة كارثة على البلاد .

بعثة « كيف » CAVE الإنجليزية لفحص مالية مصر

(ديسمبر سنة ١٨٧٥)

لما ساءت حالة الخزانة ، ورأى إسماعيل أن البيوت المالية الأوروبية قد ترعزت ثقتها في كفاءة الحكومة المصرية ومقدرتها على الوفاء ، أراد أن يقدم لها برهاناً على أن مصر ما زالت رغم الديون الباهظة قادرة على السداد ، فابتكر وسيلة ظن أنها تصل به إلى هذه الغاية ، وذلك أنه عرض على إنجلترا إيفاد موظف مالي كفء يدرس حالة الحكومة المالية ، ويعاين وزير المالية المصرية على إصلاح الخلل الذي يعترف به في هذه الوزارة .

وكان تقدير إسماعيل أن هذه البعثة تحت تأثير إرشاده ونفوذه ، وما يحيطها به من الحفاوة والإكرام . وما ينوح به أمامها من مظاهر البذخ والإسراف ، لا تلبث أن تقدم تقريراً بأن حالة الخزانة المصرية حسنة تسمح بالثقة بها ، فيرتكن على هذا التقرير ، لكي يقنع البيوت المالية الأوروبية بإقراضه من جديد ، فالغاية كما ترى لم تكن متفقة مع مصلحة البلاد ، لأنه على فرض أن هذه البعثة تنساق إلى إرشاداته ، فإن اقتراضه من جديد لم يكن علاجاً ناجعاً لحالة البلاد المالية ، بل هو مضاعفة للداء الذي أصابها من القروض .

وقد اتجه إسماعيل صوب إنجلترا في طلب هذه البعثة ، لأن فرنسا كانت قد خرجت

(٣٣) مجلة العالمين Revue des Deux Mondes عدد أول ديسمبر سنة ١٨٧٥ ص ٧٠٠ .

مضعضة من الحرب السبعينية ، ومع أنها كانت قبله أنظاره من قبل ، فإن هزيمتها في تلك الحرب جعلته يدير شراعه نحو إنجلترا ، فطلب إليها إيفاد تلك البعثة .
لَبَّت الحكومة الإنجليزية نداء إسماعيل ، لأنها وجدت في طلبه فرصة للتدخل في شؤون مصر ، وأوفدت إليه بعثة مؤلفة من أربعة من موظفيها برئاسة المستر « استفن كيف » أحد المالىين المعدودين من الإنجليز ، ومن هنا جاءت تسميتها « بعثة كيف » .

كانت هذه البعثة وماخولها إسماعيل من حق معاونة وزير المالية على إصلاح الخلل الذى أصاب وزارته ، مظهراً من مظاهر التدخل الأجنبى في شؤون مصر الداخلية ، وقد وقع هذا التدخل بعد أن أبرم إسماعيل بيع الأسهم المصرية في القناة ، فكانتا ضربتين قاصمتين ، أصابتا مصر في استقلالها المالى وكيانها القومى .

جاءت البعثة إلى مصر في ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، وفحصت حالة المالية المصرية ، ووضعت تقريرها ، ولم يحىء كما يروم إسماعيل ، فإنها عيّنت أولاً بمصالح الدائنين الإنجليز خاصة ، والأوروبيين عامة ، فقدمت تقريراً أشارت فيه إلى أن سوء الحالة المالية يرجع معظمه إلى فداحة الشروط التى عقدت بها القروض المتوالية ، وإلى الإسراف في إنفاق مبالغ جسيمة في وجوه معدومة النفع ، وفي حملات حرية قليلة الجدوى ، أو التهمتها أطماع الآفاقين السياسيين والمالىين ، وأشارت باستعمال محصلات المقابلة لإيفاء الديون القصيرة الآجال (التى اقترضت في سنوات ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧) وتحويل جميع الديون الأخرى إلى دين موحد قدره ٧٥.٠٠٠.٠٠٠ جنيه يسدد في مدة خمسين سنة بفائدة ٧٪ (٣٤) .

وأشارت اللجنة في تقريرها إلى سوء حالة المالية المصرية ، واقترحت كشرط ضرورى لإصلاحها أن تخضع للمشورة الأوروبية ، بأن تنشئ الحكومة مصلحة للرقابة على مالىتها برئاسة شخص ذى ثقة أشارت تلميحاً بأن يكون إنجليزياً ، واشترطت أن يحترم الخديو قرارات هذه المصلحة ولا يعقد قرضاً إلا بموافقتها .

وهذا الاقتراح يدل على أن إنجلترا لم توفد بعثة (كيف) للسبب الذى يطلبه إسماعيل ، بل جعلت لها مهمة سياسية وهى تمهيد السبيل للتدخل الإنجليزى .

(٣٤) تقرير لجنة « كيف » المنشور ذيلاً لكتاب (مصر كما هى) للمستر ماك كون ص ٤٠٠ .

التنافس في النفوذ بين إنجلترا وفرنسا

لما جاءت بعثة (كيف) إلى مصر ، لحظت فرنسا من إيفاد الحكومة الإنجليزية إياها أنها تريد الاستئثار بالنفوذ لدى إسماعيل ، ولم تكن إنجلترا ترى إلى النفوذ المالي فقط ، بل كانت تقصد إلى ما هو أبعد من ذلك ، وهو التدخل السياسي ، فنشط التنافس بين النفوذ الإنجليزي والنفوذ الفرنسي ، ووصل هذا التنافس إلى حاشية إسماعيل وبلاطه ، ففريق كان ينقاد إلى النفوذ الإنجليزي ، وفريق آخر كان يميل إلى النفوذ الفرنسي ، وهذا يدل على مبلغ الضعف السياسي الذي تغلغل في كيان الحكومة بسبب الارتباك المالي ، ولا غرو فالمال هو عصب النفوذ السياسي .

وقد اعترفت الحكومة الفرنسية أن تعارض مسعى الحكومة الإنجليزية بمسعى مثله ، فأوفدت هي أيضاً أحد موظفيها ، وهو الميسوفيليه Villet ليعاون إسماعيل على تنظيم ماليته ، وكانت ترمى بذلك إلى أن لا تنفرد الحكومة الإنجليزية بالتدخل في شؤون مصر ، فقدم مشروعا أبدى إسماعيل ميله إلى الأخذ به ، فاستاءت الحكومة الإنجليزية من رجحان كفة النفوذ الفرنسي ، وعارضت عمل إسماعيل بضرية آتته ، ذلك أنها كانت على اتفاق معه أن لا تذيع تقرير لجنة (كيف) ، حتى لا يسوء مركزه المالي ، فلما رأت منه ميلا إلى إتباع المشورة الفرنسية لوحت بأنها ستنتشر التقرير ، فلما احتج إسماعيل على إذاعته ، أوعزت إلى أحد نواب البرلمان البريطاني أن يسأل متى ينشر التقرير ؟ فكان جواب دسرايلي رئيس الوزارة أنه لا يعارض في نشره وأن الخديو هو الذي يمانع في ذلك ، فكان هذا الجواب أشد وطأة من نشر التقرير ، لأنه ترك الأذهان تعتقد سوء حالة المالية المصرية ، وأدى ذلك إلى نزول أسعار السندات المصرية نزولا هائلا .

التوقف عن الدفع

(أبريل سنة ١٨٧٦)

سارت الضائقة المالية في طريقها ، وأعوز الخزانة المصرية المال اللازم لأداء أقساط الديون ، وأخيراً عجزت عن الوفاء ، فأصدر الخديو مرسوما في ٦ أبريل سنة ١٨٧٦ بتأجيل

دفع السندات والأقساط المستحقة على الحكومة في ابريل ومايو ثلاثة أشهر ، ولم يكن تحديد هذه الثلاثة الأشهر إلا للمحافظة على الظواهر ، وكان الغرض هو التأجيل إلى ما شاء الله ، وأعلن هذا المرسوم في بورصة الإسكندرية يوم ٨ ابريل ، فكان هذا إيذانا بالتوقف عن الدفع ، أو بعبارة أخرى بالإفلاس ، ولما ذاع هذا المرسوم سرى السخط والذعر إلى الأسواق المالية الأوروبية ، واستهدف إسماعيل لمطاعن المالىين والمرايين الأجانب ، وانقلبوا يتهددون ويتوعدون ، بعد أن كانوا حتى أمس يداهنون ويتملقون ، وأخذوا يتحدثون بوجوب خلع الخديو .

إنشاء صندوق الدين

(٢ مايو سنة ١٨٧٦)

بدء الوصاية الأجنبية على مصر

شعر الخديو بارتباك الحالة المالية ، وما تنطوى عليه من الأخطار ، وما يجر إليه سخط المالىين الأوروبيين من العواقب ، فأراد استرضاء الدائنين بوضع نظام يكفل لهم استيفاء ديونهم ، فطلب إلى وكلاء الدائنين بمصر وضع النظام الذى يرتضونه . فقدم وكلاء المالىين الفرنسيين مشروعاً بإنشاء صندوق الدين وتوحيد الديون ، أما المالىون الإنجليز فإنهم لم يشتركوا في هذه المقاضات ، انتظاراً للخطوة التى ترسمها حكومتهم .

استجاب إسماعيل لمطالب وكلاء الدائنين الفرنسيين ، وأصدر مرسوماً في ٢ مايو سنة ١٨٧٦^(٣٥) بإنشاء صندوق الدين ، ومهمته ، أن يكون خزانة فرعية للخزانة العامة تتولى تسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية ، وخصص له إيرادات مديريات الغربية ، والمنوفية ، والبحيرة ، وأسيوط ، وعوايد الدخولية في القاهرة والإسكندرية وإيراد جمارك الإسكندرية والسويس وبورسعيد ورشيد ودمنياط والعريش ، وإيراد السكك الحديدية . ورسوم الدخان ، وإيراد المصلح (ضريبة الملح) ، ومصايد المطرية (دقهلية) . ورسوم الكبارى ، وعوائد الملاحة في النيل ، وإيراد كوبرى قصر النيل ، وإيراد أطيان الدائرة السنية ، أى أنه خصص لسداد الديون معظم موارد الخزانة المصرية .

(٣٥) نص المرسوم منشور في القاموس العام للإدارة والقضاء لفيليب جلال ، جزء ٢ ص ١٤٤ (طبعة سنة ١٩٠٠) .

كان صندوق الدين أول هيئة رسمية أوروبية أنشئت لفرض التدخل الأجنبي في شؤون مصر ، والسيطرة الأوروبية عليها ، وغلّ سلطة الحكومة المصرية في شؤونها المالية والإدارية ، وهو أداة اعتداء على استقلال مضر المالى والسياسى ، لأنه بمثابة حكومة أجنبية ، داخل الحكومة ، لها سلطة واختصاصات واسعة المدى ، فقد نص المرسوم الصادر بإنشائه على أنه يختص بتسلم النقود المخصصة لوفاء الديون العمومية ، ويتولى إدارته مندوبون أجانب ، تندبهم الدول الدائنة ، ويعينهم الخديو وفقا لهذا الانتداب ؛ وقضت المادة الثانية بأن الموظفين المنوط بهم تحصيل الإيرادات المتقدم ذكرها عليهم أن يوردوا ما يحصلونه إلى صندوق الدين لا إلى وزارة المالية ، ونصت المادة الثامنة على أن الحكومة ممنوعة من تعديل الضرائب التى خصصت إيراداتها لصندوق الدين تعديلا يفضى إلى إنقاص الوارد منها ، إلا بموافقة أغلبية أعضاء الصندوق ، وأن لا تعقد الحكومة أى قرض جديد ولا تصدر إفادات مالية على الخزنة إلا لأسباب تقضى بها حاجة البلاد ، وبعد موافقة صندوق الدين ، على أنه قد حُفِظ للحكومة الحق فى أن تقرض بالحساب الجارى مبلغا لا يزيد عن خمسين مليون فرنك ، للقيام بخدمة الخزنة ، ونص المرسوم على أن المحاكم المختلطة تختص بنظر كل الدعاوى التى يرى صندوق الدين إقامتها على الحكومة خدمة لمصالح أصحاب الديون .

ولا نزاع فى أنه ، من جهة الحق والقانون ، لم يكن للدائنين الأجانب أن يطلبوا إنشاء هيئة مالية رسمية داخل الحكومة بهذه السلطة ، وتلك الاختصاصات ، ولكن فكرة الطمع والاستعمار ، وغلبة القوى على الضعيف ، هى التى أملت مشروع صندوق الدين لاستغلال موارد البلاد ، وفرض الوصاية الأوروبية على ماليها .

مشروع توحيد الديون

(مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦)

وفى ٧ مايو سنة ١٨٧٦ ، أصدر الخديو مرسوما ثانيا^(٣٦) بتحويل ديون الحكومة ودين الدائرة السنية والديون السائرة إلى دين واحد ، سُمى (الدين الموحد) قدره ٩١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه انجليزى ، بفائدة سبعة فى المائة ، يسدد فى ٦٥ سنة ، والغرض من هذا المرسوم توحيد وتأمين الدائنين على استيفاء ديونهم ، وقد ميز المرسوم بين مختلف الديون فيما يتعلق بالفائدة

(٣٦) نصه فى قاموس جلال ج ٢ ص ١١٣ (طبعة سنة ١٩٠٠) .

وطريقة الوفاء ، ففضى بأن قروض سنوات ١٨٦٢ و ١٨٦٨ و ١٨٧٠ و ١٨٧٣ ، أى القروض الطويلة الأجل ، تبقى قيمتها كما كانت ، فتستبدل بسندات جديدة من الدين العمومى بحساب المائة مائة ، وأن أصحاب قروض سنوات ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ (وهى القروض القصيرة الأجل) يعطون سندات جديدة تحسب لهم بواقع مائة لكل خمسة وتسعين من قيمتها الاسمية ، وذلك مقابل إطالة أجل سدادها ، أما سندات الدين السائر فتستبدل بها سندات جديدة مع إضافة ٢٥٪ إلى قيمتها ، أى بواقع مائة لكل ثمانين جنيها من قيمتها الاسمية ، وذلك مقابل إطالة أجل السداد .

وخصص لسداد الدين الموحد وفوائده الموارد المبينة فى مرسوم صندوق الدين ، وقدر مجموع الإيرادات الحاصلة من الموارد المذكورة بمبلغ ٦,٤٧٥,٢٥٦ من الجنيهات الإنجليزية سنويا ، بما فى ذلك المبلغ المقرر على الدائرة السنوية ومقداره ٦٨٤,٤١١ ج ، وتقرر أيضا وقف جباية المقابلة .

إنشاء مجلس أعلى للمالية

ولكى يطمئن الدائنون على حسن إدارة وزارة المالية ، أصدر الخديو فى ١١ مايو سنة ١٨٧٦ مرسوما ثالثا^(٣٧) بإنشاء مجلس أعلى للمالية ، مؤلف من عشرة أعضاء ، خمسة منهم أجانب ، وخمسة وطنيون ، ومن رئيس يعينه الخديو ، ويتألف هذا المجلس من ثلاثة أقسام ، القسم الأول يختص بمراقبة خزائن الحكومة ، والثانى بمراقبة الإيرادات والمصروفات (وهى غير المراقبة الثنائية التى سيرد الكلام عنها) ، والثالث بتحقيق الحسابات ، ويبدى المجلس رأيه فى ميزانية الحكومة السنوية التى يضعها وزير المالية قبل نهاية كل سنة بثلاثة أشهر ، وعين السنيور شالويـا Scialoja أحد أعضاء مجلس الشيوخ الإيطالى رئيسا لهذا المجلس .

الرقابة الثنائية

(١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦)

إن إنشاء صندوق الدين ، وإنشاء مجلس أعلى مختلط للمالية ، وتوحيد الديون ، كل هذه

(٣٧) نصه فى قاموس جلاذ ج ٢ ص ١٥١ طبعة ١٩٠٠ .

الوسائل ، على ما في معظمها من افتتات على سلطة الحكومة ، لم تقنع الحكومة الانجليزية ولم ترفيها الكفاية لضمان مصالح الدائنين ، فامتنعت عن تعيين مندوب عنها في صندوق الدين . على حين رضيت فرنسا باختيار مندوب عنها فيه وهو المسيو دى بلنير De Bligneres واختارت النمسا فون كريمير Kremer . وإيطاليا لسنير بارافللي Baravelli ، وجاشرت إنجلترا بأن من الواجب وضع تسوية أخرى لكفالة مصالح الدائنين .

والواقع أن هذا لم يكن غرضها الحقيقي ، بل كانت ترمى إلى وضع نظام جديد يمكنها من التدخل الفعلي في إدارة الحكومة المصرية ، ويجعل مصر أكثر خضوعاً للدول الأجنبية في سياستها وتصرفاتها الداخلية ، ولكي تمهد إلى وضع هذا النظام ، أوفدت إلى فرنسا أحد أعضاء البرلمان الانجليزي وهو مستر جوشن^(٣٨) Goschen ، كي يتفق وإياها على التعديلات التي يرى لزوم إجرائها في تسوية ديون إسماعيل ، وعلى الخطة المشتركة لإكراه الخديو على قبول هذه التعديلات ، وندبت الحكومة الفرنسية من ناحيتها المسيو جوير Joubert ، مندوباً عن الدائنين الفرنسيين ليشترك مع المندوب الانجليزي في عرض مطالب الدائنين على الخديو . جاء جوشن ثم جوير إلى مصر في أكتوبر سنة ١٨٧٦^(٣٩) ، وطلبوا إلى إسماعيل باشا قبول التعديلات التي اتفقا عليها ، وأهمها فرض الرقابة الأوروبية على المالية المصرية ووضع السكك الحديدية وميناء الاسكندرية تحت إدارة لجنة مختلطة ، وتدخل قنصلا إنجلترا وفرنسا وهما المستر (اللورد) فيفيان Vivian والبارون دى ميشيل Des Michels بإيعاز من دولتيهما للضغط على الخديو وإكراهه على الإذعان . فتردد إسماعيل في قبول هذه المطالب الجائرة ، وقامت في البلاد حركة استياء شديدة من جورها ، ولكن الخديو خشي على مركزه أن ترعزعه مقاومة الدولتين الانجليزية والفرنسية ، فنزل أخيراً على إرادتهما ، وأصدر مرسوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ الذي سيأتي بيانه .

(٣٨) كان جوشن وزيراً سابقاً في الوزارة الإنجليزية ، ثم عاد إلى الوزارة سنة ١٨٨٧ وهو ابن المالى جوشن أحد أصحاب بنك فرمليج وجوشن بإنجلترا وهو البنك الذي أقرض مصر قروضها الأولى .

(٣٩) كما ورد في كتاب « مصر كما هي » Egypt as it is للمستر ماك كون ص ١٤٠ .

مقتل إسماعيل باشا صديق (المفتش)

(نوفمبر سنة ١٨٧٦)

وفي خلال المفاوضات بصدد الرقابة الثنائية ، وقع حادث رهيب ، له اتصال وثيق بارتباك مصر المالي ، وهو قتل إسماعيل صديق باشا .

كان جوشن ، مع مطالبته بالرقابة الثنائية ، يحتم إقصاء إسماعيل صديق عن وزارة المالية ، كشرط جوهرى لإصلاحها . قبل الخديو مضطرا تصحية وزيره الذى كان موضع ثقته سنوات عديدة ، واستقال إسماعيل صديق من منصبه بناء على إلحاح جوشن ، وإذعان الخديو ، وعين الأمير حسين كامل (السلطان حسين) خلفا له .

ولم يكتف جوشن بذلك ، بل اعترم مقاضاة إسماعيل صديق باشا أمام المحاكم المختلطة عن العجز الواقع فى الميزانية ، متبها إياه بتبديد هذا العجز إضرارا بحقوق حملة الأسهم ، فاضطرب الخديو من هذا التهديد ، وأدرك من حديثه مع وزيره الأمين ، أنه لا يبقى على ولائه لمولاه فى سبيل الدفاع عن نفسه ، وأنه إذا قدم للمحاكمة فإنه سيشارك الخديو معه فى تبديد أموال الدولة ، بل ربما ألقى عبء المسئولية على عاتقه ، ففكر إسماعيل فى التخلص منه ، ودبر مشروع محاكمته بتهمة التآمر على الخديو ، وإثارة الخواطر الدينية ضد مشروع جوشن وجوبير ، وقبل أن تبدأ المحاكمة اعترم أن يتخلص منه بلا جلبة ولا محاكمة ، وإنفاذا لهذا الغرض استدعاه إلى سراى عابدين ، كعلامة على الثقة به ، وهذا روعه ، وتلطف فى محادثته ، ثم اصطحبه إلى سراى الجزيرة ، مظهرا أنه رضى عنه ، ولكن لم تكد العربية التى أقلتها تجتاز حدائق السراى ، وتقف أمام باب القصر ، حتى نزل الخديو ويادر إلى إصدار أمره بالقبض على صديق واعتقاله فى ناحية من القصر ، ومن تلك اللحظة اختفى نبؤه عن الجمهور ، إذ عهد الخديو إلى أتباعه بقتله ، فقتلوه ، وألقوا جثته فى النيل (نوفمبر سنة ١٨٧٦) .

ولم يعلم الناس بادئ الأمر بما حل بالمفتش ، واستمرت المحاكمة الصورية ماضية فى سبيلها ، وحكم المجلس الخصوصى بنفيه إلى دنقلة وسجنه بها ، فى حين أنه لقي حتفه قبل أن تتم المحاكمة .

ولعمري أن هذه الوسيلة فى التخلص من الرجل ليست مما تسيفه الشرائع ، ولا النظم

والأخلاق ، فإن اغتيال الناس غدراً عمل لا يليق أن يصدر من النبلاء ، بله الملوك والأمراء .
ثم ماذا كان ينقم إسماعيل من المفتش ؟ إنه لم يكن ينفذ إلا السياسة التي وضعها الخديو .
أو كما يقول مؤلف (تاريخ مصر المالي) : « يجب أن نعطي ما لقيصر لقيصر ، فإذا كان المفتش
هو الأداة التي تحضر وتنفذ ، فإن الرأس الذي كان يتكرر وينظم هو الخديو^(٤٠) » .
ومهما يكن من الرأي في مقتل المفتش ، فقد انتهت بهذه الحادثة المفزعة حياة رجل فاقد
الذمة والضمير . تسلط على حكومة مصر ومصابيرها ثمانى سنوات طوال ، جرت الخراب المالي
على البلاد .

اعتقد إسماعيل أنه بقتل المفتش قد حقق غرضين ، أولهما أن يتخلص من إرذاعة أسرار
اشتراكه وإياه في تبديد أموال الدولة ، وثانيهما أن ينال عطف المندوبين الأوروبيين جوشن
وجوبير في مطالبهما منه ، وقد حقق إسماعيل الغرض الأول ، فإنه بمقتل المفتش ، وإلقاء جثته
في قاع اليم . قد غيّبت معه أسرار التلاعب والعبث بأموال الخزانة العامة ، أما الغرض الثاني
فلم يتحقق ، لأن إسماعيل صار تحت رحمة المندوبين الأوروبيين وتدخلها المستمر في شؤون
الحكومة .

وبعد قتل المفتش صدر مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ القاضي بفرض الرقابة الشائبة على
المالية المصرية .

مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ وتسوية الدين العام

إن المرسوم الذي أصدره الخديو في ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ قد وضع النظام الذي قرره
الدولتان الانجليزية والفرنسية لتسوية الدين العام^(٤١) ، وهو :

أولاً : التعديلات التي إرتأى جوشن وجوبير إدخالها على مشروع مايو سنة ١٨٧٦ .
ثانياً : فرض الرقابة الأجنبية على المالية المصرية .

أما التعديلات التي قررها مرسوم ١٨ نوفمبر فخلاصتها ما يأتي .

(٤٠) تاريخ مصر المالي ص ١٠٢ .

(٤١) نصه في قاموس جلال ج ٢ ص ١٣٥ (طبعة سنة ١٩٠٠) .

١ - إخراج ديون الدائرة السنوية وقدرها ٨١٥٠٠٠ ر ٨٨١ ج ، من الدين الموحد وعقد اتفاق خاص بشأنها (المادة الأولى) .

٢ - إخراج قروض سني ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ (القصيرة الأجل) من الدين الموحد واستهلاكها بموجب أحكام العقود الخاصة بكل منها ، على أن تسدد بواقع ثمانين في المائة من إيرادات المقابلة (مادة ٤) ، ومعنى ذلك أن توفى هذه الديون في مواعييدها بعد أن كان مرسوم ٧ مايو يدمجها في الدين الموحد ويطلق أجل سدادها ، وكان رصيد هذه الديون نحو ٢٩٣٠٠٠ ر ٤ ج .

٣ - تخفيض العلاوة المقررة لأصحاب الدين السائر من خمسة وعشرين إلى عشرة في المائة .

٤ - ما بقي من الدين المصري جعل قسمين ، قسم سمي (الدين الممتاز) ومقداره ١٧٠٠٠٠ ر ١٧ جنيه انجليزي ، صدرت به سندات سميت سندات الدين الممتاز ، فائدتها خمسة في المائة ، وتسدد في مدة خمس وستين سنة ، على أن يبدأ بأخذ المبالغ اللازمة لسداد فوائدها من الإيرادات المخصصة للدين العام ، وخاصة من إيرادات مصلحة السكك الحديدية وميناء الإسكندرية ، وهذه السندات تعطى بالأفضلية لحاملي سندات القروض المعقودة في سني ١٨٦٢ و ١٨٦٨ و ١٨٧٣ (الطويلة الأجل) (مادة ٢) ، والقسم الباقي سمي (الدين الموحد) ، وقد صار تخفيضه إلى ٥٩٠٠٠ ر ٥٩ جنيه انجليزي ، وإبقاء الإيرادات المينة بالمرسوم الصادر في ٧ مايو سنة ١٨٧٦ مخصصة بخدمة هذا الدين ، وجعلت فائده الإجمالية ٧٪ .

٥ - إعادة العمل بقانون المقابلة (مادة ٢) .

٦ - إبقاء صندوق الدين بصفة دائمة لغاية استهلاك الدين بأكمله (مادة ١٨) .

وإتماماً لهذه التسوية عقد في ١٢ و ١٣ يولييه سنة ١٨٧٧ اتفاقان لتسوية ديون الدائرة السنوية والدائرة الخاصة .

نظام الرقابة الثنائية

وقضى مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ بفرض الرقابة الأجنبية على المالية المصرية . وأن يتولاها رقيبان (مراقبان) بوظيفة « مفتشين عموميين »^(٤٢) ، أحدهما الإنجليزي ، والآخر فرنسي ، فالأول لمراقبة الإيرادات العامة للحكومة ، ويسمى مفتش الإيرادات ، والثاني لمراقبة المصروفات ، ويسمى مفتش الحسابات والدين العمومي (مادة ٧ من المرسوم) ، وتختار الحكومتان الإنجليزية والفرنسية الرقيبين المذكورين .

ووظيفة رقيب الإيرادات كما تنص المادة ٨ هي تحصيل جميع إيرادات الحكومة ، وتوريدها للخزائن المخصصة لها ، وله السلطة على مأموري التحصيل جميعهم ، ما عدا مأموري تحصيل الرسوم القضائية في المحاكم المختلطة ، وهو الذي يرشحهم لوظائفهم ويقفهم ، وله أن يعزل من يشاء منهم بعد تصديق (اللجنة المالية) ، وهي لجنة مؤلفة من وزير المالية ومن الرقيبين الأجنيين ، أي أن الكلمة فيها لهذين العضوين .

أما رقيب المصروفات (أو مفتش الحسابات والدين العمومي) فوظيفته ملاحظة تنفيذ القوانين واللوائح المتعلقة بالدين العام ، وتفتيش حسابات الخزنة ، وجميع صناديق الحكومة ، وليس لنظار الدواوين (الوزراء) ورؤساء المصالح أن يأمرؤا بصرف الأذون والتحاويل الصادرة منهم إلا بعد التأشير عليها من الرقيب ، وله أن يعترض على صرف أي مبلغ يراه قد تجاوز المربوط في الميزانية ويترتب عليه عدم القيام بالمصروفات الأخرى المقررة في الميزانية .

ويقوم رقيب المصروفات بوظيفة مستشار مالي بوزارة المالية (مادة ٩) ، ومن هنا جاء منصب المستشار المالي الذي انفرد به الانجليز بعد الاحتلال ، وللرقيبين الاشتراك في تحضير ميزانية الحكومة السنوية (مادة ١٠) .

(٤٢) كلمة « مفتش » كانت تؤدي في ذلك العصر معنى السلطة الواسعة ، كما يتبين ذلك من السلطة المخولة لمفتشي الأقاليم ، فإنها أكبر من سلطة المديرين ، ومن هنا جاءت تسمية إسماعيل صديق بالمفتش ، « وكان لمفتشي عموم الأقاليم سلطة تزيد أحيانا عن سلطة النظار (الوزراء) ، ولذلك كان يتولاها كبار الحكام والأمراء الذين نالوا ثقة الخديو ، فكلمة « مفتش عمومي » الواردة في مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ تؤدي معنى السلطة المطلقة المخولة للرقيبين الأوربيين .

وأنت تعرف معنى الاشتراك ، ومعنى الاستشارة في هذا الصدد ، فهى كلمات تؤدي معنى السيطرة التامة .

وتقضى المادة (١١) بأن جميع الاتفاقات التى يترتب عليها إنفاق مبلغ تزيد قيمته عن واحد من ١٢ من أصل المربوط السنوى فى الميزانية ، أو تستلزم إنفاق مبالغ على جملة سنوات يجب الإقرار عليها من اللجنة المالية المتقدم ذكرها .

إدارة صندوق الدين

وقضت المادة ٦ من مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ المتقدم ذكره أن الإيرادات المخصصة لصندوق الدين بمقتضى مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦ ، تبقى مخصصة له ، ويبقى صندوق الدين هيئة دائمة إلى أن يسدّد كامل الدين العام (مادة ١٨) ، ولأعضائه أن يتسلموا الإيرادات المخصصة لاستهلاك الدين ، ويرسلوها رأسا إلى بنكى إنجلترا وفرنسا ، ويكون تعيين اعضاء صندوق الدين بناء على طلب حكوماتهم .

لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية

وأُسند المرسوم إدارة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية ، وهى التى رهنّت إيراداتها لوفاء فوائد الدين الممتاز ، إلى لجنة مختلطة مؤلفة من خمسة مديرين ، منهم اثنان انجليزيان واثنان مصريان ، وواحد فرنسى . ويكون أحد المديرين الانجليز رئيسا للجنة (مادة ٢٣) . أى أن الغالبية والرياسة للعنصر الأوروبى ، ويتولى المديرون إدارة السكك الحديدية والميناء . ولهم السلطة العليا على موظفيها ، وعليهم تسليم جميع إيراداتها إلى صندوق الدين .

وعملا بهذا المرسوم عين الرقيبان الأوروبيان ، وهما المستر رومين Romaine رقبيا (مراقبا) انجليزيا على الإيرادات ، والبارون دى مالاريه De Malaret رقبيا فرنسيا على المصروفات ، وعين الماجور إفلن بارنج Baring (اللورد كرومر) عضوا انجليزيا فى صندوق الدين ، والمسيو دى بلنير عضوا فرنسيا ، وبقي المندوبان النمساوى والايطالى المعينان من قبل وهما فون كريمز Kremer . والسينور بارفالى Baravelli ، وعين الجنرال ماريوت

Maraioni الانجليزى رئيسا لقومسيون (لجنة) السكك الحديدية وميناء الاسكندرية .
يتبين مما تقدم أن نظام الرقابة الثنائية قد خول الرقيين سلطة مطلقة فى إدارة الحكومة المالية ، وهو أشبه ما يكون بالحجر على الأفراد . فإن قرارات الوصاية أو الحجر التى تصدر من المجالس الحسينية على فاقد الأهلية تغل سلطته عن التصرف فى أمواله ، وتنصب وصياً أو قياً عليه يتولى هذا التصرف ، وكذلك الرقابة الثنائية قد جعلت من الرقيين الأوروبيين قواما على الحكومة المصرية ، واقرنت هذه القوامة أو الوصاية بتلك الشروط الشديدة الوطأة فى أداء ديون الحكومة ، ووضع مصلحة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية فى يد إدارة مختلطة ، ولا شك أن هذا النظام إنما هو من النظم الاستعمارية الجائرة ، التى تدل على جشع المالىين والسياسيين الانجليز والفرنسيين ، وسوء نيتهم نحو مصر ، فإن توقف الحكومة عن الدفع لم يكن يقتضى هذه الشروط القاسية المهينة ، وتبين لك قسوتها من أن عدة دول كانت فى ذلك الحين متوقفة عن الوفاء بديونها للمالىين الأوروبيين ومع هذا لم تستهدف دولة منها إلى مثل تلك الشروط الجائرة فى تسوية ديونها ، وهكذا المطامع الاستعمارية ، لا تعرف حقاً ولا إنصافاً ، وقد اندفعت فرنسا إلى وضع هذه القيود والأغلال متوهمة أنها تخدم مصالحها المالية ، على أنها فى الواقع إنما خدمت مقاصد انجلترا السياسية ، فإن النظم الثنائية محكوم عليها دائماً بالإخفاق ، ومآلها حتماً الى تغلب أحد الشريكين على الآخر ، اعتبر ذلك فيما صار إليه السودان على أثر اتفاقية سنة ١٨٩٩ الباطلة ، وكذلك حدث للرقابة الثنائية ، فقد استحوالت مع الزمن سيطرة انجليزية كما سيحى بيانه ، وفى ذلك يقول المسيو دى فريسنيه Freycinet الوزير الفرنسى المشهور ما خلاصته : « إننا إرتكبنا فى هذا الصدد خطأين ، أولهما اننا جعلنا التدخل فى مسألة مصر مقصوراً على أنفسنا وعلى الانجليز ، والعمل المثوى هو فى ذاته عمل متعب ، وخاصة إذا كان بين شريكين مختلفان فى الطباع والمناهج ووجهات النظر ، مثل فرنسا وانجلترا ، ولا بد فى هذه الاتفاقات من ضحية ، وكان من الواجب علينا أن نشرك معنا الدول الأخرى ، وتتخذ فى هذه المسألة وسائل دولية ، على النحو الذى حدث فى إنشاء صندوق الدين والمحاكم المختلطة ، أو كما حدث بعد ذلك فى قانون التصفية ، والخطأ الثانى أننا أسرفنا فى جعل سياستنا تابعة للمسألة المالية ، فإنه وإن كان يحسن بالحكومة أن تحمى مصالح رعاياها ، ولكن الحالة تختلف إذا كان أصحاب الديون لا يهتمون ما تنطوى عليه أعمالهم المالية من المغامرة ، ففي هذه الحالة لا يطلب من الحكومات أن تتدخل فى شؤون الدول الأخرى إلى هذا الحد ، فنحن لم

نحارب تركيا أو البرتغال أو البلاد الأخرى التي توقفت عن أداء أقساط ديونها ، فلماذا كنا قساة نحو مصر؟ مع أنها كانت أقل إخلالا بتعهداتها المالية من تلك الدول» (٤٣).

وقد بقي نظام الرقابة الثنائية معمولاً به إلى أن تألفت الوزارة المختلطة برئاسة نوبار باشا ، في أغسطس سنة ١٨٧٨ ، وفيها وزيران أجنبيان ، أحدهما انجليزي والآخر فرنسي ، فاستغنى مؤقتاً عن الرقيين الأجنبيين ، ولما وقعت الأزمة السياسية التي انتهت بنحس إسماعيل ، أعيد العمل بنظام الرقابة الثنائية في أوائل عهد توفيق باشا ، وبعد الاحتلال الانجليزي ألغيت الرقابة في أوائل سنة ١٨٨٣ وحلت محلها سلطة المستشار المالي الانجليزي ، وبذلك تحولت الرقبة الثنائية إلى سيطرة انجليزية .

أما إدارة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية فقد بقي الجنرال مريوت يتولاها إلى أن توفي ، ثم صدر مرسوم في ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٩ في أوائل عهد توفيق باشا بتعديل تأليف اللجنة المختلطة الموكولة إليها تلك الإدارة بأن جعلت من ثلاثة مديرين أحدهما انجليزي وله الرئاسة ، والآخر فرنسي ، والثالث مصري ، ثم تسلم الانجليز إدارتها في عهد الاحتلال .

لجنة التحقيق العليا الأوروبية

(٢٧ يناير سنة ١٨٧٨)

كانت مهمة الرقيين الأجنبيين مراعاة مصالح الدائنين الأجانب ، وتدبير المال اللازم لوفاء الأقساط المطلوبة لهم ، ولكن أحوال الحكومة المالية سارت من سيئ إلى أسوأ ، وازداد ارتباكها وعجزها ، وبالرغم مما أسرف فيه الرقيان الأجنبيان من ابتزاز أموال الأهالي بطرق القهر والعسف ، فقد عزيا إلى إسماعيل أنه يقيم العقوبات في سبيل انتظام شؤون الحكومة المالية ، واتفق الرقيان وأعضاء صندوق الدين على المطالبة بتأليف لجنة تحقيق أوروبية لفحص شؤون الحكومة المالية .

لا جرم أن هذا الطلب وما ينطوي عليه من اعتداء فادح على استقلال مصر وتدخل في شؤونها الداخلية ، يدل على مبلغ استهانة الدائنين بكرامة الحكومة المصرية ، ولكن الخديو إسماعيل اضطر تحت ضغط الحكومات الأوروبية إلى الإذعان لهذا الهوان ، وأصدر مرسوماً في

٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ بتأليف لجنة أوروبية عرفت بلجنة التحقيق العليا ، ومهمتها تحقيق العجز في أبواب الإيرادات وأشبابه وأوجه النقص في القوانين واللوائح الخاصة بالضرائب ، ووسائل إصلاحها ، وتحقيق موارد الميزانية عن سنة ١٨٧٨ ، وأذن المرسوم للجنة بالاتصال بجميع المصالح والدواوين وسماع من ترى لزوما لسماعه لجمع البيانات التي تطلبها .

وكان هذا المرسوم يقصر اختصاص اللجنة على تحقيق موارد الإيراد ، دون المنصرف ، فلم يرض الدائنون بذلك ، وتدخلت الدولتان الانجليزية والفرنسية ، وأصرتا على أن يتناول اختصاص اللجنة تحقيق حالة الإيراد والمنصرف معاً ، فأذن إسماعيل إلى طلباتها ، وأصدر في ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ مرسوماً آخر بتعميم اختصاص اللجنة ، وجعله شاملاً حالة الحكومة المالية بجميع عناصرها ، أي أنه يشمل الإيرادات والمصروفات ، وفرض المرسوم على وزراء الحكومة وسائر موظفيها إعطاء اللجنة جميع البيانات التي تطلبها منهم وتقديمها إليها رأساً من غير إبطاء .

تألفت اللجنة طبقاً لهذا المرسوم من الميسو فردينان دلسبس (فاتح قناة السويس) رئيساً ، والسير ريفرس ويلسن Rivers Wilson ورياض باشا وكيلين ، وأعضاء صندوق الدين وهم دى بليشير . وبارافلى ، وبارنج (كرومر) وفون كريمز .

وتم هذا التعيين تنفيذاً لما اقترحه الدولتان الانجليزية والفرنسية ، وعين المسية ليرون ديروول Liron DAiroles مفتش المالية بفرنسا سكرتيراً للجنة ، والميسو كولون Coulon المحامى المستشار لشركة قناة السويس كاتباً لمخاضر جلساتها .

وأخذت اللجنة تتولى مهمتها ، وتفحص كل نواحي الادارة المالية ، وتستدعى من تشاء من الموظفين المصريين ، وترسل مندوبيها إلى الأقاليم لتحقيق ما ترى فحصه ، وظهرت بمظهر الهيئة المسيطرة على الادارة المصرية .

وكان شريف باشا الوزير المشهور يتولى وقتئذ وزارتي الحقانية والخارجية ، ولم يكن راضياً عن تدخل الدول في شؤون مصر بهذا الشكل المهين ، ولا عن إذعان الخديو لطلباتها الجائرة ، وأرادت اللجنة أن تجبره على الاعتراف بسلطانها ، فأرسلت إليه تستدعيه أمامها لتسمع أقواله ، فعرض عليها أن يجيب على ما تسأله كتابة ، ولكن اللجنة أصرت على حضوره ، فرفض بإباء أن يطأطيء الرأس أمامها ، وامتنع عن المثول بين يديها ، ووقعت أزمة بسبب إباطه ، انتهت باستقالته من الوزارة ، وكان ريفرس ويلسن صاحب النفوذ الأكبر في اللجنة ،

وتولى رأسها الفعلية لكثرة تغيب المسيو فردينان دلسبس في باريس ، وبعد أن قطعت اللجنة المرحلة الأولى ، من أعمالها وضعت تقريراً مبدئياً ، يتضمن شرح الحالة المالية وعيوبها . وما تقترحه لإصلاحها ، وأحصت في تقريرها الديون غير المسجلة التي لم تدخل ضمن تسوية سنة ١٨٧٦ ، وهي قيمة المطلوبات المتأخرة على الحكومة لتجار ومقاولين وغيرهم ورواتب متأخرة للموظفين وأرباب المعاشات ، فبلغ مقدار ذلك ٢٧٦٠٠٠ ر ٦ ج ، بخلاف الدين العام ، واعتبرته عجزاً في ميزانية الحكومة ، وأحصت العجز في ميزانية سنة ١٨٧٨ ومقداره ٢٥٨٦٠٠٠ ر جنيه ، وفي ميزانية ١٨٧٩ ومقداره ٣٨١٢٦٣ ر ٣ ج فبلغ مجموع العجز ٩٢٤٣٢٦٣ ر ٩ ج اعتبرت أن الخديو مسئول عن قيمته ، وطلبت لسد هذا العجز أن ينزل عن أطيانه وأطيانه عائلته ، فعرض الخديو أن ينزل عن أطيانه المعروفة بأطيانه الدائرة السنية والدائرة الخاصة . وعن ٢٨٨,٨٦٢ فدان من أطيانه عائلته ، ولكن تبين أن أطيانه الدائرة السنية والدائرة الخاصة مرهونة في ديونه السابقة ، فطلبت اللجنة أن يخصص لسداد العجز المتقدم ذكره أطيانه أخرى للعائلة الخديوية ، فقبل هذا الطلب ، ونزل بعض الأمراء والأميرات عن جزء من أملاكهم ، رهنه فيما بعد ضماناً لقرض الدومين ، وطلبت اللجنة أن يحدث الخديو تغييراً في نظام الحكم ، وينزل عن سلطته المطلقة ، إخلاء لمسئوليته في المستقبل عن العجز في ميزانية الدولة .

إن بلادى لم تعد في إفريقية

رفعت اللجنة تقريرها إلى الخديو ، ثم قابله السير ريفرس ويلسن يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ ، ليتلقى منه رأيه في الموقف السياسى والمالى بعد اطلاعه على التقرير ، ومع أن هذا التقرير يحتوى على بيانات وهم موجهة إلى شخصه ، فإنه اضطر إلى الإذعان ، وقبل مطالب اللجنة ، وأدلى بالبيان الآتى في حديثه للسير ويلسن :

« قرأت تقرير لجنة التحقيق ، وهو مملوء بالبيانات التفصيلية ، ولئن أعوزكم الوقت للتعلمق في بعض المسائل ، فهذا لا يقلل من جزيل شكرى لكم ولزملائكم الذين أسفت لسفرهم ، وكنت أود أن أشكرهم بنفسى ، فأرجو منكم أن تبلغوهم تشكراتى الجملة .

« وفيما يتعلق بالنتائج والمقترحات التي انتهت إليها ، فإنى أقبلها ، وطبيعى أن أفعل ذلك

فإني أنا الذي رغبت في هذا العمل لصالح بلادى . وعلى الآن أن أنفذ هذه المقترحات . ولكن على يقين بأنى عازم على ذلك عزمًا جدياً ، إن بلادى لم تعد في أفريقية ، بل نحن الآن قطعة من أوروبا ، فطبعى أن نطرح الأغلاط الماضية ، وأن نسير على نظام يتفق وحالتنا الاجتماعية وسرى عن قريب تغييرات هامة تحدث بأسهل مما يظنون ، وقوامها وضع الأمور في نصابها . واحترام القانون ، ومن الواجب أن لا نكثر من الكلام ، وأنا من جهتي قد اعترمت أن أتوخى الحقائق العملية ، وإني بادئ عملى بتكليف نوبار باشا أن يؤلف لى وزارة لكى أفتتح العهد الجديد ، وأظهر مبلغ ما أنا عازم على عمله .

« وقد يبدو أن هذا التغيير ليس من الأمور الهامة ، ولكن سترون أنه إذا حسن فهمه سينشأ منه الاستقلال الوزارى ، وليس هذا بالأمر الهين ، فإنه أساس نظام جديد فى الحكم ، وهو خير ما أعطيه من التأكيدات والضمانات على مبلغ ما انتويته من العمل بمقترحاتكم ، وأريد أن تعتقدوا أنكم إذا كنتم قد واجهتم عملاً شاقاً متعباً فإن مجهوداتكم لن تذهب عبثاً ، لأن كل عمل ينتج ويؤتى ثمره فى تلك الأرض الأزلية التى تظلمها سماء مصر » (٤٤) .

هذا ما أجاب به الخديو على تقرير لجنة التحقيق الأوروبية .

ففى هذا المعرض إذن قال إسماعيل كلمته المشهورة : « إن بلادى لم تعد فى أفريقية الخ » ومن تهكم الأقدار أن تصبح مصر على ما يقول إسماعيل قطعة من أوروبا ، فى الوقت الذى فقدت فيه استقلالها المالى وضربت أوروبا وصايتها القهرية عليها ، ولعمري ليس مما يفخر به صاحب العرش أن يجعل بلاده جزءاً من أوروبا على هذه الطريقة المعكوسة .

وهذا الجواب فى ذاته يدل على مبلغ ما أصاب استقلال مصر من الصدع ، فإن تدخل لجنة تحقيق أوروبية فى شئون مصر المالية والسياسية ، وإملاءها إرادتها على ولى الأمر ، واضطرار ولى الأمر إلى قبول تدخلها وشكرها على هذا التدخل ، والعمل بمقترحاتها ، وقبول الرقابة الثنائية من قبل ، كل هذه الظواهر المحزنة تنم عن الضعف الذى أصاب مصر فى ذلك العهد ، وهذا الضعف نتيجة السياسة المالية التى اتبعها إسماعيل ، والديون الباهظة التى اقترضها ، والتى جعلته والبلاد تحت رحمة الدائنين .

(٤٤) عن الكتاب الأصفر (مجموعة الوثائق الدبلوماسية الفرنسية سنة ١٨٧٨ - ١٨٧٩ ص ١١٥) عدا الفقرة الأخيرة فقد ذكرها السيوجابريل شارم ، ووردت أيضاً فى جريدة (المونيتور اجبسيان) عدد ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٨ .

مراىى السياسة الإنجليزية وتأليف الوزارة المختلطة

كان السير ريفرس ويلسن صاحب النفوذ الفعال فى لجنة التحقيق ، والموحى بالفكرة الأساسية فى التقرير الذى إنتهت إليه ، وهو الذى وجه اللجنة إلى حيث يخدم المطامع الاستعمارية الإنجليزية ، إذ كانت وجهة النظر الإنجليزية أن تزداد تدخلها فى شؤون مصر ، بالاشتراك ظاهراً مع فرنسا ، على أن تترشحها مع الزمن من الميدان ، وتستأثر هى بالنفوذ والسلطان ، فاتفقت وفرنسا على النظام الذى يحل محل الرقابة الثنائية ، وهو تأليف وزارة مختلطة برئاسة نوبار باشا ، يدخلها وزيران أوروبيان ، أحدهما إنجليزى لوزارة المالية ، والثانى فرنسى لوزارة الأشغال ، فكان ذلك بمثابة مضاعفة للرقابة الثنائية المضروبة على مصر من قبل ، وقد كان مؤتمر برلين منعقداً قبل انقضاء لجنة التحقيق الأوروبية ، وكان منتظراً أن تطرح عليه المسألة المصرية ، ويقرر مصيرها ، ولكن الدولتين الإنجليزية والفرنسية اتفقتا على استبعاد المسألة المصرية من المؤتمر ، وأن يكون أمر تسويتها موكولاً إليهما دون سواهما ، وقد فازتا ببغيتها ، إذ لم يعرض المؤتمر لهذه المسألة ، واتفقتا أيضاً على أن يكون حظ كل منهما مساوياً لحظ الأخرى فى التسويات المالية والسياسية التى تتعلق بمصر ، وكان من مظاهر هذا الاتفاق تواطؤهما على اقتسام النفوذ فى الوزارة المصرية على النحو المتقدم ، وأوعزتا إلى الحديو باختيار نوبار باشا لرئاسة الوزارة المختلطة ، لاطمئنانهما إلى ميوله الأوروبية ، وخاصة الإنجليزية ، كى يحقق ما اتفقت عليه الدولتان ، وينفذ مطالب لجنة التحقيق .

لم يخدم هذا الاتفاق فى الواقع سوى المطامع الإنجليزية ، لأن إنجلترا كانت تمهد السبيل لتنفرد هى بالنفوذ فى الحكومة المصرية ، وقد بدت هذه النية على السير ريفرس ويلسن خلال اجتماع لجنة التحقيق ، وفى ذلك البارون دى ميشيل Des Michels . فنصل فرنسا العام فى مصر : « إن السير ريفرس ويلسن لم يكن يرى أن فى مصر موظفين أكفاء سوى مواطنيه ، وأن من الواجب مضاعفة عددهم ، ووضع الأهلىن تحت حماية أجنبية (يقصد إنجليزية) ، قال وفى خلال اجتماع لجنة التحقيق ذاعت إشاعة فى القاهرة بأنه بعد الانتهاء من عملها ستظهر فى الأفق فكرة تعيين وزير أجنبى/ ، وأن هذا الوزير سيكون السير ريفرس ويلسن ذاته ، فهذه الأعراض وغيرها جعلتني قليل الثقة فى مقاصد حلفائنا ، فإن المسألة موضع النظر ليست فى الواقع مصالح الدائنين وتسوية الشؤون المالية ، بل صارت تتناول مصير مصر بأكملها ، من

أجل ذلك يبدو المستقبل أمامي في صورة تدعو حقاً إلى أشد القلق» (٤٥).
 وكان البارون دي ميشيل يرى أنه بعد إلغاء الرقابة الثنائية يجب أن يحل محلها نظام أوروبي مشترك ، قال في هذا الصدد : « إن الرقابة الثنائية كان يمكن أن تؤدي إلى اتفاق سعيد ولكن مادام الضعف قد وصل بنا إلى ترك الانحلال يتطرق إليها ، وكل الدلائل تدل على أن الإنجليز عادوا إلى مطامعهم الذاتية واستثأروهم بالمنافع ، فقد حان الوقت لنطرح هذا الضعف جانباً . وننظر إلى الأمور نظراً أعلى ، فنعرض على ممثلي الدول المجتمعين الآن في مؤتمر برلين جعل مسألة مصر مسألة دولية» (٤٦).

ولكن الحكومة الفرنسية لم تستمع إلى هذه النصيحة ، إذ كان يتولى وزارة خارجيتها في ذلك الحين سياسي ضعيف الرأي مشهور بميوله الإنجليزية ، وهو المسيو وادنجتون Waddington ، فقداد السياسة الفرنسية إلى حيث خدمت الأطماع البريطانية ، واتفقت الدولتان على أن يكون لكل منهما وزير في الوزارة المصرية ، واتفقتا على تعيين الوزيرين وهما السير ريفس ويلسن رئيس لجنة التحقيق الإنجليزي وزيراً للمالية ، والمسيو دي بلينيير De Blignières العضو الفرنسي بصندوق الدين وبلجنة التحقيق وزيراً للأشغال ، مع بيان اختصاص كل منهما ، حتى يعرف كل وزير حدوده في الغنيمة ، وهذا من أغرب ما سمع في تاريخ النهب الاستعماري .

إنشاء مجلس النظار

أصدر إسماعيل في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ أمره المشهور بإنشاء مجلس النظار وتحويله مسئولية الحكم ، وعهد إلى نوبار باشا في ذات الأمر تأليف الوزارة على هذه القاعدة ، ولما كان هذا الأمر هو أساس نظام الحكم في مصر من ذلك الحين ، فقد رأينا أن نثبته هنا لما له من الشأن الكبير في تطور هذا النظام .
 قال الخديو مخاطباً نوبار باشا (٤٧) .

(٤٥) دي فريسنيه De Freycinet - المسألة المصرية La Question D'Egypte ص ١٦٦ .

(٤٦) المرجع السابق ص ١٧٩ .

(٤٧) كتب أصل الأمر بالفرنسية ، وهو منشور في جريدة (النيثوراجسيان) عدد ٣٠ أغسطس سنة ١٨٧٨ ، ثم ترجم إلى العربية ضمن وثائق الحكومة ، وبوقد أبقينا الترجمة كما هي لأنها من الوثائق الرسمية .

« وزيرى العزيز .

« إني أطلت الفكرة وأمعت النظر في التغييرات التي حصلت في أحوالنا الداخلية والخارجية الناشئة عن تقلبات لأحوال الأخيرة ، وأردت في وقت مباشرتكم لمأمورية تشكيل هيئة النظارة الجديدة التي فوضت أمرها إليكم أن أؤكد لكم ما توجه قصدتي إليه ، وثبت عزمي عليه ، عن إصلاح الإدارة وتنظيمها على قواعد مماثلة للقواعد المرعية في إدارات ممالك أوروبا ، وأريد عوضاً من الانفراد بالأمر المتخذ الآن قاعدة في الحكومة المصرية سلطة يكون لها إدارة عامة على المضالح تعادلها قوة موازنة من مجلس النظار ، بمعنى أني أروم القيام بالأمر من الآن فصاعداً باستعانة مجلس النظار والمشاركة معه وعلى هذا الترتيب أرى أن إجراء الإصلاحات التي نهت عليها يستلزم أن يكون أعضاء مجلس النظار بعضهم لبعض كفيلاً . فإن ذلك أمر لازم لا بد منه .

« يجب على مجلس النظار أن يتفاوض في جميع الأمور المهمة المتعلقة بالقطر ، ويرجح رأى أغلبية أعضائه على رأى الأقل عدداً فيكون حينئذ صدور قراراته على حسب الأغلبية . ويتصديق عليها أقرر الرأى الذى تكون عليه الأغلبية .

« يتعين على كل ناظر من النظار أن يجرى قرارات المجلس المصدق عليها منافى الإدارة المنوطة به .

« تعيين المديرين والمحافظين ومأمورى الضبطيات يكون بالمداولة بين الناظر التابعين هم لإدارته وبين رئيس المجلس ، وما يستقر عليه الرأى يعرض علينا بواسطة رئيس المجلس لأجل تصديقنا عليه .

« الناظر الذى يكون المأمورون وأرباب الوظائف السالف ذكرهم تحت إدارته مباشرة له الحق في توقيفهم عند الاقتضاء عن إجراءات وظائفهم ، وذلك بعد اتفائه مع رئيس هيئة النظار ، وأما انفصالهم عن وظائفهم فلا يكون إلا بعد اتفاق الناظر التابعين له مع رئيس المجلس والتصديق عليه منا .

« للنظار أن يتخبوا المأمورين ذوى المناصب العالية اللازمين لإدارتهم وأن يعرضوا ذلك علينا للتصديق عليه منا ، وأما الوظائف الصغيرة فيكون تعيين المستخدمين اللازمين لها بخطاب أوقرار من ناظر الديوان .

« أعمال كل ناظر تجرى في الأمور التي تكون من خصائصه لا غير ، وأرباب الوظائف

والمستخدمون في كل فرع من فروع الإدارة لا يتلقون الأوامر إلا من رئيس المصلحة التي هم مستخدمون بها وتابعون لها ، ولا يجب عليهم طاعة أمر غيره .

« ينعقد مجلس النظر تحت رياستكم ، لأنى فوضت هذا التنظيم الجديد تحت عهدتكم وجعلت مسئوليته عليكم .

« وإنى أرى تشكيل هيئة نظارة حائزة لهذه الخصوصيات ليس مخالفاً لعوائدنا وأخلاقنا . ولا لآرائنا وأفكارنا ، بل موافقاً لأحكام الشريعة الغراء ، ويتعميم ترتيب محاكم الحقانية تكون فيها الكفاءة لحاجات هيئتنا الاجتماعية ، والمساعدة على تتميم مقاصدنا الحقيقية ونياتنا الخيرية .

« وإنى معتمد عليك في إجراء الإصلاحات التي صممت عليها ، مؤملاً أن تكفل للبلاد جميع التأمينات التي لها الحق في انتظامها والحصول عليها من حكومتنا .

« ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ إسماعيل »

وأهم ما في هذا الأمر :

١ - أن مجلس النظر هو هيئة مستقلة عن ولى الأمر ، تشاركه في الحكم وتحتمل مسئوليته .

٢ - إن أعضاء مجلس النظر متضامنون في المسئولية .

٣ - إن قراراته بالأغلبية .

٤ - رئاسة مجلس النظر من حقوق رئيس المجلس ، فلا يرأسه الخديو .

وقد بقى هذا الأمر دستور الحكومة من ذلك العهد ، ولكن الخديو توفيق باشا ألغى مجلس النظر مؤقتاً بعد استقالة وزارة شريف باشا الثانية وذلك بمقتضى الأمر الصادر فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ (٣٠ شعبان سنة ١٢٩٦) ، وعين نظاراً منفصلين تحت رآسته هو ، ثم أعاد هيئة المجلس بتكليفه رياض باشا تأليف الوزارة فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، وحفظ لنفسه فى كتابه إلى رياض باشا حق حضور جلسات مجلس النظر وتولى رآسته عند الاقتضاء ، ومن ذلك الحين جرت العادة بأن تعقد جلسات المجلس تارة برآسه ولى الأمر وطوراً برآسة رئيس النظر (الوزراء) .

وزارة نوبار باشا الأولى

شكل نوبار باشا الوزارة التي عهد إليها تأليفها على النحو الآتي (بعد التعديل الذي دخل عليها) .

نوبار باشا رئيساً لمجلس النظار (الوزراء) وناظراً (وزيراً) للخارجية والحقانية . رياض باشا للداخلية . راتب باشا للحربية السير ريفرس ويلسن للمالية . المسيو دي بلينير للأشغال . على باشا مبارك للمعارف والأوقاف .

وعرض نوبار باشا على شريف باشا أن يشترك في الوزارة متولياً الحربية فلم يقبل ، ولعله رأى أن تأليف وزارة يدخلها عضوان أجنبيان مهزلة لا يليق أن يشترك فيها ، وحسنا فعل . تولى الوزيران الأوروبيان كما ترى أهم الوزارات ، وكان أحدهما يمثل الحكومة والمصالح الإنجليزية ، والثاني يمثل الحكومة والمصالح الفرنسية .

وصار حكم البلاد فعلاً في يد الوزيرين الأوروبيين ، لانحياز نوبار باشا ورياض باشا إلى جانبها ، ووقف العمل مؤقتاً بنظام الرقابة الثنائية ، لأن في تعيين الوزيرين الأوروبيين ما يغني عنها وزيادة ، واتفق الخديو والحكومتان الإنجليزية والفرنسية على أن تعاد الرقابة الثنائية حتماً إذا فصل أحد الوزيرين الأجبيين من منصبه من غير موافقة حكومته .

١٣ - قرض جديد (سلفة الدومين)

كان من أول أعمال الوزارة « الأوروبية » أنها عقدت قرضاً جديداً من بنك روتشلد الإنجليزي مقداره ٨,٥٠٠,٠٠٠ من الجنيهات ، وهو الذي عرف بقرض الدومين ، أودين روتشلد ، ورهنت في مقابلة الأملاك التي نزل عنها بعض أفراد الأسرة الخديوية ومقدارها ٤٢٥,٧٢٩ فدان^(٤٨) وعهد بإدارتها إلى لجنة دولية تسمى قومسيون الأملاك الميرية (الدومين) مؤلفة من ثلاثة أعضاء ، عضو مصري واثنان أجنبيان أحدهما انجليزي والآخر فرنسي . وقد خسرت البلاد في هذا القرض خسارة فادحة لا تقل عن خسائرها في قروض إسماعيل

(٤٨) المادة ٣ من المرسوم الصادر في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٧٨ .

السابقة ، فإنه وإن كانت قيمته الاسمية ٨,٥٠٠,٠٠٠ من الجنيهات الإنجليزية ، لكن قيمته الحقيقية لم تزيد عن ٦.٢٠٥.٠٠٠ ج . لأن أسهمه صدرت بسعر ٧٣٪ فخسرت مصر ٢,٢٩٥,٠٠٠ ج من هذا الباب وحده ، وبلغ صافي القرض بعد خصم السمسرة والمصاريف ٥,٩٩٢,٥٠٠ من الجنيهات ، وهذا يدل على أن الإدارة الأوروبية لم تكن تعنى بمصلحة مصر ، بل بالمصالح الأجنبية ، وقد وصف القاضي الهولندي فان بلمن هذا القرض بأنه اختلاس بكل معاني الكلمة^(٤٩) .

دفعت الوزارة من هذا القرض بعض أقساط الديون ، ولم تعبأ بما دون ذلك من مصالح البلاد ، ومطالب الأهلى ، فلم تسدد ما كان متأخراً للموظفين من الرواتب ، ولم تخصص شيئاً لمراقب البلاد العامة .

ثم عمدت بحجة الاقتصاد إلى إنقاص عدد الجيش وإحالة ٢٥٠٠ من ضباط الجيش على الاستبداع . فكان هذا العمل من أسباب هياج الضباط وثورتهم على الحكومة ، كما سنفصل ذلك فى الفصل الآتى :

ختام النزاع بين الخديو والدائنين

استقال نوبار باشا من رئاسة الوزارة على أثر ثورة الضباط ، ولم يعين إسماعيل خلفاً له ، وأبدى ميله إلى أن يتولى بنفسه رئاسة مجلس الوزراء . وبعد مفاوضات لم تدم طويلاً أعلن إسماعيل مضطراً أن الاتفاق تم على أن لا يرأس الخديو مجلس الوزراء ولا يحضر مداوالاته ، وأن يتولى الأمير محمد توفيق باشا رئاسة المجلس ، ويكون للوزيرين الأوروبيين حق (الفيتو) أى المعارضة فى كل ما لا يوافقان عليه ، وكل أمر لا يقر أنه لا ينفذ ، فقلد الخديو ابنه توفيق باشا رئاسة الوزارة فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ ، ولم تدم وزارته طويلاً ثم استقالت إجابة لمطالب الأحرار ، وأخلت الطريق لوزارة شريف باشا المعروفة بالوزارة الوطنية ، وفى عهدها اشتدت أزمة الخلاف بين الخديو والدول وانتهت الأزمة بخلع إسماعيل كما تراه مفصلاً فى الفصل الثالث عشر .

* * *

(٤٩) مصر وأوروبا للقاضي المختص فان بلمن ج ١ ص ١٨٥ .

الفصل الثاني عشر

الحركة الوطنية والحياة النيابية

لم يكن في مصر هيئة نيابية تمثل الشعب وتشارك في مظاهر الحكم حين ولي إسماعيل الأمر سنة ١٨٦٣ ، وكانت البلاد محرومة مثل هذه الهيئة منذ إبطال « مجلس الشورى » الذي أسسه محمد علي سنة ١٨٢٩ وكان بمثابة أول هيئة نيابية ظهرت في عهد الأسرة المحمدية العلوية ، وقد تكلمنا عن هذا المجلس في كتاب (عصر محمد علي) ص ٤٦٦ (طبعة ثانية) ، وانتهينا إلى أنه لم يكن طويل العمر ، ولم يظهر له أثر في معظم عهد محمد علي .

إنشاء مجلس شورى النواب

ثم انقضى عهد عباس وسعيد دون أن يجتمع مجلس الشورى أو مجلس يشبهه ، فلما تولى إسماعيل الحكم فكر في إنشاء مجلس شورى على نظام جديد دعاه (مجلس شورى النواب) . إن فكرة إنشاء هذا المجلس في ذاتها فكرة سديدة صائبة ، تدل على ميل إسماعيل إلى تقدم الشعب وتعويده الاشتراك في الشؤون العامة ، وتلك ميزة يمتاز بها عصره عن عهد سعيد وعباس .

نظام المجلس

أنشئ هذا المجلس سنة ١٨٦٦ ، ووضع الخديو إسماعيل نظامه في لائحتين عرفت الأولى باللائحة الأساسية ، وهي مؤلفة من ثمانى عشر مادة مشتملة على بيان سلطته ، وطريقة انتخابه ، وموعد اجتماعه ، وسميت الثانية اللائحة النظامية (نظامنامه) ، وتشبه أن تكون لائحة داخلية للمجلس مؤلفة من ٦١ مادة .

ومن أحكام اللائحتين^(١) نستطيع أن نتبين نظام المجلس ومدى سلطته ، وإنا موجزون هنا القواعد التي استخلصناها من مجموع هاتين اللائحتين :

أولاً : إن المجلس لم تكن له سلطة قطعية في أى أمر من الأمور ، وهو وإن كان يصدر قرارات فيما يعرض عليه من الشؤون إلا أن هذه القرارات لا تعدو أن تكون « رغبات » ترفع إلى الخديو ، وله فيها القول الفصل ، ولم تحدد اللائحة الأساسية ولا اللائحة النظامية المسائل التي يبدى رأيه فيها ، بل عبر عنها بأنها المسائل « التي تراها الحكومة من خصائصه » ، وأشير في بعض المواد إلى أنها المسائل المتعلقة « بالمنافع الداخلية » ويبدى رأيه أيضاً في المقترحات التي يتقدم بها الأعضاء .

ثانياً : يتألف المجلس من عدد لا يزيد عن ٧٥ عضواً ، ينتخبون لمدة ثلاث سنوات ويتولى انتخابهم عمد البلاد ومشايخها في المديريات ، وجماعة الأعيان في القاهرة ، والإسكندرية ، ودمياط ، وكان عدد نواب كل مديرية بحسب التعداد فينتخب واحد أو اثنان عن كل قسم من أقسام المديرية بحسب كبر القسم وصغره ، وينتخب ثلاثة نواب عن القاهرة ، واثنان عن الإسكندرية ، وواحد عن دمياط .

ثالثاً : يشترط فيمن ينتخب عضواً أن يكون مصرياً ، ومن المتصفين « بالرشد والكمال » ، ولا تقل سنه عن خمس وعشرين سنة ، وأن لا يكون ممن صدرت ضدهم أحكام جنائية بالليمان أو من المحكوم عليهم بالإفلاس ، أو الطرد من وظائف الحكومة بحكم ، واشترط في العضو العلم بالقراءة والكتابة في الانتخاب السابع ، أى بعد مضي ثمانى عشرة سنة على تأسيس هذا النظام ، لأن مدة كل مجلس ثلاث سنوات ، ومعنى ذلك أن النواب كانوا يعفون من هذا الشرط في الانتخابات الستة الأولى .

ولوحظ في هذا التمييز أن هذه المدة تكفى لانتشار التعليم في البلاد ، بحيث يشترط في الأعضاء بعد انقضائها أن تكون لهم ذراية بالقراءة والكتابة ، واشترط في الناخبين أن يكون لهم إلمام بالقراءة والكتابة في الانتخاب الحادى عشر ، أى بعد انقضاء ثلاثين سنة على الانتخاب الأول .

رابعاً : يحصل انتخاب نواب كل مديرية في عاصمتها ، وكل ناخب ينتخب العضو

(١) هامش الطبعة الثانية - نشرنا نص هاتين اللائحتين في قسم الوثائق التاريخية .

النائب عن قسمه ، ويناط فرز أوراق الانتخاب بـ لجنة مؤلفة من المدير والوكيل وناظر قلم الدعاوى^(٢) وقاضى المديرية .

خامسا : يجتمع المجلس شهرين فى كل سنة ، من ١٥ كيهك لغاية ١٥ أمشير (أى من منتصف ديسمبر إلى منتصف فبراير) ، أما المجلس الأول فيجتمع من ١٠ هاتور إلى ١٠ طوبه (نوفمبر ، يناير) ، ويكون اجتماعه فى القاهرة ، وجلساته سرية ، وللخديو جمع المجلس أو تأجيله أو إطالة مدة اجتماعه أو تبديل أعضائه (حله) وإجراء انتخابات جديدة (مادة ١٦ و ١٧ من اللائحة الأساسية) .

سادسا : تعيين رئيس مجلس شورى النواب ووكيله منوط بالخديو دون أن يكون للمجلس رأى أو ترشيح فى هذا التعيين (مادة ٣ من اللائحة النظامية) .

سابعا : يفتتح الخديو المجلس بمقالة (خطبة العرش) ويقدم المجلس جوابه عنها بكتاب لا يقطع فيه بشئ من الأمور التى يقتضى نظرها المجلس (مادة ٤ و ٥ من اللائحة النظامية) .
ثامنا : ينتخب المجلس من بين أعضائه لجانا تسمى (أقلاما) . ومن أعمالها فحص صحة نيابة الأعضاء ، وتعرض قراراتها على هيئة المجلس ، ومن يقرر المجلس صحة انتخابهم تعرض أسمائهم على الخديو ليعطى كل واحد منهم « البيرولى » أى الأمر باعتماد عضويته .
تاسعا : للمجلس توقيع عقوبات على من يتخلف من الأعضاء بدون عذر عن حضور الجلسات (مادة ١٢ من اللائحة النظامية) .

عاشرا : يتمتع الأعضاء أثناء انعقاد المجلس بشئ من الحصانة النيابية ، فلا ترفع عليهم دعوى (جنائية) فى أثناء الانعقاد إلا إذا ارتكب أحدهم جريمة القتل (مادة ٥٣ من اللائحة النظامية) .

حادى عشر : إدارة نظام الجلسات منوطة برئيس المجلس ، ولا يجوز للعضو أن يتكلم إلا إذا طلب الكلام وأذن له الرئيس بذلك ، ولا يتكلم إلا وهو فى موضعه ، وتصدر القرارات بطريقة أخذ الآراء علانية وبالأغلبية .

وعلى المجلس احترام رأى الأقلية ، والإصغاء لأقوالها وملاحظاتها (مادة ٣٥ من اللائحة النظامية ، وهذه القاعدة من أهم أركان النظام النيابي) .

ثانى عشر : أعضاء المجلس يحضرون إلى المجلس بملابس « الحشمة اللائقة » وجلوسهم فيه

(٢) يشبه أن يكون كرئيس النيابة اليوم .

يكون « بهيئة الأدب » (مادة ٤٠) ، ولا يجوز لأى عضو نشر مناقشات المجلس أو طبعها إلا بإذن من الرئيس ، وإلا كان عرضة للجزاء الذى يوقعه به المجلس (مادة ٥٤) .
 هذه هى القواعد الجوهرية التى على أساسها أنشئ مجلس شورى النواب ، وخلاصتها أنه مجلس استشارى ينتخب أعضاؤه بواسطة عمد البلاد ومشايخها لمدة ثلاث سنوات ، ويجتمع شهرين فى كل سنة ، وجلساته سرية ، وليس له رأى نافذ فيما يعرض عليه من الشؤون .
 ولا ريب فى أن المجلس النيابى الذى يقوم على هذه القواعد لا يمكن أن يؤثر تأثيراً عملياً فى سياسة الحكومة ، مالم يتطور نظامه مع الزمن ، ويكتسب حقوقاً ومزايا جديدة ، ولو جعل إسماعيل باشا للمجلس سلطة قطعية فى شؤون الحكم ، وخاصة فى مسألة الضرائب والقروض ، لبعث فيه روحاً من الحياة والنهضة ، ولأمكن أن تنال مصر على يده مزايا عظيمة ، فإن تصرفات الحكومة المالية كانت فى حاجة إلى رقابة فعلية تتولاها هيئة نيابية .
 ولو وجدت هذه الرقابة لوضعت حداً للقروض الجسيمة التى تلاحقت فى عصر إسماعيل وأفضت إلى التدخل الأجنبى فى شؤون مصر .

الحياة السياسية فى عصر إسماعيل

إن الحياة النيابية فى كل أمة تتبع أولاً النظام الذى تسير عليه ، ثم تتأثر من الحياة السياسية فى عصرها ، وقد بينا القواعد الأساسية لنظام مجلس شورى النواب ، فلنبحث الآن ، عن مبلغ تأثيره من الحياة السياسية فى عصره .

كان عهد إسماعيل فى الجملة عصر تقدم ونهضة ، ولكنه من ناحية نظام الحكم يعد من عصور الحكم المطلق ، فقد كان من أخص صفات الخديو إسماعيل ميله إلى الانفراد بالحكم ، والاستئثار بالأمر والنهى ، ويدل منطق الحوادث ، على أنه حين أنشأ مجلس شورى النواب لم يتعزم التخلى عن سلطته المطلقة ، بل أراد أن يجعل منه هيئة استشارية تزيد من رونق الحكم وبهائه .

ثم أن تأسيس هذا المجلس من غير أن تسبقه حركة مطالبة من الأمة جعله يأخذ شكل المنحة ، ومن هنا نشأت سلطته ضئيلة ، وتفوذه يكاد يكون شكلياً ، ومن جهة أخرى فنظام الانتخاب كان له أثر بالغ فى تكوين المجلس ، ذلك أن حصر حق الانتخاب فى العمد

والمشايخ أسفر عن انتخاب معظم النواب من العمدة وأعيان البلاد ، حتى صار جديراً بأن يسمى « مجلس الأعيان » .

فهذه الطبقة من الأمة هي التي كانت ممثلة فيه تمثيلاً واسعاً ، أما طبقة التجار والصناع فلم يكن لهم ممثلون إلا التزير اليسير الذي لا يؤثر في طابع المجلس ، وكذلك خلا من الطبقات المتعلمة التي تخرجت من المدارس والبعثات العلمية منذ عهد محمد علي ، فهؤلاء لم يكونوا ممثلين فيه ، لأن نظام الانتخاب في ذاته لا يجعل لهم حظاً في عضوية المجلس ، أضعف إلى ذلك أن هذه الطبقة كانت إلى ذلك العصر منصرفة إلى مناصب الحكومة ، ولم تنجح إلى الحياة الحرة ، ولم تألفها بعد ، فكانت بحكم هذه الظروف جزءاً من الأداة الحكومية ، وبذلك حرم المجلس تلك العناصر الحرة المثقفة التي ترسل إلى الهيئات النيابية نوراً من الحياة والحرية والاستقلال في الرأي ، وتبعث فيها روحاً من الشعور بالواجب ، والشجاعة الأدبية ، والتطلع إلى المثل الأعلى .

ولم تكن في البلاد حين تأسيس المجلس صحافة تنبه الأفكار ، وترشد النواب إلى واجباتهم ، وتبصرهم بحقائق الأمور ، وتنتشر مداولاتهم ، وتستثير اهتمام الكافة بمباحثهم ، ولائمة جمعيات سياسية تبث أفكارها ومبادئها القويمة في نفوس النواب ، ويتألف منها ومن الصحافة زاًى عام يراقب المجلس ويوجهه إلى الوجهة التي ينشدها .

ومن ناحية أخرى لم تكن في البلاد ضمانات نظامية أو قانونية أو قضائية أو فعلية تحمي حرية الآراء وتكفلها ، كل هذه الظروف كان لها أثرها في تضيق حياة المجلس وتحديد مواقفه وخططه وأعماله .

الانتخابات الأولى للمجلس

يهمنا أن نذكر هنا أسماء الأعضاء الذين أسفرت عنهم الانتخابات الأولى ، لأن منهم تألف أول مجلس نيابي في عهد إسماعيل ، وجدير بنا أن نتعرف أسلافنا في الحياة النيابية ^(٣) ، ونتبين مبلغ ما أدوا من واجبات النيابة وتكاليفها .

(٣) راجع أعضاء (مجلس الثورة) في عهد محمد علي بالجزء الثالث من « تاريخ الحركة القومية » ص ٤٦٧ ، وأعضاء الهيئات التمثيلية التي تألفت على التعاقب في عهد الحملة الفرنسية بالجزء الأول ص ٧٨ والجزء الثاني ص ١٥ ، ١٧ ، ١٨٤ (من الطبقات الأولى)

أعضاء مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦

نواب القاهرة

موسى بك العقاد . الحاج يوسف عبد الفتاح . السيد محمود العطار

نواب الإسكندرية

الشيخ مصطفى جميعى . السيد عبد الرزاق الشوريجى

نواب روضة البحرين (الغربية والمنوفية)

(الغربية) اترى بك أبو العز . على كامل عمدة القصرية . الحاج شتا يوسف عمدة
أبى مندور . محمد حمودة عمدة برما . سيد أحمد رمضان عمدة قسطا . عبد الحميد زهرة
عمدة حانوت . على أبو سالم دنيا عمدة مسهلة . سليمان الملوانى عمدة ميت حبش القبلىة
أحمد الشريف عمدة أبيار .

(المنوفية) الحاج على الجزار عمدة شبن الكوم . محمد أفندى شعير عمدة كفر عثما .
موسى أفندى الجندى عمدة منوف . أحمد أبو حسين عمدة كفر ربيع . حماد أبو عامر عمدة
جتزور . على أبو عمارة عمدة مليج . محمد الأنباى عمدة جزى .

نواب البحيرة

الشيخ محمد الضيرفى عمدة قليشان ، حسنين حمزة عمدة البريجات ، أحمد دبوس
عمدة نكله العنب . الحاج على عمار عمدة ببيان . الشيخ محمد الوكيل عمده سمخراط .

نواب الشرقية والقليوبية

الحاج نصر منصور الشواربى من قليوب . الإمام الشافعى أبو شنب عمدة الخانكة . على
حسن حجاج عمدة الرملة . محمد الشواربى (قليوب) . أحمد أفندى أباطه (منيا القمح) .
الشيخ محمد جمال الدين عمدة الجديدة ، محمد عبد الله عمدة الصنافين . المعلم سليمان سيدهم

عمدة بندق . بركات الديب عمدة القرين . محمد أفندي عفيفي عمدة الزوامل . عبد الله عياد عمدة كفر عياد .

نواب الدقهلية

هلال بك . سيد أحمد أفندي نافع عمدة دنديط . محمد بك سعيد (نوسا البحر)
إسماعيل أفندي حسن عمدة تمي الأمديد ، الشيخ محرم على عمدة السنبلالوين . الشيخ العدل
أحمد عمدة جزيرة القباب .

نواب الجيزة

عامر أفندي الزمر عمدة ناهية . إبراهيم أحمد المنشاوي عمدة زاوية دهشور . عبد الباقي
عزوز عمدة الرقق (الرقة) .

نواب بني سويف والفيوم

حزین الجاحد عمدة العجميين . على سيد أحمد عمدة الزرني . زايد هندي عمدة جزيرة
بيا . محمد حسن كساب عمدة النويره . جرجس برسوم عمدة بني سلامة .

نواب المنيا وبني مزار

إبراهيم أفندي الشريعي عمدة سمالوط . إسماعيل أحمد عمدة بني أحمد . أحمد على
عمدة الزاوية . أحمد حبيب عمدة الفنت . ميخائيل أثناسيوس عمدة أشروية . حسن أفندي
شعراوي عمدة المطاهرة .

نواب أسيوط

سليمان أفندي عبد العال (ساحل سليم) . عثمان غزالي عمدة بني رزاح . يوسف محمد عمر
عمدة الشيخ تمي . رميح شحاته عمدة القوصية . عمر حمد عمدة الشغبة . عبد العال موسى
عمدة دروه .

نواب جرجا

محمد حمادي عمدة بلصفورة . حميد أبو ستيت من أولاد عليوه . عبد الرحمن حمد الله

عمدة الجبيرات . عثمان أبوليله من الكتكاتة . عطيه مهران من ناحية نزه . أحمد سلطان
عمدة بNDAR .

نواب قنا واسنا

عمر افندى أبويحيى عمدة أبو مناع . محمد سحلى عمدة فرشوط . على ابراهيم عمدة
حجازة . أحمد افندى عبد الصادق من أسوان . أحمد على اسماعيل عمدة السليمية .

نائب دمياط

على بك خفاجى .

إفتتاح المجلس وخطبة العرش

(٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦)

كان إفتتاح المجلس يوم الأحد ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ (١٧ رجب سنة ١٢٨٣) ، إذ اجتمع
الأعضاء بمكان انعقاده (بالقلعة) برئاسة إسماعيل راغب باشا الذى عين رئيساً للمجلس فى
دور انعقاده الأول ، وحضر الخديو حفلة الافتتاح ، يصحبه من أركان حكومته شريف باشا
(الوزير المشهور) وزير الداخلية ، وحافظ باشا وزير المالية ، وعبد الله باشا عزت رئيس
مجلس الأحكام ، وإسماعيل باشا صديق مفتش الأقاليم ، ورياض باشا المهردار (حامل
الختم) ، وأحمد خيرى بك كاتب الخديو .

وتليت خطبة العرش التى كانت تسمى مقالة الافتتاح ، وهذا نصها :

« من المعلوم أن جدى المرحوم حين تولى مضر وجدها خالية عن آثار العمار ، ووجد أهلها
مسلوبى الأمن والراحة ، فصرف الهمم العالية لتأمين الأهالى وتمدين البلاد بإيجاد الأسباب
والوسائل اللازمة إلى ذلك ، حتى وفقه الله تعالى لما أرادته من تأسيس عمارية الأقطار المصرية .
وكان والدى عوناً له ونصيراً فى حياته ، فلما آلت إليه الحكومة المصرية اقتضى أثر أبيه فى إتمام
تلك المساعي الجليلة ، بكمال الجد والاجتهاد فلو ساعده عمره لأكملها على أحسن نظام ، ثم
إنقلبت أحوال مصر بعدهما إلى أن قدر الله تعالى تسليم زمام إدارة حكومتها إلى يدي ، ومن

حين تسلمته لهذا الآن رأيت دوام سعي واجتهادي في إكمال ما شرعاه من المقاصد الخيرية ، بتكثير أسباب العمارية والمدنية ، أعانني الله على ذلك ، وكثيراً ما كان يخطر ببالي إيجاد مجلس شورى النواب ، لأنه من القضايا المسلمة التي لا ينكر نفعها ومزاياها أن يكون الأمر شورى بين الراعي والرعية ، كما هو مرعى في أكثر الجهات ، ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى « وشاورهم في الأمر » ويقول تعالى « وأمرهم شورى بينهم » فلذا استنسبت افتتاح ذلك المجلس بمصر ، تتذاكر فيه المنافع الداخلية وتبدى به الآراء السديدة ، وتكون أعضاؤه متركبة من متخني الأهالي ، ينعقد بمصر في كل سنة مدة شهرين ، وهو هذا المجلس المقدر بعناية المولى فتحه في اليوم المبارك على يدنا ، الذي أنتم فيه أعضاء منتخبون من طرف الأهالي ، وإني أشكر الله على ما وفقني لهذا الأمر المبرور ، وواتق من فطانتكم بمحصول النتيجة الحسنة من حسن المداولة في المنافع الداخلية الوطنية ، وفقاً لله تعالى لما فيه منفعة للجمهور ، وعلى الله الاعتماد في كل الأمور » (٤) .

وتعد هذه الخطبة من الوثائق الهامة في تاريخ الحياة النيابية بمصر ، وهي في مجموعها سديدة المعاني ، وجيزة العبارة ، وأهم ما فيها أنها قررت قاعدة الشورى في نظام الحكم ، واستندت في تقريرها إلى القرآن الكريم ، مما يجعلها قاعدة لا محيص عنها ، ويشبها في نفوس الشعب ، وفيها تمجيد لنظام الشورى وإشادة بمزاياه ومنافعه ، وإعلان بأن الغاية من الحكم هي منفعة الجمهور ، فورود هذه المبادئ الهامة في النطق الخديو هو خير دعاية لها وإعلان عنها .

لجنة الرد على خطبة العرش

وافق يوم افتتاح المجلس عيد ميلاد الخديو إسماعيل فأعلن الرئيس أن هذا يوم عيد يجب عدم الاشتغال فيه ، فوافق الأعضاء على ذلك ، ثم انتخبوا من بينهم لجنة تتولى تقديم الجواب على خطبة العرش ، فتألفت من عشرة أعضاء . وهم أتربي بك أبو العز . هلال بك . محمد أفندي عفيفي . محمد أفندي شعير . الشيخ محمد الصيرفي . سليمان أفندي عبد العال ، إبراهيم الشريعي ، عمر أفندي أبو يحيى ، حسن أفندي شعراوي ، الشيخ علي سيد أحمد .

(٤) عن المضبطة الأصلية لجلسة افتتاح مجلس شورى النواب المحفوظة بدار النيابة .

وفي اليوم التالي (٢٦ نوفمبر) ذهب رئيس المجلس ومعه أعضاء اللجنة إلى السراى الخديوية بملابسهم الرسمية وقدموا إلى الخديوى جواب المجلس على الخطبة .

الجواب على خطبة العرش

والجواب طويل ، صيغ في قالب تمجيد وتقديس للذات الخديوية ، يكاد يقرب من العبودية ، مما لا يتفق والروح النياية الصحيحة ، ويتضمن خلاصة لتاريخ مصر ، وما كان لها من المجد والسؤدد في سالف العصور ، وما آلت إليه من الاضمحلال والتقهقر ، إلى أن تولى زمامها محمد على باشا ، فنهض بها وأعاد مجدها القديم ، ونوه بفضل إبراهيم باشا لمؤازرة أبيه في أعماله الجليلة ، وما أعقب عصرهما من وقوف نهضة التقدم ، إلى أن تولى الخديو إسماعيل الحكم ، فاستأنف العمل لنهضتها ، وأفاض الجواب في ذكر مآثر إسماعيل ، ثم أظهر ابتهاج المجلس لما ناله الخديو من تعديل نظام وراثته العرش .

وإليك نص الجواب ، تثبته هنا على طوله ، لأنه يعطينا صورة من الروح التى تسود المجلس ، ومن أسلوب الكتابة فى ذلك العصر ، وما تحويه من العبارات المملة والسجع المتكلف والتملق البالغ لولى الأمر . قال الأعضاء :

« بعد ما تشرفنا بالإصغاء للمقالة الجليلة . الجامعة جوامع الكلم الجليلة . نبادر إلى الاعتراف بما حوته بغاية الانشراح . وكمال الارتياح . ونقول إن مما قطعناه من زواهر الأخبار التاريخية وعرفناه من سوائف آثار الديار المصرية . أنها كانت فى الأعصار الخالية رافلة فى حلل المفاخر الجالية . وأن بقية الأقطار كانت تستمد من نيل معارفها الوافر . معترفة بأنها مغترفة فى الأصل من نيل عوارفها الزاخر . لكن لتداول أيدي من لم يحسن تدبير ملكها من الملوك السالفين . تناوبتها نوائب الزمن . وتناولتها أيدي المحن . حيناً بعد حين . فاندurst معالمها الباهرة . وانطسست آثار مفاخرها الزاهرة . ولعبت بها أيدي الدهور وتكاثرت فيها الحروب والشرور . حتى رجعت القهقري . وأصبح غيرها من الممالك فى أنواع التمدن متقدماً وملكها متأخراً . وقاسى أهلها من الذلة والمسكنة ما صاروا به فى غاية الحقارة والمهانة . إلى أن أراد الله تعالى أن يعيد شبابها بعد الهرم . ويجدد ما كان من بنيان محاسنها قد أنهدم . وينقذ أهلها من هذه المهالك . وينظمها فى سلك أحاسن الممالك . فشرفها بجد العزيز جتتمكان محمد على

باشا . فأعاد لها من العمارية ومحاسن الآثار الأصلية ما كان تلاشى . وأفرغ قلبه وقالبه في إصلاح حالها . وأعمل سديد رأيه وشديد عزمه في إعادة جمالها وكمالها . حتى أزاح عنها تلك الوخامة ، وألبسها حلل الشهامة والفخامة . وأحكم معالم الأحكام . وأقام بها دعائم العدل بين الأنام . ودون فيها دواوين المعارف المتسقة . وجمع بها أصناف المآثر المفترقة . وجدد فيها لقناتين العسكرية . وأنشأ دواوين المدارس العلمية والحكومية حتى ظهرت بعد الحفا . وأزهرت أفنانها بزهور الصفا . وعاد إليها من البهائم والبهجة ما كانت فقدته في سالف الأيام وانتظمت مصالحها الأهلية والملكية بحسن تدبيره أحسن نظام . مع ما فازت به من غرائب الصنائع الفائقة . وعجائب الآثار الرائقة . مما شوهدها لنا جميعاً . وتبوأنا به بيتاً من العز رفيعاً . فضلاً عما أورثها من الغنى الأتم . والفخار الأعم . من الاستحكامات الملكية . وإحكام العمليات الوطنية العائدة بعظيم النفع على عموم الرعية . حتى بذلك حسدت مصرنا الأمصار . وصرنا بحمد الله متقدمين في درجات العمار . وقد كان والد العزيز الأكرم عوناً لوالده ، وهو الجد الأبعد في حال حياته ممضياً الطرق الموصلة إلى التقدم والعمار بسديد آرائه وشديد عزماته . ولما آلت إليه الحكومة سلك سبيل أبيه . وبنى على تأسيساته الباهرة مما حسن مساعيه . وأخذ ينشئ ما يكمل به رونق الوطن . ويجدد من العمارية والآثار الجليلة ما يبقى على ممر الزمن ، من إنشاء المجالس الحقانية ، وتكثير الرجال الحربية ، والاستحكامات الملكية ، وغير ذلك مما عقدته نيته ، واضمرته طويته ، فحسدتنا الأيام عليه ، فلم تتمتع بعز حكومته إلا قليلاً حتى نقله الله إليه ، ثم تولى على الأقطار المصرية وولايتها من لم يراعوا تلك المآثر العظيمة حق رعايتها فقترت هممة مصر السابقة ، وضعفت حركة تقدمها الفائقة ، إلى أن نفحتنا النفحات الإلهية ، وأسعفتنا العناية الربانية ، بالحضرة الإسماعيلية ، وأعطى القوس باريها ، لطفاً من الله بهذه الديار ومن فيها ، وتولاها العزيز بن العزيز ، ذلك الجنب الأفخم ، والداورى الأكرم . فقام في تنظيم أمورها على ساق وقدم ، وشمر عن ساعد الجد والاجتهاد في تجديد ما انهدم وإحياء ما انعدم ، وأخذ يداوى تلك العلل ، ويسد ما تخلل بعد أبيه من الخلل ، وسعى في مقاصد أبيه وجده ، باذلاً في موجبات التقدم والتمدن الوطنى غاية جهده ، شاغلاً باله بأقصى أنواع العمارية ، ومديراً فكره فيما يستدعى لهذه الأقطار كمال الرفاهية ، فأبدى من ذلك ما لم يكن في الحساب ، وزادها من البهجة وأسباب الثروة ما لم تره في سالف الأحقاب ، ورتب ملكها أحسن ترتيب ، ونظم عقده في سلك غريب بأسلوب عجيب ، ومن تمام عناية رب العالمين

أن ألهم سلطاننا الأعظم ، ولا غرو لأن الملوك من الملهمين ، حصر وراثته الحكومة على التأيد في نسل إسماعيل بأن يتولاها أكبر أولاده بعد عمره المديد ، فيا لها من فكرة جليلة رائقة ، أسست في هذه الديار ، من دواعي العمار الأسباب الفائقة ، واستلزمت تحسيناً لأحوالها ، وتأميناً لحالها واستقبالها ، أطال الله عمر سلطاننا المهاب (الصواب المهيّب) وذلك دعاء إن شاء الله مستجاب ، ثم ازدادت الهمم الإسماعيلية ، يصرف أفكاره الخيرية العلية ، فيما يعلى قدر هذا الوطن ، ويرقى انتظام حاله على أسنى سنن ، ومن كمال همته السنية ، وتمام رأفته ورحمته بالرعية ، وشغفه بدوام راحتهم وتتمام رفاهيتهم اقتضت إرادته العلية إنشاء مجلس شورى أهلية وطنية لما يعلمه من أن جمع الآراء في أمور العالمين ، والمداولة في مصالح الرعية مع عقلاء الوطنيين . من مقتضيات حسن النظام ، وموجبات كمال الالتئام ، وتتمام راحة الأنام ، وفوض انتخاب أعضاء ذلك المجلس لعموم الأهالي حتى يكون ما يحكمون فيه من الأمور بواقع مألوفهم ، وعرض جميع ذلك إلى حضرة الوالى ، تبرؤاً من غوائل الخلدورية ، وتوافيراً لدواعي العدالة العمومية ، فكنا نحن المنتخبين من سائر الجهات ، المصدفين بموسم مولد الحضرة الخديوية أسر الأوقات (٥) ، وإذ كان إنشاء هذا المجلس الأنيق من أجل المساعي الحميدة ، وأتم نعمة أسداها ولى النعم عبيده ، فن الواجب الأهم التشكر لتلك الحضرة العلية ، والتباهى بتلك المنقبة البهية ، ورفع أكفنا آناء الليل وأطراف النهار بالدعوات ، في أجل الأوقات ، وسائر الحالات أن يخلد عز قطرنا هذا بدوام سجود أفتدينا الأفخم ، وولى عهده حضرة محمد توفيق باشا الأعز الأكرم ، وكذا بقية الأنجال الفخام ، ولا يحرم جميعنا من حسن أنظارهم ، ونفائس محاسن أفكارهم ، بجاه خاتم الرسل الكرام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام (٦) .

لجان المجلس

اجتمع الأعضاء يوم الثلاثاء ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٦٦ في مكان انعقاد المجلس (بالقلعة) ، واشتغلوا بانتخاب لجانه وكانت تسمى (الأقسام) ، وعددها خمسة طبقاً لما تقضى به المادة ٨

(٥) افتتح المجلس يوم عيد ميلاد الخديو إسماعيل .

(٦) عن المضبطة الأصلية لمجلس شورى النواب ، وهي تختلف قليلاً عن الصيغة المنشورة بمجموعة الجواب .

من اللائحة النظامية ، فوزع الأعضاء أنفسهم على اللجان الخمس وتألفت كل لجنة من خمسة عشر عضواً ، أى أن اللجان (أو الأقسام) اشتملت على جميع أعضاء المجلس ، ونذكر هنا بيان اللجان وأسماء رؤسائها :

لجنة المدائن (العواصم) ورئيسها موسى بك العقاد .
لجنة روضة البحرين (الغربية والمنوفية) ورئيسها أترى بك أبو الغز ، ثم سميت لجنة الغربية في الدور الثاني .

لجنة الشرقية ، ورئيسها هلال بك ، وتشمل أعضاء من نواب الشرقية والدقهلية .
لجنة المنيا ، ورئيسها إبراهيم أفندى الشريعى .
لجنة أسيوط ، ورئيسها سليمان أفندى عبد العال .

والمهمة الأولى لهذه اللجان (الأقسام) تحقيق صحة نيابة الأعضاء ، فنظرت كل لجنة في تحقيق نيابة أعضاء اللجنة الأخرى ، وقد قامت اللجان بهذه المهمة ، فكانت النتيجة إقرار صحة نيابة جميع الأعضاء ، وأرسلت النتيجة بكتاب من رئيس المجلس إلى مهر دار الخديو لكى تعرض على الأعتاب الخديوية لإعطاء تذكرة الاعتماد (البير ولدى) للأعضاء .
وللأقسام مهمة ثانية ، وهى انتخاب لجان أخرى من بين أعضائها تسمى (قومسيونات) لبحث المسائل التى يحيلها عليها المجلس كلما رأى لزوماً لذلك ، وطريقة تأليفها أن ينتخب كل قلم من الأقسام الخمسة ، عضواً واحداً من أعضائه ، فتؤلف اللجنة من خمسة أعضاء .

اعتماد عضوية النواب

وإليك نص أمر الاعتماد (البير ولدى) الذى أصدره الخديو للنواب بعد تحقيق صحة نيابتهم .

« قدوة الوجوه المعتمدين ، والأعيان المنتخبين » فلان من بلدة كذا بقسم كذا بمديرية كذا « زيد إقباله ، ودام كماله ، قد علم آل الوطن العزيز ، وفهم أهل الفطن والتميز ، ودوام شغف قوادنا ، واشتغال أفكارنا بما فيه معمورية بلادنا هذه وسعة منفعة ديارنا ، وما يقدم أهلها في مدارج التمدن ، ويصعد بهم في معارج التمكن ، وقد علمت أن ترتيب مجلس الشورى الوطنية ، مما يعود على ديارنا هذه بمزيد المزية ، كما جرت في سائر المدن المتمدنة

وشوهد بين جميع الملل المتمكنة ، فإن تلاحق الأفكار . وتصادق الآراء والأنظار ، يستتج ثمرات الألباب من أغصانها ، ويستخرج محسنات الصواب من أفنانها ، وقد رأيت في أهل وطننا المبارك بحمد الله تعالى وتبارك ، من مزيد الأهلية والاستعداد ، ما يكون عوناً على حصول هذا المراد . فلذا رسمت بترتيب المجلس المذكور وإنشائه ، وأصدرت لائحة مخصوصة في كيفية انتخاب أعضائه ، بحيث يكونون من وجوه أهل وطننا ، لينوبوا عن سائر أهالي مدائننا وبلداتنا ، وقد كمل أمر الانتخاب الآن ، ممن يصلح لهذا الشأن ، وأنت ممن انتخبوا لهذا الخصوص ، وصدق عليهم في قرار القومسيون المخصوص ، وعرض ذلك بواسطة سعادة رئيس المجلس إلينا ، فقبل بقبوله واستحسنه لدينا . فأصدرت هذا إليك إعلاما بأنك ممن حاز شرف الامتياز بالعضوية ، في ذلك المجلس مجلس شورى النواب الوطنية ، وذلك لمدة ثلاثة سنين شمسية . حسبما تقرر في اللائحة الانتخابية ، وكلكم أصحاب روية وأهلية ، وأرباب فطنة جليلة ، وكما لمعرفة بالمصالح الداخلية والمنافع المحلية ، فأمل في سمو أفكاركم ، وعلو أنظاركم . أن يكون في اجتماعكم هذا ما يزيد أوطاننا به فلاحاً وتمديناً ، وتجارى غيرها من الممالك معمورة والمدائن المشهورة إصلاحاً وتحسيناً . فتعاونوا في النظر الصائب ، وتبينوا الفكر الثاقب ، وخذلوا فيما يتعلق بهذا المجلس من المصالح الداخلية ، والمواد التي ترى الحكومة أنها من خصائص هذه الشورى الوطنية ، وأدوا وظائف هذه الجمعية على وفق حدودها ، وأبدوا من شرائف الآراء الهمية خير موجودها ، وتبصروا لما فيه اعتلاء أقدارنا بأقطارنا ، واجتلاء أوطاننا بأوطارنا ، ومزيد الرفاهية لأهاليها وساكنيها على وفق المطلوب ، وانتظام حال الزراعة والتجارة والصناعة فيما على أحسن أسلوب . نسأل الله دوام التوفيق وبلوغ الآمال ، وحسن الحال والمآل فهو مولى الخير ومولى الكمال .

في رجب سنة ١٢٨٣

محاضر الجلسات

لم تكن جلسة الافتتاح معدودة ضمن جلسات المجلس ، وإنما بدأت الجلسات بعد تأليف لأقلام ، ومحاضر الجلسات كان يكتبها كاتب المجلس ، ويوقع رئيس المجلس على محضر كل جلسة ، أما القرارات فيوقع عليها رئيس المجلس وجميع الأعضاء .

طريقة المداولة في المجلس

كان للمجلس أن يتداول فيما تعرضه عليه الحكومة من الشؤون ويبدى رأيه فيها ، وله أن يتداول في الاقتراحات التي يقدمها أحد الأعضاء ، فإذا تقدم عضو بأى اقتراح ، يعرضه رئيس المجلس على الهيئة لتبحث أولاً في هل تنظر فيه أم لا ، فإذا استقر رأيها على المداولة فيه ترسل صورته إلى المجلس الخصوصى (مجلس الوزراء) ليحاط به علماً ، ثم يطرح على بساط البحث ، ويتداول الأعضاء فيه ، ويحيلونه في الغالب على لجنة تتخبط الأقسام ، فإذا أتمت اللجنة بحثه قدمت عنه تقريراً يطبع ويوزع على الأعضاء ، ثم يتداولون فيه ، وإذا استقر رأى المجلس على قرار فى موضوعه يرسل القرار إلى المعية السنية لعرضه على الخديو ويقرر فيه ما يراه ، وإذا استدعت المناقشة حضور بعض كبار الموظفين لتوضيح وجهة نظر الحكومة يحضر الوزير (الناظر) المختص أو الموظف الفنى ، فيدل بالايضاحات المطلوبة ، ويكون حضور النظار أو كبار الموظفين بناء على طلب المجلس أو برأى الحكومة .

ونذكر ممن حضروا فى الدور الأول من الوزراء وكبار الموظفين ، شريف باشا وزير الداخلية ، ومحمد حافظ باشا وزير المالية ، ومحمد مظهر باشا وكيل وزارة الأشغال ، ومحمد ثاقب باشا مفتش هندسة الوجه القبلى ، وسلامه بك (باشا) إبراهيم مفتش هندسة الوجه البحرى ، وعلى بك مبارك (باشا) وكان وقتئذ رئيس هندسة المعية السنية ، وإسماعيل صديق باشا مفتش عموم الأقاليم ، وكان أكثرهم حضوراً .

وقد شغلت مقترحات الأعضاء معظم جلسات الدور الأول ، فكان عمل المجلس قاصراً على المداولة فيها ، وإنا موجزون هنا أهم هذه المقترحات كما استخلصناها من مضابط المجلس (٧) .

(٧) راجعنا هذه المضابط فى « الوقائع المصرية » التى كانت تنشرها فى حينها ، ولكن لاحظنا فقدان بعض سنوات بأكملها من مجموعة الوقائع المصرية الموجودة فى دار الكتب ، أو بالدفترخانة المصرية بالقاهرة ، وفقدان أعداد كثيرة من السنوات المحفوظة ، فاستكملنا هذا النقص بالرجوع إلى المضابط الأصلية المحفوظة كاملة فى مكتبة البرلمان ، ويجدر بنا فى هذا المقام أن ننوه بالجهود المحمودة التى بذلها الأستاذ محمد خليل صبحى رئيس قلم مكتب مجلس النواب فى جمع هذه المضابط وتبويبها وتنسيقها بعد أن كانت مشتتة فى مختلف المصالح والدواوين ، وما بذله من البحث والتنقيب لجمع صور رؤساء مجلس شورى النواب والهيئات النيابية القديمة والحديثة ، فأدى بهذه الجهود خدمة للتاريخ يستحق من أجلها جزيل الشكر والثناء .

١ - أول المقترحات التي تقدم بها الأعضاء اقتراح من هلال بك أحد نواب الدقهلية في بحث مسألة السخرة ووضع نظام يخفف من وطأتها ، فتداول الأعضاء عدة جلسات في هذه المسألة ، ثم أحيلت على لجنة (قومسيون) سميت لجنة (العمليات) مؤلفة من خمسة أعضاء ، وهم محمد بك سعيد ، وحسن أفندي شعراوي ، ويوسف محمد ، والسيد أحمد الشريف ، والشيخ محمد الصيرفي .

وقد بحثت اللجنة هذه المسألة واشترك معها في البحث إسماعيل باشا صديق وسلامة بك إبراهيم ، وثاقب باشا ، وعلى بك مبارك ، وكان إيفاد هؤلاء المهندسين من طرف الحكومة لارتباط مسألة السخرة بمشروعات الري والهندسة ، فقدمت اللجنة تقريراً مطولاً خلاصته تنظيم السخرة على أساس اعتبارها من المنافع العامة ، وأنها مفروضة على من تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٥٠ سنة من أهل البلاد التي تستفيد من أعمال السخرة ، وجعلها مبنية على قاعدة المساواة بين الأهلين (والمساواة في الظلم عدل) ، فوافق المجلس على تقرير اللجنة ، وطلب عمل إحصاء للأنفس تطبيقاً لهذه القاعدة حتى يؤخذ الأنفار للسخرة بالدور .

واستتبع بحث السخرة إثارة مسألة أخرى أوعزت بها الحكومة ، وكان المجلس في غنى عنها ، وهي وضع ضريبة على المواشي ، وحجتها في ذلك أن أعمال المنافع العامة التي تنفذ بواسطة السخرة تقتضي مهات وأدوات يجب شراؤها بالثمن ، ولما كانت المواشي الموجودة بالأقاليم مخصصة لأعمال الزراعة ، فوجب أن يفرض عليها مقدار معلوم من الضريبة ، بما يوفي ثمن هذه المهات ، وعلى ذلك وافق المجلس على فرض هذه الضريبة ، ومقدارها عشرون قرشاً في السنة على كل رأس من مواشي الزراعة كالأبقار والجاموس والثيران والخيول والبغال ، أما الجمال ففرض على كل رأس منها ثلاثون قرشاً ، وعلى كل رأس من الحمير عشرة قروش ، واستثنت من هذه الضريبة مواشي المدن والبنادر .

٢ - اقترح إبراهيم أفندي الشريعي رئيس لجنة المنيا ، النظر في مسألة تقسيط الأموال الأميرية ، وتحديد مواعيد لدفعها تسهيلاً لسدادها ، فأحيلت هذه المسألة على لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء وهم : محمد أفندي شعير ، ونصر الشواربي ، وميخائيل أثناسيوس ، ومحمد عفيفي ، وحמיד أبوستيت ، ورأت اللجنة وجوب تحديد مواعيد للسداد في أوقات جنى المحاصيل توفيراً لراحة الأهالي في دفع الأموال ، وقد حضر حافظ باشا وزير المالية إلى المجلس بعد أن قدمت اللجنة تقريرها في هذا الموضوع ، وأوضح وجهة نظر الحكومة ، وهي أن رأى

المجلس في محله ، ولكن الحكومة لا يمكنها تعديل مواعيد الضرائب لأنها مرتبطة بدفع فوائد ديونها في المواعيد المحددة لسداد الأموال ، واستحسن تأجيل النظر في هذه المسألة إلى السنة المقبلة ، إذ ينظر المجلس في مسألة الديون ومسألة التقسيط معاً ، فأقر المجلس ذلك .

٣ - اقترح أترى بك أبو العز أحد نواب الغربية ، تعميم المدارس (الابتدائية) بإنشاء مدرسة في كل مديرية ، فأقر أعضاء المجلس الاقتراح وحذوه ، وظهر منهم الميل الشديد إلى تعميم التعليم بين طبقات الأمة كافة ، وأحالوا المشروع على لجنة مؤلفة من عمر أفندي أبويحيى ، ومحمود حمودة ، وعلى سيد أحمد ، والسيد محمود العطار ، وأحمد أفندي أباطة ، وانتهت اللجنة في تقريرها إلى وجوب إنشاء مدرسة في كل مديرية وكل محافظة ، وأن يكون التعليم فيها مجانياً ، وحضر شريف باشا ووافق باسم الحكومة على تقرير اللجنة ، غير أنه طلب تأجيل إنشاء المدارس في السويس والقصر والعريش حتى يتم إنشاء المدارس في المديرية والمحافظات الأخرى ، فوافق المجلس على ذلك ، وأفضى شريف باشا في بيانه بالجهود التي تبذلها الحكومة في سبيل نشر التعليم ، وأنهى إلى المجلس أن الحديو وقف على المدارس جميع الأطباء التي يتألف منها تفتيش الوادى ، فقابل المجلس هذا البيان بالشكر والدعاء للخديو .

٤ - اقترح سليمان أفندي عبد العال من نواب أسبوط النظر في وضع نظام لسندات التعامل بين الناس ، وأحيلت هذه المسألة على اللجنة المؤلفة لبحث مسألة التقسيط ، وحضر إسماعيل صديق باشا حين المناقشة فيها ، وأنهى إلى المجلس أن الحكومة مشغلة بسن قانون عن الرهون والمعاملات ، وأن المنوط بوضع مشروع القانون المذكور هو رئيس المجلس (إسماعيل راغب باشا) فاكتفى المجلس بذلك .

٥ - اقترح ميخائيل أفندي أثناسيوس من نواب المنيا إلغاء نظام العهد (جمع عهدة) ، وخلاصة هذا النظام أن الحكومة في عهد محمد على باشا كانت تعهد إلى بعض الأعيان والمأمورين ورجال الجهادية جباية ضرائب بلاد بأكملها ممن كان أهلها غير قادرين على زراعة جميع زمامها أو متأخرين في سداد مالها ، فكان المتعهدون يتكفلون بسداد الضريبة من مالهم الخاص إذا لم يجبوها من الأهالي ، وقد أدى هذا النظام إلى إرهاب الفلاحين لأن المتعهدين كانوا يسخرونهم لمصالحهم الخاصة فألغته الحكومة سنة ١٨٥٠ إذ أصدرت أمرها باسترجاع البلاد من المتعهدين ثم عاد العمل به في أوائل عهد إسماعيل ، فضج الناس من مساوئه ، فلا

غرو إن قبول اقتراح ميخائيل أفندى أثناسيوس بالاستحسان .

وقال الحاج يوسف عبد الفتاح ، ماخلاصته ، إن الأصل في إعطاء البلاد عهدة هو مساعدة الأهالي على سداد الأموال لعدم اقتدارهم على زراعة أطيانهم وسداد أموالها ولكن المتعهدين كانوا يغتصبون مايزيد عن المال من محصولات الأهالي وأخذ بعضهم لعهدتهم أراضى لا ترزع لمجرد الرغبة في تسخير الفلاحين للعمل في مزارعهم الخاصة ، وطلب فك العهد جميعها لأن الأهالي في مقدورهم سداد ما عليهم من الأموال رأساً للحكومة دون وساطة المتعهدين .

وحبذ الأعضاء فك العهد وإعادة الأطيان إلى أصحابها ، ثم قرروا إحالة المسألة على لجنة انتخبت لهذا غرض ، مؤلفة من الشيخ العدل أحمد ، وأحمد علي ، والحاج شتا يوسف وأحمد عبد الصادق ، ومحمد الوكيل .

وانتهت المناقشة في الموضوع بأن قرر المجلس بجلسته ١٦ شعبان سنة ١٢٨٣ فك العهد جميعها ابتداء من سنة ١٢٨٤ هـ ووافقت الحكومة على هذا القرار ونفذته .

٦ - اقترح محمد أفندى عمادى من نواب جرجا ، وضع نظام لضبط عملية تحصيل الأموال في المديرية لمنع العبث في قيد المتحصلات ، وذكر أن الأهالي في الوجه القبلى يدفعون المال ليد (الشاهد) ويقيده مايدفعونه في ورق عادة ويبقى المتحصل عند (الشاهد) لآخر الشهر حتى يحضر الصراف ، وإنه لطول المدة وعدم القيد بالدفاتر المعتمدة يحصل « لخبطة ومغشوشية في الإيراد » .

وأحيلت هذه المسألة على لجنة « التقييط » وقدمت عنها تقريراً طلبت فيه ضبط عملية التحصيل ، واتباع طريقة يعرف منها كل ممول مقدار مادفعه على وجه التحقيق ، حتى تحفظ حقوق الأهالي ، ويمنع عبث الصيارفة ، فوافق إسماعيل باشا صديق على مآرائه اللجنة ووعد بوضع الطريقة المطلوبة .

٧ - اقترح سليمان أفندى الملوانى من نواب الغربية ، منع مجازاة العمد بالضرب ، وقال الشيخ محمد الشواربى بمنع الضرب عن العمد وغيرهم من الأفراد ، وأن يرفع من القانون النص الذى يبيح الضرب للحكام ، وتناقش الأعضاء طويلاً في هذه المادة ، ثم صرح رئيس المجلس بأن القانون الذى تجرى الحكومة وضعه وتنقيحه منصوص فيه على منع الضرب . فاكفى المجلس بذلك .



إسماعيل راغب باشا

رئيس مجلس شورى النواب في دور انعقاده الأول
(من ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ إلى ٢٤ يناير ١٨٦٧)

٨ - اقترح هلال بك ، النظر في الأطيان الناشئة عن زيادة المساحة من صالحجة وبور ، وإضافتها بالمال إلى أصحاب الأطيان المتداخلة فيها أو الملحق بها . وإحيلت هذه المسألة على لجنة العهد ، وقدمت تقريرها وحصلت المناقشة فيه بحضور إسماعيل باشا صديق ، وخلاصة ماقرره المجلس فيها بجلسته ٢٥ شعبان سنة ١٢٨٣ إضافة أطيان الجزائر بثمان يساوى قيمة إيجارها عن ثلاث سنوات ، ويربط عليها مال المثل ، أما أطيان الخيضان فتعطى أيضاً بالثمان بواقع إيجار ثلاث سنوات ، ويربط عليها مال الحوض ، والأطيان البور التي يرغب الأهليون استصلاحها تعطى لهم من غير ثمن على أن يدفعوا مالها بعد مدة لاتزيد عن ثلاث سنوات ، أما أطيان الأحراس والمستبحرة والمالحة فتعطى لمن يستصلحها من غير ثمن على أن يدفع الضريبة الماثلة عنها بعد مدة لاتتجاوز ست سنوات ، وأطيان البرارى تعطى لمن يرغبها من غير ثمن وتعفى مدة عشر سنوات من الضرائب ثم تربط عليها ضريبة عشورية من درجة الدون لمدة خمس سنوات ، ثم تربط عليها ضريبة المثل بعد انقضاء هذه المدة ، وقد وافقت الحكومة على هذا القرار على أن لايطبق على أطيان الضواحي والبنادر وأطرافها ، لأنها تعد من الأراضي القابلة للبناء ، وزاد الخديو مدة الإعفاء من الضريبة بالنسبة لأطيان البرارى فجعلها خمس عشرة سنة بدلا من عشر.

٩ - اقترح الشيخ محرم على من نواب الدقهلية فتح قنطرة البوهية وإزالة ما بها من السدود

لتجرى المياه فى ترعة البوهية نولا تحرم بلاد مركز السنبلوين من الرى .

١٠ - اقترح الشيخ العدل أحمد من نواب الدقهلية . إعادة فم البحر الصغير على النيل بدلا من فمه الذى كان على ترعة المنصورة لسهولة وصول مياه الرى إلى البلاد الواقعة عليه .
١١ - واقترح على بك خفاجي نائب دمياط توصيل مياه ترعة الشرقاوية إلى البلاد الكائنة بشطوط دمياط ، وقال الشيخ العدل أحمد إن هذه التربة واصله فى ذلك الحين (سنة ١٨٦٧) إلى القنطرة البيضاء المجاورة لبلاد الشطوط ، وارتأى مداها لنهاية الشطوط حتى لا تحرم مياه الرى .

١٢ - واقترح كل من حميد أبوستيت . ومحمد سحلى من نواب قنا ، إصلاح الرى بحوض سمهود الواقع على حدود مديرية قنا وعمل مصرف للحوض المذكور .
وأحيلت هذه الاقتراحات الأربعة على لجنة العمليات ، وبحث فيها بحضور إسماعيل باشا صديق وكبار المهندسين السابق ذكرهم ، ولمناسبة بحث هذه المقترحات فى لجنة العمليات قدم أعضاء اللجنة مقترحات أخرى خاصة بأعمال الرى والمهندسة بيلادهم فبحثها اللجنة على ضوء ملاحظات المهندسين ، واتخذت فيها جمعيا من القرارات مايكفل توفير الرى وراحة الأهلى ، وصدق المجلس على قراراتها فى هذا الصدد .

انتهاء الدور (٨)

وفى جلسة الأربعاء ٢٤ يناير سنة ١٨٦٧ (١٨ رمضان سنة ١٢٨٣) أعلن الرئيس المجلس ختام الدور ، وألقى خطبة وجيزة أعرب فيها عن التشكر للخديو على منشآته العظيمة « الموجبة لازدياد عمران الوطن » وعلى الأخص إنشاء هذا المجلس ، وشكر الأعضاء على سديد أفكارهم التى أبدوها فى الوسائل التى عرضوا لبحثها كإنشاء المدارس والعمليات (السخرة) وتقسيط الأموال وفك العهد وإصلاح الأقطان وإجراءات صيارف القرى ، وسندات المعاملات ، وألمع لى مذكره مندوبو الحكومة الذين حضروا الجلسات من أن أفكار المجلس فى هذه المسائل حلت محل القبول لدى الخديو « ولى النعم » ورجال حكومته ، وأعرب عن أمله

(٨) كلمة (دور) كانت تستعمل للتعبير عن الهيئة التالية بسنواتها الثلاث ، ولكننا رأينا اتباعاً للمصطلحات الحديثة أن نقصر كلمة (دور) على الأنعام السنوي .

في أن تنال البلاد مزيد التقدم بما يديه الأعضاء في السنين المقبلة من سديد الآراء ، وختم خطبته بالدعاء للذات الخديوية ، وانصرف المجلس على ذلك .

وكان يبدو على مقترحات الأعضاء ومداولاتهم حسن القصد ، والرغبة الصادقة في خدمة المصالح العامة ، وإصلاح حالة البلاد من الوجهة الاقتصادية ، وتحسين حالة الأهالي الاجتماعية ، كما يبدو عليهم الاتزان في الآراء ، وسلامة المنطق ، والخبرة بالمسائل المحلية التي تباحثوا فيها ، وكان يعوزهم إلى حد ما - الاستقلال في الرأي ، والاضطلاع بالمسائل العلمية والمالية .

أما الحكومة فكانت تعنى بتتبع مباحثات المجلس وتوفد رجالها في بعض الجلسات ، للاتصال بالأعضاء في مباحثهم ، وإطلاعهم على وجهة نظرها ، وكان حضورهم يحكم صلة التفاهم بين الأعضاء والحكومة ، وأكثر رجال الحكومة عملاً في هذا الصدد اسماعيل باشا صديق مفتش عموم الأقاليم وقتئذ ، وصاحب الخطوة الكبرى عند الخديو إسماعيل . ولم يتناول الأعضاء في مباحثهم بالدور الأول إلا الإصلاحات المحلية ، أما المسألة المالية التي كانت تشغل الأفكار في ذلك الحين فإنهم لم يعرضوا لها ، كما لم يطلبوا إطلاعهم على ميزانية الحكومة ليتباحثوا فيها ، ولم يبدأ تطلعهم إلى البحث فيها إلا في دور الانعقاد الثاني كما سيجيء بيانه .

وصفوة القول إننا إذا لاحظنا نظام المجلس الأساسي وملايسات العصر الذي اجتمع فيه ، نجد أن أعماله ومباحثه تدل على مستوى برلماني لا بأس به من أعضاء أول هيئة نيابية ظهرت في عهد اسماعيل .

رواية لا أصل لها

ولا يسعنا أن نختم هذا البحث قبل أن نشير إلى رواية يرددها بعض المؤلفين عن موقف المعارضة بمجلس شورى النواب في أول أدوار انعقاده ، فقد زعموا أن شريف باشا ، وكان إذ ذاك وزيراً للداخلية ، أفهم النواب أن المجالس النيابية تنقسم دائماً إلى حزبين ، أحدهما يؤيد الحكومة والآخر يعارضها ، وأنه يجدر بهم أن يؤلفوا من بينهم ذينك الحزبين ، وأن أعضاء حزب الحكومة يجلسون في مقاعد اليمين ، ونواب المعارضة يجلسون في مقاعد اليسار ،

فاستنكر النواب أن يكون من بينهم من يعارض الحكومة ، وجلسوا جميعاً في مقاعد اليمين .
فأفهمهم شريف باشا أنه لابد أن يجلس بعضهم في مقاعد اليسار ، فلم يكن من الأعضاء إلا
أن تحولوا إليها جميعاً .

وظاهر على هذه الرواية مسحة الهزل والخيال ، فهي ولاشك من مخترعات بعض الكتاب
الأوروبيين الذين يطيب لهم أن يتدعوا أمثال هذه الحكاية ، وقد بحثنا كثيراً فلم نجد لها سنداً
من أقوال شاهد عيان ، ولا جاء ذكرها ولو تلميحاً في مضابط المجلس ، على أن الرواية في
ذاتها لا يسيغها المنطق ، فإن نظام المجلس وحدوده واختصاصه وملابساته ، كل ذلك لا يدع
مجالاً لتأليف حزب للحكومة وحزب للمعارضة ، فالأحزاب الموالية والمعارضة إنما توجد حيث
يكون للمجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة ، ولم يكن لمجلس شورى النواب هذا الحق
أصلاً ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى فقد شهد أحد الكتاب الفرنسيين وهو المسيو جليون
دنجلار Gellion Danglar حوادث مصر من سنة ١٨٦٥ إلى سنة ١٨٧٥ ، وله عن
مشاهداته فيها « رسائل » تكلم فيها عن مجلس شورى النواب ، فلم يذكر هذه الحكاية ولا أشار
إليها ، ولو كان لها ظل من الواقع لما فاته أن يذكرها ، وهذا يقطع ببطلانها ، وكل ما ذكره
المسيو دنجلار عن موقف المعارضة في المجلس أنه ظهر من بين أعضائه نائبان معارضان أبديا
رأيهما بما يخالف وجهة نظر الحكومة ، قال فكان جزاؤهما الطرد من المجلس بأمر الخديو باعتبار
أنهما عضوان مشاغبان للحكومة وأنهما خطر على الأمن العام .

فهذه الرواية يسيغها العقل ويؤيدها المنطق ، فإن نزعة الحكومة الاستبدادية تأتي أن يقف
نائب في ذلك العصر موقف المعارضة ، فلا غرابة أن تبادر الحكومة إلى طرد النائب المعارضين
من المجلس ، وكنا نود أن نعرف من هما هذان النائبان الجريئان اللذان ظهرا بهذا المظهر المشرف
في أذوار الانعقاد الأولى لمجلس شورى النواب ، ولكننا لم نظفر بهذه الأمنية ، ولم نتبين نواب
المعارضة إلا في أذوار انعقاده الأخيرة كما سيجيء بيانه .

(٩) رسائل عن مصر الحديثة. للمسيو جليون دنجلار. الرسالة السابعة المؤرخة يونية سنة ١٨٦٨ ص ١٤٢



عبد الله باشا عزت

رئيس مجلس شورى النواب في الأدوار الآتية

- (١) ١٦ مارس سنة ١٨٦٨ - ٢٣ مايو سنة ١٨٦٨
- (٢) ٢٨ يناير سنة ١٨٦٩ - ٢٢ مارس سنة ١٨٦٩
- (٣) أول فبراير سنة ١٨٧٠ - ٣١ مارس سنة ١٨٧٠
- (٤) ٧ أغسطس سنة ١٨٧٦ - ١٠ أغسطس سنة ١٨٧٦
- (٥) ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٦ - ١٦ مايو سنة ١٨٧٧

دور الانعقاد الثاني

(١٦ مارس سنة ١٨٦٨ - ٢٣ مايو سنة ١٨٦٨)

افتتح الخديو اجتماع المجلس يوم الاثنين ١٦ مارس سنة ١٨٦٨ (٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٨٤) في مكانه المعتاد (بالقلعة) وكان يصحبه شريف باشا رئيس مجلس الأحكام ، وشاهين باشا وزير الخربية ، وإسماعيل باشا صديق مفتش عموم الاقاليم ، وذو الفقار باشا وزير الأمور الخارجية ، وأحمد رشيد باشا محافظ القاهرة ، وحسين باشا أمين بين المال ، وراتب باشا ناظر ديوان الأوقاف ، وحسن راسم باشا ، وطلعت باشا كاتب الديوان الخديو ، وأحمد خيرى بك المهردار ، واجتمع الأعضاء برئاسة عبد الله باشا عزت الذى عين رئيساً للمجلس في هذا الدور .

وقد تأخر المجلس عن مواعده المحدد في اللائحة الأساسية وهو شهر كيهك (ديسمبر) ، وأشار الخديو عند افتتاح الدور إلى أسفه لهذا التأخير الناشئ عن مرضه ، ثم عهد إلى خيرى

بك بتلاوة خطبة العرش (مقالة الافتتاح) فتلاها .

وهي خطبة طويلة أشار فيها إلى المسائل التي قررها المجلس في العام الماضي ، وما أنفذه الحكومة منها ، ومالم تنفذه وبيان الأسباب ، فذكر مما نفذ إنشاء مدرستي بنها وأسيوط « والباقي تحت الإجراء » ، وفك العهد ، وإضافة الأطنان الزائدة في المساحة ، وضم الأراضي القابلة للزراعة إلى من يرغبها من الأهالي ، وإنفاذ معظم المقترحات الخاصة بالرى . وذكر أن ترتيب الأنفار للسخرة بالدور طبقاً لقرار المجلس متوقف على إتمام تعداد الأنفس ، وأن مسألة سندات المعاملة موقوفة على إصدار قانون الرهون الذي كان موضع البحث والمذاكرة ، وقال عن مسألة تعديل أقساط الأموال الأميرية ، وإن إجراء هذا التعديل لا يخلو من صعوبة « والحكومة لا تقصر عن إجراءاته حسب الإمكان » ووعده بإطلاع أعضاء المجلس على الأسباب التي أخرت تنفيذه ، وطلب المذاكرة في هذا الموضوع لتقريره على « صورة مستحسنة » .

وأشار إلى مشاريع الإصلاح التي اعترمت الحكومة إجرائها وقررت عرضها على المجلس للمداولة فيها ، كتحصين الأحوال الصحية ، والعناية بزراعة القطن ، وتحسين باقى الزراعات ، وإتمام الرياحات الكبيرة التي تؤدي « إلى تكثير المياه في الغربية والمنوفية والبحيرة وبسببها تزداد عمارية بلاد كثيرة ، فالإسراع إلى إتمامها من أهم الأمور » . وختم الخطبة بقوله « والواجب علينا الاجتهاد في تدارك الأسباب الموصلة إلى عمارية الوطن ، والله المرشد إلى أقوم طريق ومنه العناية والتوفيق » .

وبعد انتهاء جلسة الافتتاح استأنف المجلس اجتماعه ، وانتخب لجنة الرد على خطاب العرش ، فتألفت من عشرة أعضاء وهم :

الشيخ مصطفى جميعي ، الشيخ محمد الصيرفي ، إبراهيم افندي الشريعي ، الشيخ على سيد احمد ، محمد افندي شعير ، السيد أحمد الشريف ، سليمان افندي عبد العال ، عمر افندي ابويحيى ، هلال بك ، محمد بك سعيد .

وقدمت اللجنة إلى الخديو جواب المجلس ، مشتملاً على العبارات المألوفة في تقديم قروض الشكر للذات الخديوية ، مع التنويه بمشاريع الإصلاح التي جاءت في خطبة العرش . وابتهجت لما أذن به الخديو من اطلاع الأعضاء على أحوال المالية للوقوف على الأسباب التي أخرت تعديل أقساط الأموال الأميرية .

لجان المجلس

بقيت لجان (أقلام) المجلس المنتخبة من الدور الماضى كما هى من غير انتخاب جديد .

تغييرات فى الأعضاء

توفى من الأعضاء موسى بك العقاد من نواب القاهرة ، وانتخب بدله السيد محمود عبد المعطى ، ومحمد حمادى من نواب جرجا ، وانتخب بدله همام حمادى من المنشاة ، ومحمد الوكيل من نواب البحيرة ، وانتخب بدله الشيخ إبراهيم الوكيل عمدة سمخراط .
ولما كان موسى بك العقاد رئيساً للجنة المدائن فى الدور السابق فقد انتخب لرأسها الحاج يوسف عبد الفتاح من نواب القاهرة .

قرارات المجلس

أصدر المجلس قرارات فى عدة مسائل تتعلق بالمنافع العامة والمحلية ، ومن أهم قراراته :
إنشاء مجلس زراعى فى كل مديرية يسمى (مجلس تنظيم الزراعة) ينتخب أعضاؤه بمعرفة العمدة بنسبة عضوين عن كل مركز للنظر فى الشئون الزراعية وتحسينها وتقديمها ، وإنشاء حقول للتجارب الزراعية يعهد إلى علماء النبات إجراء تجارب الزراعات الحديثة فيها ، وإجراء تعداد السكان لتنظيم السخرة على قاعدة المساواة ، وجواز دفع البدل النقدي للإعفاء من الخدمة العسكرية وأن تكون قيمة البدل بالنسبة للمقترعين الجدد ثمانين جنياً ، وقرر أيضاً إتمام الرياحات الكبرى وماتستبعه من منشآت الري ، وردم البرك والمستنقعات ، وتعميم لقاح الجدري وزيادة عدد أطباء الصحة فى الأقاليم ، وإنشاء المستشفيات ، وتعديل الضرائب وقد قرر فيها اعتماد درجات ترتيب الضرائب التى تعمل فى كل مديرية بمعرفة مندوبى الحكومة ومن يرافقهم من العمدة والأعيان ، ونفذت فعلاً .

ومن حضر من الوزراء وكبار موظفى الحكومة جلسات هذا الدور : شريف باشا ، وعلى باشا مبارك وقد صار وزيراً للمعارف والأشغال ، وإسماعيل باشا صديق ، ومصطفى بهجت باشا المهندس الكبير ، مفتش هندسة الوجه القبلى ، وسلامة بك (باشا) مفتش هندسة الوجه

البحرى ، والدكتور كلوتشى بك ، والدكتور محمد على البقلى بك ؛ والقى كل منهما بياناً هاماً فى الإصلاحات الصحية .

المنافشة فى المسألة المالية

عين إسماعيل باشا صديق فى خلال هذا الدور وزيراً للمالية ، مع بقائه مفتشاً لعموم الأقاليم ، فعظمت سلطته ، إذ انتهى إليه زمام الشؤون المالية . وشغلت المسألة المالية أفكار الناس فى ذلك الحين لتلاحق قروض الحديو إسماعيل منذ ولايته العرش ، فقد تولى الحكم سنة ١٨٦٣ وعلى الحكومة من الديوان التى افترضها سعيد باشا نحو أحد عشر مليوناً من الجنيهات ، فبدلاً من أن يبذل جهده لوفاء هذا الدين استدان فى سنوات ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٦ و ١٨٦٧ من الديون الثابتة نيفاً وأربعة عشر مليون جنيه ، ومن الديون السائرة نحو عشرة ملايين جنيه .

وتحركت نفوس النواب لاستطلاع حقيقة الحالة المالية التى كانت أسرارها محجوبة عن الأنظار ، وانقضى دور الانعقاد الأول دون أن يعرضوا لهذا المسألة على أهميتها ، ثم أثاروا بحثها فى الدور الثانى ، وألفوا لجنة من ثلاثة أعضاء لدرسها وتقديم بيان عنها للمجلس ، وتوجه الأعضاء إلى وزارة المالية واطلعوا على بعض دفاترها ، ثم عادوا إلى المجلس ، وأفضوا إليه بيانات غير صحيحة عن ديون الحكومة تلقوها من إسماعيل باشا صديق الذى كان معروفاً عنه أن كل ما يذكره من الأرقام عن مالية الحكومة مبنى على الكذب والتضليل . وذكروا أن الباقي من ديون الحكومة نحو سبعة ملايين جنيه ، وهو رقم خيالى دون الحقيقة بكثير ، لأن الديون بلغت فى ذلك العام نيفاً وأربعة وثلاثين مليون جنيه وقالوا إن الحكومة تفكر أيضاً فى عقد قرض جديد .

ميزانية سنة ١٨٦٨ - ١٨٦٩

وقدم إسماعيل باشا صديق ميزانية ١٨٦٨ - ١٨٦٩ وخلاصتها كما يأتى بالجنهيات :

٧,٢٩٠,٠٠٠ جنيه

الإيرادات

٤,٧٠٦,٠٠٠ جنيه

المصروفات

٢,٥٨٤,٠٠٠ جنيه

الزيادة المزعومة فى الإيرادات

وهذه الأرقام لاحقيقة لها ، وتحالف الواقع من كل الوجوه ، فإن مصروفات تلك السنة زادت عن إيراداتها بنحو عشرة ملايين جنيه ، استدانها الحكومة بقروضها المتلاحقة وديونها السائرة ، ولم يقدّم في المجلس من يناقش الحكومة ويسألها عن سبب الضيق المالي الذي تشعر به ويستدعى عقد سلفة جديدة إذا كانت الإيرادات تزيد عن المصروفات بالمقدار الذي يظهر في الميزانية .

وألف المجلس لجنة أخرى من خمسة أعضاء ينضم إليهم أعضاء اللجنة الأولى ، للبحث عن الوسائل الكفيلة بمعالجة الحالة المالية ، فقدمت اللجنة تقريراً تدل القرائن والملاحظات على أنه موعز به من الحكومة . وخلاصته أنها ترى زيادة الضرائب على الأطنان بمقدار السدس ، وعقد قرض داخلي .

وحضر إسماعيل صديق بجلسة ٢٧ محرم سنة ١٢٨٥ ، وأقضى ببيان خلاصته أنه مع مايزعمه من زيادة الإيرادات عن المصروفات فإن الحاجة تدعو إلى زيادة الضرائب ، وعقد قرض داخلي بخمسة ملايين من الجنيهات ، لأداء الباقي من ديون الحكومة ، فوافق المجلس على وجهة نظره ، وانتهت المناقشة في المسألة المالية بتيجتين سيئتين :

الأولى : زيادة الضرائب على الأطنان بمقدار سدس المربوط من الأموال لمدة أربع سنوات (وبعد انتهائها تقررت بصفة دائمة) .

الثانية : عقد قرض جديد زاد من عبء القروض ، ولم يخصص شيء منه لسداد الديون السابقة ، بل ابتلعه سياسة الإسراف التي كان يتبعها الخديو وينفذها إسماعيل صديق . ولم يعقد القرض الجديد في داخل البلاد ، بل اقترضته الحكومة في الخارج من بيت أوبنهايم المالي ، ولعلها أرادت بذلك أن تكتم حقيقته وشروطه عن الأنظار ، ولم يكن مقداره خمسة ملايين جنيه ، كما وعد بذلك إسماعيل باشا صديق ، بل كان مبلغاً ضخماً بلغ ١١,٨٩٠,٠٠٠ من الجنيهات ، وهو المعروف بقرض سنة ١٨٦٨ ، وهذا التصرف يدل على مُبلَغ استهانة الحكومة بقرارات مجلس شورى النواب ، وانفرادها بالتصرف في المسائل المالية التي تعتبر الرقابة عليها من أخص حقوق الهيئات النيابية .

وكان ختام الدور الثاني جلسة ٢٣ مايو سنة ١٨٦٨ .

دور الانعقاد الثالث

(٢٨ يناير سنة ١٨٦٩ - ٢٢ مارس سنة ١٨٦٩)

عين الخديو لرئاسة المجلس في هذا الدور عبد الله باشا عزت الذي تولى الرئاسة في الدور السابق ، وافتتح اجتماعه يوم الخميس ٢٨ يناير سنة ١٨٦٩ (١٥ شوال سنة ١٢٨٥) بالقلعة ، يصحبه شريف باشا وزير الداخلية ، وشاهين باشا وزير الحربية ، وإسماعيل باشا صديق وزير المالية ، ومحمد حافظ باشا رئيس مجلس الأحكام ، وذو الفقار باشا وزير الأمور الخارجية ، وحسن باشا راسم مفتش عموم الأقاليم ، وطلعت باشا كاتب الديوان الخديو ، وأحمد خيرى بك حامل الختم .

خطبة العرش وأهميتها

وتليت خطبة الافتتاح ، وهي أطول خطب الخديو إسماعيل في مجلس شورى النواب ، وأغزرها مادة ، لما جمعت من البيانات عن أعماله منذ ولايته العرش إلى سنة ١٨٦٩ ، ولأهمية هذه الخطبة نلخصها هنا تلخيصاً وافياً .

ابتدأ الخديو خطابه « بالسلام على أهل المجلس » ، وأعرب عن سروره لاجتماعهم بقصد المذاكرة فيما يعود على الوطن بالنفع العظيم ، وذكر الشؤون المالية فأبدى سروره لحسن سيرها .. من غير مضايقة للحكومة أو مشقة للأهالى ، مع نقص النيل في ذلك العام ، وذكر ما بذلته الحكومة من الجهود والوسائل لملافاة هذا النقص ، وتوفير أسباب الرى ، وأن هذه الوسائل أثمرت في الوجه البحرى ، ولكنها لم تأت بكل ما تنبغيه الحكومة من الوجه القبلى ، وحرمت بعض الجهات ماء الرى لعلو أراضيها ، فأعفيت من الضريبة ، ووزعت الحكومة الغلال على أهلها ساعدتهم في مؤونتهم وأعطتهم تقاوى الزراعة وأعفتهم من أعمال السخرة ، وأجلت ميعاد جباية الأموال من كافة الأهلى « وبهذه الوسائل لم يحصل لهم أدنى مشقة ، ولا قيل بأن أحداً من أهالى القطر حصل له ضيق ولافاقة بهذا الداعى ، بل الجميع في غاية الراحة والمحتاج منهم متحصل على قوته » ، ثم ذكر أن الحكومة اعترمت تأليف لجنة من كبار المهندسين لاتخاذ الوسائل الفعالة لتوفير أسباب الرى في السنة التى ينقص فيها النيل مثل هذا العام .

وتكلم عن المالية ، فقال إنه بفضل « حسن تدابير الحكومة » وتصرفاتها ، وما اقتصدته من المصروفات ، وما اقترضته من السلفة الأخيرة « قد توازنت إدارة المالية » ، وسددت مقداراً جسيماً من الديون « التي كانت باقية من عهد المرحوم عمنا سعيد باشا وقدرها ٢٢ مليون جنيه (كذا) ، وصار الباقي الآن من الديون ١٧ مليون جنيه تقريباً (كذا) بما في ذلك القرض الجديد » .

أعمال العمران في عهد إسماعيل

وذكر الأعمال التي أنفقت عليها الحكومة من هذه القروض ، فقال أنها دفعت لشركة قناة السويس ثمانية ملايين جنيه ، وأعرب عن أمله في أن ما تكبده الأهالي من المشقة في تشغيلهم في حفر القناة ، وما دفع للشركة من التعويضات لاتضيع ثمرته ، فإن القناة ستفتح للملاحة في شهر أكتوبر سنة ١٨٦٩ ، وللحكومة نصف أسهم الشركة تقريباً ، ولها عدا ذلك ١٥٪ من أرباحها ، وسيكون ذلك باباً لايراد جديد مستمر ، ثم ذكر ما أنفقته الحكومة على أعمال العمران ، كالسكك الحديدية ، فقال إن ما أنشئ منها في عهده بلغ ٨٥٠ (خمسين وثمانمائة) ميل ، وأنشئ كوبرى ترعة الوادى ، وثلاثة كبار جسيمة بخطوط الوجه القبلى ، ومائة قنطرة ، أربعون منها بالوجه البحرى ، وستون بالوجه القبلى ، وأشار إلى ما صرف على إصلاح ميناء السويس ، وكوبرين آخرين على ترعة المحمودية بقرب محطة السكة الحديدية وكوبرى ثالث شرعت الحكومة في إنشائه على رياح المنوفية .

وعدد ما أنشأه من أعمال الري فبلغت ٢٠٧ قنطرة و ٤٠ ترعة ومصرفاً ، وكوبرياً واحداً و ٥ هويسات و ٣٠ باباً للهويسات ، وأربعة أرصفة من الحجر ، و ٢٥ من البدالات والسحارات وما إليها .

الجيش والبحرية

وتكلم عن الجيش وما أنفقه في إصلاحه ، فقال إنه لما تولى العرش لم يكن موجوداً سوى ٣ آلاف من جنود البر (كذا) وستائة من جنود البحر ، وعدد قليل من السفن الحربية لايزيد عن

ثلاث أو أربع قطع « مع عدم الانتظام على العموم في الأمور العسكرية ونقص المهات الحربية » بحيث لم يكن ممكناً تسليح خمسة عشر ألفاً أو عشرين ألفاً من الجنود ، وذكر ما أجراه من التنظيمات المستجدة ، وماجدد من المهات الحربية وأنشأ من الورش والمصانع لتشغيل الملابس والمهات العسكرية ، والسفن الحربية وسفن النقل التي اشتراها أو أنشأها . وبلغ عددها ٢٢ قطعة ، وذكر شراء عدد كبير من البنادق الحديثة الطراز ، وعاد إلى ذكر الديون فقال إنها صرفت على الأعمال والمشروعات العامة العائدة على الوطن بالنفع العظيم . وألمع إلى فكرة بيع السكك الحديدية التي عرضت على الحكومة ، قال ولو باعها لسددت أغلب ديونها « وبهذا يظهر أن قيمة السكة الحديدية على حدتها توازي ديون الحكومة » ثم قال :

« وأحمد المولى وأشكره سبحانه وتعالى ، على أنه من منذ ما أخذت زمام هذه الحكومة بيدي ، وأنا صارف نيتي وأفكاري في إجراء ما يكون فيه المنفعة والفائدة لهذا الوطن بكامل العمران وازدياد رفاهية الأهالي وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة » .

مقاصد إسماعيل

وذكر أنه يوم تقلده الحكم أبدى في خطبته لقناصل الدول مقاصده التي جعلها برنامجاً وهي :

- ١ - رفع السخرة عن الأهالي .
 - ٢ - توسيع دائرة الزراعة والتجارة .
 - ٣ - نشر التعليم العمومي .
 - ٤ - ترتيب مخصصات سنوية لمصروفاته الخاصة .
 - ٥ - ترتيب المحاكم ، واستعرض ما بذله في إتمام هذه المقاصد الخمسة .
- فقال عن رفع السخرة إن الحكومة تكلفت صرف مبالغ جسيمة في هذا الصدد « إنما قد تم أمرها بانضمام حسن همتمكم وصائب آرائكم ، وجرت العمليات على أتم نظام » (يشير إلى تنظيم السخرة) .
- وقال عن توسيع دائرة الزراعة والتجارة ، إن ماتم من الأعمال العظيمة كمد السكك الحديدية

وإقامة المباني والقناطر وغيرها قد أدى إلى تحسين الزراعة وتكثيرها واستصلاح مقدار جسيم من الأراضي ، « وبلغ ماضار إصلاحه وزراعته في عهد حكومتنا لغاية هذه السنة (١٨٦٩) ٣٢٧,٤٥٨ فدان » .

السودان في خطبة العرش

وذكر أعمال العمران في السودان فقال « وأما الأقاليم السودانية بالمثل لم أترك أمرها ، بل بذلت غاية جهدي في إصلاح أحوالها وترقي أسباب الزراعة والتجارة بها ، كما أنه جارى العمل الآن في امتداد خطوط التلغراف إلى مدينة الخرطوم التي هي مركز تلك الأقاليم وإلى سواكن حتى قارب الانتهاء ، وبالمثل صارت المباشرة في عمل خط تلغرافي أيضاً من سواكن إلى مصوع ، وعند نهو وإتمام ذلك سيصير تفرع جملة خطوط بحسب اللزوم ، لأن كامل الأدوات والمهمات اللازمة لذلك موجودة وجاهزة للعمل ، وبواسطة ماضار إجراؤه هناك من التنظيمات والإجراءات النافعة حسب اقتضاه الموقع لله الحمد قد بدا ظهور الثمرة المقصودة ، وتزايد إيراد الحكومة هناك أضعاف ما كان ، فبعدما كانت نظارة المالية تمد هذه الأقاليم بمبلغ ثلاثين ألف كيس (١٥٠,٠٠٠ جنيه) صارت هي الآن ترسل لخزينة المالية سنوياً مبلغاً وقدره ١٥,٠٠٠ كيس (٧٥,٠٠٠ جنيه) بخلاف مضاريفها الملكية والعسكرية » .

التعليم

وقال عن « مادة التعليم التي هي أساس التقدم » إنه من وقت تأسيس مدرستي الابتدائي والتجهيزية بمصر وظهور ثمراتها تعددت المدارس التي أنشأها وأحصاها في الخطبة كما يأتي :

المدارس التابعة لديوان المدارس (وزارة المعارف) - ١٢ مدرسة .

بالقاهرة : مدرسة الابتدائي ، المدرسة التجهيزية ، المهندسخانة والأبنية ، الإدارة والألسن (الحقوق) ، المساحة والمحاسبة ، العمليات (الفنون والصنائع) ، مدرسة الرسم بالإسكندرية : المدرسة الابتدائية ، المدرسة التجهيزية ، المدرسة البحرية .

بالأقاليم : مدرسة طنطا ، مدرسة أسبوط .

المدارس التابعة لديوان الجهادية (وزارة الحرية) ١٠ مدارس .
مدرسة الطوبجية ، مدرسة السوارى (الفرسان) ، مدرسة البيادة (المشاة) ، مدرسة
أركان حرب ، الطب البيطرى ، مدرسة قلقاوات الشيش ، المحاسبة ، الزراعة .
الجبخانجية ، العمليات .

ثم ذكر تنظيم المكاتب الأهلية :

وقال عن المقصد الرابع : إنه رتب لنفسه مخصصات معلومة فى الميزانية منذ عدة
سنين^(١٠) وتكلم عن المقصد الرابع قائلاً إلى مفاوضات الحكومة مع الدول الأوروبية من أجل
إنشاء المحاكم المختلطة وموافقة الدول على استحسان إنشائها وقرب انعقاد لجنة دولية لوضع
نظم هذه المحاكم .

وختم خطبته بتصميمه النية على اتباع هذا المنهج ، وبأن الحكومة قد نفذت آراء المجلس
فى العام الماضى والذى قبله ، وأعرب عن أمله فى أن يتذكر المجلس هذه الدورة فيما يودى إلى
توسيع دائرة العمران والتقدم والثروة « والمستول من المولى الكريم ، توفيق جمعنا إلى ما فيه الخير
والإصلاح العميم » .

الجواب على خطبة العرش

انتخب المجلس لجنة للرد على خطبة العرش مؤلفة من عشرة أعضاء وهم :
أحمد أفندى على . الشيخ على سيد أحمد . سليمان أفندى عبد العال . عمر أفندى
أبويحيى . أترى بك أبو العز . السيد أحمد الشريف . محمد بك سعيد . الشيخ محمد
الشواربى ، السيد محمود العطار ، الشيخ مصطفى جميعى .
وقدموا جواب المجلس إلى الخديو ، وهو جواب طويل ، استهلوه بقولهم على لسان
المجلس .

(١٠) مقدارها ٦٠,٠٠٠ كىس أى ٣٠٠,٠٠٠ جنيه و ١٤٥ و ٢٢ كىس أى ١١٠,٧٢٥ ج للعائلة الخديوية كما ورد فى
الميزانيات السنوية ، ثم خفضت مخصصات الخديو والعائلة الخديوية فى ميزانية سنة ١٨٧٨ إلى ٢٦٦,٠٠٠ جنيه ، منها
١٠٠,٠٠٠ للخديو وذلك بسبب العجز الذى نشأ عن الارتباك المالى وفداحة فوائد الديون (ملحق نمرة ٦ للتقرير الأول للجنة
التحقيق العليا ص ١٤٣) .

« الشرف كل الشرف ما حزنه ، الفجر كل الفجر ما حظينه فوق ما أملناه ، لما ترادف علينا من النعم الجليلة ، والمنازل الجزيلة ، بتكرار افتتاح هذا المجلس في ظل الساحة الخديوية ، والمؤسس على موجبات رفاهية الأهالي والعمارة ، ونهني أنفسنا بمحاسن التهاني المنيفة ، ونهيج أرواحنا لتشرفتنا بالإصغاء إلى المقالة الشريفة » .

وبهذا الأسلوب كتب الجواب ، وكله ثناء بالغ ومديح وإطراء للذات الخديوية ، وترديد لما جاء في خطبة العرش من البيانات والأقوال .

تغييرات في الأعضاء

استعفى محمد أفندي شعير ، وانتخب بدله على أفندي شعير ، وعين الشيخ محمد الصيرفي (بك) وكيلاً لمديرية المنوفية ، وهلال بك وكيلاً لمديرية الغربية ، وأحمد أفندي أباطة وكيلاً لمديرية البحيرة ، ومحمد أفندي عفيفي وكيلاً لمديرية الشرقية ، وإبراهيم أفندي الشريعي وكيلاً لمديرية الجيزة ، ولم ينتخب أعضاء بلدهم .

وانتخب محمد بك سعيد رئيساً للجنة الشرقية بدلاً من هلال بك ، وأحمد أفندي على رئيساً لقلم المنيا بدلاً من إبراهيم أفندي الشريعي .

المسائل التي تباحث فيها المجلس

تناولت مباحثات المجلس في هذا الدور مقترحات الأعضاء في المنافع العامة المحلية ، ومما قرره أن يكون تنصيب مشايخ البلاد وعددهم برغبة الأهالي ، وتكليف المديرين التحري عن سلوكهم ، وأن لا يعزل أحد منهم إلا إذا ثبت عليه ارتكاب جنحة .

وقرر ترغيب الأهالي في تحرير حجج بملكيتهم بالمحاكم حتى تستقر الملكية والتصرفات العقارية ، والتصريح لكل مالك بإثبات ملكيته أمام القضاء سواء أكان بطريق التعاقد أم التوارث ، وأن تحرر له الحجة بذلك في المحكمة .

ومما قرره تنظيم المباني بالمدن والقرى ورسم خرائط عن مباني كل بندر بمعرفة مهندس التنظيم ، وقرر فتح الشوارع في البنادر والقرى ، وإصلاح الطرق الزراعية ، وشق الترع

والعناية بتطهيرها ، وتوفير وسائل الري .

وقرر منع فرز الحصاص في الأطيان الموروثة ، وكان الفوز حقاً مخولاً لكل وارث طبقاً للمادة الثانية من لائحة الأطيان المعروفة باللائحة السعيدية الصادرة سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٨ م) وقرر المجلس جعل التكليف على أكبر أولاد المتوفى ، وخوله حق إدارة الملك المشترك وتقسيم صافي الربح على الورثة ، وبني المجلس قراره على وجوب « استمرار فتح البيوت ذوى العائلات » ، وبناء على هذا القرار ألغى النص على الفرز الوارد في اللائحة السعيدية .

وقرر أيضاً تشكيل مجالس زراعة تسمى (مجالس تفتيش الزراعة) مؤلفة من موظفين فنيين للنظر في شؤون الأراضى والزراعات ، وإجراء ما يؤولى إلى توسيع نطاق الزراعة ، وأن يكون بالوجه البحرى مجلسان ، وبالوجه القبلى ثلاثة مجالس ، وذلك عدا (مجالس تنظيم الزراعة) التى قرر المجلس إنشاءها فى الدور السابق ، ثم قرر المجلس استعجال الحكومة فى إنشاء وإنشاء حقول التجارب .

الميزانية

وأحضر وزير المالية (إسماعيل باشا صديق) ميزانية سنة ١٨٦٩ - ١٨٧٠ بجلسة ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢٨٥ وخلاصتها كما يأتى :

٧,٣٣٥,٠٠٠ مجموع الإيرادات

المصروفات وأقساط الديون

٣,١٧٥,٠٠٠ المصروفات

٢,٥١٥,٠٠٠ أقساط الديون

٥,٦٩٠,٠٠٠ ج مجموع المصروفات

٥.٦٩٠.٠٠٠

١,٦٤٥,٠٠٠ ج الزيادة المزعومة فى الإيرادات .

ومن هذه الأرقام يتبين أن أقساط الديون زادت عن نصف مجموع المصروفات وهذا يدل على

مبدئيًا على جسامة القروض لغاية سنة ١٨٦٩ ، وقد تضاعفت بعد ذلك كما تقدم بيانه في الفصل الحادى عشر ، ولم تجر مناقشة ذات بال في الميزانية ، واعتمدت كما هي .
وختم الدور يوم الاثنين ٢٢ مارس سنة ١٨٦٩ بخطبة وجيزة لرئيس المجلس شكر فيها الأعضاء على ما أبدوه « من صائب الآراء » وأعلن ختام المجلس وانصرف الأعضاء .

الهيئة النيابية الثانية

(انتخابات سنة ١٨٧٠)

انتهت عضوية مجلس شورى النواب الأول بانقضاء ثلاث سنوات على انتخابه ، وأجريت الانتخابات للهيئة النيابية الثانية في أوائل سنة ١٨٧٠ ، وتولى الانتخاب عمد البلاد ومشايخها طبقًا للائحة النظامية .

وهاك أسماء النواب الذين أسفرت عنهم الانتخابات الجديدة ^(١١) .

نواب القاهرة

السيد حسن موسى العقاد : السيد أمين البدن . السيد يوسف العقبى .

نواب الإسكندرية

الشيخ مصطفى خليل جمعى . السيد إبراهيم على جمعى .

نواب الفيوم

أبو النجا دنيا (من مسهله) . سعد الجزار (من دماط) . الشيخ سليمان العبد عمدة شبرا
التملة . السيد عيسوى الشريف (ايار) محمد أبو حمد عمدة حليس . أحمد الديب عمدة

(١١) الوقائع المصرية العدد ٣٤٤ (٧ فبراير سنة ١٨٧٠) بعد التصحيح الذى رجعنا فيه إلى دفتر قيد أسماء الأعضاء المحفوظ ضمن الوثائق الأصلية لمجلس شورى النواب .

كفر الديب . عمارة العشري عمدة ميت بدر حلاوة . سيد أحمد القاضي عمدة مطويس .
إبراهيم عامر عمدة تطاي .

نواب البحيرة

الشيخ حسين أمين عمدة شابور . الشيخ على مهنا عمدة كفر سلامون . الشيخ أحمد على
محمود عمدة الرحمانية : الشيخ عبد الله ناصر عمدة محلة بشر . الشيخ محمد الأنصاري عمدة
ادفينا .

نواب الشرقية

الشيخ شحاته شاش عمدة بني هلال . الشيخ حسن زايد عمدة كفر الشرفا القبلي . الشيخ
حسن غيث عمدة كفر شلشلمون . حسن عامر عمدة العزيزية . المعلم موسى خليل عمدة كفر
الدير . الشيخ محمد الفرماوي عمدة الزوامل . محمد أيوب سليمان عمدة كفر أيوب سليمان .
الشيخ محمد صالح الحوت عمدة الصالحية .

نواب الدقهلية

يوسف رزق عمدة كفر يوسف رزق . الشيخ حسنين سويلم عمدة صهرجت الصغرى .
محمد الأتربي عمدة أخطاب . الإمام العشماوي عمدة الطراخة . أحمد أبو سعده عمدة
بدواي . الشيخ حسنين حسن عمدة طوخ الأقلام .

نواب القليوبية

الحاج سالم الشواربي عمدة قلوب . بيومي عابد عمدة كفر عابد . الحاج قاسم منصور
عمدة كفر شين . محمود زغلول عمدة ميت كنانة .

نواب المنوفية

على افندي شعير عمدة كفر عثما . السيد الفتى عمدة كمشيش . شاهين أحمد الجتوروى

عمدة بلمشط . رضوان إبراهيم بلال عمدة طوخ ذلك . الشيخ أحمد عبد الغفار عمدة تلا
على محمود عمدة المصلحة .

نواب مديرية إشنا

منصور حماد عمدة تجار أسوان . عبد الرحمن خالد عمدة المطاعة .

نواب مديرية قنا

خليفة إبراهيم عمدة أبو مناع بحرى . أحمد أفندى حسن عمدة حجازة . أحمد خلف الله
عمدة هو .

نواب مديرية جرجا

أحمد حسين عمدة البلينا . حميد حمد عمدة ونيه . ضيف الله حسن عمدة شندويل .
عبد الرحمن همام عمدة أولاد إسماعيل . الشيخ عبد الرحمن السيد عمدة أم دومه . السيد
رفاعة عنبر (طهطا) .

نواب سيوط

حسين النجدى عمدة المشايعة . حسن إبراهيم من بنى رزاح أبنوب . مهني يوسف عمر
عمدة الشيخ تمي . المعلم فرج إبراهيم عمدة ديرمواس . الشيخ محفوظ رشوان عمدة الحواتكة .
محمد جابر عمدة صنبو .

نواب مديرية المنيا وبنى مزار

عبد الله مصطفى عمدة الفشن . حسن أفندى عبد الرزاق عمدة أبو جرج . بديني أفندى
الشريعي عمدة سمالوط . حنا أفندى يوسف عمدة نزلة الفلاحين . إسماعيل أفندى سليمان
عمدة ماقوسه . خليفة مرزوق عمدة بنى أحمد .

نواب بنى سويف

محمد أبوالمكارم عمدة طنسا بنى مالو . حنفي العريف عمدة بوش . أبوزيد عبد الله
الوكيل عمدة الميمون .

نواب الفيوم

على اليماني عمدة مطر طارس . محمد الدهشان عمدة أهریت الغربية .

نواب الجيزة

حسنين افندى الزمر عمدة طناش . مراد افندى السعودى عمدة المحرقة . سالم افندى حماد
عمدة حلوان .

نائب دمياط

على بك خفاجى .

دور الانعقاد الأول

(سنة ١٨٧٠)

افتتح الخديو إسماعيل المجلس الجديد بالقلعة فى الحفلة المعتادة يوم الثلاثاء أول فبراير سنة
١٨٧٠ (غاية شوال سنة ١٢٨٦) يصحبه شريف باشا وزير الداخلية ، وشاهين باشا وزير
الحربية ، وإسماعيل باشا صديق وزير المالية ومفتش عموم الأقاليم ، ونوبار باشا وزير
الخارجية ، وعلى مبارك باشا وزير المعارف والأشغال والسكك الحديدية ، وأحمد خيرى بك
مهدار الخديو .

وكان رئيس المجلس فى هذا الدور عبد الله باشا عزت رئيسه فى الدورين السابقين .
وقرئت خطبة العرش ، وكانت وجيزة العبارة ، على عكس خطبة الدور الماضى والذى

سبقة ، واقتصرت على الإشارة إلى مرور العام المنصرم « بكل خير وبركة » وأن المزروعات بالجهات كافة في غاية الخصوبة ، أما شؤون الحكومة في خلال العام فلم يشر إليها الخديو . وأحال بيانها على الوزراء بقوله « وأما إدارة الحكومة في ظروف هذه السنة فما تريدون معرفته من إجراءاتها كالجاري بكل عام فلكم أن تسألوا عنه من حضرات النظار » وأعرب عن أمله في أن تسفر مداولات المجلس في هذا العام عن المنافع الجليلة التي عادت من مداولات المجلس في الأعوام الماضية .

وغير خاف أنه في أوائل سنة ١٨٧٠ حين افتتح الخديو جلسات المجلس الجديد كان الضيق المالي قد ظهرت بوادره في دوائر الحكومة ، وأخذ الناس يتشوقون إلى سماع خطبة العرش لعلهم يرون فيها بارقة أمل في تحسن الحالة المالية ، وخاصة فيما له مساس بتلاحق القروض وتضخم الديون السائرة ، ولكن الخطبة جاءت خلواً من الإشارة إلى الدين العام باتاً كان أو سائراً . وجاء الجواب على خطبة العرش خلواً أيضاً من الإشارة إلى هذه المسائل الهامة ، وعلى طول عبارات الجواب فإنه اقتصر على صوغ قلائد من المديح والتعلق للخديو .

وقدم هذا الجواب إلى الخديو لجنة من رئيس المجلس ومن عشرة أعضاء منتخبين وهم بديني افندى الشريعى . حسن افندى عبد الرازق . وعلى افندى شعير . الشيخ عيسوى الشريف ، على بك خفاجى . الشيخ مصطفى جميعى . الشيخ عبد الرحمن السيد . الشيخ محفوظ رشوان . الشيخ أحمد أبو سعده . الشيخ شحاته شاش .

لجان المجلس

وانتخب المجلس لجانه الخمس لتحقيق صحة نيابة الأعضاء ، ونذكر هنا بيان هذه اللجان وأسماء رؤسائها :

لجنة المدائن (العواصم) وتشمل نواب القاهرة والإسكندرية ودمياط والبحيرة وبعض نواب القليوبية والشرقية والجيزة ، ورئيسها السيد يوسف العقى .

لجنة الغربية ورئيسها على افندى شعير وتضم نواب الغربية والمنوفية .

لجنة الشرقية ورئيسها الشيخ محمد الفرماوى ، وتتألف من نواب عن الشرقية والدقهلية

والقليوبية .

لجنة أسيوط ورئيسها الشيخ عبد الرحمن السيد ، وتتألف من نواب عن أسيوط وجرجا ووقنا وإسنا .

لجنة المنيا ورئيسها بدينى افندى الشريعى ، وتضم نوابا من المنيا وأسيوط وجرجا وبني سويف .

ونظرت اللجان فى صحة نيابة الأعضاء فأقرت نيابتهم جميعاً .

تغيرات فى الأعضاء

وانتخب الشيخ على جعفر عمدة صناغير بدلا من الحاج سالم الشواربى الذى عين مأموراً لضواحي مصر ، والشيخ محمد حجازى عمدة قرملة (شرقية) بدل الشيخ محمد صالح الحوت .

أعمال المجلس

واقترنت مباحثات الأعضاء على إيذاء رغبات ، أهمها يتعلق بالشؤون الزراعية كطلب تحسين وسائل الري والصرف ، والبحث فى مسألة الرياحات ، وإنشاء الجسور وتقويتها ، وتطهير الترع وما إلى ذلك ، وبعض الشؤون القضائية ، كزيادة عدد المحاكم (المجالس المحلية) وقد قرر المجلس فيها إنشاء مجلس محلى أى محكمة ابتدائية فى كل مديرية بعد أن كان لكل مديرتين أو ثلاثة مجلس واحد ، وقرر إنشاء مجلسين استئنافيين (بدل مجلس واحد) فى الوجه القبلى ، أحدهما فى جرجا ويختص للفصل فى القضايا المستأنفة من أسيوط وجرجا ووقنا وإسنا ، والآخر فى المنيا ويختص بقضايا المنيا وبني سويف والقيوم ، وقد نفذت الحكومة هذا القرار .

الميزانية

وقدم إسماعيل باشا صديق الميزانية ، وهى أرقام إجمالية لا يمكن تعرف الحقيقة منها ، ذلك

أنها قاصرة على ذكر أبواب الإيراد العمومي والأبواب الإجمالية للمنصرف ، وليس فيها بيان تفصيلي لأقساط الديون ، ولائمة ذكر الديون السائرة التي كانت آخذة كل يوم في ازدياد وهذه خلاصة الميزانية :

جنيه	جنيه
الإيرادات	٧,٣٤٧,٠٠٠
المصروفات وأقساط الديون	
المصروفات	٣,٤٠٠,٠٠٠
أقساط الديون	٢.٤٨٥.٠٠٠
مجموع المصروفات وأقساط الديون	٥,٨٨٥,٠٠٠
زيادة الإيرادات عن المصروفات	١.٤٦٢,٠٠٠

ولم يسأل أحد من الأعضاء لمناسبة نظر الميزانية عن الأبواب التي صرف فيها القرض الأخير الذي عقد سنة ١٨٦٨ ومقداره ١١,٨٩٠,٠٠٠ جنيه ، وفيه كانت زيادة الديون السائرة التي بلغت ١٢ مليون جنيه في أواخر سنة ١٨٦٩ ، ومقدار ما أنفق على حفلات افتتاح قناة السويس ، وغير ذلك من أبواب السفه والإسراف ، واقتصرت المناقشة في الميزانية على ملاحظات تافهة ، وانتهى الدور في ٣١ مارس سنة ١٨٧٠ (٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٨٦) .

دور الانعقاد الثاني

(سنة ١٨٧١)

عين السيد أبو بكر راتب رئيساً للمجلس في هذا الدور ، وتأخر انعقاده عن موعده المعتاد ، فإن اللائحة الأساسية تقضى باجتماعه في كل سنة من ١٥ كيهك لغاية ١٥ أمشير ، أي من منتصف ديسمبر إلى منتصف فبراير ، ولكن هذه الدورة ابتدأ يوم ٤ بؤونه ، أي ١٠ يونية سنة ١٨٧١ ، في شدة الصيف ، فكأنه قد تأخر عن موعده نحو ستة أشهر ، وكان الخديو يسطاف في الإسكندرية ، فجاء إلى مصر خصيصاً لافتتاح المجلس .

ولاندرى سبباً لهذا التأخير ، وهل كان عن عجز وعدم اكتراث ، أم لارتباك أحوال الحكومة المالية واشتغال إسماعيل صديق بتدبير المال اللازم لمطالبها ، ولعله يكون لسبب منها أولها مجتمعة .

افتتح الخديو المجلس بالقلعة في الحفلة المعتادة ، يصحبه إسماعيل باشا صديق وزير المالية ، وقاسم رسمى باشا وزير الحرية ، وعبد الله عزت باشا رئيس مجلس الأحكام ، ومصطفى رياض باشا خازن دار الخديو ، وأحمد خيرى باشا المهردار ، ومحمد زكى باشا التشرىفاتى . وتليت خطبة الافتتاح ، وكانت وجيزة العبارة ، اقتصرت على التحيات الطيبة والتمنيات الحسنة ، قال فيها : « بعد التحيات اللائقة لحضراتكم ، أنهى أنه تتضاعف مسراتى كلما تكرر اجتماع حضراتكم ، لما يحصل فيه من المنافع العائدة على الوطن وازدياد الثروة والرفاهية ، وأعد ذلك منة عظيمة وتوفيقاً من الله تعالى ، ومأمولى فى هذا العام أيضاً بفضل الله تعالى ، أنه بما تبدونه بالمجلس من آرائكم الصائبة ، والأهتمام من الحكومة فى إجراء مقتضاه ، ينتج زيادة الثمرة وحسن المزية لتكثير العمارية والتقدم ، ونرجو من كرم المولى سبحانه وتعالى دوام التعطف علينا بما يزداد به وطننا عماراً وتقدماً ، وأن يوفقنا لما فيه الخير والإصلاح إنه هو المعين » . ولم تشر الخطبة إلى شىء من أحوال الحكومة المالية أو السياسية فى السنة الماضية ، ولا إلى ما اعتزمت عمله فى السنة المقبلة ، مع أن البلاد كانت تنحدر فى ذلك الحين إلى هاوية الضيق المالى ، والحكومة مشغولة بتحضير قانون المقابلة المشهور الذى أُلجأها إلى إصداره نضوب معين المال فى خزائنها .

تغيير بعض الأعضاء

حدث تغيير فى بعض الأعضاء بسبب الوفاة أو تعيين بعض النواب فى وظائف الحكومة فانتخب الشيخ محمود السيد عمدة فاو (قنا) بدل الشيخ خليفة ابراهيم ، وعلى افندى الزعفرانى بدل اسماعيل افندى سليمان (المنيا) ، والشيخ مبروك الديب عمدة تبوك (بحيرة) بدل عبد الله ناصر ، والشيخ نصير شريف عمدة كفر بولين (بحيرة) بدل الشيخ حسين أمين ، والحاج على عمران عمدة سرسوس (منوفية) بدل على افندى شعير ، والشيخ حسين بكير عمدة سندوه (قليوبية) بدل الحاج قاسم منصور ، والحاج سالم صوار عمدة محلة أبو على القنطرة (غربية) بدل عمارة العشرى ، والشيخ أحمد أبو حمر عمدة كفر المنشي بدل محمد أبو حمد (غربية) ، والشيخ على الشامى عمدة دهمشا (شرقية) بدل الشيخ شحاته شاش . والسيد أحمد السرسى عمدة أوشاى (منوفية) بدل رضوان افندى بلال . وانتخب السيد عيسوى الشريف رئيساً للجنة الغربية بدلاً من على افندى شعير .

لجنة الرد على خطاب العرش

انتخب المجلس لجنة لتقديم الرد على خطاب العرش مؤلفة من عشرة أعضاء ، وهم :
حسن افندى عبد الرازق . الشيخ محمد أبو المكارم . الشيخ سليمان العبد . الشيخ أحمد
أبو حمر . الشيخ حسنين سويلم . الشيخ محمد الأترى . السيد مصطفى جميعى . السيد أمين
الدين . مهنى افندى يوسف . الشيخ عبد الرحمن خالد .

وقدموا الرد إلى الخديو ، وهو لا يخرج عن المألوف من أجوبة السنين الماضية ، ومما ذكره
في الجواب أن النيل قد زاد زيادة غير عادية في هذا العام (١٨٧١) ، ولكن بفضل تدابير
الحكومة لم يقع منه ضرر ، كما أن محصول القطن رغم ما أصابه من التلف بلغ مليونى قنطار ،
بما يزيد عن محصول السنة الماضية ، ورغم نزول أسعاره فلم يصل النزول إلى درجة ضارة ،
ونوهوا بمساعي الحكومة في نشر التعليم وإنشائها ديوانا للمكاتب الأهلية لإصلاح حالتها
وترقيتها .

أبحاث المجلس

اقتصر عمل المجلس على بعض أسئلة ورغبات تتعلق بشؤون الزراعة وما إليها ، وترتيب
المحاكم ، وبعض إيضاحات أبدأها الوزراء رداً على الأسئلة التى قرر المجلس قبولها .
ومما قرره في هذا الدور إلغاء ضريبة الفردة مقابل رسوم وعوائد أخرى .
وقرر أيضاً إلغاء ضريبة المواشى ، وذلك أن وزارة المالية كانت قد قررت في يناير سنة
١٨٧١ زيادة عشرة في المائة على مربوط المال للقيام بنفقات الرى ، فوجد المجلس مندوحة
لإلغاء ضريبة المواشى التى وضعت في الأصل للقيام بهذه النفقات ، وقد وافقت الحكومة على
هذا القرار .

ونظر المجلس في تعديل النظام القضائى ، وذلك أن حكام الأخطاط ونظام الأقسام كانوا
يفصلون في القضايا فوق اختصاصاتهم الإدارية ، مما أدى إلى شكوى الأهلى من تعطيل
الفصل في الدعاوى ، فاقترح أحد الأعضاء زيادة عدد المحاكم ، وقرر المجلس مخابرة الحكومة
لوضع نظام جديد لترتيب المحاكم ، تسهيلاً للتقاضى ، فأجابت الحكومة طلبه وقدمت إليه

مشروع لائحة جديدة لهذا الغرض وضعها المجلس الخصوصي (مجلس الوزراء) بحضور أربعة من أعضاء مجلس شورى النواب ، وأحيلت اللائحة على المجلس فصدق عليها ، وهي ، تقضى بأن ينشأ في كل بلد مجلسان ، أحدهما يسمى مجلس (مشيخة البلد) ويختص بأمور الإدارة والثاني (مجلس دعاوى البلد) للفصل في الدعاوى الصغيرة ، وإنشاء محكمة مركزية بكل مركز تسمى (مجلس الدعاوى المركزية) ، وتستأنف أحكامها أمام (المجلس المحلي) أي المحكمة الابتدائية بالمديرية ، وهذه (المجالس) هي المعروفة بالمجالس الملغاة ، وقد بقيت قائمة إلى أن تقرر النظام القضائي الحالي .

الميزانية

وطلب بعض الأعضاء ميزانية هذا العام ، فقدمت ، وألفت لجنة لبحثها كانت بمثابة (اللجنة المالية) بالمجلس ، مؤلفة من بديني افندي الشريعي والسيد عيسوي الشريف والشيخ محمد الفرماوي ، وأبدت ملاحظات عن الميزانية ، وقرئ تقرير «اللجنة المالية» وحصلت مناقشات عديدة الجدوى انتهت باعتماد الميزانية كما هي وهاك خلاصتها :

جنيه

الإيرادات ٧,٢٩٠,٠٠٠

المصروفات ٦.٤١٥.٠٠٠

زيادة الإيرادات ٨٧٥,٠٠٠

وانتهى دور الانعقاد في جلسة ٦ أغسطس سنة ١٨٧١ (١٩ جمادى الأولى سنة ١٢٨٨) ثم صدر قانون المقابلة في ٣٠ أغسطس أي بعد أن أنفض المجلس ورجع النواب إلى بلادهم ، فكأنه اجتمع ثم انفض دون أن يحاط علما بهذا التشريع الخطير ، أويتسنى له النظر فيه ، وهذا يدل على مبلغ ما كان عليه المجلس وقتئذ من الضعف وهوان الشأن .

سنة ١٨٧٢

ولم ينعقد المجلس أصلا سنة ١٨٧٢ .

الدور الثالث

(سنة ١٨٧٣)

افتتح الخديو دور انعقاد المجلس في ٢٦ يناير سنة ١٨٧٣ (٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٨٩) .
يصحبه شريف باشا وزير الحقانية ، وإسماعيل باشا صديق (وزير الداخلية) ، وقاسم رسمى
باشا وزير الحرية ، وعمر باشا لطفى (وزير المالية) وعبد الله باشا عزت رئيس مجلس
الأحكام ، ورياض باشا مستشار رئاسة المجلس الخصوصى (مجلس الوزراء) ، وأحمد خيرى
باشا المهردار ، واجتمع الأعضاء برئاسة السيد أبى بكر راتب باشا الذى عين رئيساً للمجلس فى
هذا الدور كما كان فى الدور الماضى .

وتليت خطبة العرش ، وهى أطول من خطب السنتين الماضيتين ، وقد أشار فيها الخديو إلى
اعترام الحكومة إصلاح القناطر الخيرية من الخلل الذى طرأ عليها ، وما تبدله من الهمة فى
إنجاز رياح البحيرة ، وإنشاء سكة حديد السودان التى تربط السودان بمصر ، وقدر لإتمامها
ثلاث سنوات أو أربع ، وذكر عن محصول القطن أنه رغم التحارق وإصابته بالدودة فإنه
لا يقل عن محصول العام الماضى .

وانتخب المجلس لجنة للرد على خطبة العرش مؤلفة من عشرة أعضاء وهم :
السيد أمين الدنف . على بك خفاجى . الشيخ أحمد أبو حمر . الحاج على عمران . الحاج
حسنين سويلم . الشيخ على الشامى . بدىنى افندى الشريعى . حسن افندى عبد الرازق . مهنى
افندى عمر . الشيخ أحمد أبو حسين ، وقدموا جواب المجلس متضمناً الثناء المستطاب على
المكارم الخديوية والإشادة بأعمال العمران التى أشارت إليها خطبة العرش .

تغيير فى الأعضاء

انتخب الشيخ مصطفى غنيم عمدة جزى بدل السيد الفقى الذى عين مأمور ضبط بمركز
منوف ، والشيخ سليمان عامر عمدة جتور بدل الشيخ أحمد عبد الغفار الذى عين مأمور
ضبط مركز مليج ، والحاج ابراهيم حسن عمدة الباجور بدل الشيخ على محمود الذى عين
رئيس مجلس الدعاوى بمركز أشمون ، ومحمد افندى حسنين التجدى بدل أبيه الشيخ حسنين
لوفاته (أسيوط) ، والسيد عبد الرزاق الشورى بجى بدل الشيخ مصطفى خليل جميعى لوفاته ،

وانسيد سليمان الغربى بدل السيد ابراهيم على جميعى لوفاته ، والسيد محمد الشورىجى بدل السيد يوسف العقبى الذى عين بقومسيون المقابلة (مصر) ، والشيخ يوسف أبوشنب عمدة الخانكة بدل محمود زغلول الذى عين وكيل قسم الخانكة ، وشرف الدين عياد عمدة منية السرج بدل بيومى عابد الذى عين وكيل قسم (مركز) بنها ، ومحمد افندى بغدادى أباطة عمدة كفر أباطة بدل محمد افندى حجازى ، وعطية عبد الله عمدة البقاشين بدل حسن افندى عامر ، واحمد نصير بدل عبد الرحمن خالد (اسنا) .

وانتخب السيد أحمد الدنف من نواب القاهرة رئيساً للجنة المدائن بدل السيد يوسف

العقبى .

مباحث الأعضاء

تداول الأعضاء البحث والنظر فى مقترحاتهم الخاصة بمسائل الرى والزراعة وما إليها . ومن المسائل الهامة التى عرضت فى هذا الدور مشروع سكة حديد السودان ، التى كان الخديو إسماعيل يعنى بإنشائها ، وأشار إليها فى خطبة العرش ، فأرسلت الحكومة إلى المجلس صورة تقرير وضعه المستر فولر المهندس الإنجليزى الذى عهد إليه الخديو منذ سنة ١٨٧١ ، بحث المشروع ، فتملى التقرير فى جلسة ٢٣ المحرم سنة ١٢٩٠ ، واكتفى المجلس بالاستماع إليه دون إحالته على لجنة أو إبداء ملاحظات هامة عنه ، واقترح حسن افندى عبد الرازق اطلاع المجلس فى العام المقبل (١٨٧٤) على ماتراعى للحكومة إنفاذه من المشروع ، وأن تبادر إلى العمل من غير انتظار انعقاد المجلس لما لهذا المشروع من الأهمية والنفع العام ، واقترح مهنى أفندى عمر إتمام الخط الحديدى من الروضة حيث كانت تنهى السكة الحديدية فى ذلك العهد إلى وادى حلفا لما يعود منه على البلاد من المنافع ، فاستقر رأى المجلس على ذلك .

المسألة المالية

لم يرد فى خطبة العرش ولا فى الرد عليها ذكر للحالة المالية السيئة التى وصلت إليها الحكومة بسبب طغيان سيل القروض وتضخم الديون السائرة ، على أن سوء الحالة المالية كان يستدعى

إمعان النظر فيها لتدارك الخطر الذى يتهدد البلاد .

ومعلوم أن هذا الدور كان أول اجتماع للمجلس بعد صدور قانون المقابلة . الشهير . وهذا القانون يقضى بدفع ضرائب ست سنوات مقدماً علاوة على الضريبة السنوية فى مقابل إعفاء أصحاب الأطنان من نصف المربوط عليهم على الدوام ، والغرض منه كما زعمت الحكومة سداد ديونها من متحصلات المقابلة .

وقد حصلت الحكومة لغاية اجتماع المجلس نحو سبعة ملايين جنيه دون أن تخصص شيئاً منها فى استهلاك الدين العام ، بل ابتلعت هاوية الإسراف التى ابتلعت معظم القروض . وقدمت الحكومة ميزانية سنة ١٨٧٣ - ١٨٧٤ ، وليس فيها ذكر للسبعة الملايين جنيه فى باب الإيرادات ، وإنما ذكر فقط عجز الضرائب المترتب على إعفاء الممولين الذين أدوا هذا المبلغ من نصف المربوط عليهم ، فكان هذا مدعاة للتساؤل أين ذهبت السبعة ملايين المذكورة ؟ ولكن أحداً من النواب لم يسأل هذا السؤال ، ولم يتحرك المجلس رغم اجتماعه سبعة وثلاثين جلسة للبحث عن الأبواب التى ضاعت فيها هذه الملايين .

وأغرب من ذلك أن وزير الداخلية (وكان وقتئذ إسماعيل صديق) أدلى فى جلسة ١٨ المحرم ببيان عن الحالة المالية ، ذكر فيه الديون السائرة (وهى غير القروض الثابتة) ، فقال إنها بلغت ٢٥ مليون جنيه ، وهذا يدل على تضخم الدين السائر بشكل مخيف ، فإنه إلى سنة صدور قانون المقابلة (سنة ١٨٧١) ، كان يبلغ اثنى عشر مليون جنيه ، فكان هذا القانون الذى كان المراد منه استهلاك قروض الحكومة كان وسيلة لا يتراز ضرائب جديدة من الأهلى دون أن يخصص شئ منها لاستهلاك القروض ، بل زادت الديون السائرة نيفاً وثلاثة عشر مليون جنيه !!

وجاء فى هذا البيان كلام طويل قوامه الكذب ، والأرقام الخيالية ، لتسويغ القروض . وأهم ما ذكره أن صادرات البلاد فى السنوات العشر التى ابتدأت بولاية الخديو إسماعيل زادت قيمتها عن السنوات العشر التى سبقتها بنحو ٩٦ مليون جنيه ، وهذا يدل على تقدم أعمال العمران ، وذكر أن مجموع الصادرات زادت عن الواردات فى عهد إسماعيل نيفاً وسبعين مليون جنيه ، زعم المفتش أن ثمة عشرين مليون جنيه دفعت من هذا المبلغ الجسم فى أقساط القروض الخارجية ، والباقى نحو خمسين مليون جنيه موجودة نقداً فى البلاد ، وأبدى أسفه من بقاء هذه الملايين معطلة بدون فوائد « يعود نفعها على القطر » .

وغنى عن البيان أن ما يزعمه من أن ثمة خمسين مليون جنيه موجودة في خزائن الأهلين « بلا منفعة » هو افتراء وتضليل ، والبرهان القاطع على ذلك أن الحكومة لم تحصل ماحصلته من المقابلة إلا بوسائل الإكراه والضغط ، وقد بلغ الضيق بالأهلين إلى اضطرارهم للاستدانة من المرابين الأجانب لسداد ما يطلب منهم .

ويلوح لنا أن المفتش لم يدل بهذه الأرقام المكذوبة إلا ليبرر وسائل الضغط التي تذرعت بها الحكومة لاستصفاء أموال دافعى الضرائب اعتماداً على الخمسين مليون جنيه المزعومة وعرضت الميزانية على المجلس بجلسة ٧ المحرم ونخلاصتها كما يأتى :

جنيه	
الإيرادات	٦,٩٦٢,٣١٥
المصروفات	٦ ٣١٣.٦٦٠
زيادة الإيرادات عن المصروفات	٦٤٨,٦٥٥

ولاشك في مخالفة هذه الأرقام للواقع ، فليس ثمة وفر في الميزانية ، بل فيها عجز هائل يعد بالملايين ، استنفدته الحكومة من الديون السائرة .

وقد انتخب المجلس لجنة من ثلاث أعضاء وهم : بدينى افندى الشريعى ، وحسن افندى عبد الرزاق ، والشيخ محمد الفرماوى للتوجه إلى وزارة المالية ومراجعة بعض أقلام الميزانية ، على ما هو وارد في حساباتها ، ولم تستغرق المراجعة وقتاً ما ، واكتفت اللجنة بتقديم تقرير وجيز العبارة يتضمن أنها راجعت في وزارة المالية بعض أقلام الميزانية على حسابات الديوان فوجدت « قرين الصحة » ، ولم ترد على ذلك شيئاً .

ونظر تقريرها بجلسة ١١ المحرم سنة ١٢٩٠ ، ولم تحصل مناقشة ما فى الموضوع . واقتصرت الجلسة على اقتراح أبداه الشيخ أحمد أبو حمر « باعتماد الميزانية المذكورة وعرضها على الأعتاب السنوية حسب المعتاد ، فاستقر رأى المجلس على ذلك » . ولا يخفى أن الحكومة كانت فى ذلك الحين تفكر فى عقد السلفة الجسيمة المعروفة بالقرض المشئوم (قرض يوليو سنة ١٨٧٣) الذى جر الخراب على البلاد ومقداره ٣٢ مليون جنيه . ومع خطورة هذه العملية الجسيمة لم تعرض الحكومة أمرها على المجلس إطلاقاً ، ولم تشر إليها لاصراحة أو ضمناً .

وانقضى المجلس يوم ٢٤ مارس سنة ١٨٧٣ (٢٥ المحرم سنة ١٢٩٠) .

إيقاف الحياة النيابية سنتين

انقضت ستا ١٨٧٤ و ١٨٧٥ دون أن يدعى مجلس شورى النواب للاجتماع أو تجرى انتخابات جديدة بعد انقضاء مدة الهيئة النيابية الثانية ، وهذا يعطيك صورة واضحة من نزعة الخديو الاستبدادية التي جعلته يستقص الحقوق المتواضعة التي ارتضاها هو للمجلس ، ولا ندري العلة في تعطيل الحياة النيابية طول هذه المدة ، ولا نجد لذلك تعليلا (من وجهة نظر الحكومة) إلا الارتباك المالى الذى وقعت فيه ، على أن هذا الارتباك كان أدعى إلى عقد المجلس للتشاور مع النواب فى الوسائل الكفيلة بإنقاذ البلاد من هذا الارتباك ، ولكن الحكومة فى تصرفاتها المالية والسياسية كانت تأبى أن تشرك نواب الأمة فى آرائها وقراراتها ، بل تضمن عليهم بالاطلاع على حقائق الحالة المالية .

ويبدولنا غريبا أن نواب البلاد وأعيانها وذوى رأى فيها يسكتون عن تعطيل الحياة النيابية سنتين متواليتين ، دون أن يتحركوا للمطالبة بعقد المجلس احتراماً لأحكام اللائحة الأساسية ، وخاصة لما وقع فى هذه المدة من تتابع الأحداث المالية بعد فض الدورة النيابية الأخيرة (مارس سنة ١٨٧٣) .

ففى (يوليو سنة ١٨٧٣) عقدت الحكومة القرض الأكبر المشتمل كما تقدم البيان . ثم ابتدعت القرض الداخلى المعروف بدين الروزنامة سنة ١٨٧٤ ، وجبت منه أكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات ، ثم استدان عدة ملايين أخرى من الديون السائرة ، وفى سنة ١٨٧٥ باعت أسهم مصرفى القناة إلى الحكومة الإنجليزية مقابل ثمن بخس أربعة ملايين جنيه . وتحت تأثير العجز المستمر فى الخزنة ، استدعت البعثة الإنجليزية المعروفة ببعثة « كيف » لفحص شؤون الحكومة المالية ، ثم توقفت عن دفع أقساط الديون فى أبريل سنة ١٨٧٦ ، فوقع التدخل الأجنبى الذى كان من نتائجه الأولى إنشاء صندوق الدين فى ٢ مايو سنة ١٨٧٦ . فهذه الأحداث الجسام كانت تقتضى عقد المجلس للنظر فى تداركها وتستدعى من النواب مطالبة الحكومة بعقده ، ولكن شيئا من ذلك لم يحصل .

أدوار النهضة والمعارضة

(١٨٧٦ - ١٨٧٩)

دخلت الحياة النيابية منذ سنة ١٨٧٦ عصراً جديداً يمتاز بظهور روح النهضة والمعارضة في نفوس النواب ، وبدت هذه الروح في مناقشتهم وأعمالهم ومواقفهم ، وأخذت مظاهر الحياة والنشاط ترتسم في أفق المجلس بعد أن كان يخيم عليه في الأدوار السابقة شيء من الخمول والجمود .

ويجدر بنا قبل أن نستعرض أدوار المجلس في هذا العصر الجديد أن نذكر العوامل التي أدت إلى هذا التطور .

إن النكبات والكوارث التي حلت بالبلاد من جراء سياسة الحكومة المالية قد حركت خواطر الناس ، وأثارت ما في نفوسهم من القلق والتذمر .

فالتدخل الأجنبي في شؤون البلاد ، وخضوع الحكومة لمطالب الدول ، وقبولها الوصاية الأجنبية على شؤونها المالية ، وتعيين الهيئات واللجان الأوروبية لتنظيم هذه الوصاية ، واشتداد الحكومة في إرهاب الفلاحين بمختلف أنواع الضرائب الجائرة ، كل ذلك جعل الناس يتبرمون بهذه الحالة السيئة ، ويبحثون عن الوسائل المؤدية للخلاص منها ، لأنها حالة لم يعد في طاقة النفوس احتمالها ، مهما أوتيت من الصبر وخفض الجناح ، ومن هنا نشأت نهضة عامة ، في أفكار الخاصة ، قوامها التطلع إلى إصلاح الحال ، وإنقاذ البلاد من الكوارث التي نزلت بها ، لتتبوأ مكانها بين الأمم الحرة المستقلة .

وساعد على تهيئة الأفكار لهذه النهضة انتشار التعليم في الطبقة الممتازة من المجتمع ، وظهور الصحافة ، وإنارتها أفكار القراء بما تنشره من المقالات الوطنية وأخبار الأمم وشؤونها السياسية والاجتماعية ، فالطبقة المثقفة قد استنارت بصايرها ، وشعرت بسوء الحالة التي وصلت إليها البلاد . فاستثار هذا الشعور عواطفها الوطنية ، تلك العواطف الكامنة في الأمة ، تظهرها الحوادث والمناسبات ، وتوقظها المحن والشدائد .

وصف القاضي الهولاندى فان يملن الذي تولى القضاء في المحاكم المختلطة على عهد إسماعيل هذا الشعور بقوله : « يخطئ الذين يظنون أن المصريين المثقفين لا يهتمون إلا بمصالحهم الشخصية ومصالح عائلاتهم ، فإنهم على العكس يكرهون الحكم التركي والحكم الأوروبي

على السواء ، ويريدون حكومة وطنية بكل معاني الكلمة وهم يحبون مصر الحديثة ومصر التاريخية ، ويهتمون بمصير الشعب ، ويتألمون لمصائبه التي لانهاية لها^(١٢).

وقال المستر ماك كون يصف الشعور السائد بين الأمة في عهد إسماعيل (سنة ١٨٧٦) :
« إن شعور الولاء السياسي نحو الباب العالي قد تلاشى بسبب إحساس المصريين بفداحة الجزية التي تؤدي لتركيا دون مقابل ، وأصبح شعار الأمة المصرية « مصر للمصريين » ولايشك في ذلك أحد ممن عرف حقائق الأمور في مصر ، ولو أن الخديو إسماعيل أراد أن يعلن الاستقلال التام للتي التعضيد والتأييد من جميع طبقات الأمة ، على أن الشعور الديني نحو الخلافة لم يفقد شيئا من قوته ، بحيث إذا شعر المصريون بخطر يستهدف له الإسلام أو دولة الخلافة . فإنهم يتعاونون مع الترك ، ومثلهم في ذلك كمثّل الأرلنديين في شعورهم نحو البابا »^(١٣).

وظهر في الميدان عامل له أثر كبير في نهضة الأفكار ، وهي مجيئ السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر منذ سنة ١٨٧١ ، فقد كان يحمل أينما سار علم الحرية والاستقلال ، ويفيض على من يتصلون به من نوره ، وينفخ في نفوسهم من روحه ومبادئه وتعاليمه ، وقوامها الاستقلال في الفكر ، والجههر بالرأى ، واستنكار الظلم ، وإيلاء الضيم ، والتعلق بالحرية .
وجاء إعلان الدستور العثماني لأول مرة في تركيا سنة ١٨٧٦ ، عاملا آخر من عوامل النهضة ، وهو إن لم يمتد به العمر ، لكنه كان حادثاً هاماً نبه الأفكار إلى حقوق الشعوب وواجب رعايتها .

ثم جاءت الحرب بين تركيا والصرب سنة ١٨٧٦ ، ثم بين الترك والروس سنة ١٨٧٧ . فاسترعت أنظار المصريين ونهبتهم إلى تتبع أخبارها والتساؤل عن أسبابها وعواملها ، وأخذت الصحف المصرية تطالع قراءها بما يتشوفون إليه من هذه الشؤون ، وما تستتبعه من التحدث عن مطامع أوروبا في الشرق وواجب المصريين خاصة والشرقيين عامة إلى الحذر من مطامع المستعمرين ، فاتجهت الأفكار والعزائم إلى الأخذ بأسباب الرقى والتقدم والذود عن الاستقلال ، وظهر مع الزمن صدى هذه العوامل في مجتمعات الأحرار وتطور الأفكار في مجلس شورى النواب .

(١٢) مصر وأوروبا للقاضي المختلط فان بملن Van Bemmelen ج ١ ص ٢٦ .

(١٣) مصر كما هي للمستر ماك كون ص ٨٥ .



جمال الدين الأفغانى

باعت نهضة الشرق

(١٨٣٨ - ١٨٩٧)

إن الأمم الشرقية جمعاء مدينة بنهضتها السياسية والفكرية إلى الزعيم الكبير ، والفيلسوف الشهير ، السيد جمال الدين الأفغانى .

ظل الشرق قروناً عديدة رازحاً تحت نير الجمود الفكرى ، والتأخر العلمى ، والاستعباد السياسى ، وبقى فى سبات عميق ، إلى أن قيض الله له الحكيم الأفغانى « جمال الدين » ، فنفخ فيه روح اليقظة والحياة ، وأهاب بالنفوس أن تنهض وتتحرك ، وبالعقول أن تستيقظ ، وبالأمم والجماعات أن تتطلع إلى الحرية ، فكانت رسالته إلى الشرق مبعث نهضته الحديثة . وإذا أردنا أن نتبين فى كلمة عامة فضل جمال الدين ، ومدى الرسالة التى أداها ، فلنذكر

أنه كان في حياته مصلحاً دينياً ، وفيلسوفاً حكيماً ، وزعيماً سياسياً ، فجمع بين الزعامات الروحية والفكرية ، والسياسية . واضطلع بها معاً ، فأدى من الناحية الدينية مهمة الإصلاح والتجديد التي أدى مثلها مارتان لوثير للمسيحية ، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تفهم الإسلام على حقيقته وترجع به إلى مبادئه الصحيحة ، وفطرته الأولى ، وتطهره من الأوهام والخرافات التي أفضت إلى تأخر المسلمين .

ومن الناحية الفكرية . أدى المهمة التي قام بها في أوروبا فلاسفة الفكر ، أمثال جان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهما ، فعمل على إثارة البصائر ، وتوجيه الأفكار إلى البحث عن الحقائق ، وتحرير العقول من قيود الجمود والتقليد .

ومن الوجهة السياسية ، استنهض الهمم ، واستثار في النفوس روح العزة والكرامة والتطلع إلى الحرية . وغرس بذور الحركات الوطنية في مختلف البلاد الشرقية ، وقام بمثل العمل الذي اضطلع به زعماء النهضة السياسية في الغرب ، كواشنطن ، وجاريلدى ، ومازيني ، وكوشوت وغيرهم .

فالذي يجمع بين هذه المهام الجليلة ، ويضطلع بها معاً ، في عهد اشتد فيه ظلام الجهالة ، وتفرقت الكلمة ، وعزَّ النصير ، وتشعبت الأهواء ، يجب أن يتسامى في قوة النفس والفكر والوجدان إلى مراتب العبقريّة ، وبقيننا أن الأمم الشرقية لم تقدر حتى الآن حكم الشرق حق قدره ، ولا أدت له حقه من الوفاء والتكريم ، وسيظهر فضله على مر السنين . وإذا كانت النهضة الفكرية والسياسية على عهد إسماعيل يرجع جانب كبير من ظهورها إلى السيد جمال الدين ، رأينا واجباً علينا أن نترجم له في سياق الحديث ، وقد جعلنا معظم اعتمادنا في « وقائع » الترجمة على ما كتبه تلميذه الأكبر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

منشؤه

ولد المترجم سنة ١٨٣٨ (١٢٥٤ هجرية) ، في « أسعد آباد » إحدى القرى التابعة لخطّة (كثر) من أعمال (كابل) عاصمة الأفغان ، ووالده السيد صفدر من سادات (كثر) الحسينية ، ويتصل نسبه بالسيد على الترمزي المحدث المشهور ويرتقى إلى سيدنا الحسين ابن

على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ومن هنا جاء التعريف عنه بالسيد جمال الدين الحسيني الأفغاني .

ولأسرته منزلة عالية في بلاد الأفغان ، لنسبها الشريف ، ولقامها الاجتماعي والسياسي إذ كانت لها الإمارة والسيادة على جزء من البلاد الأفغانية ، تستقل بالحكم فيه ، إلى أن نزع الإمارة منها « دوست محمد خان » أمير الأفغان وقتئذ ، وأمر بنقل أبي السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل ، وانتقل المترجم بانتقال أبيه إليها ، وهو بعد في الثامنة من عمره ، فعنى أبوه بتربيته وتعليمه ، على ما جرت به عادة الأمراء والعلماء في بلاده . وكانت مخايل الذكاء ، وقوة الفطرة ، وتوقد القرينة تبدو عليه منذ صباه ، فتعلم اللغة العربية ، والأفغانية ، وتلقى علوم الدين ، والتاريخ ، والمنطق ، والفلسفة ، والرياضيات ، فاستوفى حظه من هذه العلوم ، على أيدي أساتذة من أهل تلك البلاد ، على الطريقة المألوفة في الكتب الإسلامية المشهورة ، واستكمل الغاية من دروسه وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره ، ثم سافر إلى الهند ، وأقام بها سنة وبضعة أشهر يدرس العلوم الحديثة على الطريقة الأوروبية ، فنضج فكره ، واتسعت مداركه ، وكان بطبعه ميالا إلى الرحلات ، واستطلاع أحوال الأمم والجماعات ، فعرض له وهو في الهند أن يؤدي فريضة الحج ، فاغتنم هذه الفرصة وقضى سنة يتنقل في البلاد ، ويتعرف أحوالها ، وعادة أهلها ، حتى وافى مكة المكرمة ، سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م) ، وأدى الفريضة .

بدء حياته العملية

ثم عاد إلى بلاد الأفغان ، وانتظم في خدمة الحكومة على عهد الأمير (دوست محمد خان) المتقدم ذكره ؛ وكان أول عمل له مرافقته إياه في حملة حربية جردها لفتح (هراة) ، إحدى مدن الأفغان ، وليس يخفى أن النشأة الحربية تعود صاحبها الشجاعة ، واقتحام المخاطر ، ومن هنا تبدو صفة من الصفات العالية ، التي امتاز بها جمال الدين ، وهي الشجاعة ، فإن من يخوض غمار القتال في بدء حياته تألف نفسه الجرأة والإقدام ، وخاصة إذا كان بفطرته شجاعاً .

ففي نشأة المترجم الأولى ، وفي الدور الأول من حياته ، تستطيع أن تتعرف أخلاقه ،

والعناصر التي تكونت منها شخصيته ، فقد نشأ كما رأيت من بيت مجيد ، ازدان بالشرف واعتز بالإمارة ، والسيادة ، والحكم ، زمناً ما ، وترى في مهاد العز ، في كنف أبيه ورعايته ، فكان للورثة والنشأة الأولى ، أثرهما فيما طبع عليه من عزة النفس ، التي كانت من أخص صفاته ، ولازمته طول حياته ، وكان للحرب التي خاضها أثرها أيضاً فيما اكتسبه من الأخلاق الحربية . فالورثة ، والنشأة ، والتربية ، والمرحلة الأولى في الحياة العملية ، ترسم لنا جانباً من شخصية جمال الدين الأفغاني .

سار المترجم إذن في جيش « دوست محمد خان » لفتح « هراة » ، ولازمه مدة الحصار إلى أن توفي الأمير ، وفتحت المدينة بعد حصار طويل ، وتقلد الإمارة من بعده ولي عهده (شير علي خان) سنة ١٨٦٤ م (١٢٨٠ هـ) .

ثم وقع الخلف بين الأمير الجديد وأخوته ، إذ أراد أن يكيد لهم ويعتقلهم ، فانضم السيد جمال الدين إلى « محمد أعظم » أحد الأخوة الثلاثة ، لما توسمه فيه من الخير ، واستعرت نار الحرب الداخلية ، فكانت الغلبة لمحمد أعظم ، وانتهت إليه إمارة الأفغان ، فعظمت منزلة المترجم عنده ، وأحله محل الوزير الأول ، وكاد بحسن تدبيره يستتب الأمر للأمير ، ولكن الحرب الداخلية ، ما لبثت أن تجددت ، إذ كان (شير علي) لا يفتأ يسعى لاسترجاع سلطته ، وكان الإنجليز يعضدونه بأموالهم ودسائسهم ، فأيدوه وناصروه ، ليجعلوه من أوليائهم وصنائعهم ، وأغدق (شير علي) الأموال على الرؤساء الذين كانوا يناصرون الأمير محمد أعظم ، « فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات » ، كما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وانتهت الحرب بهزيمة محمد أعظم ، وغلبه شير علي ، وخلص له الملك .

بقى السيد جمال الدين في كابل لم يمسه الأمير بسوء ؛ « احتراماً لعشيرته وخوف انتفاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي » ، وهنا أيضاً تبدو لك مكانة المترجم ، ومنزلته بين قومه ، وهو بعد في المرحلة الأولى من حياته العامة ، ويتجلى استعداداه للاضطلاع بعظام المهام ، والتطلع إلى جلائل الأعمال ، فهو يناصر أميراً يتوسم فيه الخير ، ويعمل على تثبيتته في الإمارة ، ويشيد دولة يكون له فيها مقام الوزير الأول ، ثم لا تلبث أعاصير السياسة والدسائس الإنجليزية أن تعصف بالعرش الذي أقامه ، فيدال من أميره ، ويغلب على أمره . ويلوذ بإيران لكي لا يقع في قبضة عدوه ، ثم يموت بها . أما المترجم فيبقى في عاصمة الإمارة ، ولا يهاب بطش الأمير المنتصر ، ولا يتملقه أو يسعى إلى نيل رضاه ، ولا ينقلب على

عقبيه كما يفعل الكثيرون من طلاب المنافع ، بل بقي عظيمًا في محنته ، ثابتًا في هزيمته ، وتلك لعمري ظواهر عظيمة النفس ، ورباطة الجأش ، وقوة الجنان .

وهذه المرحلة كان لها أثرها في الاتجاه السياسى للسيد جمال الدين ، فقد رأيت ما بذلته السياسة الإنجليزية لتفريق الكلمة ، ودس الدسائس في بلاد الأفغان ، وإشعال نار الفتن الداخلية بها ، واصطناعها الأولياء من بين أمرائها ، ولا مرأى في أن هذه الأحداث قد كشفت للمتجهم عن مطامع الانجليز ، وأساليبهم في الدس والتفريق ، وغرست في قواده روح العداء للسياسة البريطانية خاصة ، والمطامع الاستعمارية الأوروبية عامة ، وقد لازمه هذا الكره طول حياته ، وكان له مبدأ راسخاً يصدر عنه في أعماله وآرائه وحركاته السياسية .

رحيله إلى الهند

لم ينفك الأمير (شير على) يدبر المكائد للسيد جمال الدين ، ويحتال للغدر به ، فرأى السيد أن يفارق بلاد الأفغان ، ليجد جواً صالحاً للعمل ، فاستأذنه في الحج ، فأذن له ، فسار إلى الهند سنة ١٨٦٩ م (١٢٨٥ هـ) ، وكانت شهرته قد سبقته إلى تلك الديار ، لما عرف عنه من العلم والحكمة ، وما ناله من المنزلة العالية بين قومه ، ولم يكن يخفى على الحكومة الإنجليزية عداؤه لسياستها ، وما يحدثه بغيته إلى الهند من إثارة روح الهياج في النفوس ، خاصة لأن الهند كانت لا تزال تضطرم بالفتن على الرغم من إخماد ثورة سنة ١٨٥٧ ، فلما وصل إلى التخوم الهندية تلقتة الحكومة بالحفاوة والإكرام ، ولكنها لم تسمح له بطول الإقامة في بلادها ، وجاء أهل العلم والفضل يهرعون إليه ، يقتبسون من نور علمه وحكمته ، ويستمعون إلى أحاديثه وما فيها من غذاء العقل والروح ، والحث على الأنفة وعزة النفس ، فنقمت الحكومة منه اتصاله بهم ، ولم تأذن له بالاجتماع بالعلماء وغيرهم من مريديه وقصاده ، إلا على عين من رجالها ، فلم يقم هناك طويلاً ، ثم أنزلته الحكومة إحدى سفنها فأقلته إلى السويس .

مجيئه مصر لأول مرة

جاء مصر لأول مرة أوائل سنة ١٨٧٠ م (أواخر سنة ١٢٨٦ هـ) ، ولم يكن يقصد طول

الإقامة بها ، لأنه إنما جاء ووجهته الحجاز ، فما إن سمع الناس بمقدمه حتى انجذبت إليه أنظار النابيين من أهل العلم ، وتردد هو على الأزهر ، واتصل به كثير من الطلبة ، فآنسوا فيه روحاً تفيض معرفة وحكمة ، فأقبلوا عليه يتلقون بعض العلوم الرياضية ، والفلسفية ، والكلامية ، وقرأ لهم شرح (الأظهر) في البيت الذي نزل به بنحان الخليلي ، وأقام بمصر أربعين يوماً ، ثم تحول عزمه عن الحجاز ، وسافر إلى الأستانة .

سفره إلى الأستانة ثم رحيله عنها

وصل السيد جمال الدين إلى الأستانة ، فلقى من حكومة السلطان عبد العزيز حفاوة وإكراماً ، إذ عرف له الصدر الأعظم « عالي باشا » مكانته ، وكان هذا الصدر من ساسة الترك الأفذاذ ، العارفين بأقدار الرجال ، فأقبل على السيد يحفه بالاحترام والرعاية ، ونزل من الأمراء والوزراء والعلماء منزلة عالية ، وتناقلوا الثناء عليه ، ورغبت الحكومة أن تستفيد من علمه وفضله ، فلم تخض ستة أشهر حتى جعلته عضواً في مجلس المعارف ، فاضطلع بواجبه ، وأشار بإصلاح مناهج التعليم ، ولكن آراءه لم تلق تأييداً من زملائه ، واستهدف لسيخط شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي ، إذ رأى في تلك الآراء ما يمس شيئاً من رزقه ، فأضمر له السوء ، وأرصد له العنت ، حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ هـ ، (ديسمبر سنة ١٨٧٠ م) ، فرغب إليه مدير دار الفنون أن يلقي فيها خطاباً للحث على الصناعات ، فاعتذر بادئ بدء بضعفه في اللغة التركية ، فألح عليه ، فأنشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل إلقائه ، وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية ، فأقرروه واستحسنوه .

وألقي السيد خطابه بدار الفنون ، في جمع حاشد من ذوى العلم والمكانة ، فتال استحسانهم ، ولكن شيخ الإسلام اتخذ من بعض آرائه مغمزا للنيل منه بغير حق ، ورميه بالزيف في عقيدته ، واغتنمها فرصة للإيقاع به ، وألب عليه الوعاظ في المساجد ، وأوعز إليهم أن يذكروا كلامه محفوفاً بالتفنيد والتنديد ، فغضب السيد لمكيدة شيخ الإسلام ، وطلب محاكمته ، ولكن الحكومة انحازت إلى شيخها ، وأصدرت أمرها إلى المترجم بالرحيل عن الأستانة بضعة أشهر ، حتى تسكن الخواطر ، ويهدأ الاضطراب ، ثم يعود إليها إن شاء ، ففارقها مهضوماً حقه ، ورغب إليه بعض مريديه أن يتحول إلى الديار المصرية ، فعمل برأيهم وقصد إليها .

عودته إلى مصر وإقامته بها

جاء السيد جمال الدين إلى مصر في أول المحرم سنة ١٢٨٨ هـ (مارس سنة ١٨٧١ م) ، لا على نية الإقامة بها ، بل على قصد مشاهدة مناظرها ، واستطلاع أحوالها ، ولكن (رياض باشا) وزير إسماعيل في ذلك الحين رغب إليه البقاء في مصر ، وأجرت عليه الحكومة راتباً مقداره ألف قرش كل شهر ، نزلاً أكرمه به ، لا في مقابل عمل ، واهتدى إلى المترجم كثير من طلبة العلم ، يستورون زنده ، ويقتبسون الحكمة من بحر علمه ، فقرأ لهم الكتب العالية في فنون الكلام ، والحكمة النظرية ، من طبيعية وعقلية ، وعلوم الفلك ، والتصوف ، وأصول الفقه ، بأسلوب طريف ، وطريقة مبتكرة ، وكانت مدرسته بيته ، ولم يذهب يوماً إلى الأزهر مدرساً ، وإنما ذهب إليه زائراً ، وأغلب ما يزوره يوم الجمعة ، وكان أسلوبه في التدريس مخاطبة العقل ، وفتح أذهان تلاميذه ومريديه إلى البحث والتفكير ، وبث روح الحكمة والفلسفة في نفوسهم ، وتوجيه أذهانهم إلى الأدب ، والإنشاء ، والخطابة ، وكتابة المقالات الأدبية ، والاجتماعية ، والسياسية ، فظهرت على يده نهضة في العلوم والأفكار أنتجت أطيب الثمرات .

وهنا موضع للتساؤل ، عما حمل الخديو إسماعيل إلى إسمالة الحكيم الأفغاني للإقامة في مصر ، وإكرام مثواه ، يبدو هذا العمل غريباً ، لأن لجمال الدين ماضياً سياسياً ومجموعة أخلاق ومبادئ ، ولا ترغب فيه الملوك المستبدين ، ولم يكن السيد من أهل الملق والدهان ، فينال عطفهم ورعايتهم ، ويجرون عليه الأرزاق بلا مقابل ، ولكن الأمر لا يعسر فهمه إذا عرفنا أن في إسماعيل جانباً ممدوحاً من صفاته الحسنة ، وهو حبه للعلم ، ورغبته في نشره ورعايته ، وكانت شخصية جمال الدين العلمية ، وشهرته في الفلسفة ، أقوى ظهوراً ، وخاصة في ذلك الحين ، من شخصيته السياسية ، فلاغرو أن يكرم فيه إسماعيل العالم المحقق ، الذي يفيض على مصر من بحر علمه وفضله ، وفي الحق أن إسماعيل لم يكن يقصر في اغتنام الفرصة لتنشيط النهضة العلمية ورعاية العلماء والأدباء ، فترغبه جمال الدين في البقاء بمصر يشبه أن يكون فتحاً علمياً ، كتأسيس معهد من معاهد العلم العالية التي أنشئت على يده .

أما آراء الحكيم السياسية وكراميته للاستبداد ، وترعته الحرة ، فلم يكن مثل إسماعيل يخشاها أو يحسب لها حساباً كبيراً ، لأنه في ذلك الحين (سنة ١٨٧١) كان قد بلغ أوج سلطته

ومجده ، فكان يحكم البلاد حكماً مطلقاً ، يأمر وينهى ، ويتصرف في أقدار البلاد ومصابير أهلها ، دون رقيب أو حسيب ، وكان مجلس شورى النواب آلة مطواعة في يده ، والصحافة في بدء عهدها تكيل له عبارات المديح ، وتصوغ له عقود الثناء ، ولم يكن سلطانه قد استهدف بعد التدخل الأجنبي ، لأن هذا التدخل لم يقع إلا في سنة ١٨٧٥ ، كما رأيت في سياق الحديث ، فليس ثمة ما يخشى منه إسماعيل ، على سلطته المطلقة ، من الناحية الداخلية أو الخارجية ، حين رغب إلى حكيم الشرق الإقامة والتدريس في مصر ، وقد بدأت النهضة التي ظهرت على يد السيد ، علمية ، أدبية ، ولم تتطور إلى الناحية السياسية إلا حوالى سنة ١٨٧٦ ، على أنها في تطورها السياسي لم تتجه ضد إسماعيل بالذات ، بل اتجهت في الجملة ضد التدخل الأجنبي .

وثمة اعتبار آخر ، لا يفوتنا الإلماع إليه ، ذلك أن جمال الدين قد بارح الأستاذة ، إذ لم يجد فيها جواً صالحاً للنهضة العلمية ، والفكرية ، وقصد إلى مصر وقد سبقته إليها أنباؤه ، ومالقيه في « دار الخلافة » من العنت والاضطهاد ، وكان إسماعيل ينافس حكومة الأستاذة في المكانة والتفوذ السياسي ، وينظر إليها بعين الزرابة ، ولا يرضى لمصر أن تكون تابعة لتركيا ، ولا أن يكون هو تابعاً للسلطان العثماني ، وليس خافياً ما كان يبذله من المساعي للانفصال عن تركيا في ذلك الحين ، وظهوره بمظهر العاهل المستقل ، في معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ، وفي إغفاله دعوة السلطان إلى حضور حفلات القناة سنة ١٨٦٩ ، وعزمه على اعلان استقلال مصر التام في تلك الحفلات ، لولا العقبات السياسية التي اعترضته ، ولا يغرب عن الذهن ما كان بين الخديو والسلطان من مظاهر الفتور والجفاء التي كادت تقطع الروابط بينهما . وأخصها فرمان نوفمبر سنة ١٨٦٩ الذي أصدره السلطان متقصاً سلطة الخديو كما تقدم بيانه (ج ١ ص ٧٩) . كتابنا عصر إسماعيل . الطبعة الأولى .

ففي هذا الجو هبط جمال الدين مصر مبعداً من الأستاذة ، فلم يفت ذكاء إسماعيل أن يغتنم الفرصة ليحمي العلم في شخص الفيلسوف الأفغاني ، ولا يخفى ما لهذا العمل من حسن الأثر وجميل الأحدث ، إذ يرى الناس فيه أن مصر تؤوى العلماء والحكماء ، حين تضيق عنهم « دار الخلافة » وأن عاهل مصر العظيم أحق من السلطان العثماني بالثناء والتقدير لأنه يفسح للعلم رحابه ، ويوطئ له في وادي النيل أكنافه .

وقد يكون لرياض باشا يد في إكرام وفادة المترجم ، ولكن إذا علمنا أن وزراء إسماعيل لم

يكونوا يصدرن إلا عن رأيه وأمره ، أدركنا أن رياض باشا لم يكن الرجل الذى يتفرد بهذا الصنيع نحو المترجم ، ومهما يكن من واقع الأمر فإن لرياض باشا فضل المشاركة فى عمل كان له الأثر البالغ فى نهضة مصر العلمية والفكرية والسياسية .

أثره العلمى والأدبى

أقام المترجم فى مصر ، وأخذ يثتعاليمه فى نفوس تلاميذه ، فظهرت على يده بيئة استضاءت بأنوار العلم والعرفان ، وأرتوت من ينابيع الأدب والحكمة ، وتحررت عقولها من قيود الجمود والأوهام ، وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة فى مصر خطوات واسعة ، ولم تقتصر حلقات دروسه ومجالسه على طلبة العلم ، بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والأعيان وغيرهم ، وهو فى كل أحاديثه « لا يسأم ، كما يقول عنه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، من الكلام فيما ينير العقل ، أو يظهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور ، أو يستلقت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر وتنبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصا فى القاهرة » .

وقال الأستاذ الإمام فى موطن آخر يصف تطور الكتابة على يد المترجم : « كان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الإجابة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ، وما كنا نعرف منهم إلا عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، ومحمد باشا سيد أحمد على ضعف فيه ، ومصطفى باشا وهبى على اختصاص فيه ، ومن عدا هؤلاء فإما ساجعون فى المراسلات الخاصة ، وإما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها ، ومن عشر سنوات ترى كتبة فى القطر المصرى ، لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضارهم . وأغلبهم أحداث فى السن ، شيوخ فى الصناعة ، وما منهم إلا من أخذ عنه ، أو عن أحد تلاميذه ، أو قلد المتصلين به » انتهى كلام الإمام .

فروح جمال الدين كان لها الأثر البالغ فى نهضة العلوم والآداب فى مصر ، ولا يفوتنا القول بأن البيئة التى نهض بها كانت مستعدة للرقى ، صالحة لغرس بذور هذه النهضة ، وظهور

ثمارها ، أوبعبارة أخرى ، ان مصر بما فيها الأزهر ، والمعاهد العلمية الحديثة . وانتفده العلمى الذى ابتداء منذ عهد محمد على ، كانت على استعداد لتقبل دعوة الحكيم الأفغانى . ولولا هذا الاستعداد لقضى على هذه الدعوة فى مهدها ، ولأنخفق هو فى مصر كما أنخفق فى الاستانة ، حيث وجد أبواب العمل موصدة أمامه ، وهذا يبين لنا جانباً من مكانة مصر ، وسبقها الأقطار الشرقية فى التقدم العلمى والفكرى والسياسى ، ويزيد هذه الحقيقة وضوحاً أنك إذا استعرضت حياة جمال الدين العامة ، وما تركه من الأثر فى مختلف الأقطار الشرقية التى بث فيها دعوته ، وجدت أثره فى مصر أقوى وأعظم منه فى أى بلد من البلدان الأخرى . وفى هذا ما يدل على مبلغ استعداد مصر للنهضة والتقدم ، إذا تهيأت لها أسباب العمل ووجدت القادة الحكماء .

أثره الأخلاقى والسياسى

جاء المترجم مصر يحمل بين جنبه روحاً كبيرة ، ونفساً قوية ، تزينها صفات وأخلاق عالية ، أنبتتها الوراثة والتربية الأولى ، وهذبها الحكمة والمعرفة ، ومحضها الحياة الحربية التى خاض غمارها فى بلاد الأفغان ، والتجارب التى مارسها ، والشدائد التى عاناها ، جاء وفيه من الشمم والإباء ما صدقه عن أن يطأطأء الرأس أو يقيم على الضيم ، وفيه من الثبات ما جعله يتغلب على العقبات التى اعترضته فى أدوار حياته ، فقد رأيت كيف بقى على ولائه للأمير محمد أعظم ، رغم ما أصابه من الهزيمة ولم يخضع لخصمه (شير على) ، ورحل إلى الهند ، فلم تطق السياسة الاستعمارية بقاءه فيها وأقصته عنها ، وذهب إلى الأستانة ، فلم يعرف الملق والدهان ، وجهر بالحق ، واستهدف لعداوة شيخ الإسلام ، فلم يتراجع ولم ينكص على عقبيه ، وانتهى الخلاف بإقصائه عن الأستانة .

فهذه الأخلاق التى جاء بها جمال الدين كانت بلا مرأى أقوى مما عرف عن المجتمع المصرى ، فى ذلك العهد ، من خفض الجناح ، والصبر على الضيم ، والخضوع للحكام . وليس يخفى ما للشخصيات الكبيرة من سلطان أدبى على النفوس ، وما تؤثر فيها من طريق القدوة ، فالسيد جمال الدين بما اتصف به من الأخلاق العالية ، أخذ يث فى النفوس روح العزة والشهامة ، ومحارب روح الذلة والاستكانة ، فكان بنفسيته ودروسه وأحاديثه .

ومناهجه في الحياة ، مدرسة أخلاقية ، رفعت من مستوى النفوس في مصر ، وكانت على الزمن من العوامل الفعالة للتحويل الذي بدا على الأمة ، وانتقالها من حالة الخضوع والاستكانة إلى التطلع للحرية والتبرم بنظام الحكم القديم ومساوئه ، والسخط على تدخل الدول في شؤون البلاد .

أسرفت حكومة إسماعيل في القروض ، وبدأت عواقب هذا الإسراف تظهر للعيان رغم ما بذلته الحكومة لإخفائها بمختلف الوسائل ، وأخذت النفوس تتطلع إلى إصلاح نظام الحكم بعد إذا أحست مرارة الاستبداد وهالتها فداحة القروض التي كبلت البلاد بقيود تدخل الدول . ويمكننا أن نحدد أواخر سنة ١٨٧٥ ، وأوائل سنة ١٨٧٦ كمبدأاً للتدخل الأوروبي ، إذ حدث من مظاهره وقتئذ شراء إنجلترا أسهم مصر في القناة ثم قدوم بعثة المستر « كيف » الإنجليزية لفحص مالية مصر ، ثم توقف الحكومة عن أداء أقساط ديونها ، وما أعقب ذلك من إنشاء صندوق الدين في مايو سنة ١٨٧٦ .

فهذا التدخل كان من الأسباب الجوهرية التي حفزت النفوس إلى التبرم بنظام الحكم ، والتخلص من مساوئه ، لأن سياسة الحكومة هي التي أفضت إلى تدخل الدول في شؤون مصر وامتهانها كرامة البلاد واستقلالها .

ومن هنا جاءت النهضة الوطنية والسياسية ، ووجدت مبادئ حكيم الشرق وتعاليمه سبيلاً إلى النفوس ، فكانت من العوامل الهامة في ظهور هذه النهضة التي شغلت السنوات الأخيرة من عهد إسماعيل وكانت من أعظم أدوار الحركة القومية .

كان من مظاهر هذه النهضة نشاط الصحف السياسية ، وإقبال الناس عليها ، وتحديثهم في شؤون البلاد العامة ، وتبرمهم بحالتها السياسية والمالية ، ثم ظهور روح المعارضة واليقظة في مجلس الشورى ، على يد نواب نفخ فيهم جمال الدين من روحه ، وعلى رأسهم عبد السلام بك المويلحي (باشا) ، الذي يعد من تلاميذه الأفذاذ ، وإنك لتلمس الصلة الروحية بينهما ، من الكلمات والعبارات الرائعة التي كان المويلحي يجهر بها في جلسات مجلس شورى النواب ، مما سنذكره في موضعه ، فإن هذه العبارات هي قبس من روح الحكيم الأفغانى . وقد جاء ذكر النائب المويلحي ضمن تلاميذ جمال الدين ومريديه على لسان سليم بك العنجورى أحد أدباء سورية حين زار مصر ووصف مكانة السيد بقوله :

« وفي خلال سنة ١٨٧٨ زاد مركزه خطراً وسما مقامه ، لأنه تدخل في السياسات وتولى

رأسه جمعية (الماسون) العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية . مثل محمود باشا البارودي الذي نفي أخيراً مع عرابي إلى جزيرة سيلان ، وعبد السلام بك المويلحي النائب المصري في دار الندوة ، وأخيه إبراهيم (المويلحي) كاتب الضابطة ، وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره ، ويعلمون بين الناس مناره . من أرباب الأقلام ، مثل الشيخ محمد عبده ، وإبراهيم اللقاني ، وعلى بك مظهر ، والشاعر الزرقاني ، وأبي الوفاء القوني في مصر ، وسليم النقاش ، وأديب إسحق ، وعبد الله نديم في الاسكندرية .

جمال الدين والثورة العرابية

لم يكن جمال الدين الأفغاني مناصراً لإسماعيل ، بل كان ينقم منه استبداده وإسرافه . وتمكينه الدول الاستعمارية من مرافق البلاد وحقوقها ، وكان يتوسم الخير في توفيق ، إذ رآه وهو ولي للعهد ميالاً إلى الشورى ، يتتقد سياسة أبيه وإسرافه ، وقد اجتمعوا في محفل الماسونية ، وتعاهدا على إقامة دعائم الشورى .

ولكن توفيق لم يف بعهده بعد أن تولى الحكم ، فقد بدا عليه الانحراف عن الشورى واستمع لوشايات رسل الاستعمار الأوروبي ، وفي مقدمتهم قنصل إنجلترا العام في مصر . إذ كانوا ينقمون من السيد روح الثورة والدعوة إلى الحرية والدستور ، فغيروا عليه قلب الخديو . وأوعزوا إليه بإخراجه من القطر المصري ، فأصدر أمره بنفيه ، وكان ذلك بقرار من مجلس النظار منعقداً برأسه الخديو ، وكان نفيه غاية في القسوة والغدر ، إذ قبض عليه ليلة الأحد سادس رمضان سنة ١٢٩٦ - ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وهو ذاهب إلى بيته هو وخادمه الأمين (أبو تراب) ، وحجز في الضبطية ، ولم يمكن حتى من أخذ ثيابه ، وحمل في الصباح في عربة مقفلة إلى محطة السكة الحديدية ، ومنها نقل تحت المراقبة الشديدة إلى السويس ، وانزل منها إلى باخرة^(١٤) أقلته إلى الهند ، وسارت به إلى بمباي ، ولم تتورع الحكومة عن نشر بلاغ رسمي من إدارة المطبوعات بتاريخ ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ (٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩ م)

(١٤) كان نقله إلى الباخرة في صبيحة الثلاثاء ٨ رمضان سنة ١٢٩٦ - ٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩ (راجع الأهرام عدد ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٩) .

ذكرت فيه نفي السيد بعبارات جارحة^(١٥) ملؤها الكذب والافتراء ، مما لا يحدر بحكومة تشعر بشيء من الكرامة والحياء أن تسف إليه ، فهي قد نسبت إليه السعي في الأرض بالفساد . ويعلم الله أنه لم يكن يسعى إلا إلى يقظة الأمة ، وتحريرها من ربة الذل والعبودية ، وذكرت عنه أنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » . وحذرت الناس من الاتصال بهذه الجمعية ، ومن المؤلم حقاً أن يتقرر النفي ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديو توفيق باشا وهو على ما نعلم من سابق تقديره للسيد ، ومن وزرائها محمود باشا سامى البارودى ناظر الأوقاف وقتئذ ، وقد كان من أصدق مريديه وأنصاره ، فتأمل كيف يتنكر الأنصار والأصدقاء لأستادهم ، وإلى أى حد يضيع الوفاء بين الناس ! ! ، ولا ندري كيف أساغ البارودى نفي السيد جمال الدين واشترك في احتمال تبعته ، وإذا لم يكن موافقاً على هذا العمل المنكر فلم لم يستقل من الوزارة احتجاجاً واستنكاراً ؟ لاشك أن موقف البارودى في هذه الحادثة لا يمكن تسويغه أو الدفاع عنه بأى حال . نفي جمال الدين من مصر ، على أن روحه ومبادئه وتعاليمه تركت أثرها في المجتمع المصرى وبقيت النفوس ثائرة تتطلع إلى نظام الحكم ، وإقامته على دعائم الحرية والشورى ، فجمال الدين هو من الوجهة الروحية والفكرية أبو الثورة العرابية ، وكثير من أقطابها هم من تلاميذه أو مريديه ، والثورة في ذاتها هى استمرار للحركة السياسية التى كان لجمال الدين الفضل الكبير في ظهورها على عهد اسماعيل ، ولوبقى في مصر حين نشوب الثورة لكان جائراً أن يمدّها بآرائه الحكيمة ، وتجاربه الرشيدة ، فلا يغلب عليها الخطل والشطط ، ولكن شاءت الأقدار ، والدسائس الإنجليزية ، أن ينفي السيد من مصر ، وهى أحوج ما تكون إلى الانتفاع بحكمته وصدق نظره في الأمور .

وأقام المترجم بحيدر أباد الدكن ، وهناك كتب رسالته في الرد على الدهريين ، وألزمته الحكومة البريطانية بالبقاء في الهند حتى انقضى أمر الثورة العرابية .

عمله في أوروبا - جريدة العروة الوثقى

أخفقت الثورة العرابية ، واحتل الإنجليز مصر ، فسمحوا للسيد بالذهاب إلى أى بلد

(١٥) تجد نص هذا البلاغ الطويل في « الوقائع المصرية » عدد ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وفي الأهرام عدد ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ .

فاختار الشخص إلى أوروبا ، فقصده إليها سنة ١٨٨٣ ، وأول مدينة وردها مدينة لندن ، أقام بها أياماً معدودات ، ثم انتقل إلى باريس ، وكان تلميذه الأكبر الشيخ محمد عبده منفياً في بيروت عقب إخماد الثورة ، فاستدعاه إلى باريس ، فوافاه إليها ، وهناك أصدر جريدة (العروة الوثقى) ، وقد سميت باسم الجمعية التي أنشأتها ، وهي جمعية تألفت لدعوة الأمم الإسلامية إلى الاتحاد والتضامن والأخذ بأسباب الحياة والنهضة ، ومجاهدة الاستعمار ، وتحرير مصر والسودان من الاحتلال ، وكانت تضم جماعة من أقطاب العالم الإسلامي وكبرائه وهي التي عهدت إلى السيد بإصدار تلك الجريدة لتكون لسان حالها .

واشتركا معاً في تحريرها ، وكانت مقالاتها جامعة بين روح جمال الدين ، وقلم الأستاذ الإمام ، فجاءت آيات بينات في سمو المعاني ، وقوة الروح ، وبلاغة العبارة ، وهي أشبه ما تكون بالخطب النارية ، تستثير الشجاعة في نفوس قارئها ، وتداني في روحها وقوة تأثيرها أسلوب الإمام على كرم الله وجهه في خطبه الحماسية المنشورة في « نهج البلاغة » ، ولا غرور فالسيد جمال الدين هو قبس من نور العترة الحسينية العلوية ، فكأن روح الإمام على تمثلت فيه ، وتجلّى أثرها فيما يكتبه أو يملئه .

اتخذت العروة شعارها إيقاظ الأمم الإسلامية ، والمدافعة عن حقوق الشرقيين كافة ، ودعوتهم إلى مقاومة الاستعمار الأوروبي ، والجهاد في سبيل الحرية والاستقلال . وقد ذاع شأنها في العالم الإسلامي ، وأقبل عليها الناس في مختلف الأقطار ، ولكن الحكومة الإنجليزية أقفلت دونها أبواب مصر والهند ، وشددت في مطاردتها واضطهاد من يقرؤها ، وبلغ بها السعي في مصادرتها أن أوغزت إلى الحكومة المصرية بتفريم كل من توجد عنده العروة الوثقى خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً ، وقامت الموانع دون استمرارها ، فلم يتجاوز ما نشر منها ثمانية عشر عدداً .

قضى جمال الدين في باريس ثلاث سنوات ، كان لا يفتأ خلالها بنشر المباحث والمقالات الهامة في مقاومة اعتداء الدول الأوروبية على الأمم الإسلامية ، ويراسل تلاميذه ومريديه في مصر .

جمال الدين ورينان

وجرت له أبحاث مع الفيلسوف إرنست رينان Renan في العلم والإسلام ، وأكبر فيه رينان عبقريته ، وسعة علمه ، وقوة حجته ، وقال عنه : « كنت أتمثل أمامي عندما كنت أخطبه ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين » .

عمله في فارس ثم نفيه منها

ثم أخذ يتنقل بين باريس ولندن إلى أوائل فبراير سنة ١٨٨٦ (جمادى الأولى سنة ١٣٠٣) وفيه ذهب إلى بلاد فارس ثم إلى روسيا .

ولما كان معرض باريس العام سنة ١٨٨٩ ، رجع جمال الدين إليها ، وفي عودته منها التقى بالشاه في مونيخ عاصمة بافاريا ، فدعاه إلى صحبته إذ كان يرغب في الانتفاع بعلمه وتجاريه ، فأجاب الدعوة ، وسار معه إلى فارس ، وأقام في طهران ، فحفه علماء فارس وأمرائها وأعيانها بالرعاية والإجلال .

واستعان به الشاه على إصلاح أحوال المملكة ، وسن لها القوانين الكفيلة بإصلاح شؤونها ، ولكنه استهدف لسخط أصحاب النفوذ في الحكومة ، وخاصة الصدر الأعظم ، فوشوا به عند الشاه ، وأسر إليه الصدر الأعظم أن هذه القوانين تؤول إلى انتزاع السلطة من يده ، فأثرت الوشايات في نفس الشاه ، وبدأ يتنكر للسيد ، فاستأذنه في المسير إلى المقام المعروف (بشاه عبد العظيم) على بعد عشرين كيلو متراً من طهران ، فأذن له ، فوافاه به جم غفير من العلماء والوجهاء من أنصاره في دعوة الإصلاح ، فازدادت مكانته في البلاد ، وتخوف الشاه عاقبة ذلك على سلطانه ، فاعتزم الإساءة إليه ، ووجه إلى (الشاه عبد العظيم) خمسمائة فارس قبضوا عليه ، وكان مريضاً ، فانتزعوه من فراشه ، واعتقلوه ، وساقه خمسون منهم إلى حدود المملكة العثمانية منفياً ، فترل بالبصرة ، فعظم ذلك على مرديه ، واشتدت ثورة السخط على الشاه .

دعوة جمال الدين ضد الشاه

أقام السيد بالبصرة زمناً حتى أبل من مرضه ، ثم أرسل كتاباً إلى كبير المجتهدين في فارس ميرزا محمد حسن الشيرازي ، عدد فيه مساوئ الشاه ، وخص بالذكر تحويله إحدى الشركات الإنجليزية حق احتكار التبناك في بلاد فارس ، وما يفضي إليه من استئثار الأجانب بأهم حاصلات البلاد ، وكان هذا النداء من أعظم الأسباب التي جعلت كبير المجتهدين يفتي بحرمة استعمال التبناك إلى أن يبطل الامتياز ، فاتبعت الأمة هذه الفتوى ، وأمسكت عن تدخينه ، واضطر الشاه خوف انتقاض الأمة إلى إلغائه ، ودفع للشركة الإنجليزية تعويضاً ، فخلصت فارس من التدخل الأجنبي .

شخصه إلى أوروبا

مكث جمال الدين بالبصرة ريثما عادت إليه صحته ، ثم شخص إلى لندن ، فتلقيه الإنجليز بالإكرام ، ودعوه إلى مجتمعاتهم السياسية والعلمية ؛ وحمل على الشاه وسياسته حملات صادقة في مجلة سماها (ضياء الخافقين) ، ودعا الأمة الفارسية إلى خلعه ، وقويت دعوة الحرية في إيران ، واشتد السخط على الشاه ناصر الدين إلى أن قتل سنة ١٨٩٦ بيد فارسي أهوج ، وقيل إن للسيد دخلاً في التحريض على قتله ، وتولى بعده مظهر الدين ، واستمرت دعوة الحرية التي غرسها جمال الدين في إيران تنمو وترعرع حتى آلت إلى إعلان الدستور الفارسي سنة ١٩٠٦ .

ذهابه إلى الأستانة وإقامته بها

وفيما هو بلندن ورد عليه كتاب من الماين الهمايوني بواسطة رستم باشا سفير تركيا بدعوته إلى الأستانة ، فاعتذر أولاً ، ثم ورد عليه كتاب آخر بتكرار دعوته فلبى الطلب ، وذهب إلى الأستانة سنة ١٨٩٢ ، وكانت هذه المرة الثانية لوروده هذه المدينة ، والمرة الأولى كانت في عهد السلطان عبد العزيز كما تقدم بيانه ، وقد يبدو غريباً أن السلطان عبد الحميد الذي كان نصيراً للاستبداد وخصيماً للحرية ، يدعو إلى جواره أكبر زعيم للحرية في الشرق ، وأغلب

الظن أنه أراد أن يخدم سياسته في الجامعة الإسلامية باستضافته فيلسوف الإسلام ، لكي يظهر للعالم الإسلامي أنه يرعى العلم والعلماء من الأمم الإسلامية كافة ، وقد لى جمال الدين دعوته ، آملاً أن يرشده إلى إصلاح الدولة العثمانية ، لأن مقصده السياسى هو إنهاض دولة إسلامية أيا كانت إلى مصاف الدول العريزة القوية ، فسار إلى الأستانة لتحقيق هذا المقصد .

وحقّه عبد الحميد بالرعاية والإكرام وأنزله منزلاً كريماً في قصر بحى (نشان طاش) ، من أفخم أحياء الأستانة ، وأجرى عليه راتباً وافراً ، قيل إنه خمس وسبعون ليرة عثمانية في الشهر ، ومضت مدة وجمال الدين له عند السلطان منزلة عالية ، ثم ما لبث أن تنكر له ، وأساء به الظن ، إذ كان من أخص صفات عبد الحميد إساءة الظن بالناس كافة ، وخاصة بمن يتصلون به ، والاستماع إلى الوشائيات والدسائس ، وكان الشيخ أبو الهدى الصيادى الذى نال الحظوة الكبرى عند مولاه يكره أن يظفر أحد بثقته فوشى بالسيد عند السلطان وأوغر عليه صدره فأحيط السيد بالجواسيس يحصون عليه غدواته وروحاته ، ويرقبون حركاته وسكناته .

ذكر الأمير شكيب أرسلان في هذا الصدد في كتاب « حاضر العالم الإسلامى » (١٦) أن السيد كان وعبد الله نديم الكاتب والخطيب المصرى المشهور فى منزله (الكاغدخانة) ، فصادفا الخديو عباس حلمى وسلم بعضهم على بعض ، وتحدثوا نحو ربع ساعة تحت شجرة هناك ، فقيل إن الشيخ أبا الهدى قدم تقريراً للسلطان بأن جمال الدين وعبد الله نديم تواعدا مع الخديو على الاجتماع فى (الكاغدخانة) ، وهناك عند الاجتماع بايعاه تحت الشجرة ، ويقول الأمير شكيب إن السلطان بحسب قول جمال الدين لم يحفل بهذه الوشاية (١٧) ، ولكننا نميل إلى الاعتقاد أنها تركت أثراً فى نفسه ، وغيرت قلبه على السيد ، وذكر أن الذى أدى إلى وحشة السلطان منه استمراره فى مجالسه على القدح فى شاه العجم ناصر الدين ، مما حمل سفير إيران على الشكوى منه إلى السلطان ، فاستدعاه ، وطلب إليه الكف عن مهاجمة الشاه فقبل ، ولكن حدث أن قتل الشاه سنة ١٨٩٦ ، فاشتدت الريبة فى جمال الدين ، واتجهت إليه شبهة التحريض على قتله ، فأمر السلطان بتشديد الرقابة عليه ، ومنع أى أحد من الاختلاط به إلا بإرادة سلطانية ، فأصبح السيد محبوساً فى قصره .

(١٦) تأليف المستر ستورد د. الأمريكى وتعريب الأستاذ عجاج نهريض وفيه فصول وتعليقات قيمة للأمير شكيب أرسلان .

(١٧) حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ٢٠٣ .

مرضه ووفاته

تواترت الروايات بأن جمال الدين مات شبه مقتول ، وتدل الملابس والقرائن على ترجيح هذه الرواية ، فإن اتهمه بالتحريض على قتل الشاه ، وتغير السلطان عليه ، وحبسه في قصره . ووشايات أبي الهدى الصيادي ، مما يقرب إلى الذهن فكرة التخلص منه بأية وسيلة ، هذا إلى أن الغدر والاعتقال كانا من الأمور المألوفة في الأستانة .

وأصدق الروايات وأحقها بالثقة فيما نعتقد ، وما ذكره الأمير شكيب أرسلان في كتاب (حاضر العالم الإسلامي) ، قال ما خلاصته : إنه لما اشتد التضييق على السيد جمال الدين أرسل إلى مستشار السفارة الإنجليزية يطلب منه إيصاله إلى باخرة يخرج بها من الأستانة ، فجاءه المستشار وتعهد له بذلك ، فلما بلغ السلطان الخبر أرسل إليه أحد حجابه يستعطفه أن لا يمس كرامته إلى هذا الحد ، ولا يتلمس حماية أجنبية ، فثارت في نفسه الحمية والأنفة ، وأخبر مستشار السفارة بأنه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن ، ولكن الرقابة عليه بقيت كما كانت ، وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في فمه مرض السرطان ، فصدرت الإرادة السلطانية بإجراء عملية جراحية يتولاها الدكتور قبور زاده إسكندر باشا كبير جراحى القصر السلطاني ، فأجرى له العملية الجراحية فلم تنجح ، وما لبث إلا أياماً قلائل حتى فاضت روحه ، ومن هنا تقول الناس في قصة هذا السرطان ، وهذه العملية الجراحية ، لقرب عهد المرض بتغير السلطان على السيد ، وما كان معروفاً من وساوس عبد الحميد ، فقليل إن العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمداً ، وقيل لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فناً ، بحيث انتهت بموت المريض (١٨) .

وذكر الأمير شكيب أن المستشرق المعروف الكونت (لاون استروروج) حدثه أن المترجم كان صديقه ، فدعاه إليه بعد إجراء العملية الجراحية ، وقال له إن السلطان أبي أن يتولى العملية إلا جراحه الخاص ، وإنه هو رأى حال المريض ازدادت شدة بعد العملية ، ورجا منه أن يرسل إليه جراحاً فرنسياً مستقلاً الفكر طاهر الذمة ، لينظر في عقب العملية ، فأرسل إليه الدكتور (لاردي) فوجد أن العملية لم تجر على وجهها الصحيح ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وأن المريض قد أشفى بسبب ذلك ، وعاد إلى استروروج ، وأنبأه بهذا الأمر المحزن ،

ولم تمض أيام حتى فارق جمال الدين الحياة .

وذكر واحد ممن كانوا في خدمة عبد الحميد ، بعد أن روى له الأمير هذه القصة أن قبور زاده إسكندر باشا كان أظهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الجريمة ، وحقيقة الواقعة أنه كان بالأستانة طبيب أسنان عراقي اسمه (جارج) يتردد كثيرا على جمال الدين ، ويعالج أسنانه ، وكانت نظارة الضابطة (إدارة الأمن العام) قد استألت (جارج) هذا بالمال ، وجعلته جاسوسا على السيد ، وصار له عدوا في ثياب صديق ، وقال صاحب هذه الرواية إنه أراد مرة أن يمنع الطبيب المذكور من الاختلاط بجمال الدين ، فأشار إليه ناظر الضابطة إشارة خفية بأن يتركه ، وفهم من الإشارة أن يذهب إلى السيد ويعالج أسنانه ، بعلم من النظارة ، والسيد لا يعلم بشيء من ذلك ، ويطمئن إلى (جارج) ويثق به ، ولم تمض عدة أشهر على حادثة الشاه حتى ظهر السرطان في فك السيد من الداخل ، وأجريت له عملية جراحية فلم تنجح ، وجارج هذا ملازم للمريض ، وبعد موته كانوا يرونه دائما حزينا ، يبدو على وجهه الوجوم والحزى ، مما جعلهم يشتبهون أن يكون له يد في إفساد الجرح بعد العملية ، أو في توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل ، ولما مات السيد بدا الندم على الطبيب الأثيم ، وشعر بوخز الضمير يؤنبه على خيائته هذا الرجل العظيم .

وكانت وفاته ضبيحة الثلاثاء ٩ مارس سنة ١٨٩٧ ، وما أن بلغ الحكومة العثمانية نعيه حتى أمرت بضبط أوراقه وكل ما كان باقيا عنده ، وأمرت بدفنه من غير رعاية أو احتفال في مقبرة المشايخ بالقرب من نشان طاش ، فدفن كما يدفن أقل الناس شأنا في تركيا ، ولا يزال قبره هناك .

صفاته وأخلاقه

وصفه تلميذه الأكبر الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله : « إنه يمثل لناظره عربيا محضا ، من أهالي الحرمين ، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين . من سكنة الحجاز ، ربة في طوله ، وسط في بنيته ، قمحي في لونه ، عصبي دموى في مزاجه ، عظيم الرأس ، في اعتدال ، عريض الجبهة ، في تناسب ، واسع العينين ، عظيم الأحداق ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، جليل في النظر ، هش بش عند اللقاء ، قد وفاه الله من كمال خلقه .

ما ينطبق على كمال خلقه ، أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته ، وله حلم عظيم . يسع ما شاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أودينه فينقلب الحلم إلى غضب . تنقض منه الشهب ، فبينما هو حلیم أواب ، إذا هو أسد وثاب ، وهو كريم . ما يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله ، لا يبالي ما تأتى به صروف الدهر ، عظيم الأمانة ، سهل لمن لاينه ، صعب على من خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسى ، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه ، وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان ، وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الأمور ، عزوف عن صغارها ، شجاع ، مقدام ، لا يهاب الموت ، كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد المزاج ، وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة .

وذكر عنه الأمير شكيب أرسلان أنه كان يفطم نفسه عن الشهوات ، ولا يرى من اللذات إلا اللذة العقلية العالية ، وأن السلطان عبد الحميد حاول أن يعلق قلبه بالمال والبنين ويشغله بزينة الدنيا . وراوده على الزواج ، فأبى وأعرض ، وكان ينظر إلى المال نظره إلى التراب ، فلا يدخره . ولا يتنازل منه إلا ما هو ضرورى للحياة ، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضى عسكر مثلاً ، فأبى أن يقبل الرتبة وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب ، وكذلك رفض قبول وسام مهما كان عالياً .

وقال عنه (أديب اسحق) إنه أسمر اللون ، ربة ممتلى ، قوى البنية ، جذاب النظر ، نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، بحبة وسراويل سوداء تنطبق على الكاحلين . وعامة صغيرة بيضاء على زى علماء الأستانة ، عزب ، عفيف النفس ، قانت . كثير القيام ، لا ينام إلا الغلس إلى الضحى ، قوى العارضة ، طويل الحجة ، واسع المحفوظ ، نبه يكاد يكشف حجب الضمائر ، ويهتك أستار الستائر ، ولكنه على فضله . لا يسلم من حدة المزاج .

علو نفسه

ويلوح لنا أن أبرز صفة في جمال الدين علو النفس ، ولعلها الصفة الجامعة التى تصدر عنها صفاته الأخرى وأخلاقه ، وقد احتفظ بها في أشد الأوقات حرجاً ، ولازمته عند اشتداد

عن . وتعظم الخطوب ، مما دل على أنها غريزة طبعت عليها نفسه العالية ، وحسبك دليلاً على ذلك ما كان من موقفه حين نفي من مصر في أوائل عهد الخديو توفيق باشا ، فقد أنزل إلى البحر في السويس خالي الجيب ، فجاءه قنصل إيران في ذلك الثغر ، ومعه نفر من تجار العجم ، وقدموا له مقداراً من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن ، فأبى أن يأخذ منه شيئاً ، وقال لهم : « احفظوا المال فأنتم إليه أحوج ، إن الليث لا يعدم فريسته حيناً ذهب . » وهذه الكلمة وحدها تصور لنا شخصية جمال الدين وعظمته النفسية ، وتصلح أن تكون عنواناً لتاريخه المجيد .

عقيدته

تدل رسالته في (الرد على الدهريين) على أنه مؤمن صادق بالإيمان ، يدعم العقيدة الإسلامية على أسس المنطق والحكمة العقلية ، فهو فيلسوف من فلاسفة الإسلام الأعلام . قال الاستاذ الإمام عن مذهبه وعقيدته : « أما مذهب الرجل فحنيفي حنفي ، وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلداً ، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضى الله عنهم ، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض في مذهبه ، وعرف بذلك بين معاصريه في مصر أيام إقامته ، ولا يأتي من الأعمال إلا ما يحل في مذهب إمامه ، فهو أشد من رأيت في المحافظة على أصول مذهبه وفروعه ، أما حميته الدينية فهي مما لا يساويه فيها أحد ، يكاد يلهب غيره على الدين وأهله . »

علمه

وقال عن علمه : « أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمي إلا بنوع من الإشارة إليها ، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديداتها وإبرازها في صورها اللائقة بها ، كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة في خل ما يعضل منها ، كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها ، كل موضوع يلقي إليه ، يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتي على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه ، وإذا

تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له في باب الشرعيات قدرة على الاختراع .
 كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع ، وله لسان في الجدل ، وحذق في صناعة الحجة ، لا يلحقه
 فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهداً على ذلك أنه ما خاصم أحداً
 إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا ألزمه ، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعدما أقر له
 الشرقيون ، وبالجمللة فإنني لو قلت أن ما آتاه الله من قوة الذهن ، وسعة العقل ، ونفوذ
 البصيرة ، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء ، لكنت غير مبالغ ، ذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء
 والله ذو الفضل العظيم .

وقال أديب اسحق عن ذكائه : « ومن عجائب ذكائه أنه تعلم اللغة الفرنسية أو بعضها
 حتى صار يقدر على الترجمة منها ، ويحفظ من مفرداتها شيئاً كثيراً ، في أقل من ثلاثة شهور
 بلا أستاذ إلا من علمه حروف هاجائها في يومين ، وكان يتتبع حركة المعارف الأوروبية
 والمكتشفات العصرية ، ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديداً حتى كأنه قرأ العلم في
 بعض مدارس أوروبا العالية . »

مجلسه

كان حين إقامته بمصر يلقي الدروس في داره ، فكانت محط رجال العلماء والأدباء
 وأذكىاء الطلبة ، يقضي النهار في بيته ، فإذا جن الليل خرج يتوكأ على عصاه إلى قهوة اعتاد
 أن يجلس فيها أمام حديقة الأزبكية (قهوة متاتيا) ، ويأخذ مكانه في الصدر ، وحوله
 تلاميذه ومريدوه ، وفيهم الشاعر ، والأديب ، والعالم اللغوي ، والطبيب ، والجغرافي ،
 والتاريخي ، والمهندس ، وغيرهم من صفوة أهل الفكر والعلم ، والوجاهة ، فيفيض على
 محدثيه من بحر علمه « فيتسابقون - كما يقول سليم عنجورى - إلى إلقاء أدق المسائل عليه ،
 وبسط أعوص الأحاجي لديه ، فيحل عقد أشكالها فرداً فرداً ، ويفتح أغلاق طلاسمها
 ورموزها واحداً واحداً ، بلسان عربي مبين ، لا يتلعثم ، ولا يتردد ، بل يتدفق كالسيل من
 قريحة لا تعرف الكلال ، فيدهش السامعين ، ويفرح السائلين ، ويبكم المعارضين ، ولا يبرح
 هذا شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيئاً ، فيقفل إلى داره ، بعد أن ينقد صاحب المقهى كل
 ما يترتب له في ذمة الداخلين في عداد ذلك المجمع الأنيق . »

مقصده السياسى

قال الأستاذ الإمام عن مقصده السياسى : « أنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها ، وتبنيها للقيام على شؤونها ، حتى تلحق بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيفى مجده ، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رعوس الطوائف الإسلامية ، وله فى عداوة الإنجليز شؤون يطول بيانها » انتهى كلام الأستاذ الإمام .

نقول وقد دل تاريخ السيد على أنه بذل حياته كلها لبعث روح النهضة والحرية فى أمم الشرق قاطبة ، فهو أول زعيم للحرية فى الشرق ، وأول باعث لنهضته الحديثة ، ولئن لم يشاهد ثمار دعوته وجهوده ، فحسبه أنه غارس البزرة الأولى للحركات القومية التى ظهرت فى الشرق منذ نيف وخمسين سنة إلى اليوم ، وإلى ما شاء الله ، وإذا هو لم يشهد نجاح دعوته قبل موته ، فليس مرجع ذلك إليه ، لأنه قد أدى رسالته على أتم ما يؤديه الزعماء المخلصون ، ولكن عاكسته الأقدار واعتضت سبيله عقبات جمة ، بعضها من مكاييد الدول الاستعمارية ، وخاصة الدول الإنجليزية ، وبعضها من خذلان ملوك الشرق وأمرائه لدعوته واضطهادهم إياه .

فقد رأيت ما أصابه من الخديو توفيق باشا حين ولى الحكم ، إذ نقض عهده معه ، ونفاه من مصر ، وكذلك فعل معه شاه العجم ناصر الدين شاه ، فقد استدعاه ليتفجع من علمه وحكمته ، وما لبث أن تنكر له وحسبه ثم نفاه ، وعرفت ما أصابه فى الاستانة على عهد السلطان عبد الحميد ، مما لا حاجة إلى تكراره ، وحسبك أن تذكر أنه كان سجيناً فى قصره ، ومحاطاً بالعيون والجواسيس ، حتى لاقى منيته فى ظروف تدعو للاعتقاد أنه مات شبه مقتول . فملوك الشرق وأمرأؤه كانوا إذن حرباً على جمال الدين ، وكانوا من حيث يشعرون أولاً يشعرون عوناً لدعاة الاستعمار فى إحباط جهوده ومساعدته ، فليس عجيباً أن لا يشهد السيد نجاح دعوته فى الإصلاح والحرية ، وقد لقي أيضاً خذلاناً من أكثر الطبقات ، فكأنه كان يرسل دعوته فى صحراء مقفرة ، ليس فيها سميع ولا مجيب ، ولا مرء فى أنه قد تقدم الشرق وسبقه إلى الحياة نيفا ومائة عام ، فلم يلب الشرق نداءه فى حياته ، ولم تظهر ثمار دعوته إلا بعد مماته ، وهذا يزيد فضلاً وقدرًا ، لأنه قام بدعوته فى وقت عز فيه النصير ، وقل

المستجيب إلى دعوة الحرية والحق ، وقد شعر السيد ، وخاصة في أواخر أيامه ، بمرارة اليأس والألم مما لقيه من صنوف الاضطهاد ، ونقض العهود والمواثيق ، وكم كان حقيقاً بالألم حين يعرض في ذاكرته مبلغ ما بذله لأئم الشرق من الإخلاص والتفاني في خدمتها ، ثم ما أصابه من كبرائها وأمرائها من التنكر والجحود ، وما لقيه من مختلف طبقاتها من الإعراض والخذلان . ذكر عنه الأمير شكيب أرسلان في ترجمته ^(١٩) : أنه لقيه بالأمستانة سنة ١٨٩٢ ، وكان من شدة ما يجد من الألم لحال الإسلام تخطر له خواطر نادرة في هذا الموضوع ، فقال له مرة : « قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد أن لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشئوا خلقاً جديداً ، وجيلاً مستأنفاً ، فحبذا لو لم يبق منهم إلا كل من هو دون الثانية عشر من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسيّرهم في طريق السلامة » .



السيد جمال الدين الأفغانى فى مرضه الأخير

وقال له مرة أخرى : « لم يبق في الإسلام أخلاق ، فهذا محمود سامي (باشا البارودي الشاعر الكبير ، رئيس النظار أثناء الحوادث العربية) عاهدني ثم نكث معي ، وهو أفضل من عرفت من المسلمين^(٢٠) » وقال له أيضا : « إن المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم ، وهو شهواتهم » .

بمثل هذه الخواطر كان يعبر السيد عن ألمه من سوء حالة الأمم الشرقية ، وهذا الألم يدل على مبلغ الشعور الذي تملك له ، وأنه كان يشتعل غيرة على الشرق والإسلام ، ويحزن إذ يرى دعوته لم تلق مجيباً ولا نصيراً ، وإنك لترى صورة الألم والحزن مرتسمة على عيائه في مرضه الأخير ، وظل هذا الحزن يلزمه حتى فارق الحياة ، وما قد مضت خمس وثلاثون سنة على وفاته ، ولما ينهض واحد من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يبحث عن قبره ويشيد له ضريحاً يليق بذكرى الرجل العظيم الذي أفنى عمره في بعث الأمم الإسلامية وإنهاضها ، وبث روح الحياة والحرية فيها ، إلى أن قبض الله رجل من سراة الأمريكان (المستر كراين) ، فأخذ يبحث ويحقق حتى اهتدى إلى قبر جمال الدين بالأستانة سنة ١٩٢٦ فأقام عليه شاهداً فخماً من الرخام ، نقش عليه اسم السيد ، وأدى بهذا الصنيع واجباً كان يجدر بسراة المسلمين وعظماهم أن يؤدوه .

وهذا المظهر المستمر من نكران الجميل يكشف لك عن ناحية من أسباب التأخر السياسي والاجتماعي في أمم الشرق قاطبة ، فإن الأمم لا تسلك سبيل النهضة الصحيحة إلا إذا عرفت أقدار الرجال الذين أفنوا حياتهم في سبيل مجدها وعظمتها .

(٢٠) الإشارة هنا فيما نعتقد إلى ما كان من نبي السيد جمال الدين من مصر فقد نفي بقرار من مجلس النظار وكان محمود باشا سامي البارودي ناظر الأوقاف في ذلك الحين واشترك في هذا القرار .

رجع ما انقطع

عود إلى الحياة النيابية

الهيئة النيابية الثالثة

ابتدأت أدوار المعارضة بانتخاب أعضاء الهيئة النيابية الثالثة ، وهم الذين شغلوا مراكز النيابة من سنة ١٨٧٦ إلى أوائل عهد توفيق باشا ، وهالك أسمائهم :

نواب القاهرة

محمود بك العطار ، عبد السلام بك المويلحي ، يوسف العقي .

نواب الإسكندرية

سليمان الغربي ، عبد الرزاق الشوبرجي .

نواب الغربية

عثمان الهرمبل . عمدة محلة مرحوم ، عبد الرحمن عرفه عمدة برج مغيزل ، محمد حماد عمدة كفر بلشاي ، محمود سالم عمدة كفر سالم ، أحمد سالم عمدة دهنوره ، مصطفى هرجه شيخ أبو صير ، الحاج محمد سليم عمدة شبرا قاص ، ابراهيم الشاذلي عمدة شبرا تنا ، عمر خضر عمدة أبو تور .

نواب المنوفية

الحاج علي عمران عمدة سرسموس ، مصطفى غنيم الأنباي عمدة جزى ، ابراهيم حسن عمدة الباجور ، سليمان حسين عامر عمدة جتور ، أحمد السرسى عمدة ادشاي ، علي عياد عمدة السدود .

نواب البحيرة

ابراهيم الديب عمدة صفيط العنب ، أبو زيد الحناوى عمدة كفر عوانه ، عبدالله المنياوى
عمدة ديروط ، ابراهيم الجيار عمدة خربتا ، ابراهيم دربك عمدة عزبة دربك .

نواب الدقهلية

عبد جوده عمدة محلة انجاق ، محمد عبده عمدة كفر أبو ناصر ، متولى أفندى شريف
عمدة ديرب ، يوسف رزق عمدة كفر يوسف رزق ، عبد الوهاب الشيخ عمدة دقادوس ،
شلى حسين عمدة سلكا .

نواب الشرقية

أيوب أيوب عمدة الصوه ، حسن عبد الله عمدة فرسيس ، محمد جبرة الله عمدة شبرا
العنب ، محمد رجب كساب عمدة غيته ، سيد أحمد رضوان عمدة ميت العز ، جاد يوسف
عمدة شنيط الحرابوه ، على عامر عمدة العزيرية ، على خليل عمدة السعديين .

نواب القليوبية

عبد العزيز مطر سليمان منصور (كفر شبين) ، مصطفى علام (سنديس) ، عبد الفتاح
زغلول (ميت كنانة) .

نواب الجيزة

رزق عكاشه عمدة المنيا والشرقا ، حسين عطا الله عمدة برتشت ، فضل الزمر عمدة ناهيا

نواب بنى سويف

محمد راضى عمدة انقسط ، على كساب عمدة نزلة كساب ، مصطفى محمد عز الدين
عمدة طنسا بنى مالو .

نواب الفيوم

أحمد جاد الله عمدة السيليين ، أحمد الدهشان عمدة اهریت .

نواب المنيا وبني مزار

بديني الشريعي عمدة سمالوط ، عبد الغنى خالد (السريزية) ، على أفندي حسن ،
أحمد محمد أبو طالب عمدة برطباط ، خليل عبد الرحيم عمدة الفشن ، حنا يوسف عمدة
نزلة الفلاحين .

نواب أسيوط

عطيه عبدالعال عمدة العقال البحرية ، محمد عبد الوهاب عمدة السهامية ،
عبد الرحمن وافي عمدة بني عدى ، ميخائيل فرج عمدة دير مواس ، محمد فرج عمدة نزلة
فرج محمود ، عمر أحمد عمدة مسرع .

نواب جرجا

ابراهيم حسن أبوليلة عمدة الريانية ، عثمان أحمد همام عمدة أولاد اسماعيل ، محمد
حساب عمدة داود وميت سهيل ، تمام حبارير عمدة المحامدة ، صديق عبد المنعم عمدة
بنجا ، عبد الشهيد بطرس (البليتا) .

نواب قنا

محمد عبد الله عمدة دشنله ، طايح سلامة عمدة القبلى قامولا ، سليم سعيد عمدة العركة
والدهشة .

نواب إسنا

أحمد عبد الصادق (أسوان) ، محمد سلطان (إسنا) .

نائب دمياط

الحاج سيد اللوزي .

اجتماع مجلس شوري النواب بطنطا في دور غير عادي

(اغسطس سنة ١٨٧٦)

دعت الحكومة أعضاء المجلس إلى الاجتماع للدور « فوق العادة » بطنطا ، واختارت هذه المدينة لمناسبة قيام المولد الأحمدي بها ، والغرض من الاجتماع هو البحث في مسألة ابطال المقابلة أو إقرارها ، وذلك أن مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦ قضى بإيقاف تنفيذ هذا القانون ، ولكن الحكومة رأت تخفيفاً لضائقتها المالية أن يعود العمل به حتى تجي متحصلات المقابلة ، وكان الأعيان الذين دفعوا أقساط المقابلة ، ومنهم النواب ، يهمهم أن يجرى العمل به حتى يستمر إعفاؤهم من نصف الضرائب المربوطة على أطيانهم ، فدعت الحكومة المجلس إلى الاجتماع للبحث في هذه المسألة ، وذكرت موضوع الاجتماع في أمر الدعوة .

اجتمع الأعضاء في طنطا برئاسة عبد الله باشا عزت يوم الاثنين ١٧ رجب سنة ١٢٩٣ (٧ أغسطس سنة ١٨٧٦) . ولم يحضر الخديو افتتاح المجلس ، ولا تليت فيه خطبة عرش ، واقتصرت الجلسة الأولى على النظر في مسألة المقابلة ، فحبذ الأعضاء بقاءها .

وثمة ظاهرة بدت في هذا الاجتماع وهي روح جديدة يصح أن نسميها طبقاً للمصطلحات البرلمانية روح « المعارضة » ، ومظاهرها حب الاستقصاء والتحرى عن شؤون الحكومة ، والرغبة الصادقة في بحثها بعناية تختلف كثيراً عن تهاون المجلس في الأدوار السابقة .

ظهرت هذه الروح إذ وقف الشيخ عثمان الهرميل أحد نواب الغربية ، وأبدى موافقته على إعادة العمل بقانون المقابلة ، ولكنه طلب في صراحة محمودة أن توضح الحكومة الطريقة التي كان في نيتها اتباعها لرد المبالغ التي حصلتها من المقابلة فيما لو بطل العمل بالقانون ، وقال إن مجموع ما حصلته بلغ (إلى ذلك الحين) اثني عشر مليوناً أو ثلاثة عشر مليون جنيه ، ومع جسامه هذا المبلغ ووجود ديون أخرى على الحكومة لم تبين كيف يمكنها رد مبالغ المقابلة إلى أصحابها « وبما أن المجلس لم ينظر ميزانية الحكومة في السنة الماضية ، مع أن له الحق في

الاطلاع عليها ليعرف كيفية الإيراد والمنصرف ، ويعلم أيضا كيفية الاستقراض وحصر الدين واستهلاكه في ٦٥ سنة (طبقا لمرسوم توحيد الديون) فإن وافق المجلس يصير طلب هذه البيانات أيضا تنتظر بالمجلس .

فهذه روح طيبة . تدل على أن فكرة الرقابة على تصرفات الحكومة قد سرت إلى نفوس لأعضاء . لأن الهرميل لم يدل بهذا البيان إلا مستأنساً بتأييد زملائه ومرتجيا عن ميولهم وشعورهم وقد وافق المجلس فعلا على وجهة نظره وقرر تأليف لجنة من ثلاثة أعضاء وهم : بديى أفندى الشريعى . وعلى أفندى عامر ، وعبد الشهيد أفندى بطرس ، ومهمتهم التوجه إلى وزارة المالية للاطلاع على البيانات التى طلبها الشيخ عثمان الهرميل .

وانتقلت اللجنة إلى وزارة المالية بالقاهرة ، وفحصت البيانات واستحضرت الكشوف المطلوبة ، ومما جاء فى بيانها أن جملة المتحصل من المقابلة بلغ ثلاثة عشر مليون جنيه وكسوراً ، وانتهت فى تقريرها إلى اقتراح إعادة العمل بقانون المقابلة ، لأنه يتعذر على الحكومة رد مبالغ المقابلة مع سداد ديونها .

ونظر تقريرها بجلسة الخميس ٢٠ رجب سنة ١٢٩٣ - ١٠ أغسطس سنة ١٨٧٦ ، فقرر المجلس إبقاء المقابلة لمعاونة الحكومة على سداد ديونها ، وهو قرار لا غبار عليه ، لأنه بمثابة « توضيح » مالية تتحملها البلاد لإنقاذ الحكومة من ارتباكها المالى ومساعدتها على سداد ديونها ، والأهم فى الأوقات العصيبة تنهض لمعاونة حكوماتها مالياً ومعنوياً ، مهما يكن من أخطائها الماضية ، لأن ساعة الخطر تتطلب أن تتضافر الأيدي وتتعاون الأمة والحكومة على إنقاذ البلاد مما يحيق بها من المكاره ، وانتهى فى تلك الجلسة دور الانعقاد غير الاعتيادى بطنطا ، بعد أن دام اجتماعه جلستين اثنتين .

دور الانعقاد الأول من الهيئة النيابية الثالثة

(نوفمبر سنة ١٨٧٦ - مايو سنة ١٨٧٧)

افتتح الحديو اجتماع المجلس يوم الخميس ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٦ ، بصحبة الأمير محمد توفيق باشا وزير الداخلية ، والأمير حسين كامل باشا (السلطان حسين فيما بعد) وزير المالية ، والأمير حسن باشا وزير الحربية ، وشريف باشا وزير الحقانية والخارجية ، وخيرى باشا

المهر دار ، واجتمع الأعضاء برئاسة عبد الله باشا عزت ، وتليت خطبة العرش ، وفيها أعرب الخديو عن سروره من اجتماع المجلس « لبعض مسائل مهمة » ، وذكر أولاً أن المرسوم الصادر بتوحيد الديون المؤرخ ٧ مايو سنة ١٨٧٦ طرأت عليه أسباب دعت إلى تعديله ، وأن « أفكار الجميع مخالفة لما هو منصوص به من جهة إبطال المقابلة » ، وأشار إلى اجتماع النواب بطنطا ، وما استقر عليه رأيهم من ضرورة إبقاء المقابلة ، وذكر حضور المستر جوشن والمسيو جوبير مندوبي الدائنين والاتفاق معها على تسوية الديون بالطريقة التي ستعرض على المجلس (مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦) ، وأن هذه التسوية مبنية على قرار النواب في شأن المقابلة المبين به وجهان : « أحدهما إبقاء المقابلة ، والآخر بيان ما هو محقق لكم من إبلاغ الإيراد بعد انتهاء مدة المقابلة إلى ثمانية ملايين ونصف مليون جنيه تقريباً ، ولأجل إمكان موازنة مالية الحكومة ألزمت الضرورة جعل الإيراد في مدة المقابلة ثابتاً سنوياً ، ولهذا ما أمكن خصم الامتياز سنوياً كما كان جارياً ، بل انتهى الأمر فيه على أنه لا يخصم في المدة المذكورة نظير ارتفاع أربابه بالمائة خمسة في كل سنة ، وبانتهاء مدة المقابلة بالطبع يجرى خصم ذلك الامتياز بتمامه ، وهذا هو بناء على أفكاركم وتصميمكم بإبقاء المقابلة على أي وجه أمكن ، فالذي أمكن هو الذي تقدم الإيضاح عنه بإنضمام أفكاركم (وثانياً) النظر في أعمال المنفعة العامة (العمليات) الخاصة بالوجه البحري مما تعرضه وزارة الأشغال على المجلس » .

والشيء الجديد في هذه الخطبة أن الخديو جعل للمجلس حقاً ثابتاً في الاشتراك في إدارة شؤون الحكومة وتصريفها ، وذلك بإعلانه أن إبقاء المقابلة مبني على قرار مجلس شوري النواب في اجتماعه بطنطا ، ويعد هذا التصريح في ذاته مكسباً للمجلس ، ولا يخفى أن التسوية التي أشار إليها الخديو تتضمن أيضاً فرض الرقابة الثنائية الأجنبية على مالية الحكومة ، وهذه لم يذكرها اسماعيل باشا في خطبته ، ولم يشرك المجلس في احتمال تبعاتها ، وحسناً فعل .

تغييرات في الأعضاء

انتخب أحمد أفندي إسماعيل عمدة السنبلادين عضواً بالمجلس بدلاً من متولى أفندي شريف الذي عين وكيلًا لضبطية دكرنس ، وخليفة أفندي مرزوق عمدة بني أحمد بدلاً من علي حسن من نواب المنيا .

لجان المجلس

بدأ المجلس عمله بانتخاب لجانته لتحقيق صحة نيابة الأعضاء ، وهذا بيان اللجان (الأقلام) وأسماء رؤسائها :

لجنة المدائن : ورئيسها محمود بك العطار .

لجنة الغربية : ورئيسها الشيخ عثمان الهرميل ، وتشمل نواب الغربية والمنوفية .

لجنة الشرقية : ورئيسها الشيخ أيوب أيوب ، وتشمل نوابا من الشرقية والدقهلية والقليوبية .

لجنة أسيوط : برئاسة أحمد أفندى عبد الصادق .

لجنة المنيا : برئاسة بديني أفندى الشريعى .

وقد فحصت اللجان نيابة الأعضاء فأقرت صحة نيابتهم أجمعين .

الجواب على خطاب العرش

انتخب المجلس لجنة من عشرة أعضاء لتقديم الجواب على خطاب العرش ، وهؤلاء الأعضاء هم : محمود بك العطار . عبد السلام بك المويلحي . الشيخ عثمان الهرميل ، الشيخ سليمان حسين . الشيخ أيوب أيوب . يوسف أفندى رزق . الشيخ عثمان أحمد همام . الشيخ عطية عبد المتعال . بديني أفندى الشريعى . على أفندى كساب .

وقد وضعت جواب المجلس على خطاب العرش ، مكتوباً بأسلوب جديد ، وروح جديدة ، تختلفان عن عبارات التملق البالغ التي وردت في الأجوبة السابقة ، وتضاءلت فيه أساليب العبودية ، مما يدل على تطور روح المجلس واستشعار النواب بكرامتهم وحقوقهم ، ويمتاز الجواب أيضاً بإيجاز عباراته ، وارتفاع أسلوبه بالنسبة لأسلوب الأجوبة السابقة ، وهذا ينبئ بتطور الأفكار ، وتقدم لغة الكتابة والإنشاء .

وإننا مقتبسون هنا بعض فقرات من هذا الجواب للتدليل على مبلغ هذا التطور ، بدأ الأعضاء رسالتهم بشكر الخديو على تشريفه المجلس بافتتاحه وقالوا عن خطبة العرش : « إننا شنفنا الأسماع بالإصغاء إلى المقالة العلية ، التي أضاعت شمس معانيها ، فأوجدت لنا السبيل

إن التدبر لما أودع فيها من المقاصد الخيرية الصادرة عن سديد أفكاره السنية ، المتجهة على مر الأوقات لما يعود على البلاد وساكنيها بالراحة والمنفعة ، ولا غرو في صدور ذلك من نفس كريمة جبلت على حب الوطن ، وجلبت إليه كل فائدة جلية ، أمرها مستحسن ، ولا يخفى على كل ذى عقل ولب ما أشير عنه بالمقابلة الخديوية من جهة الديون ، فإنه من المسائل العظمى العائدة على الحكومة والأهالي بالخيرات الكثيرة ، والثمرات الجمة ، لأنه مع انتظام الديون وتسويتها تحت روابط معلومة تنتظم مالية وإدارة الحكومة ، ويتبع ذلك ترقى حركة التجارة ، وكثرة التعامل بالأخذ والعطاء بين العموم .

ولم يفت اللجنة أن تشير في جوابها إلى الحق الذي ناله المجلس من الإشراف على أعمال الحكومة ، فقالت في أسلوب حصيف : « وبحسبنا أشير بالمقالة الكريمة سيطلب من نظارتي المالية والأشغال ما يختص بكل منهما من هذه المسائل » .

وختمت جوابها بقولها : « نسأل المولى الكريم أن يوفقنا لما فيه النجاح والإصلاح لوطننا العزيز ، كما نبتهل إليه سبحانه وتعالى ببقاء سعادة الخديو الأكرم متمتعاً بأفجالة الكرام ، بحاج سيد النبيين ، وخاتم المرسلين » .

فالحق أن هذا الجواب يعد من خير ما قدمه المجلس ردّاً على خطب العرش ، ولوقارنت بينه وبين جواب المجلس في أول دور انعقاده (نوفمبر سنة ١٨٦٦ ص ٩٨) لوجدت التقدم ظاهراً في الروح والطابع والأسلوب والأفكار ، وقد بدأ على مناقشات الأعضاء حب البحث والاستقصاء والاستقلال في الرأي والتطلع إلى مراقبة تصرفات الحكومة ، مما دل على أن روحاً جديدة من المعارضة سرت إلى المجلس .

النواب البارزون

وبرز في ميدان النقاش أعضاء أكفاء برهنوا على حصافة في الرأي ، وقوة في المنطق ، وسداد في المقصد ، ونذكر منهم على سبيل المثال : (لا على سبيل الحصر) : محمود بك العطار ، وعبد السلام بك المويلحي (باشا) ، ومحمد أفندي راضي ، والشيخ عثمان الهرميل ، والشيخ محمود سالم ، وبديني أفندي الشريعي ، والشيخ إبراهيم الجيار ، وغيرهم . وقدمت وزارة المالية للمجلس بيانات تفصيلية عن الديون وأنواعها وأقساطها .

والإيرادات والمصروفات وأبوابها ، وتولى تقديم هذه البيانات حافظ بك رمضان من كبار موظفي وزارة المالية في جلسات متعاقبة ، وكان يتولى الإجابة بإسهاب على كل ما يطلبه المجلس من الإيضاحات .

وبحث المجلس في مسائل عدة تتعلق بمشروعات المنفعة العامة ، كالرياحات ، والقناطر والترع ، وملاحة مريوط وغير ذلك .

وانتهى الدور يوم الخميس (١٥ فبراير سنة ١٨٧٧ - غاية صفر سنة ١٢٩٤) .
ثم استأنف اجتماعه في ١٦ ربيع الثاني بناء على طلب الحكومة لمناسبة نشوب الحرب بين تركيا والروسيا ، وطلب الخديو النظر في المال اللازم لتجهيز الحملة المصرية التي اعترم إرسالها في هذه الحرب .

ولاشك أن جمع المجلس لهذا السبب وإن كان الغرض منه تدبير المال الذي تطلبه الحكومة ، لكنه يدل على الحق الذي ناله النواب في الرجوع إليهم كلما احتاجت السلطة التنفيذية إلى موارد مالية جديدة ، وقديماً لم تكن ترجع إليهم في مثل هذا الشأن ولا في غيره ، بل كانت تفرض ما تشاء من الضرائب ، دون أن ترجع إليهم ، أو تشركهم في الأمر ، وهذا بلا مرأى مكسب كبير من الوجهة القومية والدستورية .

وانتهت المناقشة بقرار المجلس زيادة الضرائب على اختلاف أنواعها عشرة في المائة ، وختم الدور يوم ١٦ مايو سنة ١٨٧٧ (٣ جمادى الأولى سنة ١٢٩٤) .

الدور الثاني

(مارس - يونيه سنة ١٨٧٨)

افتتح الخديو اجتماع المجلس يوم الخميس ٢٨ مارس سنة ١٨٧٨ ، يصحبه الأمير محمد توفيق باشا وزير الداخلية ، والأمير حسين كامل باشا وزير المالية ، ومصطفى رياض باشا وزير الزراعة والتجارة ، وشاهين باشا مفتش الوجه البحري وأحمد خيرى باشا المهردار ، واجتمع الأعضاء برئاسة قاسم باشا رسمى .

وتليت خطبة العرش ، وتتضمن الإشارة إلى ما عانت به البلاد من نقص النيل (عام ١٨٧٧) نقصاً لم يقع مثله من عدة سنين ، وما أصاب الأراضى من الشراقى وخاصة أطيان



جعفر مظهر باشا

رئيس مجلس شورى النواب
من ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٨
إلى ٢٧ يولية سنة ١٨٧٨



قاسم رسمي باشا

رئيس مجلس شورى النواب
من ٢٧ مارس سنة ١٨٧٨
إلى ٢١ ابريل سنة ١٨٧٨

الوجه القبلى ، فإن معظمها لم يزرع لحرمانها مياه الري ، وألمع إلى انتهاء الحرب البلقانية ، قال : « والمأمول حضور العساكر المصريين لهذا الطرف وتقر أعيننا برؤية أولادنا جميعا »^(٢١) ، وشكر المجلس على ما قرره فى الاجتماع الماضى من تقرير الإعانة العسكرية ، ووعده بتقديم حساب عن الأوجه التى صرفت فيها هذه الإعانة ، وأشار إلى تأليف لجنة التحقيق الأوروبية ، وهى التى تولت فحص الحالة المالية بعدما تبين من عجز الإيرادات . وانتخب المجلس لجنة لتقديم الجواب على هذه الخطبة ، وأعضاؤها هم :

محمود بك العطار ، عبد السلام بك المولىحى . الشيخ عثمان الهرمىل . الحاج إبراهيم حسن . أيوب أيوب ، يوسف رزق ، بدنى الشريعى ، عبد الشهيد بطرس . أحمد أفندى عبد الصادق . الشيخ محمد سلطان ،

وقدمت اللجنة جواب المجلس على خطبة العرش ، وهو بالأسلوب الذى كتب به جواب الدور السابق ، وفيه ترديد لما أشار إليه الخديو فى خطبة العرش وإعراب عن الأمل فى تسوية المشكلة المالية القائمة بين مصر والدائنين .

(٢١) كان الأمير حسن ثالث أنجال إسماعيل من قواد الحملة المصرية فى هذه الحرب ، وأشار الخديو فى خطبته إلى قرب عودة الجنود المصريين ، والتعبير عنهم (بأولادنا جميعا) وفيهم نجله تورية لطيفة وأسلوب ديمقراطى جميل .

وتوفى قاسم باشا رسمى لمجلس أثناء انعقاد الدور ، فعين الخديو للراية جعفر مظهر باشا حاكم السودان السابق ، وهو من خيرة رجال الدولة فى ذلك العصر كما تقدم بيانه (ج ١ ص ١٥٠) . الطبعة الأولى

وانتخب فى خلال الدور الشيخ محمد عبد البر عمدة شنشور بدل الشيخ على عباد (منوفية) ، والشيخ خضر حشيش عمدة كفر أبو حشيش بدل عبد الفتاح زغلول (قليوبية) لاستعفائه ، وعبد الرحيم عبد الله من بنى حرب بدل عثمان همام (جرجا) .

قرارات المجلس

بحث المجلس فى الأضرار والخسائر الجسيمة التى أصابت الأتبان بسبب الشراقى الناشئ عن نقص النيل سنة ١٨٧٧ ، فقرر أن تؤلف لجنة فى كل مديرية لتدارك هذه الحالة على قاعدة إمداد الحكومة للأهالى الذين شرقت أطيانهم بالتقاوى والبزور ، وتسليفهم ما يحتاجون إليه من المال لشراء المواشى اللازمة لزراعة أراضيهم وإضافة ثمن التقاوى وقيمة السلف على مطلوبات الحكومة من المال .

ونظر فى أطيان « المتسحبين » وهم المزارعون الذين تخلوا عن أطيانهم لعجزهم عن أداء الضرائب ، ولاحظ إزدياد عددهم مما يندّر البلاد بالخطر ، فقرر إعطاء « المتسحب » إلى أهله وذوى قرباه الذين تؤول إليهم ملكيتها فيما لومات ، وأن تكلف بأسمائهم مؤقتاً لمدة ثلاث سنوات بصفتهم وكلاء الغائب ، فإذا حضر قبل انتهاء هذه المدة تعادله أطيانه ، وإن لم يرجع تعتبر ملكاً باتاً لمن زرعوها من أقاربه ، والمتسحبون الذين ليس لهم ورثة تعطى أطيانهم بالإيجار لمن يطلبها ، وتسلم المديرية قيمة الإيجار وتستوفى منه المال وتودع ما فاض منه فى خزانتها حتى تنتهى السنوات الثلاث ، فإذا حضر صاحب الأرض قبل انتهاء هذه المدة يعطى له ما فاض من الإيجار وتسلم له أرضه ، وإن لم يحضر يضاف الفائض إلى الحكومة ، وتعطى الأرض بلا مقابل للخالين من الأتبان من أهل الناحية .

وقرر المجلس وجوب مضاعفة منشآت الري والهندسة لكى تجدد الأراضي كفايتها من المال فى حالة ما إذا نقص النيل كتنقصانه فى العام الماضى ، واستدعى على باشا مبارك ، وكان وقتئذ

مستشار وزارة الأشغال ، وتباحث وإياد فيما يجب القيام به من أعمال الري في مختلف المديرية لزيادة المياه وعمل الاحتياطات الكفيلة لتلافي ضرر الشراقى في حالة نقص النيل .
وقدمت الحكومة للمجلس كشوقاً تفصيلية بما صرف بمعرفة وزارة الحربية من أموال الإعانة العسكرية .

ولما كانت عليه حالة المالية من الارتباك وانهاك الحكومة بتقديم البيانات التى طلبتها لجنة التحقيق الأوروبية لم تضع ميزانية السنة الجديدة انتظاراً لما تصل إليه لجنة التحقيق من النتائج ، وانتهى الدور يوم ٢٧ يونيه سنة ١٨٧٨ (٢٦ جمادى الآخر سنة ١٢٩٥) دون أن تعرض عليه الميزانية .

الدور الثالث

آخر أدوار الانعقاد فى عهد إسماعيل

(يناير سنة ١٨٧٩ - يوليه سنة ١٨٧٩)

بلغ التدخل الأوروبى فى شؤون مصر المالية أقصى مداه بعد انقضاء الدورة النيابية السابقة ، إذ قدمت لجنة التحقيق الدولية تقريرها الأول ، ومما فرضته الدولتان الإنجليزية والفرنسية من المطالب ضرورة تأليف وزارة يكون فيها عضوان أجنيان يمثلان المصالح الأوروبية ويرقبانها ، ونزل إسماعيل على إرادة الدولتين ، وعهد إلى نوبار باشا تأليف الوزارة على هذا الأساس ، فدخلها وزيران أوروبيان ، أحدهما انجليزى وهو المستر ريفرس ويلسن وزيراً للمالية ، وثانيهما فرنسى وهو المسيو دى بلنير وزيراً للأشغال .
تولت الوزارة شؤون الحكم فى أغسطس سنة ١٨٧٨ ، وواجهت مجلس شورى النواب فى دور انعقاده الثالث .

دعى المجلس إلى الاجتماع ، فاستبشرت الصحف الوطنية خيراً ، وأعربت عن آمال كبار فى أن يستوفى النواب حقوقهم حتى تعلم البلاد ما هو البرلمان ، « وتذكر كنهه حساً ومعنى وتجنّى باكورة ثماره » (٢٢) ، وعلقت أملها بقيام النواب بواجباتهم وتقديرهم حاجات البلاد

(٢٢) جريدة التجارة (لأديب اسحق) عدد ١٥٣ (٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٨) .

ومطالبها ، قالت جريدة (التجارة) في هذا الصدد : « ولم لا ؟ وإن من أعضائه لرجالا لا تأخذهم في الحق لومة لائم ، مع العلم بواجباتهم ، وحقوق الأمة ، وما ألم بها من الآلام . وبودهم لو اقتدوا بالإصلاح بدمائهم ، وتناقل الثقات خيراً آخر وهو أنه سيسمح لمراسلي الجرائد بحضور جلسات هذا المجلس (لم يتحقق هذا الخبر) لاستماع المفاوضة فيه ونقلها إلى الصحف ، فبشروا أهل مصر بعصر جديد ، يغنى به طارف المجد عن التلبد » (٢٣) .

اجتمع المجلس برئاسة أحمد رشيد باشا ، وحضر الخديو افتتاحه يوم الخميس ٢ يناير سنة ١٨٧٩ (٩ المحرم سنة ١٢٩٦) ، يصحبه الأمير محمد توفيق باشا ولى عهده ، والأمير حسن باشا ثالث أنجاله ، ونوبار باشا رئيس مجلس الوزراء (النظار) ، ووزير الحقانية والخارجية ، والسير ريفرس ويلسن وزير المالية ، ومحمد راتب باشا وزير الحربية ، ومصطفى رياض باشا وزير الداخلية ، وعلى مبارك باشا وزير المعارف والأوقاف ، والمسيودى بلنير وزير الأشغال ، وأحمد خيرى باشا المهردار .

وتليت خطبة العرش ، وهى أوجز خطب إسماعيل عبارة ، وآخرها فى مجلس شورى النواب ، قال فيها :

« أبدى لكم ممنونى من اجتماعكم بهذا المجلس ، وأخبركم أن سبب اجتماعكم هو أن نظار حكومتى سيتذاكرون معكم فى بعض مسائل مالية وأشغال داخلية ، فنرجو من المولى الكريم أن تتم المذاكرة فى ذلك على أحسن حال والله الموفق للصواب » .

وانتهت جلسة الافتتاح على ذلك ، واجتمع المجلس فى اليوم نفسه بالجلسة الثانية . وانتخب لجنة الجواب على خطاب العرش ، وأعضاؤها هم محمود بك العطار ، عبد السلام بك المويلحى ، الشيخ عثمان الهرمىل ، الشيخ مصطفى الإنبائى ، الشيخ محمد كساب ، يوسف أفندى رزق ، بدىنى أفندى الشريعى ، عبد الشهيد أفندى بطرس ، الشيخ محمد فرج ، لشيخ طابع سلامة .

جواب المجلس على خطبة العرش

خطاب تاريخي

وقدمت اللجنة جواب المجلس ، وهو جواب تسامى فيه النواب إلى أرق المعاني وأروع الأساليب ، فصار جديراً بأن يحفظ ويسجل في تاريخ مصر الدستوري ، وها هو ذا بنصه الوارد في مضبطة جلسة ٦ يناير سنة ١٨٧٩ (١٣ المحرم سنة ١٢٩٦) :

« نحن نواب الأمة المصرية ووكلائها ، المدافعون عن حقوقها ، الطالبون لمصلحتها ، التي هي في نفس الأمر مصلحة الحكومة ، نرفع إلى مقام الحضرة الخديوية الفخيمة الشكر الجميل ، حيث عنيت بتشكيل مجلس شورى النواب ، الذي هو أساس المدنية والنظام ، وعليه مدار العمران ، وهو السبب الموجب لنوال الحرية التي هي منبع التقدم والترقي ، وهو الباعث الحقيقي على بث المساواة في الحقوق ، التي هي جوهر العدل وروح الإنصاف . » ونكرر الشكر لهذه الحضرة الجليلة حيث شكلت مجلس وزارة جعلته مسئولاً كافلاً أمام الأمة تأييداً لمجلس النواب ، وتسميماً له ، ولذلك حينما تعلق إرادتها السامية بأن ينظر الوزراء في أمور المالية والأشغال والداخلية ، دعت نواب الأمة ليتداولوا معهم في ذلك ، حفظاً لحقوق الرعية ومصلحة الحكومة .

« وإنا نبث أيضاً عن الأمة عموماً ، وعنا خصوصاً ، مزيد الثناء على هذه الحضرة المعظمة ، لما تعطقت به من تشريف ركايبها الرفيع لافتتاح هذا المجلس احتفالاً به في يوم ستجني الأمة من غرسه ثمار الرفاهية والراحة .

« ونعلن من صميم القواد سرورنا وكمال ابتهاجنا بما تشرفت به مسامعنا من خطاب جلالتيكم الذي أتباعاً عما انطوت عليه تلك السريرة الطاهرة الزكية من الميل الغريزي إلى إصلاح الأمة المصرية ، والرغبة الخالصة في صعودها على معارج التقدم وترقيها إلى ذروة السعادة ونيلها الحرية في تصرفاتها قولاً وفعلاً ، حيث أبانت عظمتكم أن الغرض من اجتماع هذا المجلس هو المذاكرة مع نظار حكومتكم في المسائل المتعلقة بالمالية والأشغال الداخلية . » فبعث فينا ذلك الخطاب روح العصر الجديد ، وأحيا آمال هذه الأمة التي لا تزال راجية

أن تنال شرفها التليد الذى شهدت به التواريخ وأنبأت به الآثار بمساعي الحضرة الخديوية وهمها العلية .

« وإنا لا نألو جهداً فى دقة النظر والعناية بما فيه منفعة الوطن ومصلحة الحكومة قياماً بأداء واجباتنا التى هى فى الحقيقة مقاصد ولى النعم .
« فليحى الخديو المعظم ، وأنجاله الكرام ، ولتحى الحرية تحت ظل رعايته وحمايته ، آمين » .

هذا هو جواب المجلس ، وهو كما ترى لا يحتاج إلى تعليق أو تقرير ، وهو جدير أن تحفظه الأمة والأجيال المتعاقبة وتذكركه على الدوام ، كصفحة مجيدة من صحائف تاريخنا القومى ، وهو لعمري برهان ناطق بوطنية أولئك النواب ومبلغ اضطلاعهم بالأمانة القومية ، وحسبك أن تستروح منه نسيم المبادئ الدستورية والحياة الوطنية ، فانظر إلى ما فيه من دقة النظر والمرمى البعيد فى قول النواب إن تأليف الوزارة المسئولة أمام الأمة هو تأييد لمجلس النواب ، وتتميم له ، فإن هذا المعنى ينطوى على مبدأ المسئولية الوزارية أمام المجلس النيابى ، ذلك المبدأ الذى هو قوام النظام البرلمانى ، ثم تأمل فى مخاطبة النواب للخديو اسماعيل بلفظ (جلالكم) متخطين لقبه الرسمى (صاحب السمو) ، فكأنهم أرادوا أن يجعلوا مصر فى مرتبة الدول المستقلة استقلالاً تاماً ، وعلى رأسها ملك يلقب بصاحب الجلالة ، وهذا يطالعك بروح العظمة الوطنية التى يستلهم منها النواب جوابهم ، وتأمل ما يجيش بصدورهم من الآمال الكبار فى إحياء مجد مصر وعظمتها الخالدة « التى شهدت بها التواريخ وأنبأت بها الآثار » ، ولاحظ تقديمهم منفعة الوطن على مصلحة الحكومة ، وهتافهم للخديو ، ثم هتافهم للحرية ، تجد أن هذا الجواب آية فى الوطنية والبلاغة السياسية .

أعمال المجلس

كانت أعمال المجلس حلقات متصلة من المواقف الحسنة ، قوامها النظر فى المصالح العامة ، والدفاع عن حقوق المجلس ، والاستمسك بالكرامة القومية ، فى أسلوب رائع من رأى الحصيف والمنطق السديد ، وأنا ملخصون أهم هذه الأعمال فيما يلى :

المسائل المالية

١ - وقف محمود بك العطار بجلسة ٥ يناير سنة ١٨٧٩ ، وقال إن أغلب الأعضاء يرغبون أن يفتحوا بعض المسائل للمداولة فيها ، ولكنهم انتظروا ما يرد من الوزارة من البيانات والمشروعات ، فلم يرد للمجلس شيء ، واقترح أن ينحصر المجلس استعجالاً عن ذلك ، فاستقر رأي المجلس على الكتابة للداخلية لسرعة إرسال مشروعات المالية والأشغال الداخلية التي يقتضى النظر فيها ، ولا يخفى أن وزارتي المالية والأشغال كان يتولاهما الوزيران الأوروبيان ، فكان ذلك مدعاة لوقوع التصادم المحتوم بين المجلس والوزارة .

٢ - وقد تلكأت وزارة المالية في إرسال ما يخصها من المسائل ، وتعللت بعدم الانتهاء من تحضيرها ، وأنها مهمة بإتمامها .

أما وزارة الأشغال فقد بادرت بإرسال تقرير مطول عن مشروعاتها العامة التي تعرضها على المجلس ، وطلبت اشتراك المجلس معها في المسائل المتعلقة بها ، « ولا غرو فإن هذا الاشتراك لا بد منه لأجل تأكيد نجاح العمل الذي تشرع فيه » ، ووعد وزير الأشغال (المسيو بلينيير) بالحضور للمفاوضة مع المجلس في شأنها ، وطبع التقرير ووزع على الأعضاء ليتدارسوه قبل المناقشة فيه .

وقد تناقش أعضاء المجلس في مواضع التقرير مناقشات دقيقة دلت على شدة عنايتهم بالمسائل المتعلقة بالمنفعة العامة ، وطلبوا حضور وزير الأشغال فحضر ، وأجاب الأعضاء على المسائل التي طلبوها ، وكان موقفه أقل خشونة من موقف زميله السير ريفرس ويلسن فقد وقف هذا الأخير موقف التحدي للمجلس وتلكأ في إرسال مشروعات وزارته .

٣ - ثم طلب إلى المجلس تسهياً لمهمته أن يتدب بعض الأعضاء ليحضروا إلى الوزارة للاسترشاد بمعلوماتهم وتجاربهم ولكي يتفاوض وإياهم في مسائل مهمة تتعلق بالمالية ، فاستاء الأعضاء من هذا الطلب ، وكبر عليهم صدوره من السير ريفرس ويلسن ، ولكن بعض الأعضاء رأوا الأخذ بالأحوط ^(٢٤) ، ومما قاله محمود بك العطار إن المجلس لا ينحصر رأيه في بعض الأعضاء بل لا بد من المداولة بحضور النواب جميعاً ، ولكن نظراً لأن وزير المالية يطلب بعض الأعضاء للاسترشاد برأيهم ، فلا بأس من انتخاب خمسة لهذا الغرض على أن لا يكون

(٢٤) جريدة (التجارة) - ١٦٤ (١١ يناير سنة ١٨٧٩) .

لهم رأى يبدونه فى أى مسألة إلا بعد أن تعرض على المجلس^(٢٥) ، ولم تفد هذه المجاملة فى تقويم خطة السير ريفرس ويلسن بل استمر يماطل فى عرض مشروعاته .

٤ - فأثار عبد السلام بك المويلحى بجلسة ٢٦ المحرم هذه المسألة ، وطلب من المجلس أن يقرر استعجال حضور هذه المشروعات ووافق المجلس على ذلك .

وعرض محمد أفندى راضى - وهو نائب جرىء كانت له مواقف رائعة كما سيجىء بيانه - أن ينظر المجلس فى مسألة أقساط الضرائب قبل حضور مشروعات المالية فوافق المجلس على هذا الرأى .

وتناقش المجلس طويلا فى أقساط الضرائب فقرر تحديد مواعيد لسدادها تتفق مع مواسم جنى الحاصلات الزراعية .

٥ - ولما تأخر وزير المالية عن إرسال مشروعات وزارته تقدم إنهاء من سبعة عشر نائباً وهم : محمود بك العطار . حنا يوسف . عثمان الهرميل ، أحمد السرسى ، بانخوم لطف الله ، أحمد عبد الصادق ، فضل الزمر ، يوسف رزق ، عبد الشهيد بطرس ، خضر إبراهيم ، حسن عبد الله ، أحمد جاد الله ، محمود عبد الله ، إبراهيم الجيار ، السيد اللوزى ، سليمان الغربى ، محمد فرج .

أعربوا فيه عن استيائهم من تأخير إرسال المشروعات المالية مع مضى عشرين يوماً على افتتاح المجلس ، وأبدوا ملاحظاتهم العامة ، وهى تلخص فى الاعتراض على فداحة الضرائب التى كان الأهالى ينوءون بها ، وما أضيف عليها من الضرائب الجديدة ، كضريبة السدس ، وضريبة الرى (١٠ ٪ من قيمة الأموال) ، والمصلح (الملح) ، وعوائد التنظيم ، والويركو المربوط على أصحاب الحرف ، وتذاكر الشخصية ، وعوائد الدخولية الخ . وطلبوا من المجلس النظر فى تخفيض الضرائب حتى يرتفع الضيق والضنك عن الناس .

فاستقر رأى المجلس على وجوب حضور وزير المالية للمناقشة معه فى هذا الإنهاء ، ولما تأخر الوزير عن الحضور وظهرت نيته فى الامتناع عن مواجهة المجلس ، استقر الرأى على المداولة فى غيبته فى ما عرضه الأعضاء من المشروعات المالية ، وخلاصتها تخفيض الضرائب الفادحة وإلغاء بعضها ، ويؤخذ مما أدلى به الأعضاء من البيان أن مجموع ما كان يدفع من الضرائب الأصلية والمستحدثة عن الفدان بلغ من ٣٥٠ قرش إلى ٥٥٠ قرش فى السنة ، وهذا يدلك

على فداحة الضرائب وما أصاب الأهلى من العنت والإهراق .
وبعد أن نظر المجلس فى هذه المشروعات قرر إرسال صورها إلى وزارة الداخلية حتى إذا ورد رأيها عنها يتداول المجلس فيما يقتضى عمله لراحة الأهلى .

نشاط المجلس

ومن مظاهر النشاط الذى سرى فى جو المجلس أن أعضاءه اقترحوا نقل مكان اجتماعه من القلعة إلى داخل المدينة ، وبدأ هذا النشاط أيضاً فى أن أخذ الأعضاء أرسل يعتذر عن الحضور لمرضه ، فقال محمود بك العطار أن هناك من يدعى المرض لعدم حضوره ، ومن رأيه أن يرسل المجلس للمديرية التابع لها العضو الذى يعتذر بالمرض للكشف عليه طيباً بمعرفة حكيمباشى المديرية ، فوافق المجلس على هذا رأى .

المسألة الدستورية

تقدم إنهاء بجلسة ١٠ صفر سنة ١٢٩٦ من محمود بك العطار وعبد السلام بك المولىحى يتضمن الاعتراض على إغفال مجلس النواب فى المرسوم الصادر فى ٦ يناير سنة ١٨٧٩ الذى يقضى بأن القوانين المتعلقة بالشؤون المالية تصدر بعد تقريرها فى مجلس الوزراء والتصديق عليها من الخديو (وسرد الكلام عن هذا المرسوم ص ١٨٥) ، قال : « ولم نر لمجلس النواب فى هذا الذكر ترو اسماً ولا خبراً ، مع أن سائر ما يختص بالإدارة العمومية من تحصيل أموال وفرض ضرائب ووضع لوائح أو قوانين لذلك ، وما كان من هذا القبيل إنما يقصد به الأهلى لا غير ، وكل ما يقصد به الأهلى لا بد أولاً من عرضه عليهم ورضاهم به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به ، وحيث أنهم أتوا عن أنفسهم نواباً منهم منوطين بالمدافعة عنهم ، والحاماة عن حقوقهم ، والنظر فى شؤونهم بعين المصلحة ، فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالأهلى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه ، وذلك لا يخفى على دولتو رئيس النظار ، وكيف يخفى عليه أن للأمة المصرية نواباً ، وهو يعلم دغوتهم للالتثام ، وقد شهد يوم اجتماع المجلس ، وحضر افتتاحه ، وسمع تلاوة الخطاب الخديوى ، وحضر يوم إجابة الأعضاء على

ذلك الخطاب ، ووقف على مضمون كل من الخطاب وجوابه ، وعلم ما فوض إليهم أمر المذاكرة فيه ، ومن ثم قد أخذنا العجب ، وذهب بنا الأسف كل مذهب ، ولا نشك في أنكم معشر النواب قد أخذكم من العجب والأسف ما أخذنا ، كيف لا ، وإن مثل دولة رئيس مجلس النظار لا يجهل حقوق مجلس النواب ، ومقدار احترامها ، كما لا ينكر أن موضوع الدكرى المحكى عنه هو من حقوق ذلك المجلس المقدسة التي لا يصح انتهاكها ، ولذلك كانت الحضرة الخديوية من عهد تشكيل مجلس النواب لا تبرم غالب الأمور المهمة التي تكون من هذا القبيل إلا بعد أن تعرض على أعضائه ، ولا يقضى بها إلا بعد إقرارهم على وضعها ، مع أن تلك الحضرة هي التي منحت الأمة تشكيل هذا المجلس ، وإذا كانت حقوقه محفوظة في الجملة حيث لم تكن ثم وزارة قائمة على دعائم الحرية مكلفة بأمر الإصلاح ومسئولة عنه ، فكيف تضع تلك الحقوق في عهد تؤمل الأمة فيه نوال كمال حريتها ، وغاية حقوقها ، علماً بأن تلك الوزارة أدري بشأن البرلتو (البرلمان) وأعرف بمقداره ، فهي أبعد من أن تنتهك حرمة ، وبناء على ذلك هانحن نرفع إلى هيئة المجلس أمر هذا الدكرى ملتجئين من حضراتكم أيها النواب النظر فيه لعلنا بأن ما يؤثر في قواد أحدنا لا بد وأن يؤثر في أفئدة الباقين ، وأن ما يجب على أحدنا القيام به وجب على الجميع كذلك ، لأننا جميعاً وكلاء الأمة وأمناؤها المدانون بمراعاة حقوقها والنظر في شؤونها ، ومصالحها ، وبالجملة إن الذي نراه أن لا نغض النظر عن مراعاة واجباتنا المقررة المعلومة ، خصوصاً في هذه المسألة ، التي ليس التساهل والتسامح فيها إلا نوعاً من الإجحاف بحقوق مجلس النواب » (٤٦).

وقد لهجت الألسن بالثناء على هذا البيان ، وقالت عنه جريدة (التجارة) : « إن من تصفح ذلك التقرير علم أن في السويدياء رجالاً سودتهم نفوسهم ، فلا تسام خسفاً ولا تضام عسفاً » (٢٧).

ولما تلى هذا الإنهاء قابله المجلس بالموافقة ، وقرر أن يحضر رئيس النظار للمفاوضة معه في شأنه ، فحضر نوبار باشا بجلسة ١٤ صفر إجابة لطلب المجلس ، « وقدم للمجلس احتراماته الفائقة » ، فشكره المجلس على ذلك ، ثم أدلى ببيان مبهم قصد به التهرب من مواجهة المسألة إذ قال :

(٢٦) نقلا عن مضبطة جلسة ١٠ صفر سنة ١٢٩٦ من مضابط مجلس شورى النواب .

(٢٧) جريدة (التجارة) العدد ١٨٠ (٣ فبراير سنة ١٨٧٩) .

« هذه المسألة إنما هي مسألة أساسية ، ولو كانت من خصائص الداخلية أو المالية أو الحقانية أو الأشغال كان يمكن أن أجاب عنها ، أنا أورقائي ، ولكن أرجو قبول عذري في عدم المجاوبة عنها الآن ، وهذا بالنظر لكونها مسألة أساسية تحتاج للمذاكرة والمشاورة فيها بمجلس النظر ، والعرض عنها للأعتاب السنية ، وبحسب الإرادة التي تصدر يصير الإجراء . ومادام أن أصل التكلم (في هذه المسألة) متعلق بصلاحيات المملكة ، ونحن أيضاً بحسب مرغوب وإرادة ولي النعم كل اجتهادنا مبصروف لما فيه الإصلاح ، فأحب ما علينا اتحاد الأفكار والمخبرة ومبادلة الأفكار مع النواب لأجل التوافق فيما فيه الإصلاح » (٢٨) .

فلم يقتنع المجلس بهذا الجواب المنطوي على التسويف ، وانبرى عبد السلام المويلحي بك يؤيد حقوق المجلس بقوله :

« من حيث إن هذه المسألة أساسية فهذا هو الموجب لكونها من حقوق مجلس النواب ، ونحن نرجو من الحضرة الخديوية ومساعدة مجلس النظر أن مجلس النواب ينظر في هذا الخصوص وما شكله ، لأن من المعلوم أن كل مملكة وكل حكومة تقدمت كان أساسها اشتراك النواب في أمثال ذلك » .

فأجاب نوبار باشا أن جوابه السابق فيه الكفاية .

وقال محمود بك العطار : « إن المرجو هو استحصال المجلس على حقوقه بواسطة العرض للأعتاب الخديوية بعد رؤيتها بمجلس النظر » .

ثم غير نوبار باشا بدهائه مجرى الحديث ، واستطرد إلى القول بأنه مشغول بترتيب المحاكم واختيار أشخاص ذوي عفة وصدق وحرية لإسناد مناصب القضاء إليهم ، وطلب من المجلس مساعدته بالإرشاد عما يكونون متصفين بهذه الصفات ، وقال إنه وإن كان إصلاح المملكة بوضع القوانين لكن المعول عليه الإجراء بمقتضاها وتنفيذها .

وقد تبين من سياسة نوبار باشا أنه لم يقصد إلا كسب الوقت فيما وعد به المجلس من عرض المسألة الدستورية على مجلس النظر .

وازداد الاستياء من سياسة الوزارة ، واتسعت حركة المعارضة ضدها ، داخل المجلس وخارجه ، وعطلت الحكومة جريدتي (التجارة) لأديب إسحق ، و (الوطن) لميخائيل عبد

(٢٨) نقلا عن النص المنشور في جريدة التجارة عدد ١٨٤ (٨ فبراير سنة ١٨٧٩) مع مقارنته بالوارد في مضبطة

السيد خمسة عشرة يوماً لإثارتها الخواطر في كتابتها ، وفي خلال مدة التعطيل وقعت ثورة الضباط التي انتهت بسقوط الوزارة كما سيجيء بيانه .

سياسة الوزارة النوبارية وأثرها في تطور الحركة

تألفت وزارة نوبار باشا الأولى في أغسطس سنة ١٨٧٨ كما تقدم بيانه (ص ٨٣) فتولت الحكم في ظروف مضطربة وجو مكفهر بالغيوم ، وكان لسياستها أثر كبير في تطور الحركة ، إذ لم يكن يخفى عن الأذهان أن لهذه الوزارة طابعاً أجنبياً لا يحبها إلى النفوس ، فقد ألقت بإيعاز من لجنة التحقيق الأوروبية ، وكان الغرض الأول من تأليفها تنفيذ المطالب والاقتراحات التي انتهت إليها للجنة ، ولم يكن نوبار باشا موضع ثقة الأمة وعطفها ، لما اشتهر عنه من التزعة الأوروبية ، وإثاره المصالح الأجنبية على المصالح القومية ، ولما تحققه الناس من أن إسناد رئاسة الوزارة إليه كان نزولاً على رغبة السياسة الإنجليزية والفرنسية ، وزاد في كراهية الناس للوزارة اشتغالها على عضوين أجنبيين لها فيها النفوذ الفعال ، وهما السير ريفرس ويلسن وزير المالية ، والمسيو بلنير وزير الأشغال .

ولم يكن خافياً أن هذين الوزيرين الأجنبيين إنما يمثلان الدول الأوروبية ، وأن نوبار باشا يخضع لإشارتهما ، وأن الوزارة برمتها كان غرضها الأول رعاية مصالح الدائنين الأجانب ولو أدى ذلك إلى الإضرار بمرافق البلاد ، ولم تألف البلاد من قبل أن يتولى الحكم وزراء من الأجانب ، ولئن كانت وزارة نوبار باشا أول نظارة تولت مسئولية الحكم طبقاً للنظام الجديد الوارد في مرسوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ ، إلا أن البلاد اعتادت إسناد مناصب « النظار » من قبل إلى المصريين دون الأجانب ، فتأليف وزارة نوبار ، وفيها وزيران أجنبيان ، وعلى رأسها وزير عرف بتزعة الأوروبية ، كان صدمة لعواطف الأهلين ، هاجت خواطرهم وأقلقت بالهم ، فلا جرم أن سموها « الوزارة الأوروبية » ، وهذه التسمية في ذاتها تشعر بمبلغ فقدانها ثقة المصريين .

وقد استأنفت لجنة التحقيق أعمالها بدعوة من الوزارة لإتمام عملها ، وكان من أعضائها ثلاثة من الوزراء ، وهم ريفرس ويلسن ، ودي بلنير ، ورياض باشا ، وخولت تلك اللجنة سلطة لم تكن لها من قبل ، وهي وضع مشروعات القوانين المالية للبلاد ، وأصدر الخديو مرسوماً

بذلك في ٦ يناير سنة ١٨٧٩^(٢٩) ، وهذا معناه بقاء لجنة التحقيق الأوروبية إلى أجل غير محدود ، وجعلها لجنة دائمة تختص بالتشريع للبلاد ، وفي ذلك من الإفتيات على الحكومة وامتهان كرامة الأمة ما لا يخفى عن الأذهان ، وكان صدور هذا المرسوم موضع اعتراض مجلس شورى النواب كما تقدم بيانه (ص ١٨٢) .

ولم تكن أعمال الوزارة مما يحببها إلى الأهلين ، ويرغبهم في بقائها ، لأنها في الواقع كانت تعمل على حماية مصالح الدائنين ، وقد أقصت الموظفين المصريين عن النفوذ والسلطة ، وعزلت طائفة منهم بحجة الاقتصاد ، وعينت الأجانب في الوظائف الهامة ، وأغدقت عليهم الرواتب الضخمة ، فمن هؤلاء المسيو بلوم باشا Blum الذي جعل وكيلاً لوزارة المالية ، والسنيور بارافلي العضو بصندوق الدين ، وقد جعل مراجعاً عاماً للحسابات مع بقائه في صندوق الدين ، والمستر فترجرالد وقد عين مديراً عاماً لحسابات الحكومة ، والسير أوكلان كولفين مديراً لمصلحة المساحة الخ الخ ، وكان السير ريفرس ويلسن أكثر إمعاناً من زميله في إسناد المناصب إلى الأجانب ولا سيما الإنجليز ، ولم يظهر من هؤلاء الموظفين إخلاص في العمل ، بل كانوا يعتبرون المناصب مغام يستغلونها ، كما كان الأجانب يستغلون اتصا بهم بالخدو من قبل ، وزاد على ذلك إرهاب الوزارة للأهلين في جباية الضرائب ، وما شاع عنها من العزم على زيادة الضرائب على الأتيان العشورية ، فجاء العاصمة في خلال شهر يناير سنة ١٨٧٩ وفود من أعيان الأقاليم يشون شكايهم وشكاية الأهلين عامة من فداة الضرائب والقسوة في جبايتها ، فظهر في الميدان عامل جديد زاد مركز الوزارة حرجاً ، وهو صوت الأعيان والأهين يعالونها بالاستياء والسخط .

تبرم الناس بالوزارة ، لأعمالها المثيرة للخواطر ، الجارحة للكرامة القومية ، وأخذت الدوائر الوطنية تحمل عليها حملات صادقة ، فاشتد تيار السخط عليها ، ولم يكن لها من قوة تعتمد عليها سوى تأييد الحكومتين الإنجليزية والفرنسية ، أي أنها كانت هيئة أجنبية تستمد سلطتها من الخارج وتحكم البلاد بالرغم من شعور أهلها .

وقد استهدفت من ناحية أخرى لغضب الخديو ، لأنه لم يكن يغضى عن تجريده من أملاكه ، وإقصائه عن إدارة شؤون الحكومة ، وهو الذي اعتاد أن يحكم البلاد حكماً مطلقاً خمسة عشر عاماً ونيفاً ، فكان في خاصة نفسه ناقماً على الوزارة راغباً عنها ، ولكنه كان

(٢٩) الوقائع المصرية العدد ٧٩٣ (١٢ يناير سنة ١٨٧٩) .

مضطراً للإذعان نزولاً على حكم الدول الأوروبية ، ولئن كان قد صرح السير ريفرس ويلسن حينما قدم إليه تقرير لجنة التحقيق أنه اعترم إطراح طرائق الحكم القديمة ، وأعلن في أمره الصادر لنوبار أنه عازم على أن يحكم « مع مجلس النظار وبواسطته » ، لكن ميوله إلى الحكم المطلق لم تكن فارقة لحظة ، واحدة ، وإنما اضطرت للتخلي عن هذا الحكم إلى وقت معلوم ، حتى تنهياً له الظروف التي يسترد فيها سلطته القديمة .

وقد ساءه من الوزارة أنها بالغت في غل سلطته بإقصائه عن رئاسة مجلس الوزراء ، وتنحيته عن حضور جلساته ، وكانت الدولتان الإنجليزية والفرنسية تلحان في وجوب تنفيذ هذا الشرط ، بحجة أن حضور الجديو جلسات مجلس النظار وترؤسه له يعطل الإصلاحات التي كانت تبغيها الوزارة ، لأن هذه الإصلاحات ترمى إلى نقض الأعمال والمساوي النسوبة هذا ، ولم يكن إسماعيل ليستطيع صبراً على أن يتجرد من السلطة إلى هذا الحد .

فالرأى العام المصرى من جهة ، والجديو إسماعيل من ناحية أخرى ، كانا من خصوم « الوزارة الأوروبية » ، ولئن اختلفت وجهة نظر كليهما في هذه الخصومة فإن كلا منهما كان يبغي إسقاطها .

تبرم الموظفين

قلنا « الوزارة الأوروبية » جعلت شغلها الشاغل تدبير المال اللازم لأداء أقساط الدائنين الأجانب ، وهو العمل الذى تألفت من أجله ، واهملت ماعدا ذلك من الأعمال الحيوية . وقد تبرم الموظفون الوطنيون عامة بالوزارة ، لأنها كانت تكيل المال جزافاً للموظفين الأجانب وتودى لهم الرواتب الضخمة ، فى حين أنها عزلت طائفة من الموظفين الوطنيين ، وانتقصت من سلطة الباقين منهم فى الحكومة ، فصارت الكلمة العليا للموظفين الأجانب ، وشمخوا بأنوفهم ، وعاملوا الموظفين الوطنيين بغيرسة وكبرياء ، فلا غرو أن نقم هؤلاء على الوزارة وتمنوا سقوطها .

وكان الموظفون يشكون تأخير الحكومة فى أداء مرتباتهم ، وقد تجلى هذا التأخير فى السنوات التى أعقبت الارتباك المالى ، وكان مما اقترحت لجنة التحقيق وجوب دفع راتب كل

شهر للموظفين . مع نصف شهر من الأشهر المتأخرة ، وقد نفذت الوزارة الجديدة هذا الاقتراح بالنسبة لبعض الموظفين في السلك المدني دون ضباط الجيش .

احالة ٢٥٠٠ ضابط على الاستيداع

أهملت الوزارة دفع رواتب الضباط ، ولم تعاملهم كموظفي السلك المدني ، وترجع هذه التفرقة إلى أن الوزارة النوبارية ولجنة التحقيق كانتا لا تشعران بأى عطف نحو الجيش وضباطه ، بل ترهبان جانبهم ، وتريان في القوة الحربية أكبر عقبة تحول دون التدخل الأجنبي في شؤون البلاد ، ويدخل في هذا السياق أن الوزارة عمدت إلى انقاص عدد الجيش ، توفيراً في النفقات بحجة أن الحكومة عاجزة عن الانفاق عليه ، إذ أن معظم إيرادات الحكومة ، خصصت لأداء أقساط الديون ، فرأت تسريح عدد كبير من الجند ، وقررت إحالة ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش دفعة واحدة إلى الاستيداع .

لم يكن الضباط قبل هذا القرار ينالون رواتبهم بانتظام ، إذ كان متأخراً لهم مرتبات عشرين شهراً ، وهذا وحده كان يكفي لتبرمهم واستيائهم ، وبدلاً من أن تنصفهم الوزارة الجديدة جاء قرارها ضربة قاضية على آمالهم ، فلا هم نالوا شيئاً من رواتبهم المتأخرة ، ولا هم بقوا في مناصبهم يؤملون أن تنقدهم الحكومة ما تأخر من رواتبهم ، فلا جرم أن جاء هذا القرار مثيراً لسخطهم ، دافعاً لهم إلى التمرد والثورة .

وجاء تنفيذ القرار بأسلوب يساعد على وقوع التمرد ، ذلك أنه بدلاً من أن ينفذ القرار على الضباط في مراكزهم الموزعة على مختلف عواصم القطر ، فيدع كل منهم سلاحه في ثكته ويعود إلى بلده ، فإن وزير الحربية استدعاهم جميعاً إلى العاصمة ، وأمر أن يسلموا أسلحتهم في ثكنات العباسية أو القلعة ، فاحتشد الضباط المحالون إلى الاستيداع في عاصمة القطر وكلهم ناقدون على الوزارة الجديدة .

كان احتشاد هذا الجمع الكبير من الضباط الناقين في صعيد واحد مما يسهل إشعال جذوة الثورة في نفوسهم ، وقد كان اجتماعهم في وقت عودة الحمل من الحج ، أى في وقت تحتشد فيه الجماهير من كل فج وتعظم الحماسة في نفوس الأهلين .

ثورة الضباط على وزارة نوبار باشا

(١٨ فبراير سنة ١٨٧٩)

اجتمعت هذه العوامل فحركت في نفوس الضباط المفصولين روح التمرد ، واعتزم أكثرهم حماسة أن يقوموا بمظاهرة كبيرة على أبواب وزارة المالية ، بحجة رفع ظلامتهم إلى نوبار باشا والسير ريفرس ويلسن .

ففي يوم الثلاثاء ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ اجتمع نحو ستمائة ضابط برئاسة البكباشي لطيف بك سليم (باشا) ، أحد كبار أساتذة المدرسة الحربية ، وهو ضابط اشتهر بالشجاعة والكفاءة واستقلال الفكر^(٣٠) ، فخطب فيهم خطبة حماسية ، وحثهم على التعاون والشجاعة ، وأوصاهم بالثبات حتى يتألوا مطالبهم ، فغادروا ثكناتهم ، وساروا يجمعهم الحاشد يتبعهم لفيف من طلبة المدرسة الحربية ونحو ألفي جندي قاصدين وزارة المالية .

وقبل أن يصلوا إليها اتصلوا ببعض أعضاء مجلس شورى النواب ، وطلبوا منهم مرافقتهم إلى حيث يقصدون ، وفي هذه الدعوة معنى استصراخ نواب الأمة لتأييدهم في مطالبهم ، وهي فكرة تم عن حسن تدبير للحركة ، لأنها تكسيها صبغة قومية ، على أن الأعضاء رأوا أن لا يرافقوا المتظاهرين ، واكتفى أربعة منهم بالسير في موكب المظاهرة راكبين حميرهم ، فكان هذا العمل اشتراكاً من هيئة المجلس في المظاهرة .

فلما إقترب المتظاهرون من وزارة الخارجية التي كانت على مقربة من المالية لمحوا نوبار باشا خارجاً منها ، راكباً عربته ، فلم يكادوا يبصرونه حتى أحاطوا بالعربة من كل صوب ، وسدوا الطريق أمامها ، فامتعض نوبار من مسلك الضباط ، وأمر سائقه بالسير ، فضرب السائق الجياد بسوطه إيذاناً بالسير ، فانهاه عليه الضباط ضرباً وألقوه عن مقعده ، وهجموا على نوبار باشا وأمسكوا بتلابيبه ، وطرحوه أرضاً واعتدوا عليه بالضرب ، وفي ذلك الحين أقبل السير ريفرس ويلسن قادماً من عند الخديو قاصداً وزارة المالية ، فشاهد المظاهرة في إبان شدتها ، وتبين نوبار باشا وهو في أيدي الثوار ، فأقبل لنجدته ، وضرب المتظاهرين بعصاه ، فلم يكن منهم إلا أن هجموا عليه وأحاطوا به ، وشدوه من لحيته ، وأدخلوه هو ونوبار باشا إلى سراي

(٣٠) هو من أكبر نصراء المرحوم مصطفى كامل باشا في الحركة الوطنية الحديثة كما سنين ذلك في موضعه ، وهو والد

صديقنا الوطني الكبير (المرحوم) قزاد بك سليم (باشا) .

الوزارة ، واقتحم الضباط أبواب الوزارة ، واحتلوا غرفها وقاعاتها ، وحبسوا نوبار باشا ورياض باشا والسير ريفرس ويلسن في إحدى غرف الدور الأعلى ، وصار الموظفون الأجانب الذين بالوزارة تحت رحمة الثوار .

فلما اشتدت الحال وترامى نبأ ما حدث إلى قناصل الدول ذهب المستر (اللورد) فيفيان Vivian قنصل إنجلترا العام توتاً إلى ساري عابدين ، حيث قابل الخديو ، وأنهى إليه نبأ الهيجان وطلب إليه التدخل .

فابتهج إسماعيل في سريرة نفسه من هذا الطلب ، لأن فيه معنى الالتجاء إلى سلطته لإنقاذ الوزارة ، وإعادة الأمن إلى نصابه ، وفي ذلك اعتراف من القناصل بأن لا سبيل إلى ضبط الأمن من غير تدخل الخديو ، وهذا ما كان يرغبه إسماعيل ، إذ بذلك لا تستطيع الدول ولا الوزارة الأوروبية أن تنحيه عن الحكم ، وفي هذه الحالة يمكنه أن يملئ شروطه على الدول ، ويطلب أن تعيد إليه جزءاً من سلطانه المطلق ، ليضمن لهم أرواح الأجانب ومصالحهم .

بادر إسماعيل إذن إلى إجابة طلب القنصل الإنجليزي ، وركب عربته يصحبه القنصل ، وذهب إلى موطن الهياج بوزارة المالية ، فلما شاهده المتظاهرون استشعروا الهبة التي له في النفوس ، وكانت هذه الهبة من أخص مزايده ، فهتفوا له وأفسحوا له الطريق ، واحتشدوا في الشوارع المجاورة للوزارة ، ثم مالبتوا أن عاودتهم روح الهياج والتمرد ، فأقبلوا إلى حيث كان الخديو وأحاطوا به ، فطيب الخديو خاطرهم ، وطلب إليهم الاعتماد عليه في أداء رواتبهم ، فسكنت ثائرة معظم الضباط ، احتراماً لشخص الخديو ، ولكن فريقاً منهم استمروا في صخبهم وضجيجهم ، واقترب واحد منهم من الخديو يريد أن يمسكه من ذراعه ، فأجفل منه إسماعيل باشا ، وأمر الحرس أن يفرقوا المجتمعين بالسلاح ، فشهز الحرس سلاحهم ، وعندئذ دوت طلقة رصاصة ، لم يعرف مصدرها ، وأطلق الجنود النار ، ولكن في الهواء ، فلم يصب أحد من المتظاهرين بسوء ، وجرح بعضهم ، كما جرح التشريفاتي الخديوي وهو إلى جانب مولاه إذ أصابته ضربة سيف من أحد الضباط ، ومن ثم تفرق المتظاهرون وأخلوا طريق الوزارة ، وأطلق سراح الوزراء المحبوسين ، وأمر الخديو بحراستهم إلى منازلهم ، وانتهت المظاهرة بسلام ، وعاد الخديو إلى سراي عابدين .

البلاغ الرسمي عن ثورة الضباط

وهذا ما نشرته « الوقائع المصرية » عن ثورة الضباط العدد ٧٩٩ الصادر في يوم الأحد ٢٣ فبراير سنة ١٨٧٩ :

« في يوم الثلاثاء الماضي قد ورد نحو الخمسمائة أو الستائة من الضباط الصغيرة (كذا) الذي انفصلوا من الخدمات العسكرية بحسب الترتيبات الجديدة والتنقيحات التي أجريت الآن في نظارة الجهادية . وانتشروا بالدواوين للمطالبة بما هيأ لهم المتأخرة لهم في خزانة الحكومة ، وما زالوا مصرين على صرفها وتسليمها إليهم من حضرات النظار ، وحيث أنه في ذلك الوقت لم يوجد بمخزينة المالية النقود الكافية لطلبهم ، وأجبيوا من طرفهم بمساعدتهم ، ومع ذلك لم يتنازلوا عن هذا الطلب ولم يرجعوا عنه ، شرفت الحضرة الفخيمة الخديوية ديوان المالية في هذا اليوم لدفع هذه المسألة المهمة ، وتسكينها على أحسن حال قبل تجسيمها ، فألقت تلك الحضرة على هؤلاء الضباط كلمات حكيمة وعظيمة ونصائح مؤثرة ، وفي أثناء ذلك حضرت هناك العساكر أيضا ففرق الضباط في الحال وتوجه كل إلى محله .. »

سقوط وزارة نوبار باشا

(١٩ فبراير سنة ١٨٧٩)

لم يكن للخديوي يد في تدبير ثورة الضباط خلافا لما زعمه بعض الكتاب والمؤلفين ، وقد اعترف اللورد كرومر الذي كان شاهداً عياناً لهذه الحوادث بأن هذا الزعم لا يقوم على أساس ولا يزيد عن الظن والتخمين ، ويرجح في كتابه « مصر الحديثة » أن ما أبداه إسماعيل من القلق حين سمع بخروج الضباط عن الحد كان طبيعياً صحيحاً ، وقال إن الخديو ذاته كان في خطر كبير حين واجه الضباط الثائرين ، وأمرهم بالكف عن الهياج .

فالثورة إذن كانت طبيعية ، أدى إليها سخط الضباط والرأي العام على وزارة نوبار ، ولكن الخديو قد استغل وقوعها وأراد أن يغتنمها فرصة ليتخلص من نوبار باشا من جهة ، ويسترجع السلطة التي فقدتها في عهد تلك الوزارة ، فصارح قناصل الدول أنه لا يكون مسئولا عن الأمن العام ما لم يعدل مركزه وتعاد إليه السلطة التي من حقوقه ، ففي صبيحة

١٩ فبراير اجتمع كل من المستر فيفيان قنصل إنجلترا ، والمسيو جودو Godeaux قنصل فرنسا ، ونوبار باشا ، والسير ريفرس ويلسن ، والمسيو دى بلينيير الوزيرين الأوروبيين في وزارة نوبار ، والسير ايفلنج بارنج (اللورد كرومر) العضو الإنجليزي في صندوق الدين وفي لجنة التحقيق ، وكان اجتماعهم في بيت فيفيان ، وتداولوا في الموقف السياسي ، فقال اللورد فيفيان إن الخديو أنهى إلى القناصل أنه لابد من أن يتغير مركزه وتعاد إليه سلطته ، فتقرر في هذا الاجتماع أن يطلب من الخديو بيان التغيير الذي يريده ، فقصد المجتمعون إلى سراى عابدين لمقابلته ، فانتظر نوبار وريفرس ويلسن ودى بلينيير وبارنج في إحدى غرف الدور الأول ، وصعد اللورد فيفيان والمسيو جودو وكيلا إنجلترا وفرنسا السياسيان إلى الطابق الثاني حيث قابلا الخديو ، ثم عادا وأبلغا المجتمعين ما أنباه إليهما في حديثه ، وهو أنه لا يعد مسئولا عن الأمن إلا إذا خرج نوبار من الوزارة ونال الخديو حقه من السلطة في حكومة بلاده ، فسئل نوبار وقتئذ هل هو يضمن استتباب الأمن إذا أصر القنصلان على بقاءه في الوزارة ، فأجاب أنه لا يضمن ذلك ، فلم يجد القنصلان بداً من التخلي عن نوبار ، فقدم استقالته ، ورجا من القنصلين أن يرفعاها إلى الخديو ، وأن يطلبوا له كفالة حياته في مصر ، فقبل الخديو هذا الرجاء ، على شرط أن لا يعود نوبار إلى الدسائس أو التدخل في الأمور السياسية . وقد رضى القنصلان باستقالة نوبار ، على شرط أن يبقى الوزيران الأجنيان في مناصبهما ، فقبل الخديو هذا الشرط ، ولكنه طلب إقصاء رياض باشا من الوزارة الجديدة ، قائلاً للقنصلين أنه استهدف لغضب الشعب مثل نوبار ، وأنه لا يضمن حياته إذا دخل الوزارة الجديدة ، وكان إسماعيل يحقد على رياض لاشتراكه مع لجنة التحقيق الأوروبية وانصوائه تحت لواء ريفرس ويلسن ، ولكن القنصلين أصرا على بقاءه .

وبعد أن استقالت وزارة نوبار ذهب الأمير حسن باشا بصفته القائد العام للجيش (السردار) إلى القنصلية الإنجليزية العامة واعتذر للمستر فيفيان والسير ريفرس ويلسن ، عما وقع من الضباط يوم ١٨ فبراير ، فقبلا الاعتذار ، ثم اقترضت الحكومة ٤٠٠ ألف جنيه من بيت روتشلد دفعت منها متأخرات الضباط .

ونظر المجلس العسكرى في أمر الضباط الذين اشتركوا في الثورة ، وفي مقدمتهم لطيف بك سليم وسعيد بك نصر ، ف قضى ببراءتهم ، ولم يعاقب أحد من الثائرين .

وزارة توفيق باشا

(١٠ مارس سنة ١٨٧٩)

وطلب الخديو أن يتولى بنفسه رئاسة الوزارة الجديدة ، ولكن القنصلين عارضوا في هذا الطلب ، فعرض إسنادها إلى نجله الأمير محمد توفيق باشا ، فلم يعارضوا في ذلك ، وطلب إسماعيل أن يكون له حق رئاسة جلسات مجلس النظار ، فعارضاه في هذا الطلب ، وكانت حجتها أن رأسته تضعف استقلال الوزارة في العمل ، وأن مرسوم إنشاء مجلس النظار الصادر في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ يجعل رئاسة جلساته من حق رئيس النظار ، فاضطر الخديو إلى العدول عن إصراره ، وكانت الدولتان الإنجليزية والفرنسية تبغيان دخول نوبار عضواً في الوزارة الجديدة لأطمئنائهما إليه وثقته بولائه لهما ، ولكن إسماعيل عارض في ذلك وصارح القنصلين بأن دخول نوبار الوزارة فيه إذلال لذاته ، كما أنه يفضي إلى إثارة خواطر الأمة على الوزارة ، فعدلت الدولتان عن تمسكها بنوبار ، ولكنها اشترطا أن يكون للوزيرين الأوروبيين حق (الفيتو) أى وقف كل قرار يصدر من مجلس النظار إذا لم يوافقا عليه ، ولم تعدل الدولتان عن تمسكها بنوبار إلا بعد أن قبل الخديو هذا الشرط .

وانتهت المفاوضة بين إسماعيل والدولتين بإعلان الخديو يوم ٩ مارس قبول مطالبهما التي تم الاتفاق عليها وهي :

أولاً : يحدد الخديو عزمه على اتباع قرارات الحكومتين الفرنسية والإنجليزية والعمل بمرسوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ ما عدا التعديلات التي تم الاتفاق عليها (أى حق الفيتو للوزيرين الأوروبيين) .

ثانياً : لا يحضر الخديو البتة جلسات مجلس النظار ومداولاته ، ويحتفظ لنفسه فقط بحق استدعاء الوزراء مجتمعين أو منفردين ليطلعهم على آرائه في المسائل التي يطلب منه إقرارها ، أو المسائل التي يرى لزوم عرضها على مجلس النظار .

ثالثاً : تسند رئاسة مجلس النظار إلى الأمير محمد توفيق باشا .

رابعاً : للوزيرين الأوروبيين في مجلس النظار الحق في وقف كل عمل لا يوافقان عليه ، ويشترط في هذه الحالة أن يصدر هذا الوقف من الوزيرين الإثنين معاً .

خامساً : يشكر الخديو الحكومتين على إحلالهما ملاحظاته محل الاعتبار (! !) وعدم

إصرارهما على دخول نوبار باشا الوزارة .

سادساً : يقدر الخديو المسئولية التي يحتملها بهذه التسوية ، ويؤكد لحكومتي فرنسا وإنجلترا أنه سيبدل كل جهوده لتنفيذها ، وأنه سيمد الوزارة في كل الظروف بتمام معاونته الصادقة للمحافظة على الأمن العام وإنفاذ النظام الجديد^(٣١) .

وبعد هذا الإعلان صدر أمر الخديو في ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ (١٧ ربيع الأول سنة ١٢٩٦) بإستناد رئاسة الوزارة إلى الأمير محمد توفيق باشا ، وأرسل إليه كتاباً يتضمن خلاصة القواعد التي اتفق عليها مع الدولتين ، وإليك نصه^(٣٢) نثبته هنا لأنه يعد مكملاً ومعدلاً للأمر الصادر في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ .

« لما أخلت على عهدة أمانتكم رئاسة المجلس وتشكيل هيئة النظر رأيت من المهم أن استجلب دقتكم فيما يجب من إتحاد الرأي بين أعضاء ذلك المجلس وأن أحيطكم علماً بما في أفكارى مما يتعلق بإدارة المصالح طبقاً لما هو مدون في الذكرى المؤرخ ٢٨ أغسطس الماضى الذى هو أساس لهيئة الحكومة ، فإني عند تأسيس هذا الترتيب الجديد لم يخطر بفقري قط الانفراد عن وكلائي بل غاية قصدى أن أكون معهم باتحاد تام .

« ولذلك ينبغى أنه قبل أن يقر مجلس النظر على أى قرار مما يتعلق باللوائح أو الأحكام التى تقدم من أحد النظر أن تعرض على مع أسانيدھا من طرف الناظر الذى هى من خصائصه حتى يمكننى أن أحيط المجلس علماً بجميع ما يترأى لى ، من التدابير اللازمة لاتخاذها . وعلى كلا الأمرين يجتمع المجلس عند صدور إرادتى بذلك لينظر بالاتحاد معى فى المسائل التى عرضت على ، إنما لأجل التأمين على تمام استقلال المجلس لأحضر فيه وقت المذاكرة .

« وحيث أن النظر الوطنيين خائرون الأغلبية فى المجلس فلأجل التعادل هناك يكون للنظر الأوروبيين تأثير فى رأى ولهم الحق فى المعارضة وعدم قبولهم رأى الأغلبية . .

« هذا وفى أمل أن ذلك الترتيب الجديد يكون كافياً فى سير المصالح وظهور الفائدة للقطر المصرى ، وليكن مجلس النظر مطمئناً فى سائر الأحوال على مساعدتى له وحسن مساعى ، كما أنى مطمئن على اجتهاده وحسن مساعيه فيما فيه نفع العموم .

« عابدين بمصر فى ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ إسماعيل »

(٣١) الكتاب الأصفر الفرنسى (مجموعة الوثائق الدبلوماسية عن سنة ١٨٧٨ - ١٨٧٩ ص ١٦٦) .

(٣٢) عن « الوقائع المصرية » العدد ٨٠٣ الصادر فى ٢٦ مارس سنة ١٨٧٩ .

وقضى الأمير محمد توفيق باشا وقتاً طويلاً يتخير الوزراء بسبب تدخل الوزيرين الأوروبيين إلى أن تم تأليف الوزارة في ٢٢ مارس ، وأعضاؤها هم :

الأمير محمد توفيق باشا للرئاسة ، رياض باشا للداخلية والحقانية ، السير ريفرس ويلسن للمالية ، المسيو دى بلينير للأشغال العمومية ، على باشا مبارك للمعارف والأوقاف . ذو الفقار باشا للخارجية ، أفلاطون باشا للحرية .

وغنى عن البيان أن تأليف وزارة توفيق باشا على أساس الشروط التي قبلها الحديوي يعد خسراناً سياسياً أصاب البلاد ، لأن تحويل الوزيرين الأوروبيين حق (الفيتو) معناه إلغاء سلطة مجلس النظار وجعل الوزيرين الأجنيين صاحبي الأمر والنهي في إدارة شؤون الحكومة ، فلا غرو أن قوبلت هذه التسوية بالاستياء العام .

مجلس شورى النواب ووزارة توفيق باشا

استمر مجلس شورى النواب يعقد جلساته بعد إستقالة نوبار باشا ، ولم يقف جلساته تنظراً لتأليف الوزارة الجديدة ، بل أخذ يجتمع ويتداول فيما لديه من الأعمال ، وتلك سنة حسنة أراد المجلس أن يبرهن بها على إستقلاله عن الوزارة .

وفي خلال اشتغال توفيق باشا بتأليف الوزارة اجتمع المجلس بجلسته ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٩٦ (١٩ مارس سنة ١٨٧٩) ، وتقدم « إنهاء » بتوقيع تسعة وأربعين نائباً ، خلاصته أنهم قدموا المقترحات المالية الخاصة بتخفيض الضرائب والأتاوات الفادحة التي ينوء بها الأهالي ، وأن المجلس طلب حضور ناظر المالية فلم يحضر ، وأرسل المجلس ملاحظاته في هذا الصدد إلى الداخلية . فلم ترد منها إجابة ، وكرروا طلب الجواب وأبانوا عن شكوى الأهالي من فداحة الضرائب ، واستقر رأى المجلس على الموافقة على هذا الإنهاء وقرر إرسال صورته للداخلية .

ورأى الوزيران الأوروبيان في بقاء المجلس واحتمال وقوفه تجاه الوزارة الجديدة موقف المعارضة ما يخلق العقبات في طريقها ، وكانا يبغيان أن تكون لهما الكلمة العليا في إدارة شؤون الحكومة ، من غير رقيب ولا حسيب ، فاعتزما التخلص من هيئة المجلس ، ووافقها رياض

باشا على عزمهما لما عرف عنه من الميول الاستبدادية ، فاستقر رأى الوزارة على فض المجلس بحجة أن مدة نيابته وهى ثلاث سنوات قد انتهت ، واستصدرت من الخديو المرسوم المؤذن بانتهاء مدته وانقضاؤه ، وعهدت إلى رياض باشا وزير الداخلية أن يتوجه إلى المجلس لإبلاغ الأعضاء المرسوم المذكور وانفاذه ، وقد علم الأعضاء بما بيته الوزارة ، فاعتزموا عدم الإذعان لإرادتها ، ووقفوا تجاهها موقفا مشرفاً يعد من المواقف الرائعة فى حياة مصر الدستورية .

جلسة تاريخية

وإنا ذا كرون هنا تفصيل ما جرى فى الجلسة التاريخية التى تلى فيها أمر الانقضاخ كما ورد فى مضبطة المجلس .

اجتمع الأعضاء بجلسة الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦ (٢٧ مارس سنة ١٨٧٩) وحضر رياض باشا وأمر بتلاوة أمر الانقضاخ وهذا نصه :

« بالنظر للبند التاسع من لائحة مجلس شورى النواب المحدد به ثلاث سنوات للمأمورية ذلك المجلس ، وبالنظر لمضى هذه المدة ، وأنه عرض لنا عن ذلك من رئيس مجلس النظار ، أصدرنا أمرنا هذا ، وهو أن مجلس شورى النواب قد انقض ، وسعادة ناظر الداخلية موكل بإجراء هذا الذكرى » .

وقال رياض باشا مخاطباً الأعضاء :

— أبدى لكم كامل الشكر والثناء على ما أبدىتموه من الهمم والمساعى الخيرية التى من اللزوم أن نكون جميعاً فيها كرجل واحد ، إنما حصلت بعض معذريات أوجبت التأخير ، ولكن لا بد من الحصول على إتمامها ، والمسائل التى أوضحتم عنها صار تلقيها بغاية الاعتبار ، وإن شاء الله متى كانت القلوب متجهة إلى حسن النية فستكون الحالة حسنة خيرية ، وفى الاجتماع الجديد لا بد من النظر فيما فيه المصلحة .

وعندئذ نهض النائب الجرى محمد أفندى راضى (بك) وقال :

— مما طلب المجلس لأجله النظر فى مسائل مالية ، وقد مضى ثلاثة شهور وما كانت ترد ، والملاحظات التى تحزرت عن الأقلام التى تراءت للمجلس أرسلت للداخلية للنظر فيها بمجلس النظار ، ولداعى مضى تلك المدة وعدة ورود شىء ودخول وقت الصيف طلبنا أجازة مدة

شهرين لرؤية أشغالنا ونعود ، والأمر الصادر الآن ذكر فيه أن المجلس انتهت مدته ، مع أنها ما أنهت ، وحاصل الأمر أنه لا بد من عودة المجلس بعد المدة التي قررها لأجل رؤية تلك المسائل والملحوظات .

عبد السلام بك المويلحي : إن المجلس طالب عدم قطع أمر في أي شيء كان إلا باشتراكه ، وإن بعض الأعضاء يقول إنه إذا كان لا يحصل ذلك ربما يحصل من الأهالي أمور لا يصح وقوعها ، ويكون مجلس النظار تحت المسؤولية .

رياض باشا : ما قلتموه الآن هو بخلاف لائحة المجلس والجاري لحد تاريخه ولا يمكنني أن أجاب عن ذلك منفرداً ، وإنما ينظر فيه في مجلس النظار ، والمأمول أن لا يحصل شيء من الأهالي مما يكدر الراحة .

عبد السلام بك المويلحي : المجلس لائحته تقضى أن ينظر في المنافع الداخلية ، والتصورات التي تراها الحكومة أنها من خصائصه ، ينظر فيها ويعطى قرارات تعرض للحضرة الخديوية .

رياض باشا : الخروج عن اللائحة والقانون الموجودين لا يمكن إلا بأمر ثاني .
محمد أفندي راضي : اللائحة تعطى للمجلس حقوقه .

رياض باشا : ننظر في اللائحة والإجراءات السابقة ، وإذا كان مجلس النظار أوسعادة ولي النعم يبدى شيئاً آخر ، فهذا يجري ما يلزم عنه ، وأما بحيث فإنه لأجل أداء الشكر والتوجه لطرف الاعتبار كما هو جاري حسب المعتاد عند انفضاض المجلس .
محمد أفندي راضي : شكر سعادتك مقبول ، لكن لا يمكن صرف المجلس إلا إذا نظر في المسائل التي حرر عنها ، وفي الميزانية .

بديني أفندي الشريعي : الأمر الصادر يقضى ببلغو المجلس فالمقصود إثبات مجلس الشورى ، ولا تحصل إجراءات ولا قوانين من مجلس النظار إلا بالاشتراك مع مجلس النواب .
رياض باشا : الأمر يقضى بانفضاض المجلس لانقضاء مدته ، وبالضرورة عند الانتخاب الجديد لا بد أنه سيحصل من نفس أهالي الوطن لا من خلافهم .

اباخوم أفندي لطف الله : توجهنا إلى البلاد بهذه الكيفية ربما يحصل منه زعزعة للأهالي بناء على الوعد السابق حصوله من حضرات النظار بسبب التشكي الذي حصل من الأهالي ، وقيل لهم بأن نوابكم موجودون للنظر في راحتكم ، والأولى أن ننظر المسائل التي قررناها

وميزانية المالية بمعنى أن المجلس يحضر بعد ١٥ بشنس وبعد نهو مدة المجلس لا مانع من تجديد الانتخاب .

رياض باشا : الصعوبات الحاصلة لا تنتهى فى ظرف شهر أو شهرين ، وتلك الصعوبات لا يمكن إبدائها والحالة هذه ، والمسائل التى قرّر المجلس عنها جارى النظر فيها ، والمجلس بواقع لائحته قد انقضت مدة الثلاث سنوات التى يلزم الانتخاب بعدها .

محمد أفندى راضى : المجلس لم يزل باقيا له مدة ، وقد سمع المجلس أن سعادتكم أحضرت أصحاب الجرائيل (الصحف) وأكدت عليهم بعدم درج شئ فى جرائيلهم مما يتعلق بمجلس الشورى والأجانب ، وهذا فيه نوع تضيق .

عبد السلام بك المويلحى : من ضمن ما قلتموه سعادتكم أن أهالى مصر همج ، وأنه لا يوجد فيهم عشرة يفهمون ما يقال فى الجرائيل ، مع أنه لا يصح نسبة جميع أهالى الوطن لهذه الحالة التى لا تليق .

رياض باشا : الذى صار التنبيه على كتاب الجرائيل عنه هو ما يتعلق بالأمر الذى لا تعلق لها بالقطر . مثل أن الجور نالجي يكتب عبارة من الوارد بجرائيل الأوروبايين ، مع أن أولئك لهم قواعد وقوانين غير قواعد وقوانين بلدنا ، ويدرجون أشياء مما يחדش من أذهان العامة الذين لا يمكنهم التصرف فى مثل هذه الأفكار .

محمد أفندى راضى : لا نتوجه لطرف الأعتاب إلا إذا أعطى لمجلس النواب حقوقه وأجيب طلباته ، وما نحن منتظرون الجواب الذى يرد عن ذلك .

قرار المجلس

استقر رأى المجلس على ذلك وعلى أن هذا المحضر ترسل منه صورة للمعية السنية وصورة لمجلس النظار .

عريضة النواب إل الحديو

وفى ٦ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦ (٢٩ مارس سنة ١٨٧٩) قدم النواب عريضة إلى الحديو

وقع عليها جميع الأعضاء الحاضرين بالقاهرة ، اعترضوا فيها على مسلك الوزارة في امتثالها حقوق المجلس ، واحتجوا على المشروع المالى الذى أعدته وقتئذ وكانت تنوى إصداره والذى تعلن فيه أن الحكومة المصرية فى حالة إفلاس وتلغى فيه قانون المقابلة ، وأعلنوا عزيمتهم على رفض هذا المشروع وامتناعهم عن تنفيذه ، وطلبوا من الحديو أن يتلافى الحالة التى نشأت عن امتثال حقوق المجلس .

الجمعية الوطنية

تبين من مسلك وزارة توفيق باشا أن الوزيرين الأوروبيين هما صاحب الكلمة النافذة فيها وفى شؤون الحكومة جمعاء ، واشتد التدخل الأجنبى ، وفقدت الوزارة الصبغة القومية ، ودل موقفها تجاه مجلس شورى النواب على أنها تريد التخلص منه ، فإن مبادرتها إلى فض المجلس ، ولما يمض عليها خمسة أيام ، وإصرارها على إنهاء مدته مع عدم تحديد موعد لإجراء انتخابات جديدة ، كل ذلك يدل على أنها تبغى حكم البلاد بمطلق إرادتها ، أى بإرادة المستعمرين ، ولم يكن غائبا عن الأذهان موقف السير ريفرس ويلسن وزير المالية فى عهد وزارة نوبار باشا وامتناعه عن الحضور إلى المجلس رغم استدعائه أكثر من مرة ، فإن هذا الموقف ينم على ما يحمله من الزرابة بالهيئة النيابية .

أما دى بلنير فهو وإن كان أقل غطرسة من زميله لكنه كان ينفذ اللوائح التى وضعها قبل أن يتعرف رأى المجلس فيها ، ثم ان تخويل الوزيرين الأوروبيين حق (الفيتو) جاء ضعفاً على إباله ، لأنه بمثابة إلغاء لسلطة مجلس النظار وتخويل الوزيرين الأجنيين سلطة دكتاتورية . وجاء الأمر بفض المجلس مما لا يدع مجالاً للشك فى نيات السوء التى يضمورها الوزيران الأجنيان الإنجليزى والفرنسى ، وتجاربهما فيها الوزارة ، وزاد الحالة سوءاً أن السير ريفرس ويلسن وضع لائحة تتضمن مشروع تسوية مالية تجعل مصر فى حالة عجز عن سداد ديونها ، ومعنى ذلك وضعها على الدوام تحت الرقابة الأجنبية وبقاء الوزارة الأوروبية تتولى الحكم على ما تهوى وتريد .

فلا جرم أن ثارت الخواطر واضطربت الأفكار ، وقويت فى النفوس فكرة الكرامة القومية ، واتجه شعور الناس إلى التخلص من التدخل الأجنبى وإسقاط الوزارة « الأوروبية »

التي انتهت كرامة الأمة وانتهكت حقوقها ومصالحها ، فأخذ قادة الأفكار من النواب والعلماء والتجار ، يكتثرون الاجتماع ويتشاورون في إنقاذ البلاد من الهاوية التي تردت فيها . واجتمع الأحرار في دار السيد علي البكري نقيب الأشراف^(٣٣) ، ثم في منزل إسماعيل راغب باشا وزير المالية السابق ورئيس مجلس شورى النواب في أول نشأته^(٣٤) ، وعقدوا بداره « جمعية وطنية »^(٣٥) تضم صفوة كبراء البلاد وأصحاب الرأي فيها ، واتفقوا على وضع بيان بما استقر عليه رأيهم ، ويتضمن مشروع تسوية مالية يعارضون به مشروع ريفرس ويلسن^(٣٦) ، ويجعل البلاد قادرة بضمانهم وكفالتهم على وفاء ديونها ، والمطالبة بتأليف وزارة وطنية مستقلة وإقصاء الوزيرين الأوروبيين عنها ، وتقرير نظام دستوري للبلاد قوامه جعل الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب .

المطالبة بتأليف وزارة وطنية

وظهرت في الأفق السياسي شخصية محمد شريف باشا كزعيم سياسي اتجهت إليه الأفكار لتأليف وزارة وطنية ، مهمتها إنقاذ البلاد من التدخل الأوروبي ، ومن الحكم الاستبدادي ، وتقرير نظام دستوري يحقق أمانها ، وبدا على شريف باشا أنه قادر على أن يقوم بالدور الذي قام به مدحت باشا في تركيا ، وهو إعلان القانون الأساسي المقرر للدستور في السلطنة العثمانية .

(٣٣) ترجم له العلامة على باشا مبارك في المخطوط ج ٣ ص ١٢٤ فذكر أنه ولد سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م) ورث في حجر أبيه السيد محمد البكري ، وحضر دروس العلم على جهابذة مشايخ عصره كالشيخ الباجوري والسيد الدهموري والشيخ إبراهيم السقاء ، قال : وكان ذا فكرة وقادة وقريحة نقادة جليل المقدار ، متشراً صيته في جميع الأقطار ، حسن السمعة كثير الصمت ، إذا وعد وفى ، يبذل المعروف والجاء ابتغاء مرضاة الله ، يقول الفصل والصدق ، وينطق ويحكم بالحق ، ويؤثر بحالسة ذوى الفضل على من سواهم ، مع نفس زكية وأعراق سنية ، وشيم شريفة علوية وهم باذخة هاشمية ، تقلد الخلافة البكرية بما يتبعها وتقابة الأشراف سنة ١٢٧١ بعد وفاة والده ، وكانت وفاته ليلة الجمعة السابع عشر من ذى القعدة سنة ١٢٩١ (٢١ أكتوبر سنة ١٨٨٠) .

(٣٤) هو الذى تولى رئاسة الوزارة في يونيو سنة ١٨٨٢ .

(٣٥) كذلك أسمها الصحف وقتئذ ، راجع جريدة (التجارة) عدد ٢١٤ (٧ أبريل سنة ١٨٧٩) ، وسميت أيضاً (الحزب الوطنى) راجع جريدة التجارة عدد ٢١٦ .

(٣٦) جاء في مذكرة شريف باشا المؤرخة ١٠ مايو سنة ١٨٧٩ والمنشورة في الكتاب الأصفر ص ٣٠٢ أن مشروع اللائحة الوطنية وضعته لجنة مؤلفة من سبعة نواب بالاشتراك مع إسماعيل راغب باشا .

وكان موقف الإيالة الذي وقفه حيال لجنة التحقيق ، حين كان وزير اللحقانية والخارجية ، ورفضه المثل أمامها ، وإيثاره الاستقالة احتفاظاً بكرامته ، كل ذلك قد جعله مناط آمال الوطنيين في مساعيهم القومية .

وكان معروفاً عنه أنه يكره التدخل الأوروبي ، وفي الوقت نفسه لا يقر استبداد الخديو ، وقد روى عنه أنه قال في هذا الصدد : « إذا كان مقدراً لاستبداد الخديو أن يبقى فإني لا أشترك في الحملة ضد الوزارة الأوروبية » .

فبدأ شريف باشا كان إذن محاربة التدخل الأوروبي ، وفي الوقت نفسه إيجاد نظام دستوري يحول دون استبداد الخديو .

اللائحة الوطنية

في اليوم العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٩٦ (٢ أبريل سنة ١٨٧٩) اجتمع الأحرار من الأعيان والنواب والعلماء والمأمورين بدار إسماعيل راغب باشا ، وكان في مقدمة الحاضرين شريف باشا وشاهين باشا وحسن باشا راسم وجعفر باشا والسيد علي البكري والشيخ الخلفاوي والشيخ العدوي ، واتفقوا على وضع لائحة ضمنوها مطالبهم وسميت « اللائحة الوطنية » وهي تتضمن :

أولاً : مشروع تسوية مالية عارضوا به مشروع ريفرس ويلسن ، ويقوم على أساس أن إيرادات الحكومة تكفي مصروفاتها بما فيها أقساط الديون العامة ، بعكس مشروع الوزارة الذي كان يعد البلاد في حالة إفلاس .

ثانياً : المطالبة بتعديل نظام مجلس شوري النواب وتحويله السلطة المعترف بها للمجالس النيابية في أوروبا وتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمامه .
وقد وقع المجتمعون على عريضة ضم إليها مشروع التسوية المالية ، واتفقوا على تقديمها إلى الخديو .

وهاك نص العريضة التي قدم بها مشروع الميزانية في اللائحة الوطنية :
« صار إطلاعنا على المشروع المقدم من سعادة ناظر المالية (ريفرس ولسن) ووجدناه لا يوافق لوطننا ، فلأجل سد الخلل وتدارك الأمر قبل فواته ، فن بعد المذاكرة بيننا ، رأينا

وجوباً أن نقدم مشروعاً حافظاً لحقوق الأمة داخلياً وخارجاً . مع احترام الشرائع المقدسة . والقوانين المؤسسة . وها هو المشروع المذكور مرفق مع هذا . ولكن هذا المشروع ما صار إعماله وتحريره إلا بعد حصول علم اليقين لدينا بأن إيرادات بر مصر هي كافية لسداد الديون المطلوبة من الحكومة حسباً هو موضح بالمشروع المذكور . فلأجل ذلك نحن عن أنفسنا ونيابة عن أبناء وطننا صممنا جزماً على بذل كل مجهودنا في تأدية ديون الحكومة وبذل كافة ما في وسعنا وطاقتنا في إجراء ذلك . وبذا صار ختم هذا إعلاناً بتصديق ذلك . وبأننا متحدون اتحاداً تاماً قوياً وفعلاً في الإجراء . »

تحريراً بمصر في ١٠ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦ (٢ أبريل سنة ١٨٧٩) .

« التوقيعات »

أما طلب تعديل نظام مجلس شورى النواب فقد ختمت به اللائحة الوطنية ، وإنا ذاكرون هنا هذه الخاتمة ، لأنها أول طلب إجماعي تقدم من زعماء الشعب بتقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمام مجلس النواب ووضع نظام دستوري على أحدث المبادئ العصرية ، وهاك بيانها :

« قد تحرر هذا المشروع ببيان مفصلات ما هو مقتضى إجراؤه في تسوية إيرادات الحكومة وتسوية تسديدات ديونها ومصاريفها على وجه ما توضح به ، بحيث أن الحضرة الخديوية تمنح شورى النواب الحرية التامة وجميع الحقوق في كافة الأمور المالية والداخلية كما هو جار في بلاد أوروبا . وأما انتخاب أعضائه فيكون بموجب لائحته الموجودة . إنما يلزم تعديلها بكيفية انتخاب النواب المماثلة له في أوروبا . وبمعرفة مجلس النظار يصير تنقيح لائحة النواب الأساسية والنظامية ، وعند التثام مجلس النواب تعرض عليه . ومن بعد مذاكرته فيها وإقراره عليها تعرض للأعتاب الخديوية للتصديق عليها . أما مجلس النظار فيكون تعيين رئيسه بأمر الحضرة الخديوية . والرئيس ينتخب النظار . وبعد استصوابهم وقبولهم من طرف الحضرة الخديوية تشكل هيئة النظارات التي تتكون منها هيئة مجلس النظار . وهذا المجلس يكون مفوضاً تفويضاً تاماً في جميع إجراءاته ومسئولاً أمام مجلس النواب في جميع إجراءاته المختصة بالداخلية والمالية . ولزيادة تأمين الديانة (الدائنين) نطلب تعيين مفتشين أوروباً وبيين (الرقيين) لإيرادات ومصروفات المالية . »

وقد وقع على اللائحة الأشخاص البارزون في الهيئة الاجتماعية المصرية من الأعيان

والذوات والعلماء والنواب والتجار والموظفين وضباط الجيش .
وبلغ عدد الموقعين عليها ستين من أعضاء مجلس شورى النواب ، وستين من العلماء
والهيئات الدينية . وفي مقدمتهم شيخ الإسلام ، وبطريك الأقباط وحاخام الإسرائيليين
و ٤٢ من الأعيان والتجار ، و ٧٢ من الموظفين العاملين والمتقاعدين ، و ٩٣ من الضباط .

نظرة عامة في مشروع اللائحة الوطنية

إن اللائحة الوطنية تضمنت الإصلاح الدستوري الذي أجمع عليه الأحرار في ذلك
العصر ، مع المحافظة على مصالح الدائنين ، فإنها طالبت بتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام
مجلس النواب ، وفي الوقت نفسه قبلت نظام الرقابة الثنائية لتأمين حقوق الدائنين ، فهي لم
تنقض التعهدات التي التزمت بها الحكومة المصرية للدول .

ثم إن المشروع المالي الذي وضعته اللائحة لا غبار عليه في شيء ، وهو كفيل بأداء أقساط
الديون العامة ، ولا يخالف لائحة ريفرس ويلسن في نقط جوهرية إلا في أنه أبى ضريبة المقابلة
على حين أن مشروع ريفرس ويلسن ألغاه وفرض ضرائب جديدة على الأطنان العشورية لم
يقرها مشروع اللائحة الوطنية ، ولو حسنت نية الدائنين والحكومات الأوروبية لما اعترضوا على
إنفاذها لأنها تكفل حقوق البلاد وفي الوقت نفسه تقرر حقوق الدائنين .

قبول الخديو اللائحة الوطنية

قدم وفد من الأحرار اللائحة الوطنية إلى الخديو ، فاستجاب إلى مطالبهم ، وأقر اللائحة
الوطنية ، وأمر بترجمتها ، وكتب منها عدة نسخ بالفرنسية لترسل إلى قناصل الدول ، ووقع
على هذه النسخ راغب باشا بالنيابة عن الموقعين من الذوات والأعيان ، وأحمد رشيد باشا
بالنيابة عن أعضاء مجلس شورى النواب ، والسيد على البكرى عن العلماء والتجار ، وراتب
باشا عن الضباط ، واعتزم الخديو تكليف شريف باشا تأليف الوزارة الجديدة ، نزولاً على
رغبة الأحرار ، وتمهيداً لذلك استقال توفيق باشا من رئاسة الوزارة ، وبني الاستقالة على أن
الوزيرين الأجنيين أهملوا ولم يستشيره في شؤون الوزارة .

واستدعى الخديو وكلاء الدول فحضرُوا يوم الإثنين ٧ إبريل بسراى عابدين ، وحضر اجتماعهم السيد على البكرى ، وراتب باشا ، وراغب باشا ، وشريف باشا ، وعبد السلام بك المويلحى ، ومحمد بك راضى ، والحاج سيد اللوزى ، وأبلغ الخدير القناصل فى هذا الاجتماع نبأ اللائحة الوطنية التى رفعت إليه ، وقال إنه تلقاء الرغبة العامة التى بدت من جميع طبقات الأمة يرجو منهم أن يبلغوا الدول نص اللائحة ، وذكر لهم خلاصتها ، وهى أن البلاد ليست فى حالة إفلاس ؛ وأنها تستطيع القيام بتعهداتها المالية ، وأنهى إليهم ما تضمنته اللائحة من المطالبة بتأليف وزارة وطنية مسئولة أمام مجلس نيابى ينتخب على نظام جديد ، وأضاف إلى ذلك أن الأمير محمد توفيق رغبة منه فى عدم مصادمة عواطف الأمة قد استقال من رئاسة الوزارة ، وأنه عهد بتأليف الوزارة الجديدة إلى شريف باشا .

احتجاج الوزراء الأوروبيين

واحتج الوزراء الأوروبيان على اللائحة الوطنية وعلى قبول الخديو إياها ، قائلين فى احتجاجهما إن هذا القبول يخالف السلطة المخولة لمجلس النظار ويتنافى ما وعد به الخديو من معاونة الوزارة حين تأليفها ، وبعثا إليه بهذا الاحتجاج يوم ٧ إبريل سنة ١٨٧٩ . وفى نفس اليوم الذى تلقى فيه الخديو هذا الاحتجاج أرسل إلى شريف باشا يدعوه إلى تأليف الوزارة .

البلاغ الرسمى عن الجمعية الوطنية

وإليك ما ذكرته « الوقائع المصرية » عن الجمعية الوطنية وتقديم اللائحة إلى الخديو :
 « لما لم يتيسر لهيئة مجلس النظار السابقة التوفيق للخدمات المتعلقة بإصلاح الأمور المادية والمعنوية المحتاج إليها الوطن وإجرائها على المحور الموافق لعزم الأهالى ، قد صمم عموم أهالى الوطن العزيز تصميمًا جازمًا على تبديل هذه الهيئة بغيرها ، وتسليم إدارة المصالح مع تأسيسها على أساس صالح إلى ذوى اللياقة والأهلية من حضرات قدماء المأمورين الكرام ، الذين حازوا حسن الوثوق والاعتماد عليهم فى أمور الحكومة واعترف لهم بها الجميع ، وبناء على هذا

اجتمعت جمعية حافلة من حضرات أعضاء شورى النواب ، والعلماء الأعلام ، والذوات الفخام ، والمأمورين الكرام ، ووجوه البلد ، وأعيان المملكة ، ومعتبرى الأهالى ، وبعد أن وقعت فيما بينهم المذاكرات الكثيرة مع ملاحظة ما ينبغي ملاحظته فى خصوص هذه الوظيفة المهمة وإصلاح أحوال المالية ، والأمور الداخلية ، عرضوا لأعتاب الحضرة الفخيمة الخديوية اللائحة الوطنية التى حرروها على وفق الآراء العمومية ، فتعلقت الإرادة السنية بوجوب إجراء المواد المدرجة فيها ، وهذه ترجمة تلك الإرادة العلية الصادرة من تلك الحضرة إلى حضرة دولتو أفندم شريف باشا بتاريخ ٧ أبريل سنة ١٨٧٩ (٣٧) .

ويلى ذلك الكتاب الآتى بيانه :

كتاب الخديو إلى شريف باشا وتكليفه تأليف الوزارة

يتبين من الكتاب الذى عهد فيه الخديو إلى شريف باشا تأليف الوزارة أنه مناصر لللائحة الوطنية ، مؤيد لمطالب الأحرار ، وهالك نص الكتاب نثبه هنا بعبارته المعربة فى الوثائق الرسمية عن أصله الفرنسى (٣٨) :

« إني بصفة كونى رئيس الحكومة ومصرياً ، أى من الواجب على أن أتبع رأى الأمة وأقوم بأداء ما يليق بها من جميع الأوجه الشرعية ، لكنى لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الأسف من أن ذلك السير كان على غير رضا الملة والأهالى ، حتى نشأ عنه اضطراب ونفور سرى فى جميع القلوب وحركها ، وكانت قبل ذلك فى غاية الهدوء والسكون ، وطالما أخبرت النظار ووكلاء الدول ونبهتهم على تلك الملاحظات ، فلم يتيقظوا لها ولم يلتفتوا إليها ، وزيادة عن ذلك فإن النتيجة التى حررها ناظر المالية وأظهر بها أن القطر فى حالة العدم (٣٩) ، وأبطل العمل بمقتضى القوانين المعتمدة وتجارى فيها على الحقوق الثابتة (٤٠) ، كانت سبباً فى تغير قلوب الأمة ، ونفورها من هيئة النظارة كل النفور ، وحقق لى

(٣٧) الوقائع المصرية العدد ٨٠٦ الصادر فى ١٣ أبريل سنة ١٨٧٩ .

(٣٨) دياجة الكتاب فى الأصل الفرنسى « إلى صاحب الدولة شريف باشا . يا صاحب الدولة ، والأجل الفرنسى لهذه الوثيقة الهامة منشور فى الكتاب الأصفر عن سنة ١٨٧٨ - ١٨٧٩ ص ١٩٤ والترجمة منشورة فى العدد ٨٠٦ من الوقائع المصرية (١٣ أبريل سنة ١٨٧٩) .

(٣٩) فى الأصل الفرنسى « فى حالة إفلاس » .

(٤٠) فى الأصل الفرنسى « المبكسة » .

ذلك المحضر الذى تقدم لى فى هذا الخصوص ، فإجابة لما عرض على بذلك ، وبالنظر لثبوته عندى ، قد وكلتكم بتشكيل هيئة النظارة بناء على الإرادة الصادرة فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ ، وأن تكون تلك النظارة مشكلة من أعضاء أهليين ، مصريين ، يتبعون فى سيرهم الطرق المنصوص عليها فى الإرادة المذكورة ، « وأن يتحفظوا على مأمورياتهم كل التحفظ ، إذ أنهم مكلفون بالمسئولية لدى مجلس الأمة الذى سيجرى انتخاب أعضائه وتعيين مأموريه بوجه كاف للقيام بتأدية ما يلزم للحالة الداخلية ومرغوب الأمة نفسها »^(٤١) ، ولتجهد النظارة قبل كل شئ فى أن تستعد لاستحضار قوانين مماثلة للقوانين الجارى عليها العمل فى أوروبا ، مع مراعاة عوائد الأهالي وأخلاقهم وما يلزم لهم ، وتلتفت أيضا تلك النظارة كل الالتفات لتنفيذ ترتيب المالية الذى رتبته عمدة القطر وأعيانه^(٤٢) ، وحصل التصديق عليه منى ، ولا تتأخر عن إجراء اللازم فى إيجاد مصلحة لتفتيش الإيرادات والمصروفات^(٤٣) ، لأنها هى التأمين اللازم للقطر والمنافع المرهونة عليه ، ومنصوص عنها فى الإرادة الصادرة فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٧٦ ، هذا ولعلمى بحسن اخلاصكم لخدمة الوطن فلا أشك فى أن تستعينوا على تلك المأمورية بالرجال المشهود لهم مثلكم بالأمانة والاحترام لدى الجميع لتم بكم المقاصد المؤيدة إلى التمدن والعمارة التى أريد أن يقترن بها اسمى^(٤٤) .

٧ أبريل سنة ١٨٧٩ « إسماعيل »

مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب

وهذا الكتاب يعد من الوثائق الهامة فى تاريخ الحركة القومية والحياة الدستورية فى مصر ، لأن الخديو إسماعيل اعترف فى هذه الوثيقة بأن من واجباته اتباع رأى الأمة ، وأنه لم يكن راضياً عن الوزارة المستقلة لمخالفتها إرادتها ، فهو يعلن أنه مؤيد لمطالب الأمة ممثلة فى نوابها

(٤١) ترجمة لأصل فرنسى هذه الفقرة « التى يجب المحافظة عليها بكل دقة مع زيادة توكيدها وتشبيها يجعل الوزراء مسئولين مسئولية حقيقية أمام مجلس الأمة الذى ستنظم طريقة انتخابه وتقرر حقوقه على النحو الذى يكفل مقتضيات الأحوال الداخلية ويحقق الأمانى القومية » .

(٤٢) فى الأصل الفرنسى « أعيان القطر وكبرائه » .

(٤٣) يريد نظام الرقابة الثنائية .

(٤٤) ختام الوثيقة فى الأصل الفرنسى « ولتكن دولتكم على يقين من عظيم تقديرى وصادق محبتي » .

تأييداً تاماً ، وأنه موافق على اللائحة الوطنية التي تقدمت إليه ، وعلى هذا الأساس عهد إلى شريف باشا تأليف الوزارة الجديدة على أن يكون أعضاؤها كلهم من الوطنيين ، وهذا معناه إقصاء الوزراء الأوروبيين عن هيئة الوزارة ، ومما هو جدير بالإعجاب إشادة الخديو بمصريته ووطنيته ، فقد استهل كتابه بهذه الصفة وختمه بالتنويه بميزة شريف باشا وهي « إخلاصه لخدمة الوطن » ورغبة إسماعيل في أن يقترن اسمه بحضارة مصر وعمرانها ، وتلك لعمري عواطف نبيلة تزيد في قيمة هذه الوثيقة التاريخية .

وقد قرر الخديو في كتابه مبدأ مسئولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب وهي أساس النظام الدستوري الحديث ، فهذا المبدأ الهام الذي يعد قوام الدساتير قد تقرر إذن في مصر سنة ١٨٧٩ بالوثيقة التي استجاب بها الخديو إسماعيل إلى الأحرار وعهد بها إلى شريف باشا تأليف الوزارة على أساس هذه القاعدة ، فإذا أردنا أن نجمل تاريخ الحياة النيابية في عهد إسماعيل ، قلنا إن مجلس شورى النواب أنشئ في أوائل عهده (سنة ١٨٦٦) ناقص السلطة ضعيف الحول والقوة ، ثم اكتملت سلطته بتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمامه سنة ١٨٧٩ .

ولكن الدول الأوروبية وقفت بالمرصاد للوزارة الوطنية وللخديو إسماعيل ، وسعت جهدها في خلعه حتى تم لها ما أرادت ، وتعطلت الحياة النيابية في أوائل عهد الخديو توفيق مدى ستين ، على أن مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب بقي حجر الزاوية في حياة الأمة الدستورية ، فتقرر ثانياً في دستور سنة ١٨٨٢ على عهد الخديو توفيق باشا ، إلى أن رزئت الأمة بالاحتلال البريطاني ، فألغته السياسة الاستعمارية سنة ١٨٨٣ باستصدارها القانون النظامي الذي ألغى مجلس النواب وأنشأ مكانه مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، فاختنى مبدأ المسئولية الوزارية لوقت طويل من النظام الدستوري المصري ، إلى أن عاد إلى الظهور في دستور سنة ١٩٢٣ .

وظاهر أيضاً من وثيقة ٧ أبريل سنة ١٨٧٩ أن الخديو إسماعيل لم ينقض تعهداته للدول ، فإنه أشار في ختام الوثيقة إلى إيجاد مصلحة تفتيش الإيراد والمنصرف ، والمقصود منها نظام الرقابة الثنائية الذي تقرر في مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ ، ولو سلكت الدول مسلك الاعتدال حيل مصر لما كان ثمة اعتراض من جانبها على تأليف وزارة وطنية خالية من العنصر الأوروبي . مادام نظام الرقابة الثنائية باقياً ، ولكن سترى عن خلال الحديث كيف وقفت الدول موقف التعنت وسوء النية وكيف نقضت اتفاقها السابق مع الخديو .

تقرير لجنة التحقيق النهائي

وفي خلال هذه الحركة أتمت لجنة التحقيق الأوروبية تقريرها الثاني ووقعته في ٨ أبريل سنة ١٨٧٩ ، وأعلنت فيه أن مصر في حالة إعسار أو إفلاس وأنه يجب معالجة حالتها المالية على هذا الأساس .

ولكن التقرير لم يقدم إلى الوزارة لاستقبالها واشتغال شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة ثم استقالة أعضاء لجنة التحقيق أنفسهم .

تأليف الوزارة الوطنية برئاسة شريف باشا

قبل شريف باشا تأليف الوزارة على الأساس الذي بسطه الخديو إسماعيل في كتابه إليه ، فألفها من أعضاء وطنيين ممن عرف عنهم تدير مشروع اللائحة الوطنية أو مشايعة الأحرار في مطالبهم ، وهم : إسماعيل راغب باشا للمالية : وهو الذي كانت تعقد اجتماعات الأحرار في داره كما تقدم بيانه . وشاهين باشا للجهادية (الحربية والبحرية) وقد كان من أركان الجمعية الوطنية وزكى باشا للأشغال العمومية . وذو الفقار باشا للحقانية . ومحمد ثابت باشا للمعارف العمومية والأوقاف . وعمر لطفى باشا لتفتيش عموم الأقاليم البحرية والقبلية . واحتفظ شريف باشا لنفسه مع الرئاسة بوزارتي الداخلية والخارجية .

ورفع إلى الخديو جوابه بتأليف الوزارة ، وهذا نصه :

« مولاي . إنني طبقاً للمأمرية التي تنازلتهم بتقليدي إياها أتشرف بأن أعرض على سموكم تأليف الوزارة على النمط الآتي (الأسماء) ، فأؤمل أن هؤلاء الأعضاء المكتسبين اعتبار البلاد وثقتها ، والمحترمة سلطتهم في مطلق أنحائها ، يصادفون من سموكم القبول والتصديق .

فتنازلوا مولاي واقبلوا علامات احترامى الفائق ، فاني خادم سموكم الأمين .

« ٨ أبريل سنة ١٨٧٩ . شريف »

وصدر المرسوم الخديو بتأليف الوزارة على النحو الذي عرضه شريف باشا .

رُعاةُ الحُكْمِ وَالْوُطَنِ فِي عَمَلِ شَيْخَانِ



الحفلات الوطنية

وابتهج الناس لقبول الخديو اللامحة الوطنية ، وتأليف وزارة شريف باشا ، واجتمع يوم الثلاثاء (٨ أبريل) بدار السيد البكرى جمع كبير من علماء الديار المصرية والأعيان والتجار ، وتوجهوا بعد الظهر إلى سراى عابدين لتقديم واجب الشكر للخديو ، فاستقبل أولا العلماء ومعهم بطريرك الأقباط ، وتلقاهم بالرعاية والإكرام ، وحثهم على التضافر والتعاون ، ثم ألقى السيد البكرى خطبة قال فيها : « إنا بلسان الوطن والأمة نرفع إلى مقام الجنب الخديوى الأسمى أجزل الشكر والثناء على عنايته بإنهاض الوطن من سقطته وانقاذه من سوء إدارته ، حيث تفضل بقبول وتنفيذ طلباتنا الوطنية المقدسة المبينة على أساس العدل الذى يترتب عليه عمران البلاد ونظام أحوال العباد ، داعين لجلالته بالعز والتأييد ، متخذين هذا اليوم الذى يجعل ذكر الحضرة الخديوية غرة فى جبهة التاريخ ، عيداً للوطن والحرية » ، وتلاه الشيخ الخلفاوى ، فألقى أيضاً كلمة شكر وجيزة ، وبعد ذلك قام الخديو وقال : « إن شاء الله ننال بدعواتكم المصالحة غاية المرام ، وتتوطد الراحة والنظام » ، ثم استقبل التجار وحضهم على بذل المساعدة والمعاونة على توطيد الأحوال وتحقيق الآمال .

وأقيمت الحفلات والأفراح اتهاجاً بالعهد الجديد ، وأقام السيد على البكرى فى داره مأدبة كبرى يوم الأربعاء ١٧ ربيع الثانى سنة ١٢٩٦ (٩ أبريل سنة ١٨٧٩) حضرها الكبراء والعظماء وفيهم بطريرك الأقباط ، وممثلو طبقات الأمة ووجوه البلد وأعيانه ، واشترك فيها الخديو إسماعيل ، إذ حضرها ليلاً ، وجلس بالدار خمساً وعشرين دقيقة ، يؤانس العلماء ، والكبراء . ويتبسط فى الحديث معهم ، فكان لحضوره تأثير كبير فى النفوس .

وأقام إبراهيم بك المويلحى ومحمود بك العطار شاه بندر التجار والسيد محمد السيوفى وغيرهم زينات أمام منازلهم .

وزارة شريف باشا ومجلس النواب

كان من أول أعمال وزارة شريف باشا اقرارها مجلس شورى النواب على استمرار



حسن راسم باشا

رئيس مجلس شورى النواب حين قدم شريف باشا إلى المجلس دستور سنة ١٨٧٩

انعقاده ، احتراماً لقراره الذى أعلنه فى مواجهة رياض باشا قبل استقالة الوزارة السابقة ، فكان عملها هذا تأييداً للمجلس فى موقفه التاريخى .

فى جلسة ١٨ ربيع الثانى سنة ١٢٩٦ (١٠ ابريل سنة ١٨٧٩) اجتمع المجلس برئاسة مصطفى بك وهى بالنيابة عن رئيسه أحمد رشيد باشا الذى تخلف لمرضه ، وأمر نائب الرئيس بتلاوة الكتاب الوارد من وزارة الداخلية وهذا نصه :

« ولو أنه كان تقرر بمجلس النظار السابق انقضاء عقد مجلس شورى النواب لانقضاء مدته حسبما تحرر لسعادتكم فى ٣ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦ غمرة ٢١ ، لكن حيث مقتضيات الأحوال مستلزمة بقاءه للمذاكرة والمفاوضة معه فى بعض مواد مهمة ، قد تقرر بمجلس النظار الذى تشكل الآن استمراره ، واقتضى تحريره لسعادتكم للاحاطة بذلك وتفهم حضرات أعضائه بعدم الانصراف » .

فاستقر رأى المجلس على متابعة الحضور للمذاكرة فيما تقدمه الحكومة من المواد . واجتمع المجلس يوم السبت ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٦ (١٧ مايو سنة ١٨٧٩) برئاسة حسن راسم باشا ناظر الدائرة السنية الذى عقده إليه بالرئاسة مؤقتاً بدلاً من أحمد رشيد باشا لمرضه ، وأبلغ الأعضاء أن رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية سيحضر فى هذا اليوم لتقديم اللائحة الأساسية الجديدة للمجلس .

وقد حضر شريف باشا فعلا وأنهى إلى الأعضاء أنه معين من طرف الحكومة السنية ليقيم للمجلس لائحته الأساسية (الدستور) ولائحة الانتخاب الجديدتين اللتين وضعتا بناء على اللائحة الوطنية ، قال : « وقد أحضرت معي اللائحة الأساسية ، وأما لائحة الانتخاب فهي تحت التبييض والنظر في مجلس النظار ، وبعده يجرى تقديمها للمجلس « بعدكم يوم » ، ولا يلزمني أن أوضح لحضراتكم أهمية هذه اللوائح ، لأن المقصود منها أن تكون القوانين واللوائح التي تعمل وما يلزم تنقيحه في الموجود من الأول يكون كل ذلك بعد رؤيته بمجلس النواب ، والإقرار عليه منه ، وصدور الأمر بذلك ، نعم وإن كان تأخر تقديم اللائحتين اللتين ذكرنا عنها بهذا ، إلا أن هذا كان لداعي المشغولية التي كانت حاصلة فيما يتعلق بتسديد الكوبون ، والله الحمد قد تسير ذلك ، والمأمول أنه بعناية الله وباتحاد الأفكار والقلوب نحصل مزيد الراحة والعمارة للأهالي ، كما أنه جاري النظر بالمالية في مسألة تسديد الديون السائرة ، وبنهوها لا بد من حصول كل من أرباب المطالب على حقوقهم ، وحيث كان المقصود من تلك اللوائح إنما هو رؤية ما يلزم رؤيته لما يترتب على ذلك من الفوائد والمنافع للأهالي والبلاد ، فالمرجو من حضراتكم النظر فيها بعين الدقة التامة ، وإن تراءت لكم ملحوظات ولزم الحال للمذاكرة معنا بالمجلس من أجلها فنحن مستعدون لذلك » .

من هذا البيان يتضح أن مجلس شورى النواب قد كسب حقوقه الكاملة في التشريع ، إذ أعلن رئيس مجلس الوزراء أنه لا يوضع قانون ولا يعدل شيء من القوانين الموجودة إلا بإقرار مجلس النواب ، ولا يستثنى من ذلك القوانين الأساسية التي تقرر النظام الدستوري ، فإنها أيضا خاضعة لهذه القاعدة ، كما يؤخذ ذلك من بيان رئيس مجلس الوزراء ، ومعنى ذلك أن المجلس خول سلطة « جمعية تأسيسية » .

ولما انتهى شريف باشا من بيانه التاريخي قال عبد السلام بك المويلحي : « نكرر الشكر للحضرة الخديوية على إجابة طلبات الأمة ، وأيضاً ثني على غيره مجلس النظار حيث اهتم بتنفيذ اللائحة ، فعلى كل منا وجوباً أن يصرف جميع جهده وكل أفكاره في النظر والتدقيق في هذه اللائحة التي تعتبر الأساس الأعظم لمزيد عمارة البلاد وإصلاح الأهالي » .

ثم اقترح تأليف لجنة من خمسة عشر عضواً للمذاكرة فيها وإبداء ملحوظاتها عنها لتعرض على المجلس .

فقال محمود بك العطار بأن تكون اللجنة من عشرة ، وليد الشيخ إبراهيم الجيار تأليفها من

خمسة عشر « لأهمية هذه المسألة » .

وطلب السيد عبد الرزاق الشوريجي أن تلى اللائحة أولاً بالمجلس وتحال بعد ذلك على اللجنة ، فاستقر الرأي على ذلك ، وتليت اللائحة في الجلسة ، وأرجئ تأليف اللجنة لليوم التالي (٢٧ جمادى الأولى) وفيه اجتمع المجلس وانتخب لجنة من خمسة عشر عضواً للنظر في لائحة مجلس النواب الأساسية ، فكانت بمثابة (اللجنة الدستورية) طبقاً للمصطلحات الحديثة ، وأعضاؤها هم :

عبد السلام بك المويلحي ، عثمان الهرميل ، السيد السرمسي ، محمود سالم ، يديني الشريعي ، عبد الغنى خالد ، باخوم لطف الله ، عبد الرزاق الشوريجي ، ابراهيم الجيار ، عبد الوهاب الشيخ ، محمد رجب كساب ، خضر ابراهيم ، عبد الرحمن وافي ، تمام حبارير ، سليم سعيد ، وانتخب المويلحي بك رئيساً للجنة .
ثم قدمت الحكومة لائحة الانتخاب بجلسة ١٢ جمادى الآخرة (٢ يونية سنة ١٨٧٩) فتليت وأحيلت على اللجنة الدستورية .

دستور سنة ١٨٧٩

هو أول دستور وضع في مصر « على أحدث المبادئ العصرية » ، وهو وإن لم يصدر به المرسوم الحديوي ولكنه جدير بأن يسمى دستوراً ، لأن الحكومة ارتضته دستوراً للبلاد ، وإنما قدمته إلى مجلس شورى النواب لينال إقراره ، وكان هذا مبالغة منها في التعظيم من اختصاص المجلس إذ خولته سلطة (جمعية تأسيسية) تضع الدستور ، ومن المقارنة بين نصوصه ونظام مجلس شورى النواب القديم (ص ٨٩) يتبين مقدار البون العظيم بينهما ، فقد خول مجلس النواب سلطة البرلمانات الحديثة ، وقوامها حق إقرار القوانين وإقرار الميزانية ، وجعل الوزارة مسئولة أمامه ، ومن أهم مبادئه تحويل سكان السودان حق انتخاب ممثلين عنهم في مجلس النواب ، أسوة بسائر سكان المملكة المصرية ، وهي فكرة جليلة تدل على سداد نظر شريف باشا وصدق وطنيته ، لأنها تثبت وتؤكد لما بين مصر والسودان من الروابط القومية والسياسية ، وتأييد لاعتبار السودان جزءاً لا يتجزأ من الدولة المصرية ، يتمتع سكانه بالحقوق السياسية التي يتمتع بها بقية المصريين ، وقد جاء تقرير هذا المبدأ برهاناً جديداً على أن مصر

لا تنظر إلى السودان كما تنظر الدول إلى مستعمراتها ، بل تعده قطعة من أرض الوطن ، وتعد أهله جزءاً من الأمة المصرية ، ويرجع الفضل الكبير في تقرير هذا المبدأ السامي في دستور سنة ١٨٧٩ إلى شريف باشا ، وقد تقرر أيضاً في دستور سنة ١٨٨٢ ، ومما يستدعي النظر أن شريف باشا الذي قرر هذا المبدأ هو الذي استقال من الوزارة سنة ١٨٨٤ احتجاجاً على سلخ السودان عن مصر ، وهذا يدل على احتفاظه بمبدئه ، واستمساكه بوحدة مصر والسودان ودفاعه عن هذه الوحدة المقدسة التي لا انفصام لها .

والآن نثبت هنا دستور سنة ١٨٧٩ كما عرضته وزارة شريف باشا على مجلس شورى النواب ، لما لهذه الوثيقة من الأهمية من الوجهتين التاريخية والدستورية^(٤٥) .

المادة ١ : مجلس النواب يتشكل من النواب الذين يصير انتخابهم على حسب صفة الانتخاب التي تتوضح بلائحة خصوصية .

المادة ٢ : لا يقبل نائباً من لم يكن من رعايا الحكومة المصرية ومن لم يكن له من العمر ثلاثون سنة كاملة ومن لم يكن حائزاً لكافة الحقوق المدنية والسياسية ، وكذلك من لم تتوفر فيه الصفات المقررة بلائحة الانتخاب .

المادة ٣ : مدة النيابة تكون ثلاثة سنين فقط ، ويجوز تكرار انتخاب النواب عند تجديد الانتخاب .

المادة ٤ : انتخاب النواب يكون في كل ثلاث سنين مرة ، ويبدأ فيه بأربعة شهور بالأقل قبل أول شهر كيهك (ديسمبر) الذي هو الميعاد المحدد لاجتماع النواب فيه .

المادة ٥ : انقضاء مدة مجلس النواب يكون سنوياً في أول برمهات (مارس) ويحصل انقضاؤه بأمر عال .

المادة ٦ : يجوز للحضرة الخديوية بحسب مقتضيات الأحوال أن تأمر بفتح المجلس قبل وقته المعين له وأن تنقص مدة اجتماعه أو تزيدها .

المادة ٧ : رسم افتتاح المجلس يكون بحضور الذات الخديوية أو بحضور رئيس مجلس النظار بالنيابة عنها وبحضور جميع النظار والنواب ، وتلى فيه مقالة خديوية يتبين بها حالة القطر المصري الداخلية في السنة الماضية قبل الافتتاح والتدابير التي يترأى لزوم اتخاذها في السنة الحالية .

(٤٥) لم نجد أصل هذه الوثيقة في الوقائع المصرية ولا في محفوظات مجلس شورى النواب ، ولذلك رجعنا إلى النسخة المنشورة في « الأهرام » عدد ١٢ يونيه سنة ١٨٧٩ .

المادة ٨ : كل نائب يعتبر وكيلا عن عموم الأمة المصرية وليس فقط عن الجهة التي انتخبته .

المادة ٩ : للنواب الحرية التامة في إبداء آرائهم وقراراتهم ، ولا يجوز أن يكون أحد منهم مرتبطاً في رأيه بتعليمات تصدر له أو وعد ووعد يوجه إليه .

المادة ١٠ : المسائل التي تقدم من النظار للنواب تصير المذاكرة فيها بمجلس النواب وإذا تراءى فيها ملحوظات تجري المناقشة عنها مع مجلس النظار وإنما يكون ذلك مقرونا ببيان الأوجه والأسباب .

المادة ١١ : إذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المناقشة وبيان الأسباب ولم تستعف النظارة فللمحضرة الخديوية أن تأمر برفض مجلس النواب وتجديد انتخاب أعضائه على شرط أن لا تتجاوز مدة الانتخاب أربعة أشهر من يوم انقضاؤه إلى يوم اجتماعه ، وإذا أيد مجلس النواب بعد تجديد انتخابه رأى المجلس السابق وجب تنفيذه ، ويجوز للأمة أن تنتخب نفس النواب السابقين أو بعضهم (راجع المادة ٣)

المادة ١٢ : في حالة خلو محل أحد النواب تصير المبادرة إلى انتخاب بدله ، ومدة الذي يصير انتخابه لا تستمر إلا لغاية حصول الانتخاب العمومي أى أن مدة البدل لا تتجاوز المدة التي كانت باقية للنائب الأصلي .

المادة ١٣ : رئيس المجلس ووكيلاه وكتبته يكون تعيينهم بمعرفة نفس المجلس من ابتداء انعقاده ويستمرّون إلى أول الاجتماع الثاني .

المادة ١٤ : مذاكرات النواب ومداولاتهم في الجلسات العمومية تكون علنية ، ومع ذلك فإنه يجوز أن تكون سرية متى طلب ذلك أحد النظار أو عشرة من النواب . وأقر عليه المجلس .

المادة ١٥ : لا يجوز حبس أحد النواب ولا إقامة دعوى عليه أثناء مدة انعقاد المجلس ما لم يكن بقرار صادر من المجلس المذكور ، وهذا فيما عدا الأحوال التي يضبط فيها أحد النواب حالة كونه متلبساً بجناية جسيمة مثل القتل فعلا .

المادة ١٦ : إذا صار القبض على أحد النواب حالة كونه متلبساً بجناية ووضع في السجن فيعطى الخبر عنه لرئيس مجلس النواب حالة سجنه ، ويصير الإفراج عن ذلك النائب أو توقيف الدعوى عليه في أثناء مدة انعقاد المجلس إذا طلب المجلس المذكور ذلك .

المادة ١٧ : للمجلس الحق أيضا في طلب الإفراج أو توقيف الدعوى إذا كان أحد النواب صار القبض عليه وسجن في غير مدة انعقاد المجلس .

المادة ١٨ : كل من النواب قبل تأديته وظيفة النيابة يحلف يمينا بالمجلس علانية عقب افتتاحه بأن يكون صادقا للحضرة الخديوية وأن لا ينحون الوطن وأن يحافظ على مراعاة قوانين الحكومة وأن يؤدي الوظيفة التي أحييت عليه بما يكون فيه خير للوطن .

المادة ١٩ : يتقرر لكل من النواب مبلغ عشرة آلاف قرش سنويا نظير مصاريف سفرته وإقامته ويصرف له ما يخص ذلك في كل شهر من ثلاثة الأشهر المقررة لانعقاد المجلس من تاريخ انعقاده ، بحيث إذا نقصت مدة المجلس عن ثلاثة الأشهر أوزادت فتصرف له العشرة آلاف قرش تماما ، إما إذا كان في بحر السنة يحصل انعقاد المجلس فوق العادة فلا يكون لهم شئ إلا إذا كان البعض تعين بدله وحضر ذلك البذل في تلك الاجتماعات فتصرف له قيمة ما يخصه مدة إقامته بواقع قسط اليوم بحيث لا تتجاوز العشرة آلاف قرش ، أما نواب جهات السودان فيصرف لهم علاوة على ذلك مصاريف السفرية لحد مصر ذهاباً وإياباً .

المادة ٢٠ : لا يجوز قبول متوظفي الحكومة ملكيين كانوا أو جهاديين ضمن أعضاء مجلس النواب ، ما عدا نظار الدواوين ومفتشى الأقاليم ووكلاءهم والمديرين ووكلاءهم بشرط أن لا يتجاوزوا خمس عموم النواب عدداً .

المادة ٢١ : لا يجوز المداولة في أمر ما بطريقة صحيحة معتبرة إلا إذا كان موجوداً بالمجلس ثلثا أعضائه ، ولا يحسب ضمن الأعضاء المذكورين الغائبون بأجازة رسمية ، بل يشترط أن يكون الثلثان من الحاضرين بالمجلس ، ولا يعتمد قرار من قراراته إلا إذا قررته أغلبية الحاضرين ، وعند تساوى الآراء يكون رأى الرئيس مرجحاً لرأى الفريق الذى يكون منضمّاً معه .

المادة ٢٢ : لا يجوز لأحد النواب توكيل غيره في إبداء رأيه ، بل يجب عليه إبداءه بنفسه .

المادة ٢٣ : يجوز لكل مصرى حائز لحقوق الانتخاب أن يقدم للمجلس عرضاً بواسطة أحد النواب ، وبعد أن يحال النظر فيه على كومسيون فالمجلس يحكم بناء على التقرير الذى يقدم له من ذلك الكومسيون بقبول ذلك العرض أو بعدمه وبماهى درجة اعتباره .

المادة ٢٤ : كل طلب مختص بحقوق شخصية يتقدم للمجلس يصير رفضه متى تحقق من

التحريرات التي تحصل بخصوصه أن مقدمه لم يسبق له تقديمه إلى المأمور المتعلق به ذلك الطلب أو إلى الجهة التابعة لها المأمور المذكور .

المادة ٢٥ : لا يجوز للمجلس أن يقبل أحداً يأتي إليه بالإصالة عن نفسه أو بالوكالة عن جماعة للتكلم في أمر ما ، ولا أن يسمع قولاً من أحد سوى أعضاء ونظار الدواوين ومندوبيهم .

المادة ٢٦ : عند أول اجتماع لمجلس النواب يجب على مجلس النظار أن يقدم له جميع اللوائح والقوانين والمنشورات الجارية العمل بها في الحكومة لينظر فيها وينقحها ويصدر قراره عليها ويجرى التصديق عليها من الحضرة الخديوية لتكون دستوراً للعمل .

المادة ٢٧ : إن وضع القوانين واللوائح يكون ابتداءً بمجلس النظار ، ثم تعرض على مجلس النواب للنظر فيها وتنقيحها ، بحيث لا يكون القانون معتبراً أو دستوراً للعمل ما لم يتل بمجلس النواب بنداً بنداً ، ويعطى عنه القرار ، ويجرى التصديق عليه من الحضرة الخديوية ، ويجوز للنواب مراعاة للمصلحة العمومية وبحسب مقتضيات الأحوال وظروف الأوقات أن يغيروا أو ينقحوا أو يعدلوا أي قانون من القوانين وأي بند من بنودها ومن جملتها هذه اللائحة الأساسية .

المادة ٢٨ : إذا رفض مجلس النواب قانوناً من القوانين أو بنداً من البنود مما يعرضه عليه مجلس النظار فلا يجوز تقديمه إلى مجلس النواب ثانياً في أثناء مدة انعقاده تلك السنة .

المادة ٢٩ : الحكم بصحة انتخاب النواب يختص بالمجلس دون غيره .

المادة ٣٠ : اللغة الرسمية التي يلزم استعمالها في المجلس هي اللغة العربية .

المادة ٣١ : يكون أخذ وإبداء الآراء بالصورة الآتية ، وهي إما بالنداء بالاسم أو بعلامات ظاهرة أو بوضع الآراء سراً في الصندوق .

المادة ٣٢ : أخذ الآراء بالنداء بالاسم لا يكون إلا بالقرار من المجلس بناء على طلب يحصل من أحد النواب ويشترك فيه معه عشرة منهم ، وأخذ الآراء بوضعها سراً في صندوق لا يكون إلا فيما يتعلق بتعيين أشخاص مثل تعيين الرئيس أو الوكلاء والكتاب وأعضاء الكومسيونات وما شابه ذلك .

المادة ٣٣ : لائحة إدارة مجلس النواب الداخلية تعمل بمعرفة .

المادة ٣٤ : أعضاء مجلس النواب لا يزيدون عن ١٢٠ نائباً ، بما فيهم نواب السودان حسب البيانات التي تتوضح بلائحة الانتخاب .

المادة ٣٥ : مركز مجلس النواب يكون بمحروسة مصر التي هي عاصمة القطر .
 المادة ٣٦ : النظار مسئولون أمام مجلس النواب عن كافة الأحوال والأعمال المختصة بإداراتهم ، وبناء على ذلك يجب على مجلس النظار المبادرة إلى وضع قانون لمحاكمة النظار عند الاقتضاء وعرضه على مجلس النواب .

المادة ٣٧ : لا يجرى العمل بأمر صادر من الحكومة ما لم يكن ممضى من الناظر المختص به ومطابقاً لقانون معتبر (راجع المادة ٢٦ و ٢٧) .

المادة ٣٨ : لا تجتمع وظيفة النظارة والنيابة في شخص واحد (راجع المادة ٢٠) .
 المادة ٣٩ : يجوز لكل ناظر أن يحضر في جلسات مجلس النواب أو أن يرسل له أحد كبار موظفي دائرته بالنيابة عنه بشرط أن لا يكون ذلك الموظف من ضمن النواب .

المادة ٤٠ : يجوز للنظار ومندوبيهم أن يتكلموا في المجلس بشأن كافة الأمور التي يطلبون التكلم فيها .

المادة ٤١ : إذا طرأت ضرورة مهمة جداً تستلزم المبادرة إلى أخذ الاحتياطات اللازمة لوقاية الحكومة من خطر ربما يتأتى لها أو للمحافظة على الأمن العمومي وكان مجلس النواب غير منعقد فيجوز لمجلس النظار أن يقرر بإجراء ما يلزم إجراؤه تحت مسؤوليته وبالتصديق على ذلك بالقرار من الحضرة الخديوية يجرى العمل على مقتضاه بشرط أن لا يكون مخالفاً للقوانين المعتبرة هذا ولدى انعقاد مجلس النواب يصير تقديمه إليه .

المادة ٤٢ : إذا تراءى للنواب التكلم في بعض مواد خلاف ما يتقدم لهم من النظار فتجرى المداولة فيها ويرسل إخطار بذلك لمجلس النظار . وبعد ثمانية أيام من تاريخ إرسال ذلك الإخطار إن لم يرد من مجلس النظار أوجه تمنع من المذاكرة فيها ويقر النواب على قبول تلك الأوجه فلهم أن يتموا مداولتهم ويصدروا قرارهم فيها .

المادة ٤٣ : النظار ملزمون بالمجوبة عن كل ما يسألون فيه من مجلس النواب ، إما بأن يتوجهوا للمجلس بأنفسهم أو بأن يتدبوا أحد كبار متوظفي دوائرهم للمجوبة بالنيابة عنهم بشرط أن لا يكون ذلك المتوظف من ضمن النواب .

المادة ٤٤ : يجوز للنظار أن يؤخروا مجاباتهم عما يسألون فيه من مجلس النواب عند الضرورات المهمة مع بيان أسباب التأخير أكثر ما يكون قبل انتهاء مدة اجتماع المجلس بعشر أيام ويلزمهم أن يقدموا الجواب في أول الاجتماع الثاني للنواب . ومع ذلك فمسئولية التأخير عليهم .

المادة ٤٥ : من حقوق النواب أن يلاحظوا المصاريف العمومية بالدقة التامة ، وأن يقرروا مقدارها ، ويجب عليهم أن يعينوا كمية الواردات (الإيرادات) وكيفيتها وضرب الضرائب والجبايات وطريقة توزيعها وأوقات تحصيلها ، فلا يجوز ضرب ضريبة من أى نوع كانت ولا توزيعها ولا تحصيلها ولا تكليف الأهالى بشئ منها إلا بعد إقرار النواب عليها ، كما لا يجوز صرف شئ من متحصلات الضرائب زيادة عما يقر عليه النواب .

المادة ٤٦ : للنواب أن يطلبوا عقب افتتاح المجلس الميزانية العمومية المستوفية الحاوية للواردات (الإيرادات) والمصروفات لينظروا فيها ، ومتى قرروا عليها بعد البحث التام لا يعمل بها إلا فى تلك السنة ، ويلزم فى السنة الثانية تحرير ميزانية ثانية وعرضها على النواب كما تقدم ، وهكذا سنويا .

المادة ٤٧ : كل قرار يصدر من مجلس النواب يرسل لمجلس النظار لإجراء التصديق عليه من الحضرة الخديوية .

المادة ٤٨ : إذا أبهت عبارة بند من بنود هذه اللائحة ، واقتضى الحال للوقوف على حقيقة معناه فيطلب تفسيره من مجلس النواب .

المادة ٤٩ : لكل نائب من النواب حق إذا رأى قصورا من أى مأمور أو فى أى إدارة من إدارات الحكومة أن يكتب بذلك للنظار المختصة به الإدارة وهذا فقط فى المواد العمومية . هذا ، وقد أخذت اللجنة الدستورية تراجع نصوص الدستور ولائحة الانتخاب ، ولكن وقع ما حال دون صدور المرسوم الخديوى بهما ، ذلك أن الدول الأوروبية ائتمرت بالخديو إسماعيل وسعت فى خلعه من العرش حتى تم لها ما أرادت ، وتولى توفيق باشا مسند الخديوية . ثم اجتمع مجلس النواب^(٤٦) بجلسته ١٦ رجب سنة ١٢٩٦ (٦ يوليه ١٨٧٩) برئاسة مصطفى بك وهى وتليت إفادة وزارة الداخلية ومضمونها أن النظر فى اللائحتين يقتضى زمناً طويلاً ولذلك ترى الترخيص لحضرات الأعضاء « بالتوجه لبلادهم وبعد تاريخه ينظر فيما يلزم » ، أى أن الحكومة قررت فض المجلس ، وكانت هذه آخر جلسة عقدها فى الدور الثالث من الهيئة النيابية الثالثة ، ثم تعطلت الحياة النيابية فى أوائل عهد توفيق باشا نحو ستين .

ومعلوم أنه أجريت انتخابات جديدة فى عهد توفيق باشا لمجلس شورى النواب ، وهو المجلس الذى اجتمع فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ على عهد الثورة العرابية ، وتولى وضع

(٤٦) جرى الاصطلاح على تسمية مجلس شورى النواب (مجلس النواب) فى أواخر عهد إسماعيل .

الدستور المعروف بدستور سنة ١٨٨٢ والذي صدر به المرسوم الحديوى فى ٧ فبراير من تلك السنة ، وتضمن معظم النصوص والمبادئ التى تقررت فى دستور سنة ١٨٧٩ .

دستور سنة ١٨٨٢

وإذ نشرنا دستور سنة ١٨٧٩ ، رأينا أن نضع إلى جانبه دستور سنة ١٨٨٢^(٤٧) ليسهل علينا المقارنة بينهما وتبين مبلغ ما اقتبسه الثانى من الأول .

المادة ١ : تعيين أعضاء مجلس النواب يكون بالانتخابات والشروط اللازمة لمن له حق الانتخاب ولن يجوز إنتخابه تبين فيما بعد فى لائحة مخصوصة تشتمل أيضا على كيفية الانتخاب .

المادة ٢ : يكون انتخاب أعضاء المجلس لمدة خمس سنوات ويعطى لكل منهم مائة جنيه مصرى فى السنة مقابل مصاريفه .

المادة ٣ : النواب مطلقو الحرية فى إجراء وظائفهم وليسوا مرتبطين بأوامر أو تعليمات تصدر لهم تخل باستقلال آرائهم ولا بوعد أو وعيد يحصل إليهم .

المادة ٤ : لا يجوز التعرض للنواب بوجه ما . وإذا وقعت من أحدهم جناية أو جنحة مدة اجتماع المجلس فلا يجوز القبض عليه إلا بمقتضى إذن من المجلس .

المادة ٥ : للمجلس حال انعقاده أن يطلب الإفراج أو توقيف الدعوى مؤقتاً لحد انقضاء مدة اجتماع المجلس عن يدعى عليه جنائياً من أعضائه أو يكون مسجوناً فى غير مدة انعقاد المجلس لدعوى لم يصدر فيها حكم .

المادة ٦ : كل نائب يعتبر وكيلاً عن عموم أهالى القطر المصرى لا عن الجهة التى انتخبته فقط .

المادة ٧ : مجلس النواب يكون مركزه بمحروسة مصر ويعقد بأمر يصدر من الحضرة الحديوية بموافقة رأى مجلس النظار ويكون اجتماعه سنوياً .

المادة ٨ : تعقد الجلسات الاعتيادية السنوية لمجلس النواب مدة ثلاثة أشهر من أول شهر نوفمبر لغاية يناير وإذا لم تكف هذه المدة لإتمام الأشغال الموجودة وطلب المجلس أن تزداد مدته

(٤٧) عن «الوقائع المصرية» عدد ٩ فبراير سنة ١٨٨٢ .

من ١٥ يوما إلى ٣٠ يوما فيجاء إلى ذلك بأمر يصدر من الحضرة الخديوية .

المادة ٩ : إذا مست الحاجة إلى تكرار اجتماع المجلس في غير مدته المعتادة فيكون ذلك بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية تقرر فيه مدة ذلك الاجتماع .

المادة ١٠ : تفتح الحضرة الخديوية أورئيس مجلس النظار بالنيابة عنها مجلس النواب بحضور باقى النظار .

المادة ١١ : تفتح أول جلسة فى كل سنة بتلاوة مقالة يقرؤها الخديو أورئيس النظار بالنيابة عنه وتشتمل على بيان المسائل المهمة التى تعرض على المجلس فى أثناء انعقاد جلساته وتنقضى الجلسة بعد تلاوة المقالة المذكورة .

المادة ١٢ : يتخىب المجلس فى أثناء الثلاثة الأيام التالية لتلاوة المقالة لجلنة لتحضير جوابها وبعد التصديق عليه من المجلس يصير تقديمه للحضرة الخديوية بمعرفة من يتدبهم لهذا الغرض من أعضائه .

المادة ١٣ : لا يشتمل الجواب المذكور على التكلم فى أى مسألة بوجهه قطعى ولا على أى رأى حصلت المداولة فيه .

المادة ١٤ : يتخىب المجلس ثلاثة من أعضائه تعرض أسماؤهم على الجناب الخديوى فيعين أحدهم ليتولى رئاسة المجلس مدة الانتخاب أى خمسة أعوام بمقتضى أمر يصدر من حضرته .

المادة ١٥ : يتخىب المجلس وكيلين لرئيسه ويعين للقلم كتابا بشرط أن يكون الوكيلان من أعضائه .

المادة ١٦ : تحرر محاضر الجلسات بملاحظة قلم كتابة المجلس الذى يؤلف من الرئيس ومن الوكيلين ومن الكتاب .

المادة ١٧ : اللغة الرسمية التى تستعمل فى المجلس هى اللغة العربية وتحرر المحاضر والملخصات يكون بتلك اللغة .

المادة ١٨ : للنظار حق الحضور فى المجلس وإبداء ما يرومون إبداءه فيه ولهم أيضا أن يستنيبوا عنهم وكلاء من كبار الموظفين .

المادة ١٩ : إذا قر قرار النواب على أن يستدعى للحضور بمجلسهم أحد النظار للاستيضاح منه عن مادة معينة فعلى الناظر أن يذهب إلى المجلس بنفسه أو يستنيب عنه أحد كبار الموظفين يحيب عما يسأل عنه .

المادة ٢٠ : للنواب حق الملاحظة على متوظفي الحكومة جميعاً ولهم في أثناء اجتماع المجلس أن يشعروا بواسطة رئيسه كلا من النظار بما يرون لزوم الإخبار عنه من تعد أو خلل أو قصور يقع في أثناء تأدية الوظيفة من أحد موظفي الحكومة التابعين لنظارته ..

المادة ٢١ النظار متكافلون في المسؤولية أمام مجلس النواب عن كل أمر يتقرر بمجلس النظار ويرتب عليه إخلال بالقوانين واللوائح المرعية الإجراء .

المادة ٢٢ : كل من النظار مسئول عن الوجه المذكور بالبند السابق عن إجراءاته المتعلقة بوظيفته .

المادة ٢٣ : إذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخاطبة وبيان الأسباب ولم تستعف النظارة فالحضرة الخديوية أن تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط أن لا تتجاوز الفترة ثلاثة أشهر من تاريخ يوم الإنقضاء إلى يوم الاجتماع ويجوز لأرباب الانتخاب أن يتخبوا نفس النواب السالفين أو بعضهم ..

المادة ٢٤ : إذا صدق المجلس الثاني على رأى المجلس الأول الذى ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأى المذكور قطعياً .

المادة ٢٥ : مشروعات اللوائح والقوانين تعمل بمعرفة الحكومة ويقدمها النظار لمجلس النواب لنظرها والبحث فيها وإعطاء القرار اللازم عنها ولا يكون المشروع قانوناً معتبراً دستورياً للعمل ما لم يتل في مجلس النواب بنداً فبندا ويقرر حكماً فحكماً ، ثم يجرى التصديق عليه من طرف الحضرة الخديوية ، وكل قانون يتلى ثلاث مرات بين كل مرة وأخرى خمسة عشر يوماً ، وإذا كان القانون مستعجلاً فيكفي تلاوته مرة واحدة ويستغنى عن المرتين الآخرين بمقتضى قرار مخصوص يصدر من المجلس ، وإذا تراءى لمجلس النواب سن قانون فيطلب ذلك بواسطة رئيسه من مجلس النظار ومتى وافقت عليه الحكومة فتعمل مشروعه وتقدمه لمجلس النواب على الوجه المبين بهذا .

المادة ٢٦ : مشروع كل لائحة أو قانون يعرض على المجلس ينظر فيه بمعرفة لجنة من أعضائه تنتخب لذلك ويجوز للجنة المذكورة أن تطلب من الحكومة إجراء بعض تغييرات في المشروع الذى تكلفت بنظره ، وفي هذه الحال يرسل رئيس مجلس النواب إلى رئيس مجلس النظار المشروع والتغييرات المطلوب إجراؤها فيه قبل المذاكرة العمومية بمجلس النواب .

المادة ٢٧ : إن لم تطلب اللجنة إجراء تغييرات في المشروع المحال عليها أو طلبت ولم توافقها

الحكومة على ذلك فيقدم النص الأصلي من مشروع القانون لمجلس النواب للمداولة فيه ، أما إذا صدقت الحكومة على تلك التغييرات فيقدم للمجلس النص الأصلي مع التغييرات التي حصلت فيه للمناقشة فيها ، وفي حالة ما إذا كانت التغييرات ما صار قبولها من الحكومة فللجنة أن تبين رأيها للمجلس وتقدم له ملحوظاتها .

المادة ٢٨ : عند تقديم المشروع للمجلس من طرف اللجنة يجوز للمجلس قبوله أو رفضه ويسوغ له أيضا إحالته ثانية على اللجنة للنظر فيه .

المادة ٢٩ : على رئيس مجلس النواب أن يرسل إلى رئيس مجلس النظار اللوائح والقوانين التي يصدق المجلس عليها .

المادة ٣٠ : لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو عقارات أو ويركوفى الحكومة المصرية إلا بمقتضى قانون يصدق عليه من مجلس النواب ، وعلى ذلك لا يجوز بأى وجه كان وبأى صفة كانت تحصيل عوائد جديدة وكل جهة من جهات الحكومة أمرت بتحصيل شئ من ذلك وكل مستخدم حرر كشوفات أو تعريفات عنها وكل شخص باشر تحصيلها بدون قانون مصدق عليه من مجلس النواب يحاكم كمختلس وترد الحقوق لأربابها .

المادة ٣١ : ميزانية مصروفات وإيرادات الحكومة السنوية تقدم لمجلس النواب سنويا لغاية الخامس من شهر نوفمبر بالأكثر .

المادة ٣٢ : تقدم للمجلس ميزانية عموم الإيرادات مع كشوفات عن كل نوع من أنواعها .

المادة ٣٣ : تنقسم ميزانية المصروفات إلى أقسام متعددة يختص كل قسم منها بنظارة ، ثم يشمل كل قسم على أبواب وفصول بقدر عدد جهات الإدارة العمومية بتلك النظارة .

المادة ٣٤ : لا يجوز للمجلس أن ينظر فى دفعيات الويركو المقرر للاستانة أو الدين العمومى أو فيما التزمت به الحكومة فى أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المعاهدات التي حصلت بينها وبين الحكومات الأجنبية .

المادة ٣٥ : ترسل الميزانية إلى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها (بمراعاة البند السابق) ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لأعضاء مجلس النظار ورئيسه لينظروا جميعاً فى الميزانية ويقرروا بالاتفاق أو بالأكثرية .

المادة ٣٦ : إذا وقع الخلاف بين لجنة النواب ومجلس النظار وتساوى العدد فيه فالميزانية

تعود إلى مجلس النواب فإن أيد رأى مجلس النظار وجب تنفيذه وإن أثبت رأى لجنته فيكون العمل بمقتضى المادة ٢٣ و ٢٤ من هذه اللائحة ، وأما ما حصل فيه الخلاف من الميزانية فإذا كان مقررا في ميزانية السنة السابقة ولم يكن مخصصاً لأعمال جديدة مثل أشغال عمومية وغيرها فينفذ مؤقتاً إلى أن يعقد المجلس الثانى بمقتضى المادة ٢٣ .

المادة ٣٧ : إذا أيد المجلس الثانى رأى المجلس الأول فى أمر الميزانية وجب تنفيذ الرأى المذكور قطعياً كما فى المادة ٢٣ .

المادة ٣٨ : كل عهد أو شرط أو التزام يراد عقده بين الحكومة وغيرها لا يكون نهائياً إلا بعد الإقرار عليه من مجلس النواب ما لم يكن على أمر مبلغه وارد فى ميزانية عامة المقررة بهذا المجلس ، وأية مقالة عن أشغال عمومية خارجة عن الميزانية أو مبيع شئ من أملاك الحكومة أو إعطاء أرض بدون مقابل أو امتياز لأحد لا تكون نهائية إلا بعد الإقرار عليها من مجلس النواب أيضاً .

المادة ٣٩ : يجوز لكل مصرى أن يقدم للمجلس عريضة ويحال النظر فى هذه العريضة على لجنة يتخبها المجلس وبناء على ما يجاب منها يحكم المجلس بقبول أو رفض العريضة وما يحكم بقبوله يحال على الناظر المختص به ذلك .

المادة ٤٠ : كل عرض يختص بحقوق أو صوالمح شخصية يرفض متى كان من خصائص المحاكم المدنية أو الإدارية أو كان لم يسبق تقديمه لجهة الإدارة المختصة به .

المادة ٤١ : إذا طرأت ضرورة مهمة تستلزم المبادرة إلى الأخذ بأسباب الاحتياط لوقاية الحكومة من خطر أو للمحافظة على الأمن العمومى وكان مجلس النواب غير منعقد وكانت الاحتياطات المرغوب إتخاذها داخلة بمخصائمه ولم يسع الوقت اجتماعه جاز للمجلس النظار إجراء ما يلزم إجراؤه على مسئوليته مع التصديق على ذلك من الحضرة الخديوية ، ولدى انعقاد مجلس النواب يقدم الأمر إليه ليرى رأيه فيه .

المادة ٤٢ : لا يجوز لأئى شخص أن يعرض لمجلس النواب مسألة ما أو يتناقش فيها أو يشترك فى المداولة إلا أن كان من أعضائه أو من النظار أو ممن كان حاضراً معهم أو نائباً عنهم .

المادة ٤٣ : يكون إعطاء الآراء فى المجلس بواسطة رفع اليد أو النداء بالإسم أو وضع الآراء فى صندوق .

المادة ٤٤ : لا يجوز إعطاء الآراء بالنداء بالإسم إلا إذا طلب ذلك عشرة من أعضاء المجلس بالأقل ، وعلى كل حال فالرأى فيما نص عليه بالمادة السابعة والأربعين يكون دائماً بالنداء بالإسم .

المادة ٤٥ : إنتخاب الثلاثة الأعضاء الذين يعين منهم رئيس المجلس وكذا انتخاب الوكيلين والكتاب الأول والثاني يكون دائماً يوضع الآراء فى صندوق .

المادة ٤٦ : لا تكون المداولة بالمجلس صحيحة إلا إذا كان حاضراً فيه ثلثاً أعضائه بالأقل وإلا كانت المداولة لاغية ويكون صدور القرارات بالأغلبية المطلقة .

المادة ٤٧ : كل قرار يترتب عليه مسئولية النظر لا يجوز صدوره إلا بالأغلبية المتوفرة فيها ثلاثة أرباع النواب الحاضرين بالجلسة .

المادة ٤٨ : لا يسوغ لأحد من النواب أن يستنيب عنه غيره لإبداء رأيه .

المادة ٤٩ : على مجلس النواب أن يحرر لائحة إجراءاته الداخلية وتكون تلك اللائحة نافذة الحكم بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية .

المادة ٥٠ : للمجلس الحق أن يعدل هذه اللائحة الأساسية بالاتفاق مع مجلس النظر .

المادة ٥١ : إذا أغمض معنى بند أو عبارة من هذه اللائحة فيكون تفسيره باتحاد مجلس النواب مع مجلس النظر .

المادة ٥٢ : كل أحكام القوانين والأوامر واللوائح والعادات المخالفة لهذه اللائحة لا يعمل بها بل تكون لاغية .

المادة ٥٣ : على نظارنا تنفيذ هذه اللائحة كل فيما يخصه .

(صدر بسراى الإسماعيلية فى ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٩٩ - ٧ فبراير سنة ١٨٨٢) .

محمد شريف باشا

مؤسس النظام الدستورى فى مصر

(١٨٢٦ - ١٨٨٢)

إن الحديث عن دستور سنة ١٨٧٩ و ١٨٨٢ يستتبع الكلام عن محمد شريف باشا ، فإنه

يعد بحق مؤسس النظام الدستورى فى مصر .



محمد شريف باشا

وزير السودان ومؤسس النظام الدستوري في مصر

سيظل اسم شريف باشا مذكوراً مدى الدهر في سجل الحركة القومية ، وذلك لموقفه المشهود في شأن السودان ، واحتجازه العمل على سلخه عن مصر ، ومسألة السودان نقطة حساسة في المسألة المصرية ، لأنها مسألة الحياة لمصر ، فلا غرو أن يذكر المصريون دوماً موقف شريف باشا فيها ، فإنه موقف مشرف ، يكفي وحده لتخليد اسم صاحبه وتمجيده .

كان هذا الموقف آخر مواقف شريف باشا ، إذ ختم به حياته السياسية ، وهو وإن كان أعظم مواقفه شأنًا ، وأبقاها على الزمن أثراً ، فإن حياته حافلة بالمواقف المجيدة ، وحسبك أن اسمه إقترن بثلاثة أدوار للحركة القومية ، كان فيها مناط رجاء الأمة وموضع ثقها ، وعمل فيها جميعاً بتراهة وإخلاص .

الدور الأول : دور النهضة السياسية والوطنية التي ظهرت في عصر إسماعيل ، فقد كان

شريف باشا الزعيم الوطنى والسياسى الذى اتجهت إليه أنظار الأحرار لتأليف « الوزارة الوطنية » خالية من العنصر الأوروبى ، قائمة على مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب ، وعلى يده تقرر هذا المبدأ الذى يعد قوام النظام الدستورى ، كما تقدم بيانه . والدور الثانى : دور الثورة العرابية ، وله فيها المقام المحمود ، والرأى الصائب ، والنظر الصادق ، إذ كان على يده إجابة مطالب العرابيين الأولى : وهى المطالب الدستورية . السليمة ، وألف الوزارة التى تم فى عهدها تأليف مجلس النواب سنة ١٨٨١ ونحويله سلطة المجالس النيابية الحديثة .

ولما وقع الاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢ اقترن اسمه بدور ثالث من أدوار الحركة الوطنية ونعنى به المقاومة الأهلية التى اعترضت السياسة الاستعمارية الإنجليزية ، وذلك باستقالته المشرفة التى قدمها اعتراضاً على سلخ السودان عن مصر ، وعلى تدخل الانجليز فى سلطة الحكومة المصرية .

فترى من هذا البيان الوجيز أن شخصية شريف باشا اقترنت بأدوار ثلاثة ، من أعظم أدوار الحركة القومية شأنًا ، وله فى كل منها مواقف جليلة ، هذا إلى أنه تولى رئاسة الوزارة أربع مرات ، فى أوقات عصيبة ، وظروف دقيقة ، فجعل منهجه فى كل مرة تحقيق آمال الأمة ، وحل المضكلات التى تواجهها البلاد ، فهو من الأفذاذ الذين ينظرون إلى الوزارة على أنها وسيلة لا غاية ، ولم يكن من أولئك الذين يحرصون على المناصب ، ولو ضحوا فى سبيلها حقوق مصر وكرامتها ، بل كان يضحى بالوزارة استمساكا بالحق والكرامة والمبدأ .

وتمتاز شخصية شريف باشا بمزايا عديدة ، أولها كفاءته العلمية والسياسية ووفرة نصيبه من الثقافة الغربية ، واقتباسه الأساليب الحديثة الراقية فى حياته وأحاديثه وآرائه ، بحيث نال احترام كل من حادثوه أو اتصلوا به من رجال السياسة الأوروبيين فهو يعد حقا من رجال الدولة الممتازين ، الذين يضارعون رجالات أوروبا الأفذاذ فى المكانة والكفاءة ، والميزة الثانية إخلاصه لمصر ، فإنه لم يكن يطمع فى المناصب ، ولا جعلها قبلته ومنطمح آماله ، بل كانت المناصب تسعنى إليه ، ويرجى منه تقلدها ، لمواهبه وصفاته البارزة ، وقد عرضت عليه رئاسة الوزارة فى عهود مختلفة ، فكان يتقبلها على أن يضع لنفسه خطة سياسية وطنية ، يسير عليها ويعمل على تحقيقها جهد ما يستطيع ، وإذا لم يتحقق برنامجها بادر إلى الاستقالة من الوزارة زاهداً فيها غير آسف عليها ، ولعل هذه الخطة الوطنية يرجع جانب كبير منها إلى

ما اتصف به من الكرامة والشمم وما تحلى به من العفة والتزاهة فإن هذه الصفات جعلته يأبى أن يتخذ المناصب وسيلة للمنفعة والجاه ، وكان يزهد فيها إذا آنس منها امتهاناً لكرامته ، وإنك لتلمح في شخصيته شعور الكرامة والشمم ، وهو بعد وزير للحقانية والخارجية سنة ١٨٧٨ ، حين وقع الخلاف بينه وبين لجنة التحقيق الأوروبية ، فقد استدعته اللجنة لسماع أقواله ، فرفض بإباء أن يطأطأء الرأس أمام جبروتها ، وامتنع عن المثول بين يديها ، وآثر الاستقالة من منصبه احتفاظاً بكرامته وكرامة المنصب الذى يشغله .

ولما تطلعت إليه أنظار الأحرار ليؤلف الوزارة سنة ١٨٧٩ قبل هذه المهنة واتخذ لنفسه برنامجاً جلياً واضحاً ، وهو تقرير النظام الدستورى أساساً للحكم وإنقاذ البلاد من طغيان الوفوذ الأجنبي ، وقد بقيت وزارته إلى أن خلع الخديو إسماعيل وتولى توفيق باشا منصب الخديوية ، فقدم استعفاؤه من الوزارة فدعاه الخديو إلى تأليف الوزارة الجديدة فألفها ولكنها لم تدم طويلاً لأن نزعتة الدستورية لم تكن لترضى الخديو توفيق فاستعفى ثانية من الرئاسة وخلفه الخديو توفيق باشا ذاته ، ثم رياض باشا إلى أن قامت الحركة العرابية ، فأتجهت إليه الأنظار من جديد لتأليف الوزارة ، وتحقيق آمال الأمة ، فلى نداء الوطن ، وألف وزارة غايتها تأليف مجلس نيابى كامل السلطة فكان برنامجاً في هذه الوزارة هو ذات البرنامج الذى وضعه لوزارته الأولى فى عهد إسماعيل ، ولما اختلف والعرايين ، لم يقبل مسيرتهم فيها رآه خطأ ، واستقال وبقى فى عزله إلى أن وقع الاحتلال الإنجليزى ، ثم دعى إلى تأليف الوزارة لإنقاذ الموقف فلى دعوة الخديو توفيق وتولى الرئاسة واضطلع بها فى ظروف حرجة ، إلى أن وقع التصادم بينه وبين الاحتلال فى مسألة السودان وتدخل الإنجليز فى شؤون الحكومة فاستقال احتجاجاً على عدوان السياسة الإنجليزية .

فن هذه النظرة العجلى يتبين لك أنه كان يتولى الوزارات على أساس قومى ، ويرسم لنفسه برنامجاً يتقيد فيه بمقصد شريف ، ويعمل على تنفيذه مستمسكاً بالكرامة والشمم والإباء حريصاً على حقوق البلاد ، فلا غرو إذ كان يسبغ على الوزارة كلها تولاها ثوباً من العظمة والجلال .

وإلى جانب إخلاصه وكفاءته السياسية كان يمتاز بقوة شخصيته ، لا حيال السلطة فحسب ، بل إزاء أهواء الجماهير فإذا رآها حادت عن جادة الصواب لا يسايرها فى خطئها استبقاء لحسن الأحداث ، ولا يثنى أمامها ، بل يثبت فى موقفه ويستمسك بوجهة نظره وهذه

الناحية تطالعك بمبلغ اخلاصه ومثانة أخلاقه وقوة يقينه وهى لعمري صفات نادرة فقليل من رجال السياسة من لا تسهرهم ميول الجماهير ولا تستدرجهم إلى مسيرتها رغم اعتقادهم بخطئها .

هذه هى المزايا التى اجتمعت فى شريف باشا ، وهى لعمري جديرة بأن تجعله من عظماء مصر الحالدين .

نشأته

إن نشأة المرء لها بلا مرء دخل كبير فى مصيره ، فالوراثة ، والبيئة ، والتربية الأولى ، والعصر السياسى ، والإجتماعى تؤثر فى شخصية الإنسان وتوجهه الوجهة الأولى فى الحياة ، هذه العوامل لها الأثر الأول فى شخصية المرء فإنها تطبعه بطابع يبقى فى الغالب على مر سنين ويرتسم أثره فى أخلاقه وميوله واستعداداته وعقائده وآرائه ، وأعماله وأطواره فى الحياة .

فما هى إذن نشأة شريف باشا التى تألفت منها العناصر الأولى لشخصيته ؟

ولد المترجم بالقاهرة فى شهر نوفمبر سنة ١٨٢٦^(٤٨) ، فى العهد الذى كان محمد على باشا يعمل فيه لإنهاض مصر والأخذ بيدها لترقى إلى مصاف الدول المستقلة ، وكان مما وجه إليه همته نشر العلوم والثقافة فى مصر ، وإعداد طائفة من شبانها لينالوا أكبر حظ من التعليم الحديث .

فى هذا العهد ولد المترجم وكان أبوه محمد شريف أفندى قاضى قضاة مصر فى ذلك الحين ، ومعلوم أن قاضى القضاة كان يعين لمدة سنة أو سنتين فلما انقضت مدة شريف أفندى عاد إلى الأستانة ، وعاد معه المترجم وسنه لا تتجاوز عدة أشهر وبعد انقضاء بضع سنوات عين أبوه قاضيا للحجاز ، فمر بمصر فى طريقه إلى مقر منصبه ، وقابل محمد على باشا ، فأكرم وفادته ورأى ابنه معه ، فتفرس فيه النجابة والذكاء ولا غرر فقد كان من أخص صفات محمد على الفراسة وصدق النظر ، وصحة الحكم على الأشخاص ، فرغب إلى أبيه أن يعهد إليه تعليمه وتثقيفه فقبل أبوه هذه المنة شاكرًا ، وتركه فى رعاية عاهل مصر العظيم .

دخل المترجم مدرسة الخانكة ، وهى المدرسة الحربية التى أنشئت سنة ١٨٢٦ بأمر محمد

(٤٨) كما جاء فى ترجمته بالوقائع المصرية بالعدد الصادر فى ٢٧ أبريل سنة ١٨٨٧ .

على وكان من تلاميذها بعض أنجاله وأحفاده ولما أتم شريف دراسته في تلك المدرسة أنتظم سنة ١٨٤٤ في سلك البعثة الخامسة من البعثات العلمية التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا ، وهي البعثة التي كان بها من أنجال محمد علي الأميران حسين وعبد الحلیم ، ومن أحفاده إسماعيل (الخديون) وأحمد رفعت ، ومن نوابغها علي مبارك (باشا) وغيره ، فتخصص المترجم في الفنون الحربية بمدرسة سان سير Saint Cyr التي ذاعت شهرتها في التعليم الحربي العالي ، فتقدم فيها ووصل إلى أعلى فرقها ، ثم انتقل إلى مدرسة تطبيق العلوم الحربية فظل بها سنتين ، والتحق بالجيش الفرنسي ليؤدي مدة التمرين ، كما تقضى به النظم العسكرية ونال رتبة (يوزباشي أركان حرب) فوصل في العلوم الحربية وفنونها إلى أرقى مراتبها .

ولما تولى عباس الأول الحكم أمر باسترجاع أعضاء البعثة العلمية بفرنسا فعاد المترجم إلى مصر سنة ١٨٤٩ والتحق بالجيش المصري بمثل الرتبة التي نالها في الجيش الفرنسي .

اتصاله بالجنرال سليمان باشا الفرنساوى

كان القائد سليمان باشا الفرنساوى (الكولونيل سيف) قائداً عاماً للجيش المصرى في عهد عباس ، ومن حسن توفيق المترجم أن اختاره ذلك القائد الكبير ضمن ياورانه ، ولعله تعرف فيه صفات النبل ، والتهذيب والشيم الكريمة التي أخذها عن محمد شريف أفندى أبيه ، علاوة على تربيته وأسالبيه وثقافته العصرية التي اكتسبها في فرنسا ومن هنا نشأت صلات الود بينهما ، حتى زوجه بكريمته .

ولم يلق المترجم في عهد عباس تقدماً ورعاية ، على الرغم من مساعدة سليمان باشا إياه ، ورغبته في ترقية ففكر في ترك منصبه في العسكرية وجعله الأمير عبد الحلیم سكرتيراً له في دائرته سنة ١٨٥٣ ، وبقي يشغل هذه الوظيفة إلى وفاة عباس .

في عهد سعيد

ولما تولى سعيد عطف على المترجم إذ عرف فيه الكفاءة والنبل فأعاده إلى السلك العسكرى ورفاهه إلى رتبة أمير الاى الحرس الخصوصى ، وبقي سنتين مشمولاً بعطف سعيد ورعايته إلى أن

رقاة إلى رتبة لواء (باشا) وولاه قيادة أحد الأيات المشاة ، وألأى الحرس الخصوصى ولم يمض عام على هذه الترقية حتى تزوج سنة ١٨٥٦ بكريمة الجنرال سليمان باشا ومن هنا سماه العامة شريف باشا الفرنساوى إشارة إلى إتصاله بصهره سليمان باشا الفرنساوى ثم ارتقى إلى رتبة فريق وكانت منزلته الأدبية ترداد سموا ، لما اتصف به من التعفف والإياء والتراثة والاستقامة

انتقاله إلى المناصب السياسية

كان شريف باشا إلى ذلك العهد مندجاً في السلك العسكرى ، ثم فكر سعيد في أن يعهد إليه بالمناصب السياسية والمدنية فجعله وزيراً للخارجية سنة ١٨٥٧ ومن ذلك الحين بدأت شخصيته تظهر في الأفق السياسى ، وتسترعى الأنظار فقد جمع بين الكفاءة ، وكرم الخصال وعفة النفس ، إلى إدراك حظ كبير من العلوم الحديثة وأساليب الحياة الأوروبية مما جعله لا يقل عن مستوى رجال السياسة في أوروبا ومنذ تولى وزارة الخارجية اقترنت شخصيته بمعظم الحوادث السياسية البارزة التى وقعت في مصر على عهد سعيد وإسماعيل وتوفيق وكان له في أكثرها رأى معدود وعمل ممدوح ، وظل زهاء ثلاثين سنة يتولى كبار المناصب ويتم على يده أهم التطورات السياسية في البلاد .

في عهد إسماعيل

توفى سعيد باشا سنة ١٨٦٣ والمترجم وزير للخارجية فاحتفظ بمقامه ، بل زادت منزلته في عهد إسماعيل ، إذ كان الخديو يقدر صفاته الممتازة منذ زامله في الدراسة ، فعهد إليه بوزارتى الداخلية والخارجية معاً ، ولما سافر إلى الأستانة في يولييه سنة ١٨٦٥ جعله « قائممقاماً » عنه مدة غيبته ، وهو مركز رفيع لم ينله أحد من قبل من غير العائلة المالكة . وكان وزيراً للداخلية حينما أسس إسماعيل مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ ، وصحبه في حفلة افتتاح المجلس كما تقدم بيانه (ص ٩٦) وإذا علمت أن وزير الداخلية في ذلك الحين كان بمثابة أكبر وزير في الدولة ، كان لك أن تستتج أن على يده تأسس ذلك المجلس الذى أسلفنا الكلام عنه ، وهذا يدلك على ما فطر عليه المترجم من الميل نحو الشورى

والدستور ، وفي سنة ١٨٦٨ عهد إليه الخديو برآسة (المجلس الخصوصى) الذى كان بمنزلة مجلس الوزراء ، وظل إلى نهاية عهد إسماعيل يتولى كبرى المناصب .

لم يشترك شريف باشا فى مساوىء الفروض التى استدانتها إسماعيل ، ولم يستفد من سياسة البذخ والإسراف التى اتبعها الخديو ؛ بل بقى تزيها لم تمتد يده إلى مال الدولة ، ولم يعيث بمصالحها ، وتلك ميزة كبرى تدل على عفته وتزاهته غير أنه لم يقف من الخديو موقف المعارضة فى تصرفاته المالية ، بل كان يقابلها بالسكوت والإغضاء وكان يمكن لمثل شريف باشا فى مكانته ومركزه أن يسدى إلى إسماعيل النصيحة مقرونة بالحزم والشجاعة ، ويبيصره بعواقب سياسته المالية وأخطارها على البلاد وعلى ذات الخديو ولكنه لم يفعل ، ولا ندرى هل كان ذلك عن اعتقاد منه بأن ميل إسماعيل للحكم المطلق ، وانفراده بالرأى يجعله غير قابل للنصيحة ولو صدرت من رجل فى مكانة شريف باشا ، أم أن شخصية شريف لم تكن من القوة بحيث يصارح إسماعيل بانتقاد سياسته المالية ، ومهما يكن السبب فإن هذه نقطة ضعف فى تاريخ شريف باشا .

على أن موقفه حينما بدأ التدخل الأجنبى فى شؤون مصر ، كان موقفاً مشرفاً ، فإنه من جهة ، كان يكره التدخل الأوروبى ويأبى أن يكون أداة ذلولاً له ، ومن ناحية أخرى كان يؤمن بالشورى والدستور ، ولا يؤيد استبداد الخديو ، ومن هنا جاءت ميوله الدستورية التى لازمتها فى عهد إسماعيل ، ثم فى عهد توفيق ، ولم يجد عنها حتى وفاته .

وظهرت فيه هذه المزايى حينما نزل إسماعيل على إرادة الدول ، وألف لجنة التحقيق الأوروبية سنة ١٨٧٨ وأباح لها التنقيب عن أحوال الحكومة المالية ، فظهرت اللجنة بمظهر الهيئة المسيطرة على الإدارة المصرية ، وكان شريف باشا وقتئذ وزيراً للحقانية والخارجية .

فاستدعته اللجنة أمامها لكى تسمع أقواله ، ولكنه رفض أن يقف هذا الموقف المهين ، ووقعت لذلك أزمة أدت إلى استقالته من الوزارة ، فكانت هذه أولى استقالات شريف باشا السياسية التى أقدم عليها دفاعاً عن مصالح البلاد وحقوقها .

وقد رفعت هذه الاستقالة من مكانة المترجم وأخذت أنظار الأحرار تتجه إليه كزعيم مخلص جرىء يقف فى وجه التدخل الأجنبى ، ويحتفظ بحقوق البلاد وكرامتها ، فلا جرم أن اتفق الأحرار على اختياره لرآسة « الوزارة الوطنية » كما بينا ذلك فى سياق الحديث ، فاستجاب الخديو إسماعيل إلى مطالب الأحرار ودعا شريف باشا إلى تأليف الوزارة على أساس

اللائحة الوطنية ، فألفها في إبريل سنة ١٨٧٩ ، كما تقدم بيانه ، وأقصى الوزيرين الأوروبيين اللذين كانا يتوليان المالية والأشغال في عهد نوبار وتوفيق وأقر مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب ، فأقام البناء الأساسى فى صرح الدستور .

فعلى يد شريف باشا قام النظام الدستورى فى مصر ، فى عهد وزارته للداخلية سنة ١٨٦٦ أنشئ مجلس شورى النواب ، وفى عهد رآسته للوزارة سنة ١٨٧٩ كملت سلطة المجلس بتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمامه ، وفى وزارته الثالثة سنة ١٨٨١ أنشئ مجلس النواب على غرار المجالس النيابية الحديثة ، فلا غرو أن يعد شريف باشا بحق مؤسس النظام الدستورى فى مصر .

شريف باشا والثورة العرابية (٤٩)

كان شريف باشا رئيساً للوزارة ، حينما خلع إسماعيل ، فاستقال من الرئاسة عقب ولاية توفيق باشا اتباعاً للعادة المألوفة عند تغيير ولى الأمر ، وعهد إليه الخديو توفيق تأليف الوزارة فألفها (٥٠) ، وكانت ثانية الوزارات التى رأسها ولكن الخديو لم يكن فى خاصة نفسه يميل إلى شريف لمبادئه الدستورية وكان ينبغي أن يقلد الرئاسة وزيراً معروفاً بكراهيته لتلك المبادئ فوجد فى رياض باشا ذلك الرجل ، ومعروف عن رياض أنه من دعاة الحكم المطلق .

لم يكن الخديو توفيق ليرضى عن نزعة شريف الدستورية ، ولم يكن ابقاؤه إياه فى الوزارة عند ولايته العرش إلا لتمر الأيام الأولى من حكمه فى هدوء وطمأنينة ، فلما انقضت تلك الفترة ، بدا على توفيق أنه لا يرغب فى بقاء شريف باشا ، وظهر الخلاف بينهما على نظام الحكم ، فإن شريف طلب إلى الخديو تشكيل مجلس النواب ، فرفض طلبه ، فاستقالت الوزارة فى أغسطس سنة ١٨٧٩ ، وكان الوزراء قد تعاهدوا ورئيسهم على أنه إذا لم يحب طلبهم فالوزارة تستقيل ولا يقبل أعضاؤها الاشتراك فى وزارة أخرى تتألف على غير هذا الأساس وقد بر الوزراء بعهدهم ما عدا محمود سامى باشا البارودى ومصطفى فهمى باشا ،

(٤٩) أوجزنا القول فيما يلى من هذا للبحث وسنعود إليه مفصلاً بمشيئة الله فى كتابنا الآتى (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى) .

(٥٠) أعضاؤها هم إسماعيل باشا أيوب المالية ، وعلى غالب باشا للحرية ، ومحمود سامى باشا البارودى للمعارف والأوقاف ، ومصطفى فهمى باشا للأشغال ، ومراد باشا حلمى للحقانية . واحتفظ شريف باشا بالداخلية والخارجية .

فإنهما رضيا بالأشتراك في الوزارة التي تولى الخديو رياستها ، ثم في وزارة رياض باشا وذلك أنه لما إستقال شريف باشا ألف الخديو وزارة من غير رئيس وناط بنفسه رآستها وكانت هذه بدعة في نظام الحكم ورجوعاً به إلى الوراء ، لأن القاعدة المتبعة منذ تأليف مجلس النظار في أغسطس سنة ١٨٧٨ أن يكون للوزارة رئيس يتولى إختيار أعضائها ويرأس جلسات (مجلس النظار) ، فتشكيل الوزارة الجديدة من غير رئيس كان يشعر بميول الخديو الاستبدادية ورغبته في الرجوع إلى طريقة إسماعيل القديمة من تعيينه وزراء لا تتألف منهم هيئة مستقلة بل يكونون كسكرتيرين له .

فالطريقة التي أتبعها توفيق باشا في ترؤسه للوزارة تعطينا فكرة عن مبلغ كراهيته للشورى ، وتلقى ضوءاً على أسباب الحركة المعروفة بالثورة العرابية وتطوراتها ، فإن مسلك الخديو توفيق باشا كان بلا مرأى من أهم الأسباب التي دعت إلى قيام الجيش بحركته السياسية ، ووقوع الانقسام بين الخديو والشعب مما أدى إلى الاختلال الإنجليزي ولو كان الخديو توفيق نصيراً للشورى ، لم الانقلاب الدستوري بسلام ، ولما نجحت الدسائس الإنجليزية في إفساد الحركة العرابية .

ويدلك أيضاً على ميول توفيق الإستبدادية أنه بعد أن ألف وزارة من غير رئيس ثم فكر في العدول عن هذه البدعة والرجوع إلى النظام الذي تقرر في أغسطس سنة ١٨٧٨ ، عهد إلى رياض باشا في سبتمبر سنة ١٨٧٩ تأليف الوزارة أى أنه اختار للرأية سياسياً معروفاً بتشيعه للحكم المطلق ، وقد بقيت البلاد محرومة في عهد وزارته من الحياة النيابية مدة ستين متواليات لم يجتمع في خلالها مجلس يمثل الأمة ، ولا مجلس شورى النواب القديم الذي كان موجوداً من قبل ، إلى أن قامت الثورة العرابية ، وتحرك عرابي باشا على رأس الجند ، وساروا إلى ميدان عابدين يوم الجمعة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وكان أول مطلب لعرابي في ذلك اليوم المشهود عزل وزارة رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، فاستقال رياض تزولا على إرادة العرابيين .

الوزارة الدستورية وإنشاء مجلس النواب

كان طبعياً بعد استقالة رياض باشا أن تتجه الأنظار إلى شريف باشا لتأليف الوزارة الجديدة التي تحقق مطالب الأمة فكما كان موضع ثقة الأحرار سنة ١٨٧٩ في تأليف الوزارة

الوطنية على عهد إسماعيل كذلك تطلعت إليه أنظار العراقيين سنة ١٨٨١ ليرأس الوزارة القومية التي تنقذ البلاد من التدخل الأجنبي ويستقر على يدها النظام الدستوري في مصر ، وكاشفوا الخديو بهذه الرغبة بعد استقاله رياض باشا ، فأجاب الخديو طلبهم ، وكان شريف باشا وقتئذ بالإسكندرية فاستدعاه الخديو ، وعهد إليه تأليف الوزارة فتردد أياماً في قبول هذه المهمة ، إذ كان لا يرضى عن تدخل الجند في السياسة ، وما يفضى إليه من سقوط هيئة الحكومة وقيام الفوضى في البلاد .

كان شريف ورياض مختلفان في التركة ، فيما رياض يقر التدخل الأجنبي والحكم الاستبدادي ، فإن شريف يكره الاثنين معا ، ويرى وجوب إقامة الحكم الدستوري ، ووضع حد لتدخل الدول والأجانب في شؤون مصر ، ولكنه كان يريد الحكم الدستوري الصحيح ، ويرى أن تدخل الضباط في شؤون الحكم معناه نقل الاستبداد من يد الخديو إلى أيدي العصابة العسكرية . وهذا ليس من الدستور ولا من مصلحة البلاد في شيء فقضى بضعة أيام متردداً في قبول الرئاسة . حتى واثقه العراقيون أن لا يتدخل الجيش في شؤون الحكومة ، فألف الوزارة في اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وكانت هذه ثلاثة وزارات التي ألفها ، وتقلد الرئاسة والداخلية ، وعهد بالحربية إلى محمود باشا سامي البارودي ، لأنه كان موضع ثقة العراقيين ، وأحد زعمائهم الطموحين إلى السلطة والجاه ، فاختاره شريف لهذه الوزارة إجابة لطلب العراقيين ، أما بقية الوزراء فهم : حيدر باشا للمالية ، وإسماعيل أيوب باشا للأشغال ، ومصطفى فهمي باشا للخارجية ، ومحمد زكي باشا للمعارف والأوقاف ، والعلامة قدرى باشا للحقانية .

كان شريف باشا يمثل الناحية المعتدلة من الثورة العراقية . ولو بقيت الثورة مناصرة له ، مستمعة لنصائحه ، لسارت في طريق الحكمة والسداد ولأمنت البلاد شر الاحتلال ، ولكن الثورة ركبت متن الشطط من يوم أن انفصلت عن شريف باشا أو انفصل هو عنها ، فغامرت بالبلاد ومستقبلها وعرضت استقلالها للخطر .

تعد وزارة شريف باشا الثالثة « وزارة الأمة »^(٥١) ، فقد تم تأليفها برغبة زعماء البلاد وأعيانها ، وقد حقق شريف باشا الثقة التي أولتها الأمة أياه ، واضطلع بالمهمة التي ألقها الثورة على عاتقه ، وأول ما رسمه من الخطط الحكيمة إعادة النظام إلى الجيش ، فإن الثورة العراقية

(٥١) اخترنا هذا التعبير تمييزاً لها عن وزارة محمود باشا سامي البارودي التي تعد « وزارة الثورة » .

بوصف كونها ثورة عسكرية كادت تخرج الجيش عن مهمته الأصلية ، وهى حفظ النظام ، وتجعله أداة سياسية للسيطرة والحكم ، وهنا وجه الخطر ، إذ تقع الحكومة فريسة الفوضى ، ويعمها الخلل والطغيان ، فلما تقلد شريف الراسة وذهب زعماء الثورة من الضباط وعلى رأسهم عرابى ليذكروه على قبوله الوزارة فى تلك الأوقات العصيبة ، اغتم هذه الفرصة لينبهم إلى وجوب إبتعاد الجيش عن التدخل فى السياسة ، فأجاب على كلمة الشكر التى سمعها منهم بقوله :

« فى علمكم ما قاله الأقدمون : آفة الرئاسة ضعف السياسة ، ولا حكومة إلا بقوة ، ولا قوة إلا بانقياد الجنود انقياداً تاماً ، وامثالهم إمثالاً مطلقاً . »

« كل حكومة عليها فرائض وواجبات ، من أهمها صيانة الوطن ، وحفظ الأمن العمومى فيه ، وهذا وذاك لا يتأتيان إلا بإطاعة رجالها العسكريين ، فترددى أولاً فى قبول الرئاسة ، ما كان إلا تجافياً عن تأسيس حكومة غير قوية تخيب بها الآمال ، ويزيد معها الإشكال ، فأكون عرضة للملامة بين إخوانى فى الوطن وبين الأجانب وحيث أغاثتنا الألفاظ الإلهية وحصل عندى اليقين بانقيادكم ، فقد زال الاضطراب من القلوب ورتبت الهيئة الجديدة من رجال ذوى عفة واستقامة ، فأوصيكم بملاحظة الدقة فى الضبط والربط لأنها من أخص شؤون العسكرية وأساس قواها ، واعرفوا أنكم مقلدون أشرف وظيفة وطنية ، فقوموا بأداء واجباتها الشريفة ، وعلى القيام بأداء كل ما يزيدكم فخراً وسؤدداً ، وفقنا الله وإياكم . »

فهذه الخطبة على إيجازها جمعت أسمى ما يقوله زعيم سياسى صائب الرأى ، بعيد النظر ، فى الظروف التى تألفت فيها وزارته ، فلم يكن خافياً أن الدول الاستعمارية كانت تتطلع إلى الثورة العربية لتتخذ منها ذريعة للتدخل فى شؤون البلاد ، ولم يكن يخفى أن زعماء الثورة من الضباط قد داخلهم شىء كبير من الزهو والخيلاء إذ كانوا قوام الحركة ، وبفضلهم سقطت وزارة رياض باشا البغيضة إلى الرأى العام ، وتألفت وزارة شريف باشا المرجوة من الأمة ، فلو لم يكن شريف عظيم النفس قوى الشخصية لجعل خطبته تمليقاً لضباط الجيش ، اكتساباً لثقتهم وتأيدهم ، ولكنه على العكس خاطبهم بلهجة الناصح الأمين ، ودعاهم إلى التزام حدود واجباتهم ، وهى الطاعة والنظام والذود عن الوطن ، ولم يكن مثل شريف ليقبل أن يكون أداة فى يد الجيش وزعمائه ، لأنه لم يقصد من تأليف الوزارة مجداً أو سلطة ، فقد عرف عنه التعفف والتزاهة فى كل أدوار حياته ، وشهد له ماضيه بأنه لا يحرص على المناصب ، وأنه

يزهد فيها إذا رآها تخالف مبدأه وكرامته ، ولقد كان من الوجهة الدستورية أسبق في الكفاح للدستور من العرايين ، فقد أسلفنا أن على يده تطور النظام الدستوري لمجلس شورى النواب ، إذ تألفت وزارته الأولى على قاعدة تقرير مبدأ المسؤولية الوزارية أمام المجلس ، فعمله سنة ١٨٨١ ، كان استئنافاً لجهاده سنة ١٨٧٩ ، قبل أن تظهر الدعوة العراية بثلاث سنين . ولقد برّ شريف باشا بوعده في تحقيق مطالب الأمة ، وأهمها تأليف مجلس نيابي كامل السلطة ، على مثال المجالس النيابية الأوروبية ، فرفع إلى الخديو توفيق باشا في ٤ أكتوبر سنة ١٨٨١ تقريراً بإجابة مطالب الأمة في هذا الصدد ، واتبع في تحقيقه خطة تدل على الحكمة وسداد الرأي ، ذلك أنه دعا إلى إجراء انتخابات عامة ، طبقاً للأئحة لمجلس شورى النواب القديم المؤسس في عهد إسماعيل على أن تعرض الوزارة على المجلس المنتخب التعديلات التي ترى إدخالها على نظام المجلس ليقرر ما يراه من التعديل في نظامه حتى ينهض إلى مستوى المجالس النيابية الصحيحة ، أي أنه دعا إلى انتخاب مجلس شورى النواب على أن يكون (جمعية تأسيسية) لوضع الدستور الجديد .

وقد تم الانتخاب ، وافتتح الخديو مجلس شورى النواب في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ وأخذ المجلس يتولى أعماله ، وفي اليوم الثاني من شهر يناير سنة ١٨٨٢ عرض عليه شريف باشا مشروع القانون الأساسي للمجلس النيابي ، كي يبحثه المجلس ، ويقرر ما يراه فيه ، وقد حوى القواعد الرئيسية للنظم الدستورية الحديثة ، كتقرير مسؤولية الوزارة أمام مجلس النواب وتخويله حق تقرير الميزانية ، والرقابة على أعمال الحكومة والترامها بعدم فرض أى ضريبة أو إصدار أى قانون أو لائحة إلا بعد تصديق مجلس النواب .

ولما عرض شريف باشا مشروع القانون الأساسي على المجلس ألقى خطبة ضافية ذكر فيها أنه في وضع هذا المشروع إنما ينفذ الخطة التي رآها منذ ثلاث سنوات في عهد إسماعيل ، وإلى ذلك يشير في خطبته بقوله :

« حضراتكم تعلمون أنه منذ ثلاث سنوات تراءى لى أن الطريقة الوحيدة لخلاص البلاد من الورطات التي كانت محيطة بها هي توسيع نطاق شورى ، واشتراك رأى نواب الأهالي مع الحكومة في نظر كل أمر مهم تعود منه المنفعة ، وكنت قدمت مشروعاً لمجلس النواب ، الذي كان موجوداً وقتئذ ، وهو أجرى فيه تغييرات لم يتيسر للحكومة النظر فيها ، ثم طرأت حوادث سياسية ومالية ليست خافية عليكم (يقصد خلع إسماعيل ومشكلة الديون) ترتب عليها تعويق

إتمام المشروع ، والحمد لله قد زالت العوائق .

ثم ذكر رأيه في القانون الأساسى القديم لمجلس شورى النواب ، وأنه لا يلائم حالة البلاد ، وأن هذا ما دُعاه إلى وضع المشروع الجديد (وهو مقتبس من دستور سنة ١٨٧٩) ، وألح إلى أنه كان هناك رأى بعدم إطلاق سلطة المجلس طرفة واحدة ، ولكن ثقته بكفاءة النواب جعلته يميل إلى تحويل المجلس سلطته التامة ، مع احترام تعهدات الحكومة المالية المترتبة على اتفاقاتها مع الدول ، أو على قانون التصفية ، مؤملاً مع الزمن أن تتخلص البلاد من قيود هذه الاتفاقات قال في هذا الصدد :

« ولما كانت لائحة النواب التى اجتمعتم على مقتضاها لا تلائم أفكارنا جميعاً ، كما أوضحت ذلك منذ ثلاث سنوات ، وكررت بالمعروض الذى رفعته أخيراً للسدة الخديوية عن طلب اجتماع مجلسكم هذا ، فقد اشتغلت مع رفقاى بتحضير لائحة ^(٥٢) موافقة لمقاصد العموم ، وقد تمت ، وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها ، ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر ، وكان يلزم أن السلطة التى تعطى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل بإطلاقها بالتدريج شيئاً فشيئاً ، لكن حيث أن مقصدنا جميعاً واحد ، وهو خير البلاد ، والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن ، فقد أعطت لكم الحرية التامة فى إبداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال مأمورى الحكومة من أى درجة أو أى صنف كانوا ، وتصرح لكم بنظر الموازين (الميزانيات) العمومية ، وإبداء رأيكم فيها ، ونظر كافة القوانين واللوائح ، وقد التزمت الحكومة بعدم وضع أى ضريبة ، ولا نشر أى قانون أو لائحة ما لم يكن بتصديق وإقرار منكم ، وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه إخلال بحقوقكم ، والغاية فإنه لم يحجر عليكم فى شيء ما ، ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم . »

الخلافاً بين شريف باشا والعرايين

لم يكذ شريف باشا يعرض مشروع القانون الأساسى حتى وقعت أزمة سياسية دعا إليها طغيان الدولتين الاستعماريّتين إنجلترا وفرنسا ، واتفاقهما على دس الدسائس وإلقاء أسباب الفتنة والأنقسام بين الخديو والنواب ، تمهيداً لتحقيق أطماعها فى البلاد ، ذلك أنه فى خلال يناير

(٥٢) كلمة لائحة تفيد فى مصطلحات هذا العصر معنى القانون .

سنة ١٨٨٢ قدم وكيلًا إنجلترا وفرنسا السياسيان إلى الخديو مذكرة من دولتيهما تتضمن اتفاقهما على تأييد سلطة الخديو عند أى صعوبات من شأنها عرقلة مجرى الأعمال العامة في مصر ، وأن الحوادث الأخيرة بالديار المصرية وأخصها صدور المرسوم الخديوى بعقد مجلس النواب قد هيأت الفرصة للحكومتين لاتفاقهما على منع ما عساه أن تستهدف له حكومة الخديو من الأخطار .

وقد أثارت هذه المذكرة سخط الأمة ، واعتبرها الزعماء والنواب بحق تدخلا من الدول الأوربية في شؤون مصر الداخلية . واعتداء على استقلالها وتحريضا للخديو على مقاومة الأمة ، وذهبت أفكار الناس مذاهب شتى في الباعث على إرسال تلك المذكرة ، وتبين أن غرض الدولتين خلق أسباب غير مشروعة للعبث بالدستور قبل أن يتم وضعه ، فقد أعقب المذكرة اعتداء آخر ، وهو طلب الدولتين أن لا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، وفي خلال ذلك كانت اللجنة التى ألفها مجلس النواب لفحص القانون الأساسى (الدستور) تتولى مهمتها .

وفي الحق أن هذا التدخل كان تحديا بالغاً لكرامة البلاد وحقوقها ، وتدبيراً مبتعاً بين الدولتين للعبث باستقلال مصر والتمهيد لاحتلالها ، إذ ما شأن إنجلترا وفرنسا بنظام مجلس النواب في مصر؟ وأى قانون يخولها حق التدخل في وضع الدستور المصرى والمطالبة بحرمان المجلس حق تقرير الميزانية؟ لا شك أن هذا عدوان منكر لا سند له من الحق ولا من العهود المبرمة بين مصر والدولتين ، وقد كان القانون الأساسى ينص على احترام اتفاقات مصر الخاصة بتسوية الديون ، فمع وضوح هذا النص لم يكن ما يسوغ للدولتين أن تطلبيا حرمان مجلس النواب حق تقرير الميزانية إطلاقاً ، ولكن المطامع الاستعمارية لا تحترم حقاً ، ولا ترعى عهداً ، وكان مطلوباً من رجل الدولة السياسى أن يعالج هذه الأزمة بالحكمة والحزم ، صحيح أن الموقف جد عصيب ، إذ كيف تقبل أمه تحترم نفسها أن تنزل على إرادة دولتين غاصبتين تريدان حرمان مجلس النواب حقاً من أقدس حقوقه ، وهو تقرير الميزانية ، ولكن الموقف يقتضى أيضاً الموازنة بين العواقب واختيار أهونها شراً ، فارتأى شريف باشا درءاً للأزمة السياسية أن لا يبت مجلس النواب قراره النهائى فى المادة المتعلقة بالميزانية ويرجئها إلى حين ، حتى تنجلي الغمة ، وبذلك يتفادى التدخل المسلح من جانب إنجلترا وفرنسا ، والتأجيل فى ذاته لم يكن مضيئاً لحقوق الأمة فى الدستور ، لأن وضع الدستور قد يستغرق وقتاً يطول

أو يقصر على حسب الظروف والملايسات ، فكان من المستطاع تفادى الأزمة بتأجيل البت في هذه المادة ، وقد طلب شريف باشا من العرايين أن لا يتعجلوا البت فيها وأن يمهله حتى يتدبر في هذه المسألة ويعالجها بالتريث ومفاوضة الدولتين في شأنها .

ولكن ظهر في الميدان عامل عجل بالأزمة ، وهو طموح محمود باشا سامى البارودى إلى رئاسة الوزارة ، والبارودى كان كثير الطموح إلى السلطة والجاه ، وإلى العرش أيضاً ومن هنا تعقدت الأزمة ، لأنه وهو وزير الحرية في وزارة شريف باشا زين للعرايين أن يتشبثوا برأيهم ، ويرفضوا التأجيل ، ويقروا مادة الميزانية فوراً ، كما وضعتها اللجنة ، وقد رتب البارودى على هذه الخطة وصوله إلى رأسه الوزارة ، لأنه كان مفهوماً أن رفض النواب رأى شريف باشا يؤدى طبعاً إلى استقالته ، فيدعى هو لتأليف الوزارة الجديدة ، وقد كان ما رتبته ، فاستقالت وزارة شريف في ٣ فبراير سنة ١٨٨٢ ، وألف البارودى الوزارة في اليوم التالى ، وكانت أداة في يد العرايين وفي عهدها تلاحقت الأحداث ، ثم استقالت هى أيضاً وأعقبها وزارة راغب باشا ، وفي عهدها ضرب الأسطول الإنجليزى مدينة الإسكندرية بالمدافع يوم ١١ يولية سنة ١٨٨٢ ، فكان ذلك اليوم المشئوم بدء الاحتلال .

بعد الاحتلال

ظل شريف باشا بعد استقالته بعيداً عن الميدان ، وأخذت المحن والخطوب تتوالى على البلاد دون أن يسمع له فيها رأى ، إلى أن احتل الإنجليز الإسكندرية وانسحب العرايون منها ، فوصلت المأساة إلى الخاتمة التعسة التى كان العقلاء يتوجسون منها خوفاً ، وكان لابد لهذا الموقف المحزن من رأس مدبر يقتاد سفينة مصر ، وينجوها من المهالك التى انحدرت إليها ، فاتجهت الأنظار ثانية إلى شريف باشا لإنقاذ الموقف ، أو بعبارة أوضح ، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، فاستقال راغب باشا ، وعهد الخديو إلى شريف باشا أن يؤلف الوزارة ، وكان الموقف حقاً تكتنفه عوامل اليأس ، على أنه لم يكن يقبل من شريف باشا الذى أقصته الثورة عن الميدان ، ولم تكن له يد في وصول البلاد إلى الحالة المحزنة التى وصلت إليها ، أن يتنحى عن مواجهة الخطر بل كان مطلوباً منه أن يدرأ الكارثة أو يخفف من وقعها ، فألف الوزارة في أغسطس سنة ١٨٨٢ ، واشترك معه فيها رياض باشا الوزير المشهور بكراميته للعرايين . ألف شريف باشا وزارته الرابعة ، على أن يحقق المبادئ التى جعلها برنامجاً لوزارته

السابقة ، وأولها إقرار النظام الدستوري ذلك كان مقصده ، وتلك كانت نيته ، ويتبين هذا المقصد من كتابه الذى أرسله إلى الخديو فى هذا الصدد فقد قال فيه :
 « أعرض لسموكم أن استدعاءكم إياى لتشكيل وزارة جديدة فى مثل هذه الظروف ، إنما هو دليل على استدامة ثقتكم فى ، وأنتى بالأمثال لأمركم الكريم أبرهن على إخلاصى لوطنى ولذاتكم السامية » .

« إن المبادئ التى عرضتها على سموكم منذ سنة لا تزال موضوع إهتمامى ، فإن غايتنا هى نجاح الوطن مادياً وأديباً ، وأما الوسائط التى يلزم إتخاذها لذلك فهى تعميم المعارف ، ونشر لواء العدالة ، وتوسيع نطاق المبادئ الحرة الملائمة لهيئتنا الاجتماعية والسياسية ، وكما أنه لا يلزم أن تتجاوز حدود لوائح ديسمبر ، كذلك لا ينبغى أن نحذف منها شيئاً ، ومن الواجب أن تتجه كل خواطرتنا إلى موضوع واحد ، وهو صيانة البلاد ، وعليه فإننى استدعى للاشتراك فى ذلك كل ذى غيرة وقلب مصرى مخلص لذاتكم الشريفة » .

وكان شريف يؤمل أن تنتهى فترة الاحتلال العسكرى الإنجليزى ، ويبر الإنجليز بوعدهم فى الجلاء بمجرد توطيد مركز الخديو توفيق ، ولكن الحوادث جاءت أقوى من حسابان شريف باشا ، وأخلف الإنجليز ما وعدوا به ، وظلوا يحتلون البلاد ويسيطرون على حكمها .
 وكان المترجم ينظر بعين الألم إلى وجود الجيش الإنجليزى فى البلاد ، وقد قال الذين شهدوه يوم عودته مع الخديو إلى القاهرة بعد إخماد الثورة إنه لم يملك دمه وبكى حيناً رأى فى طريقه إلى السراى الخديوية مظاهر الاحتلال واصطفاف الجنود الإنجليزية على جانبي الشوارع التى اجتازها الركب الخديوى .

وظل شريف باشا يدافع الإنجليز عن البلاد إلى أن ظهرت نياتهم الاستعمارية فى سلخ السودان عن مصر ، فقد اغتتم الإنجليز استفحال الثورة المهدية ليكروهوا الحكومة المصرية على التخلي عن السودان فوقف شريف باشا وقفة المعارضة ضد الإنجليز فى هذه المسألة ، وقال كلمته المشهورة : « إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » وعارضهم فى مسألة أخرى لا تقل عنها خطورة وهى طلبهم أن يخضع الوزراء المصريون إلى نصائح المعتمد البريطانى .
 ولما رأى أن الخديو توفيق يميل إلى قبول مطالب الإنجليز لم يربدا من استقالته من الوزارة (يناير سنة ١٨٨٤) .

وقد أراد شريف باشا أن يسجل على الاحتلال عدوانه على حقوق مصر ، فلم يبن

استقالته على الأسباب الصحية كما جرت العادة بذلك بل بناها على الأسباب الصحيحة ، قد ذكر في استقالته أن الدولة الإنجليزية تطلب إخلاء السودان ، وهذا ما لا سبيل إليه ، وذكر ما طلبته من اتباع نصائحها بدون مذاكرة فيها ، قال : « ولا يخفى أن هذه الأقترحات مخالفة لفحوى النظمات الشورية الصادرة في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ التي نص فيها على أن الخديو يجرى أحكام البلاد باشتراكه مع النظار ، فبناء على ذلك نضطر هنا إلى أن نطلب من مقامكم العالى أن تقبلوا استعفاءنا لأنه لا يمكن لنا والحالة هذه أن ندير البلاد على أصول شورية » . بهذه الاستقالة سجل شريف باشا احتجاج مصر على سلخ السودان عنها ، وعلى تدخل الإنجليز في شؤون الحكومة المصرية واعتدائهم على استقلالها ، وبهذا الموقف المشرف ختم شريف باشا حياته السياسية .

وقد اعتلت صحته بعد ذلك ومازال المرض يعاوده إلى أن أدركته الوفاة في أبريل سنة ١٨٨٧ وكانت وفاته بمدينة (جراتر) من أعمال النمسا ، حيث كان بها للاستشفاء ، فطير البرق نبأ نعيه إلى مصر ، فقبيل بالحن العام ، ونقل جثمانه إلى الإسكندرية ، ومنها إلى القاهرة وشيعت جنازته في المدينتين في إحتفال من أعظم الجنازات القومية التي شهدتها مصر ، ففي الإسكندرية كان أول الجنازة بالمنشية وآخرها عند باب الترسانة ، وفي القاهرة مشى لتشييعها نحو عشرة آلاف شخص ، وأقفلت المحال التجارية ودواوين الحكومة حداداً على الفقيد ، وازدحمت الشوارع التي مر بها جثمانه بجموع الناس ، فكان يوماً مشهوداً ، شبهته الصحف في كثرة جموعه بيوم عودة المحمل من الحج^(١) ، ولا غرو فالحوادث التي وقعت في مصر والسودان بعد استقالته المترجم من الوزارة قد زادت من قيمة هذه الاستقالة التاريخية وضاعفت إعجاب الأمة بموقف شريف باشا في مسألة السودان واحتجاجه على سياسة الاحتلال الإنجليزي ، فكان تشييع جنازته مظهراً من مظاهر تقدير الأمة لهذا الموقف المجيد .

صفاته وأخلاقه

كان شريف باشا جميل الطلعة ، طويل القامة ، مشرق الوجه ، معتدل القوام ، متواضعا في أنفة وشمم ، عظيماً في غير صلف ولا غرور ، دمث الأخلاق ، كريم الطباع ، شريفاً نزيهاً ، صادق الوطنية ، غيوراً على حقوق مصر ، محباً للحرية ، تتمثل فيه أخلاق كرام

النبلاء وطبايعهم وأساليبهم ، شديد الاحتفاظ بكرامته وعزة نفسه ، يتتره عن الصغائر مستقل
الرأى ، لا يرضى لنفسه أن يكون أداة في يد غيره ، كانت هذه الصفات رداءً له في حياته
السياسية ، إذ صانته من أن يتبدل إلى تنفيذ أهواء الخديويين والمستعمرين ، فسلك إزاءهم
مسلك الكرامة والأنفة ، ومن هنا جاءت مواقفه المشرفة في الدفاع عن حقوق مصر وكرامتها
وكان فوق ذلك كامل الثقافة واسع الإطلاع ، ملماً بعلوم أوروبا وأحوالها ، فكان ينال احترام
ساسة الأوروبيين ممن عاصروهم أو اتصل بهم ، ولم يكن ينقصه من صفات رجال الدولة سوى
الجلد على العمل ، فإنه كان يميل إلى الدعة والراحة ، ويدع تصريف كثير من شؤون وزارته
إلى مرؤوسيه .

شريف باشا ومعاصروه

كان شريف باشا في عصره رجل الدولة الوحيد الذى ارتضى معاصروه رأسته ، وعلى
الرغم مما كان بينه وبين نوبار باشا من جهة ، ورياض باشا من جهة أخرى ، من التنافس
والكراهية فإنها رضيا أن يعملوا تحت لوائه ، فقد كان رئيساً للمجلس الخصوصى العالى
(مجلس الوزراء) سنة ١٨٦٩ حين كان نوبار يتولى وزارة الخارجية وكان رئيساً للوزارة سنة
١٨٧٩ ومن أعضائها إسماعيل راغب باشا وشاهين باشا وذو الفقار باشا إلخ . ولما ألف وزارته
الثانية كان من أعضائها محمود باشا سامى البارودى ومصطفى فهمى باشا إلخ ، ومن أعضاء
وزارته الثالثة سنة ١٨٨١ البارودى ومصطفى فهمى والعلامة قدرى باشا ، ومن أعضاء وزارته
الرابعة رياض باشا والعلامة على باشا مبارك .

فن هذا البيان يتضح أن كبار الحكام ورجال الدولة في عصره كانوا يعترفون له بالزعامة
على اختلاف نزعاتهم وأقدراهم ، وتلك ميزة لم تتفق لغيره من معاصريه .
هذا وقد أعقب شريف باشا ولداً وابنتين ، أما ابنه فهو محمد شريف باشا الذى كان
وكيلاً لوزارة الخارجية ، ولا يختلف إسمه عن اسم أبيه ، ولذلك يعرف صاحب الترجمة أحياناً
باسم شريف باشا الكبير وأما كريمته ، فإحداها تزوجت من محرم شاهين باشا ، والثانية من
عبد الرحيم صبرى باشا ، والد الملكة نازلى ، فهى حفيدة شريف باشا الكبير .

الفصل الثالث عشر

خاتمة النزاع بين الخديو إسماعيل والدائنين

قابلت الدوائر الأوروبية السياسية والمالية إقصاء الوزيرين الأجنيين عن الوزارة بالاستياء والسخط ، وزعمت أن الدول نالت حقاً مكتسباً بأن يكون لها وزيران يمثلانها في الوزارة المصرية ، فأخذت تناوى الوزارة الجديدة وتخلق لها العقبات والعراقيل .

وقد سلك شريف باشا إزاء الدول مسلك التعقل والحكمة ، فعرض يوم ٨ ابريل سنة ١٨٧٩ على وكيلى الدولتين الإنجليزية والفرنسية إعادة الرقابة الثنائية ، وطلب إليهما إبلاغ حكومتيهما لتختارا الرقيين ، ولكى يبرهن على مبلغ اعترامه احترام هذا النظام عرض على السير ايفلن بارنج (اللورد كرومر) العضو الإنجليزي فى صندوق الدين ، والمسئوب بليج دى بوجاس Bellaigue de bughas العضو الفرنسى قبول منصبي الرقيين مؤقتا إلى أن يرد جواب حكومتيهما ، فرفضا ما عرض عليهما ، وبنيى الرفض على معارضيتهما فى مشروع اللائحة الوطنية ، واستقال أعضاء لجنة التحقيق الأوروبية يوم ١٠ ابريل إستقالة إجماعية من عضوية اللجنة احتجاجاً على تأليف الوزارة الوطنية قائلين فى احتجاجهم إن الاصلاحات المالية لا ينتظر إنفاذها إلا على يد وزارة يتمثل فيها العنصر الأوروبى ، ووقع على كتاب الاستقالة أعضاء اللجنة جميعهم ، وهم ريفرس ويلسن . وبارافلى . وبارنج (كرومر) وبليج دى بوجاس . ودى بليينير . وفون كريمير . أما رياض باشا فقد عزل من منصبه (وكالة اللجنة) قبل استقالة الأعضاء ، واستقال أيضاً فى ذلك الحين بعض كبار الموظفين الأجانب كالمستر فترجر الدمدير حسابات الحكومة ، والمسئوب بلوم وكيل وزارة المالية ، والسير أوكلن كولفن مدير مصلحة المساحة .

وغنى عن البيان أن احتجاج أعضاء لجنة التحقيق ينطوى على تعسف ظاهر ، فإن وزارة نوبار باشا وقد كان العنصر الأوروبى صاحب النفوذ الأكبر فيها ، لم تقم بأى إصلاح فى شؤون الحكومة المالية ، بل زادت الحالة تعقيداً وارتباكاً ، أما تأليف الوزارة الوطنية فى

ذاته ، فعمل لا يدعو إلى الاحتجاج ، لأنه مما لاتزاع فيه أن الدولتين الانجليزية والفرنسية إتفقتا والخديو حين تأليف وزارة نوبار باشا على إعادة الرقابة الثنائية غى حالة إقالة أحد الوزيرين الأوروبيين من منصبه من غير موافقة حكومته ، ومعنى ذلك أن للخديو الحق فى الاستغناء عن الوزيرين ، أحدهما أو كليهما ، وله أن يؤلف وزارة خالية من العنصر الأوروبى ، ولا جناح عليه فى ذلك مادام العمل بنظام الرقابة الثنائية يعود كما كان ، وقد اعترف المسيو وادنجتون Waddington وزير خارجية فرنسا بهذا الحق فى رسالة إلى قنصل فرنسا العام فى مصر^(١) إذ قال : « طبقا للاتفاق المبرم بين فرنسا وانجلترا ومصر بتاريخ ١٤ أكتوبر الماضى قد أوقف العمل بنظام الرقابة الثنائية ، ولكن على شرط إعادته حتما إذا عزل أحد الوزيرين الفرنسى أو الانجليزى من منصبه من غير موافقة دولته » .

ومما يؤيد هذا الحق أن المرسوم الصادر يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٨٧٨ فى عهد وزارة نوبار باشا بوقف العمل بنظام الرقابة الثنائية قضى فى المادة الأولى بوقف تطبيق هذا النظام « مؤقتا » ، فهذا التوقيت معناه أنه لم يبلغ نهائيا ، وأنه يعود إذا عزل أحد الوزيرين الأوروبيين ، فتأليف الوزارة الوطنية هو إذن عمل لاغبار عليه من وجهة الحق والقانون ، ولكن أعضاء لجنة التحقيق قصدوا باستقالتهم إخراج مركز الخديو ، فلما رأى منهم هذا العنت والإجراج لم يريدوا من قبول استقالتهم .

مرسوم ٢٢ أبريل

(سنة ١٨٧٩)

ثم أصدر الخديو مرسوم ٢٢ أبريل سنة ١٨٧٩ بتسوية الديون طبقاً لما قرره اللائحة الوطنية ، وقد جاء فى ديباجة المرسوم « بناء على المحضر والتقارير التى عرضت علينا من الأمة ، وماعرض من مجلس النظار ، أصدرنا أمراً بموافقة وإجراء تسوية ديون الحكومة على الوجه الآتى » :

وهذه الديباجة كما ترى هى ولاشك صيغة جديدة فى مراسيم إسماعيل لم تكن مألوفة من

(١) بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٨ . الكتاب الأصفر عن سنة ١٨٧٨ - ١٨٧٩ ص ١٣٣ . وانظر أيضا رسالة قنصل فرنسا إلى وزير خارجيتها بتاريخ ٩ أبريل سنة ١٨٧٩ ص ٢٨٠ من الكتاب الأصفر المذكور .

قبل ، إذ تدل على أن روح الديمقراطية واحترام مطالب الأمة والاعتداد برأيها ، تلك الروح التي ظهرت في كتاب الخديو إلى شريف باشا ، قد تجلت أيضا في مرسوم ٢٢ أبريل ، وهي روح طيبة حقاً ، ولكنها مع الأسف لم تظهر إلا متأخرة .

لم يكن على مرسوم ٢٢ أبريل أى غبار من وجهة المصالح الأوروبية ، لأنه كفل حقوق الدائنين وأقر التعهدات المالية التي ارتبطت بها مصر . وقد اعترف المسيو وادنجتون وزير خارجية فرنسا في رسالته إلى وكيلها السياسى في مصر (القنصل العام) أنه لا يختلف في النقط الجوهرية عن مشروع ريفرس ويلسن^(٢) وبالرغم من ذلك فقد احتج أعضاء صندوق الدين على هذا المرسوم ورفعوا على الحكومة قضية أمام المحاكم المختلطة .

وبذل شريف باشا من ناحيته كل ما في وسعه ليدخل الطمأنينة إلى الدوائر الأوروبية بالنسبة للقوانين التي اعترمت الحكومة إصدارها ، فاستصدر مرسوما في ٢٣ أبريل سنة ١٨٧٩ بإنشاء (مجلس شورى الحكومة) ومهمته وضع مشروعات القوانين ، وغالبية أعضائه من الأجانب ، ولكن الحكومتين الإنجليزية والفرنسية أصرتا على موقفها وطلبتا إلى الخديو بلسان وكيليهما السياسيين في مصر إعادة الوزيرين الأجنيين ، فأجابها بأن ليس في مقدوره إزاء مطالب الرأى العام قبول هذا الطلب ، وأصر شريف باشا من ناحيته على الرفض ، وأصر على الاستقالة إذا قبل الخديو إعادة الوزيرين الأوروبيين ، وأيد الخديو موقف شريف باشا ، فاشتدت الأزمة بين إسماعيل والدول ، وأخذت هذه تعمل لحلعه من الأريكة الخديوية . إن السبب الظاهر الذى انتحلته الدوائر الأوروبية للسعى في خلع الخديو هو إقصاؤه الوزيرين الأجنيين وتأييده وزارة مؤلفة من أعضاء وطنيين ، ونعتقد أن هذا لم يكن السبب الحقيقي ، أو السبب الوحيد ، ولو كان كذلك لما رضيت الدول بعد خلع إسماعيل أن تكتفى بإعادة نظام الرقابة الثنائية ، فمعروف أنه لما تولى توفيق باشا مسند الخديوية عدلت الدولتان عن إصرارهما على تعيين الوزيرين الأوروبيين . وقبلتا أن يعين الرقيان الأجنيان . واكتفتا بأن يكون لهما حق حضور جلسات مجلس النظار وأن يكون لهما فيه صوت استشارى (مرسوم ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩) .

فهناك إذن أسباب أخرى غير إقصاء الوزيرين الأجنيين عن الوزارة جعلت الدول تأتمر بإسماعيل ، وأهمها خوف المالىين الأوروبيين على ديونهم أن تكون عرضة للضياع إذا بقي

(٢) انظر الكتاب الأصفر - رسالة المسيو وادنجتون إلى المسيو جودو بتاريخ ٢٥ أبريل سنة ١٨٧٩ ص ٢٧٨ .

إسماعيل في الحكم ، واعتقادهم أن عودته في الوفاء بها لا تبعث على الثقة ، وأنه لا يتردد في إنكارها والتخلص منها إذا استطاع إلى ذلك سبيلا . ولاغرو فهو أدرى الناس ببطلان الجانب الأكبر من هذه الديون وفداحة فوائدها الربوية ومآلهمه الماليون والمرابون من قيمتها قبل أن تدخل الخزنة وبعد أن دخلتها ، فسعى الماليون لدى رجال السياسة ليحملوهم على التخلص من الخديوي كي يطمثوا على ديونهم ، وكان لآل روتشلد نصيب كبير في هذه المساعي . فالعامل المالي كان إذن السبب الأساسي في خلع إسماعيل ، وثمة عامل آخر سياسي ومالي معاً ، وهو ما لاحظته الدول على الخديوي في عهده الأخير من مناصرته الحركة القومية ، واستجابته لمطالب الأحرار ، وقبوله مبدأ مسئولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب ، وشعوره بالأخطاء التي وقع فيها وأفضت إلى التدخل الأجنبي ، وسعيه في مقاومة هذا التدخل وإصلاح الأغلاط القديمة .

والدول الاستعمارية تنظر طبعاً بعين الاستياء إلى ازدهار النهضة القومية وتأليف حكومة وطنية تنهض بالبلاد وتسلك بها سبيل الدول المستقلة ، وتحول دون تحقيق أطماع أوروبا الاستعمارية ، فلا جرم أن أوجست أوروبا خيفة من انضمام إسماعيل إلى هذه الحركة ، ومناصرته إياها ، لأن انضمام ملك قوى الإرادة ، شديد الذكاء ، عالي الهمة ، مثل إسماعيل ، إلى الحركة القومية مما يشد أزرها ويكسيها قوة وروعة . فلا غرو إن سخطت عليه الدول الاستعمارية وسعت إلى خلعه ، فهو من هذه الوجهة قد ذهب ضحية تأييده للنهضة القومية ، وإن كان قبل كل شيء ضحية ديونه وأخطائه ، لأن هذه الديون هي التي مكنت للدول الأوروبية في البلاد ، ونحويتها من النفوذ والسلطة ما جعلها ترفع عقيرتها وتملي عليه إرادتها .

سعت الدول إذن في كسر شوكة إسماعيل ، وبدأ بينهما الصراع الذي انتهى بخلعه . وكان إسماعيل يؤمل ألا تقوى الدول على إملاء شروطها عليه ، ولا تجرد السلاح لإعادة الوزيرين الأجنيين ، بل تدع الأمور تتطور حسب الظروف .

ذلك أن إنجلترا كان يشغلها وقتئذ بعض المشاكل ، وخاصة حرب الزولو في أفريقية الجنوبية ، واضطراب الأحوال في رومانيا ، فظن الخديوي أن هذه المشاغل لا تدع لها فرصة التدخل في المسألة المصرية ، وخاصة لأن وزارة (دسرايلي) لم تكن بالقوة التي كانت لها من قبل .

أما فرنسا فلم يكن إسماعيل يحسب لتدخلها حساباً كبيراً ، لأن النظام الجمهورى الذى قام فيها عقب الحرب السبعينية لم يكن قد استقر بعد ، فضلاً عن أن هزائمها فى تلك الحرب أضعفت شوكتها فى السياسة العالمية إلى حين .

وكان يؤمل إلا يطول العهد بالنظام الجمهورى وأن الحكم سيعود للإمبراطورية ، ومما يؤثر عنه أنه قال عقب عزل الوزيرين الأجنيين « بعد ثلاثة أشهر ستعود الإمبراطورية فى فرنسا ، ولقد كانت الإمبراطورية حليفة لى ، ومن هنا إلى ثلاثة أشهر لاتستطيع الدول أن تعمل عملاً ما » .

على أن آمال إسماعيل كانت قائمة على خطأ فى التقدير ، ولو كان على بينة من الأمر لعرف أن القوة التى يجب أن يعتمد عليها فى فض تدخل الدول هى قوة البلاد الحرية والمالية والمعنوية ، فلو أن فى مصر وقتئذ جيشاً قوياً يحمى الدمار ويدفع العارة كما كان فى عهد محمد على وإبراهيم لصان لمصر حريتها واستقلالها ، ولكن إسماعيل لم يستمر على العمل للنهوض بالجيش المصرى وتقويته حتى يحتفظ بمكائنه التى كانت له فى عهد أبيه وجده ، وهو وإن عنى بذلك فى أول عهده بالحكم لكنه مالبث أن تراخت عنايته به ، حتى وصلت البلاد فى أواخر عهده إلى حالة من الضعف الحربى والمالى والمعنوى بحيث لم تكن تقوى على مقاومة التدخل الأجنبى .

هذا فضلاً عن أن إسماعيل نفسه لم يكن مؤيداً تأييداً قليلاً من الشعب ، ولامن ضباط الجيش ، لأنهم كانوا يعتقدون أن سياسته هى التى أفضت إلى التدخل الأجنبى ، وقد حاول أن يستثير إخلاص ضباط الجيش وولاءهم إذا اشتدت الأزمة ووصلت إلى حد امتشاق الحسام ، ولكنه آنس فيهم فتوراً عن مناصرته بالقوة .

فتأمل فى موقف إسماعيل إذ تألبت عليه الدول الأوروبية ، وموقف محمد على من قبل حينما تألبت عليه تلك الدول ذاتها مؤتمرة مع الباب العالى ، تر الفرق عظيمًا بين الموقفين . فمحمد على لم يكثرث لهذه المؤامرة ، ولم يعبأ بالفرمان الذى أصدره السلطان بخلعه سنة ١٨٤٠ ، وبقى ثابتاً على عرشه ، لأنه كان مطمئناً إلى قوة البلاد الحرية التى كانت موضع عنايته طوال عهده ، أما إسماعيل فقد كانت الرسالة البرقية الوجيزة التى أرسلها إليه السلطان منبئة بخلعه كافية لسقوطه عن العرش ، ذلك أنه لم يكن فى البلاد قوة حرية يعتد بها ، بل كانت مفتحة الأبواب للتدخل الأوروبى ، وإنك لو اجد من هذه المقارنة أن ثمة مرحلة طويلة

مرت بين سنة ١٨٤٠ و ١٨٧٩ ، تبدلت فيها الحال غير الحال ، ووقعت فيها أحداث جسام ، تراجعت لها قوة البلاد الحربية والمعنوية ، وتصعد لها بناء الاستقلال المالى والسياسى ، ومن مظاهر هذا التصعد تدخل الدول الأجنبية فى خلع إسماعيل ونزوله على حكمها . اعتمد إسماعيل إذن على أساس واه فى مقاومة التدخل الأوروبى ، وبنى أمله على انصراف الدول ذات الشأن عن التدخل بالقوة فى شؤون مصر ، ولكن الحوادث قد جاءت على خلاف تقديره .

صحيح أن فرنسا وإنجلترا لم تحركا ساكناً مدة قاربت شهرين ، وكان يمكن أن تظلا على هذا الموقف طويلاً ، ولكن عاملاً جديداً ظهر فى الميدان عجل يتدخل الدول الأوروبية جمعاء ، ذلك العامل هو ألمانيا ، أو بعبارة أخرى بسمارك .

فألمانيا قد خرجت فائزة من الحرب السبعينية ، فأراد بسمارك أن يزوج بها فى غمار المسائل الدولية ليرفع من شأن الامبراطورية الألمانية الجديدة ، ويعلن عن قوتها ويكسب لها إنتصارات سياسية بعد إنتصاراتها فى ميادين الحرب والقتال .

وقد وجد من المسألة المصرية ميداناً فسيحاً لإظهار سطوة ألمانيا ، وهكذا قضى سوء الطالع فى ذلك العهد أن تكون مصر فريسة لمختلف الأهواء والمطامع الاستعمارية الأوروبية ، فإذا تراخت دولة من دول الاستعمار أو انصرفت عنها لسبب ما تقدمت دولة أخرى لتتال منها مأربها ، ذلك أن التزعة الاستعمارية والمطامع الأشعبية تجمع كلمة الدول على النهب والعدوان .

رفعت ألمانيا عقيرتها فى المسألة المصرية ، ودعت الدول إلى التدخل لإجبار إسماعيل على الخضوع لمطالبها ، وكانت حجتها أن الخديو لا يملك إصدار قوانين مالية تمس حقوق الدائنين الأجانب من غير موافقة الدول طبقاً للأنحة ترتيب المحاكم المختلطة ، وأنها تعتبر المرسوم الصادر فى ٢٢ أبريل سنة ١٨٧٩ باطلاً ، وابلغت الدول وجهة نظرها ، فلاقت قبولاً وتأييداً من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا والروسيا .

وقدم القنصل الألمانى إلى الخديو فى ١٨ مايو سنة ١٨٧٩ احتجاج حكومته على المرسوم المذكور ، وحذت الدول حذو ألمانيا فقدم قنصل النمسا والمجر ذات الاحتجاج إلى الخديو فى ١٩ مايو ، وقدمه القنصل الانجليزى فى ٧ يونية ، والقنصل الفرنسى فى ١١ منه ، والقنصل الروسى فى ١٢ منه والقنصل الإيطالى فى ١٥ منه .

وقد أجاب شريف باشا على هذا الاحتجاج بأن بعث بصورة من مرسوم ٢٢ أبريل إلى وكلاء الدول للتصديق عليه ، ولكنها رفضت التصديق .

خلع إسماعيل

(٢٦ يونية سنة ١٨٧٩)

وكان إنجلترا وفرنسا قد شعرتا بشئ من الخجل الاستعماري لرؤيتهما ألمانيا وهي أقل منهما مصالح ومطامع في مصر ، تسبقها إلى وجوب التدخل ، فاعتزمتا أن لا تقتصرا على فكرة الحكومة الألمانية في طلب نقض المرسوم الذى أصدره الخديو ، بل عملتا على خلعها من العرش .

وقد وجدنا الطريق أمامها معبداً في الاستانة ، فإن الحكومة العثمانية لم تكن تعطف على إسماعيل أو ترضى منه نزعة الإستقلالية ، وزين لها قصر النظر أن الالتجاء إليها لعزل الخديو يكسبها نفوذاً كبيراً لم يكن لها منذ وطد محمد على دعائم الدولة المصرية ، فليس يخفى أن الباب العالى لم يسبق أن عزل والياً من الأسرة المحمدية العلوية ، والفرمان الذى أصدره سنة ١٨٤٠ بعزل محمد على قد بقى عديم الأثر ، ولم يحفل به محمد على ، فخلع إسماعيل هو الحادث الوحيد الذى ظهرت فيه سلطة الباب العالى في عزل الخديويين ، وهى سلطة تستهوى حكومة الاستانة التى لم تكن تنظر في العواقب ، وقد فات هذه الحكومة الحمقاء أن إقصاء إسماعيل عن الحكم وخلعه بإرادة الدول ، هو تمكين لهذه الدول من التدخل في شؤون مصر تحقيقاً لمطامعها الإستعمارية ، إذ لا يوجد تدخل أقوى من إسقاط صاحب العرش عن عرشه ، وهكذا كانت سياسة تركيا نحو مصر قائمة على سوء النية وقصر النظر .

فتركيا لم تخدم سياستها ، ولا خدمت مصر بإجابتها مطالب الدول ، وليس يخفى أن فرنسا لم تكن في اشتراكها وإنجلترا بعيدة النظر أيضاً ، لأنها لم تخدم المصالح الفرنسية ، بل مهدت الطريق لانفراد إنجلترا بالتدخل في شؤون مصر واحتلالها على عهد الخديو توفيق باشا . سعت إذن كل من إنجلترا وفرنسا سعيها في الاستانة للتخلص من إسماعيل ، فلما وجدت الدولتان أن الباب العالى مستعد لخلعه اتفقتا أولاً على أن تطلباً منه التنازل عن العرش من تلقاء

نفسه اتباعا لمشورتها ، لتجعل لنفسها سلطانا أقوى في مصر مصر ، إذ يكون التنازل قد تم بإرادتها وتدخلها ، فأرسلنا إلى قنصليها في مصر لإبلاغ الخديو اتفاق الدولتين ، فقابلته القنصلان (٣) وأبلغاه رسالة الحكومتين ، ومضمونها أنها تنصحان للخديو رسميا بالتنازل عن العرش ، والرحيل عن مصر ، وأنها متفقتان في حالة قبوله نصيحتهما على أن تضمننا له مخصصات سنوية لا ثقة به ، وأن لا يحصل تغيير في نظام توارث العرش الذي يقضى بأن يكون الأمير توفيق باشا خلفاً له ، فتأثر الخديو لهذه الرسالة تأثراً عميقاً ، وشعر بالسهم المصوب إلى مركزه ومصيره ، فطلب مهلة يومين ليفكر في الأمر ، ولما انقضى الميعاد جاءه القنصلان ، يطلبان جوابه النهائي ، فأجابها أنه عرض الأمر على السلطان ، وأنه منتظر جوابه ، وجاءه قنصل ألمانيا أيضا وقنصل النمسا ، وطلبا إليه التنازل عن العرش مؤيدين طلب قنصلي إنجلترا وفرنسا ، فكان جوابه لهما مثل جوابه لزميليهما ، وكان إسماعيل يأمل من الانتظار أن تختلف الدول في طلب خلعه ، وأن تنجح مساعيه الشخصية لدى السلطان عبد الحميد ، وإذا أوفد إليه بالاستانة طلعت باشا أحد رجال حاشيته ليستميل رجال المابين إلى جانبه ، وزوده بالمال والرشا والهدايا ، ولكن السلطان أعرض ونأى بجانبه عنه ، وقد يكون لقلة المال المعروض دخل في هذا الإعراض ، وكانت الدول مجمعة على التخلص منه ، فاستقر عزم السلطان على خلعه اجابة لطلب الدول ، ففي ليلة ٢٤ يونية ورد على المسيو تريكو قنصل فرنسا العام في مصر نبأ برقي من الاستانة ، فحواه أن الباب العالي عول على عزل الخديو وتولية الأمير حلم باشا (عبد الحلیم) مكانه ، وبالرغم من ورود هذا النبأ في ساعة متأخرة ، بعد منتصف الليل ، فقد توجه كل من السير فرانك لاسل قنصل إنجلترا ، والمسيو تريكو قنصل فرنسا ، والبارون دي سورما قنصل ألمانيا ، إلى سراي الخديو ، وطلبوا مقابلته ، فأحدث مجيئهم في تلك الساعة المتأخرة من الليل انزعاجا في السراي ، وخاصة بين السيدات من آل إسماعيل ، وتوهمت والدة الخديو أن ثمة مكيده تدبر لقتله ، فرجته أن لا يقابلهم ، ولكنه إذ علم أن القادمين هم قناصل

(٣) السير فرنك لاسل Franch Lascelles قنصل إنجلترا ، والمسيو تريكو Tricou قنصل فرنسا ، وقد عين الأول بدلا من اللورد فيفيان في مارس سنة ١٨٧٩ ، والثاني بدلا من المسيو جودو ويلاحظ أنه من ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ تاريخ مرسوم تسوية الديون إلى ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ تاريخ خلع إسماعيل ، أي في ستين ونصف ، تعاقب على وكالة فرنسا السياسية في مصر أربعة من القناصل وهم البارون دي ميشيل Des Michels ، والمسيو رندر Randre ، والمسيو جودو Godeaux ثم المسيو تريكو ، ويقول المسيو فريسنيه Freycinet الوزير الفرنسي في كتابه عن المسألة المصرية أن كثرة هذه التغيرات كانت من أسباب ضعف السياسة الفرنسية إزاء تماسك السياسة الإنجليزية .

انجلترا وفرنسا وألمانيا ، وأن شريف باشا كان معهم ، رضى بمقابلتهم ، وكان في حالة اضطراب شديد ، فطلب إليه القناصل أن يتنازل عن العرش ، ولكنه رفض وثبت على الأياء .

وكان يأمل حتى آخر لحظة أن تختلف الدول فيما بينها ، أو يرفض السلطان النزول على رأيهم ، ولكن الدول بقيت على إجماعها في شأنه ، ومازال سفراؤها في الاستانة يستعجلون قرار الخلع حتى نالوا بغيتهم ، وأصدر السلطان بناء على قرار مجلس الوزراء « إرادة » بخلع إسماعيل وتنصيب توفيق باشا خديويا لمصر ، وطير الصدر الأعظم هذه الإرادة بالتلغراف إلى إسماعيل يوم الخميس ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ ، وهذا تعريبها .

« إلى سمو إسماعيل باشا خديوى مصر السابق .

« إن الصعوبات الداخلية والخارجية التي وقعت أخيراً في مصر قد بلغت من خطورة الشأن حداً يؤدي استمراره إلى إيجاد المشاكل والمخاطر لمصر والسلطنة العثمانية ؛ ولما كان الباب العالى يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهلين من أهم واجباته ومما يقضى به فرمان الذى خولكم حكم مصر ، ولما تبين أن بقاءكم فى الحكم يزيد المصاعب الحالية ، فقد أصدر جلالة السلطان إرادته بناء على قرار مجلس الوزراء بإسناد منصب الخديوية المصرية إلى صاحب السمو الأمير توفيق باشا ، وأرسلت الإرادة السنية فى تلغراف آخر إلى سموه بتنصيبه خديويا لمصر ، وعليه أدعو سموكم عند تسلمكم هذه الرسالة إلى التخلّى عن حكم مصر احتراماً للفرمان السلطانى .

وصلت هذه الرسالة التلغرافية إلى سراى عابدين فى ضحى ذلك اليوم ، وتسلمها أولاً زكى باشا السرتشريفاتى ، وكان معه فى حجرته بالدول الأول من السراى خيرى باشا المهردار (حامل الختم) . وبعض كبار الموظفين ، فلما رأوا الرسالة مصدرة بعنوان إسماعيل باشا « خديوى مصر السابق » ، وجفت قلوبهم ، وعلاهم الاضطراب والاصفرار ، وفهموا أنها تحوى شراً مستطيراً ، وحاروا فى طريقة إلى الخديو ، الذى كان وقتئذ بالدور الثانى ، فامتنع زكى باشا عن أن يحملها إليه ، وأحال هذه المهمة إلى المهردار ، فأبى خيرى باشا ، قائلاً إن هذا من شأن الوزراء ، وبينما هما يتجادلان ، أقبل شريف باشا رئيس الوزراء ، فسلمت إليه الرسالة ، وأدرك ماتحويه ، فرأى من واجبه أن يحملها بنفسه إلى الخديو ، فصعد إلى الطابق الثانى ، وقابل إسماعيل وسلمه الرسالة ، ففضها وتلاها . وعلم فحواها ، فقابلها بالصمت

والجلد ، وطلب إلى شريف باشا ، أن يدعو إليه الأمير توفيق باشا فوراً .
فخرج شريف من حضرة « الخديو السابق » ، ليقابل الخديو الجديد ، وذهب إليه في سراى الاسماعيليه ، وكان توفيق باشا قد تلقى الرسالة البرقية الأخرى بإسناد منصب الخديوية إليه ، فذهب الأمير إلى سراى عابدين يصحبه شريف ، وصعد وحده إلى الطابق الثانى .
فتلقاه أبوه مخاطباً إياه « يا أفندينا » وسلمه سلطة الحكم ، وكان الموقف مؤثراً ، ثم تراء إسماعيل قاعة العرش ، ودخل دار الحرم ، تكتفه الهموم والأحزان .
وفى اليوم نفسه ، فى منتصف الساعة السابعة مساءً ، أقيمت حفلة تولية الخديو توفيق باشا فى سراى القلعة ، وأستقبل فيها وفود المهثين ، وأخذ إسماعيل يتأهب للرحيل عن البلاد .

رحيله إلى منفاه

(٣٠ يونيه ١٨٧٩)

وحدد يوم الاثنين ٣٠ يونيه للرحيل عن الديار المصرية ، وقضى إسماعيل هذه الأيام الثلاثة يستعد للسفر ، ويجمع ما استطاع أخذه من المال والمجوهرات والتحف الثمينة من القصور الخديوية ، ونقلها إلى الباخرة (المحروسة) التى كانت معدة لركوبه بالإسكندرية .
وكان يوم رحيله يوماً مشهوداً ، إذ ازدحمت سراى عابدين منذ الصباح بالكبراء والدوات الذين جاءوا يودعون الخديو السابق ، وفى منتصف الساعة الحادية عشرة أقبل الخديو توفيق على أبيه يودعه ، وعند الساعة الحادية عشرة خرج الخديو السابق متوكئاً على نجله ، ودلائل الحزن بادية عليه ، وركب العربة وجلس توفيق باشا إلى يساره ، وركب بعدهما الأمراء والكبراء ، وسار الموكب حتى بلغ محطة العاصمة ، وكان الجند مصطفىين على الجانبين تحيى الخديو السابق .

ولما بلغ الركب المحطة ترجل إسماعيل باشا ، ووقف توفيق باشا يودعه وعيناه مغرورقتان بالدموع وكان إسماعيل شديد التأثر من هذا المنظر ، منظر رحيلة النهائى عن القاهرة التى كانت مسرحاً لمجده وبذخه وسلطانه السنين الطوال ، فوقف يخطب الحاضرين خطاباً مؤثراً ثم التفت إلى نجله وودعه قائلاً :

« لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديوى مصر ، فأوصيك

بإخوتك وسائر الآل برًا ، واعلم أنى مسافر وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المضاعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك ، على أنى واثق بحزمك وعزمك ، فاتبع رأى ذوى شورك ، وكن أسعد حالا من أبيك» (٤) ، وقال الذين شهدوا هذا المنظر أنه أبكاهم جميعاً .

ثم ركب القطار الخاص ، فبلغ الإسكندرية فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، واستقبله بها فى محطة القبارى محافظ التفر ، وبعض الرؤساء والكبراء ، وركب الزورق المعد له ، وتبعته زوارق المشيعين ، وسار حتى استقل الباخرة (المحروسة) ، ولما وصل إليها أطلقت المدافع إيذاناً بوصوله ورفعت البوارج الحربية أعلامها تحية له ، واستقبل على ظهر الباخرة بعض المشيعين الذين جاءوا يودعون الوداع الأخير .

ولم يملك إسماعيل صبره ، فترك مشيعيه بعد أن ودعهم ، ونزل إلى غرفته بالباخرة ، ثم غادرها المودعون ، وبعد هنيهة أقلعت (المحروسة) ، وأخذت تشق عباب الماء حتى غابت عن الأبصار ، ومالت شمس النهار إذ توارت بالحجاب ، فغربت معها شمس إسماعيل ، وسارت الباخرة إلى (نابولى) تحمل العاهل الذى قضى سبعة عشر عاماً يحكم مصر بمطلق إرادته ، ثم انهر بأن فقد عرشه وملكه وماله ، وكم من مرة أقلته (المحروسة) من قبل فى إبان مجده ، وشهدت رحلاته إلى الاستانة وإلى أوروبا ، حين كان يروح ويغدو ، تحفه المهابة والجلال ، وتعنو له الأمانى والآمال ، ثم حملته للمرة الأخيرة بعد أن نزل عن عرشه ، وطويت صفحته ، وقضى عليه بالتفى والحرمان ، فكانت خاتمة إحدى عبر الزمان .

وليس يسع الكاتب المنصف إلا أن يشعر بالعطف على إسماعيل والإعجاب بما أبداه من الشجاعة والإباء فى الأزمة التى انتهت بتزوله عن العرش ورحيله إلى منفاه ، فقد كان حقاً عظيماً فى موقفه ، شجاعاً فى محنته ، وناهيك بشجاعة جعلته يغامر بعرشه فى سبيل مقاومة الدول الأوروبية جمعاء ، فلو هو ارتضى الذل والهوان وأذعن لمطالب الدول ، وقبل عودة الوزيرين الأوروبيين يسيطران على حكومة مصر ومضايرها ، لضمن لنفسه البقاء على عرشه . ولكنه آثر المقاومة على الاستمسك بالعرش ، وقليل من الملوك والأمراء من يضحون بالعرش فى سبيل المدافعة عن حقوق البلاد ، فالصفحة التى انتهى بها حكم إسماعيل هو بلامراء من الصفائف المجيدة فى تاريخ الحركة القومية ، لأنها صفحة مجاهدة وإباء وتضحية ، وهى

(٤) مصر للمصريين لسليم النقاش ج ٤ ص ٩ .

لعمرى تضحية كبرى ، لأن عرش مصر وتاجها وصولجانها ليست من الأمور الهينة التى يسهل على النفوس العادية أن تزهد فيها ، أو تغامر بها ، ولكن إسماعيل ضحى بها فى سبيل مقاومة المطامع الاستعمارية ، وهذه التضحية حقها من الإعجاب والتمجيد .

ومن يتأمل فى هذه المأساة لا يسهه إلا أن يألم لمصير إسماعيل ، فقد كان جديراً بخير من هذا المصير ، كما أن مصر قد تكون أسعد حظاً لو بقي على عرشه ، فإنه فى السنوات الأخيرة من حكمه أخذ يطرح الأغلاط القديمة ، ويوجه مواهبه العالية إلى إنقاذ مصر من التدخل الأجنبي ، وكان له من ذكائه ومضاء عزيمته وتجاربه الماضية ما يكفل له التوفيق والسداد ، ولكن المآرب الاستعمارية ، والدسائس الإنجليزية والفرنسية ، ألقت العقبات فى طريقه ، ومازالت تناهضه وتغالبه ، حتى غلبته على أمره وأقصته عن عرشه .
وبذلك انسدل الستار على الفصل الأخير من حكم إسماعيل .

إسماعيل فى منفاه

وصل إسماعيل باشا إلى نابولى بإيطاليا حيث أعد له الملك امبرتو قصرًا لسكناه ، فأقام به هو وزوجاته وأنجاله وحاشيته ، وأخذ يتنقل بين مختلف العواصم الأوروبية ، ولم تفارقه آماله فى العودة إلى عرش مصر ، وسعى إلى ذلك سعيًا حثيثًا ، ولكنه أخفق فى مساعيه ثم سكن الاستانة منذ سنة ١٨٨٨ ، وأقام بقصره بميركون على البوسفور ، وظل مقبلاً فيه .

وفاته

إلى أن وافته منيته يوم ٢ مارس سنة ١٨٩٥ ، وله من العمر خمس وستون سنة ، فنقل جثمانه إلى مصر ، ودفن فى مسجد الرفاعى بالقاهرة .

الفصل الرابع عشر

نظام الحكم في عهد إسماعيل

النظام السياسي

كان إسماعيل يحكم البلاد حكماً مطلقاً ، ويتولاه بنفسه ، وقد ظلت كل صغيرة وكبيرة من شؤون الحكومة رهن إشارته ، بحيث كان يحق له أن يحاكي لويس الرابع عشر في قوله « إنما الدولة أنا » ، إلى أن حدث التدخل الأوروبى بواسطة صندوق الدين والرقابة الثنائية ثم الوزارة المختلطة ، فغلت سلطته بمقدار ما كسبه الأجانب من التدخل فى شؤون الحكومة المالية ثم السياسة .

ولم يكن الوزراء (أو النظار كما كان إسمهم) إلى سنة ١٨٧٨ ، أى إلى السنة التى انشئ فيها مجلس النظار سوى موظفين لدى الخديو ، يعينهم لرأسه النظارات المعروفة فى ذلك العصر ، وكانت تسمى « الدواوين » ، وهى الداخلية . والمالية . والمعارف . والحقانية . والحربية . والبحرية . والأشغال . والخارجية . والأوقاف . وأنشئت أيضاً وزارة للزراعة . وأخرى للتجارة ، ثم ألغيتا فى عهد وزارة نوبار باشا سنة ١٨٧٨ ، ولم يكن للنظار من السلطة إلا ما يتلقونه عن ولى الأمر ، وتضاءلت سلطتهم حتى أمام المفتشين العموميين ، وهما مفتش الوجه البحرى ، ومفتش الوجه القبلى اللذين استحوذا على السلطة الإدارية فى الحكومة بأمر الخديو .

وليس معروفاً على وجه التحقيق ماهى الحكمة فى إيجاد هذا النظام الذى يضع سلطة المفتشين بجانب سلطة النظار ، ويجعلهم أعظم شأنًا من هؤلاء ، ولكن يظهر أن السبب فى ذلك هو رغبة إسماعيل فى أن تتعارض السلطان حتى تكون كل منها رقية على الأخرى فيطمئن على سلوك كليهما ، وهى قاعدة مألوفة فى حكومات الاستبداد .

المجلس الخصوصى ثم مجلس النظار

لم يكن للوزراء مجلس قائم بذاته ، ولا هيئة لها أعضاء متضامنون ، بل كانوا كما قلنا موظفين بعينهم الخديو ويعزلهم كسائر موظفى الحكومة .

ولم يكن بمصر قبل سنة ١٨٧٨ مجلس وزراء ، بل كان بها مجلس يدعى (المجلس الخصوصى العالى) ، يضم عادة الوزراء (النظار) ، ولكنه ليس قاصراً عليهم ، بل كان يضم أيضاً جماعة من الباشوات الذين يصطفيهم الخديو ، ومن هؤلاء وأولئك يتألف المجلس الخصوصى .

وهذا المجلس ينظر فى شؤون الحكومة العامة ، ويضع القوانين واللوائح والقرارات الهامة ، ويعمل برئاسة الخديو ، ولكنه لم يكن مسئولاً عن سلطة الحكم ، بل كان أعضاؤه كسكرتيرين أو موظفين فى معية الخديو ، ليس لهم سلطة ، ولا تربطهم رابطة ، اللهم إلا اختيار ولى الأمر لكل منهم .

وكانت مسئولية الحكم يتولاها الخديو بنفسه ، إلى أن أنشئ (مجلس النظار) بالأمر العالى الذى أصدره إسماعيل فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ وتقدم الكلام عنه (ص ٨٣) ، ومن ذلك الحين صار الخديو يتولى الحكم بواسطة مجلس النظار وبالإشتراك معه .

فمجلس النظار قد خلف (المجلس الخصوصى) وصار مسئولاً عن الحكم ، وله كيان قائم بذاته ، وأعضاؤه يختارهم رئيس مجلس النظار ويتضامنون وإياه فى المسئولية ، وقد صار هذا المجلس أساس نظام الحكم فى مصر إلى عصرنا الحاضر .

مجلس شورى النواب

وانشأ إسماعيل هيئة نيابية تمثل الشعب وهى مجلس شورى النواب ، وقد تكلمنا فى الفصل السابق عن هذا المجلس والأدوار التى تعاقبت عليه .

التقسيم الإداري

بينما في كتاب «عصر محمد علي» (ص ٥٨١ طبعة أولى) التقسيم الإداري في مصر على عهد محمد علي ، وقد صارت البلاد مقسمة في عهد إسماعيل إلى ثلاث عشرة مديرية وهي : البحيرة . الغربية . الشرقية . الدقهلية . المنوفية . القليوبية . الجيزة . بني سويف والفيوم . المنيا . وبني مزار . أسيوط . جرجا . قنا . اسنا .

وكان بمصر من المحافظات تسعا ، وهي القاهرة . الاسكندرية . رشيد . دمياط . بورسعيد . العريش . الاسماعيلية . السويس (وتمتد سلطتها إلى سواحل البحر الأحمر حتى «الوجه») . القصير (وكانت تتبع مديرية قنا) .

وبقيت المديريات يرأسها المديرون ، والمحافظات يتولاها المحافظون ، واستمرت المديريات مقسمة إلى مراكز ، والمراكز إلى أقسام (أخطاط) ، والأقسام إلى نواح وبلاد ، وتغير إسم مشايخ البلاد فصاروا يعرفون بالعمد وتحت أيديهم المشايخ ، وجعل تعيين هؤلاء وأولئك بانتخاب الأهلين ورغبتهم .

النظام القضائي

بقيت المحاكم الشرعية كما كانت في عهد سعيد باشا ، ولما تولى إسماعيل الحكم أصدر أمره إلى مجلس الأحكام في ٢٧ رجب سنة ١٢٧٩ (١٨٦٣ م) بإعادة تأليف مجالس أو محاكم الأقاليم (المجالس الملغاة) ، إذ لم يكن بقي منها في آخر عهد سعيد سوى مجلسين ، فعمم هذه المجالس في أمهات المدن مع توزيع اختصاصها كما يأتي .

مجلس مصر : واختصاصه محافظة مصر والسويس وقسم أول جيزة .

مجلس بنها : واختصاصه القليوبية والمنوفية .

مجلس المنصورة : واختصاصه الشرقية والدقهلية .

مجلس طنطا : واختصاصه الغربية والبحيرة .

مجلس الاسكندرية : واختصاصه محافظة الاسكندرية .

مجلس بى سويف : واختصاصه بى سويف وقسم ثانى الجيزة والفيوم وبى مزار .

مجلس أسبوط : واختصاصه المنيا وأسبوط وجرجا .

مجلس إسنا : واختصاصه إسنا ومدينة القصير .

مجلس دمياط : واختصاصه محافظة دمياط .

ثم زيد عدد مجالس الأقاليم . فصار لكل مديرية مجلس ابتدائي . وزيد عدد (المجالس الاستئنافية) التى كانت تستأنف أمامها أحكام المجالس الابتدائية التى فى دائرتها .

وأنشئ ديوان الحقانية ، وأحيلت عليه إدارة المحاكم ومجالس الأقاليم . وإرشادها إلى طريق الصواب . وسن القوانين واللوائح لها . واشتملت اللائحة العمومية التى سنها سنة ١٢٨٨ على قواعد اختصاص المجالس وأصول المرافعات فيها .

وفى سنة ١٨٧١ بناء على إقتراح مجلس شورى النواب أنشئت مجالس أو محاكم بالقرى والأخطاط لنظر القضايا الصغيرة سميت (مجالس البدعاوى المركزية) تميزا لها من (المجالس المحلية) المنشأة فى عواصم المديریات .

المحكمة التجارية المختلطة

وبقيت المحكمة التجارية المختلطة المسماة (مجلس التجار) فى كل من الاسكندرية والقاهرة تفصل فى المنازعات التجارية بين الوطنين والأجانب . ولها محكمة إستئنافية تسمى (مجلس الاستئناف) بالإسكندرية ، وكانت المحكمة التجارية بالقاهرة سنة ١٨٧٢ تتألف من رئيس وهو على باشا شريف (الذى صار فيما بعد رئيساً لمجلس شورى القوانين) ثم خلفه على بك ابراهيم (باشا) وصار وزيراً للمعارف . ومن وكيل وهو أحمد بك عبيد ومن عدد متساو من القضاة الوطنيين والأجانب فكانت الغالبية للوطنيين . وهذه المحاكم التجارية هى التى حلت محلها المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٦ .

مجلس الأحكام

وقد بقى (مجلس الأحكام) هيئة إستئنافية عليا ، واستمر قائماً إلى تشكيل المحاكم الأهلية الجديدة ، واقتصر على نظر قضايا الوجه القبلى الذى لم يعمه نظام المحاكم الأهلية إلا سنة

١٨٨٩ ، فلما أنشئت المحاكم الجديدة بالوجه القبلى ألغى مجلس الأحكام نهائيا كما ألغيت مجالس الأقاليم ، ولذلك عرفت بالمجالس الملغاة .

ومما لا مندوحة عن ذكره أن النظام القضائى فى الجملة كان على حالة من التأخر لا تغبط عليها البلاد ، فالقضاة لم يكن لهم دراية بالقوانين ولا بالروح القانونية ، وكانت مناصب القضاء تسند إلى جماعة معظمهم من الأعيان ، أو من الموظفين الذين لم تتوفر فيهم شروط العلم والكفاءة ، ولم تكن العدالة مرعية ، وليس ثمة ضمانات للحقوق ، والرشوة منتشرة والنظام فى ذاته فاسد ، ولا يزال الناس يتناقلون روايات وأحاديث ، تدل على مبلغ انتشار الرشوة فى ذلك العهد بين موظفى المحاكم من قضاة وكتاب وغيرهم ، ولم تكن هناك محاكمات صحيحة ، وكان الننى إلى السودان كثيرا ما يصاب من يغضب عليهم ولى الأمر ، دون أن يحدث لذلك محاكمات أو تحقيقات .

وظل النظام القضائى مختلا إلى أن أنشئت المحاكم الجديدة سنة ١٨٨٣ على عهد توفيق باشا ، وقد كان الشروع فى إنشائها على عهد إسماعيل ، إذ مهد إلى ذلك بتعريب قوانين نابليون المعروفة (بالكود) ، واضطلع العلامة رفاعة بك رافع وتلاميذه بهذه المهمة ، فعرب هو وعبد الله بك السيد القانونى المدنى واشترك معها عبد السلام أفندى أحمد ، وأحمد أفندى حلمى ، وعرب قانون المرافعات عبد الله أبو السعود أفندى وحسن أفندى فهمى ، وعرب العلامة قدرى باشا قانون العقوبات والسيد بك صالح مجدى قانون تحقيق الجنايات ، ومن هذه القوانين استمد الشارع المصرى معظم قوانين المعاملات المدنية والمرافعات والعقوبات ، وصدرت بها المراسم سنة ١٨٨٣ فى عهد وزارة شريف باشا الرابعة .

إنشاء المحاكم المختلطة

إن ولاية القضاء ركن من أركان السيادة الأهلية لكل بلد مستقل ، فمن قواعد الاستقلال سريان سلطة القضاء الأهلى على جميع سكان المملكة ، لافرق بين وطنيين وأجانب ، ونفاذ أحكامه ، على أشخاصهم ، وعلى أموالهم ، فى منازعاتهم المدنية والتجارية وفيما يقع من أى منهم من الجرائم والمخالفات .

هذه القاعدة هى من أوليات نظام الحكم فى جميع البلدان المستقلة ، ولكنها فى الشرق

قد اعترض تطبيقها مامنحه الملوك والسلاطين لرعايا الدول الأوروبية من الامتيازات الأجنبية . كانت هذه الامتيازات في مبدأ أمرها منحة ، أعطتها تركيا لبعض الدول ورعاياها ، ولقد ظلت ردحا من الزمن مصطبغة بهذه الصبغة ، حتى سرى الضعف إلى السلطنة العثمانية ، فاستحوالت تلك المنحة حقاً مكتسبا ، ثم صارت في مصر عدوانا على السيادة الأهلية ، ومشاركة للحكومة في سلطتها .

ومع أن سريان الامتيازات في بلادنا يرجع إلى كونها في الأصل جزءا من السلطنة العثمانية ، إلا أنها تطورت واستفحل خطرهما ، وكسب الأوروبيون من المزايا أكثر مما لهم في تركيا ، وصار للامتيازات الأجنبية في مصر مظاهر ومميزات ليست لها في بلد مستقل ، ولا في أية ولاية من ولايات تركيا القديمة .

ومما يؤسف له أن الدول الأجنبية كسبت هذه المميزات في الوقت الذي تحررت فيه مصر من التبعية التركية ونالت استقلالها الذي شمل السيادة الداخلية وبعض مظاهر السيادة الخارجية ، وعلى ما يقتضيه المنطق من تضائل سلطة الامتيازات الأجنبية في عهد الاستقلال ، فقد جرى العمل على عكس ذلك ، إذ أنها اشتدت وطأتها في هذا العهد .

ومن الواجب تفسيراً لهذا التناقض أن نقول إن الأوروبيين لم يكسبوا مزايا جديدة في الوقت الذي كانت فيه الحكومة المصرية قوية البأس ، مهية الجانب ، أي في عهد محمد علي وإبراهيم وعباس ، ولكنهم انتهزوا فرصة الضعف الذي انتابها في عهد خلفائهم ، فنالوا مزايا وحقوقاً ما كانت لهم من قبل ، وفي هذا الصدد يقول المسيو جابريل شارم^(١) ما خلاصته : « لم يكن للجاناليات الأوروبية في عهد محمد علي وعباس أهمية ما ، ولكنهم نالوا الشأو العظيم في عهد سعيد وإسماعيل ، حتى صاروا خطراً على الأهلىن ، وقد ساعد فتح قناة السويس ومد السكك الحديدية على ازدياد نشاطهم ، وبلغ عددهم سنة ١٨٧٩ مائة ألف نسمة ، وطفوا أمام ضعف الحكومة الوطنية ، فقد كان سعيد باشا كثير التسامح والسخاء معهم ، ولم يكن يرفض أى منحة يطلبونها منه ، وكان ينساق من غير تبصر إلى أى مشروع يعرضونه عليه ، فإذا لم ينالوا من تلك المشاريع ما ييغونه من الربح ، عوضهم سعيد باشا مافاتهم من الأرباح ، وكان القناصل يتدخلون لتأييد مطالبهم ويكرهون سعيد باشا على إجابتها^(٢) .

« وكانوا يتخرجون في عهد عباس من هذا التدخل ، لما كان لديه من الوسائل لوقفهم عند حدهم ، وقيل عنه إنه كان لديه ثمر يآلفه ويضعه بالقرب منه محجوباً عن الأنظار ، فإذا اشتد الجدل بينه وبين أحد القناصل استدعى الثمر في رفق وهدوء ، إلى حيث يراه القنصل ، فكان لهذه الوسيلة « الدبلوماسية » أثرها في حسم التراع ... »

« أما سعيد فكان ضعيف الإرادة ، يخضع دائماً لمطالب القناصل ، وقد طغى سيل الأجانب في عهد إسماعيل واحتتموا بنظام الامتيازات الأجنبية وانتفعوا من تبذير الحكومة وسفورها » (٣) .

هذا ما يقرره كاتب أوروبي أدرك عصر إسماعيل ووصف حالة البلاد كما شاهدها ، وليس فيه مظنة التحامل أو المبالغة والإسراف في القول .

حدود الامتيازات الأجنبية في تركيا

كانت الامتيازات الأجنبية في تركيا تتبع القواعد الآتية :

أولاً : لم يكن للأجانب حق امتلاك العقارات في بلاد السلطنة العثمانية ، ثم تحولتهم الحكومة التركية هذا الحق بمقتضى القانون الصادر في يونية سنة ١٨٦٧ ، (٧ صفر سنة ١٢٨٤) ، وفي نظير تحويلهم إياه قبلت الدول الأوروبية خضوع رعاياها للوائح الضرائب العقارية والقوانين المالية التي تضعها الحكومة العثمانية من غير حاجة إلى موافقة الدول ، وخضوعهم للمحاكم التركية في المنازعات العقارية سواء كانوا فيها مدعين أو مدعى عليهم (٤) .

ثانياً : يرجع رعايا الدول الأجنبية في شؤونهم التجارية والمدينة والشخصية إلى قناصلها .
ثالثاً : تختص المحاكم العثمانية بنظر قضايا الأجانب مدنية كانت أو تجارية إذا كان في الخصومة صالح أهلي ، وتفصل في هذه المنازعات طبقاً للقوانين الأهلية دون حاجة إلى حضور القنصل أو مندوبه أثناء المحاكمة (٥) .

(٣) « مجلة العالمين » الفرنسية عدد أغسطس سنة ١٨٧٩ ص ٧٨٩ .

(٤) راجع نص هذا القانون في القاموس العام للإدارة والقضاء لفيليب جلاد ج ١ ص ٦١ ، وفي كتاب (نظام

الامتيازات الأجنبية في السلطنة العثمانية) للمسيو ديروزاس ج ١ ص ٤٦٠ .

(٥) انظر كتاب (نظام الامتيازات الأجنبية في السلطنة العثمانية) للمسيو ديروزاس Du Rausas ج ١ ص ٤٢٤

ومابعد ص ٤٧٣ .

ولكن تكن المحاكم التركية مختصة بنظر المنازعات المدنية (غير العقارية) إذا كان الطرفان ممن يتمتعون بالامتيازات الأجنبية ولا يمس النزاع صالحاً أهلياً .

رابعاً : تسرى أحكام القوانين العمانية الخاصة بالعقوبات على الرعايا الأجانب كما تسرى على الأهلين سواء بسواء ، وكذلك تسرى عليهم قوانين الضبط والربط واللوائح الإدارية والتنظيم والصحة ، وتطبق عليهم القوانين الجنائية ويحاكمون أمام المحاكم العمانية فيما عدا الجرائم التي تقع منهم على أجنبي^(٦) .

ولم تعد الامتيازات في تركيا الدائرة التي رسمتها المعاهدات على مافيه من غضاضة وافتيات على السيادة الأهلية .

اتساع حدود الامتيازات في مصر

ظلت الامتيازات في مصر تتبع أوضاعها الأصلية على عهد محمد علي وإبراهيم وعباس ، وكان بالاسكندرية والقاهرة محكمتان تسمى كل منهما المحكمة التجارية أو (مجلس التجار) ، تفصل في المنازعات التجارية بين الأوروبيين والمصريين ، وقضاها من الوطنيين والأجانب ، والغالبية فيها للوطنيين كما تقوم بيانه .

ولكن لما ضعف شأن الحكومة في عهد خلفاء محمد علي طغت سلطة الأجانب على سيادة الحكومة ، وبدأ طغيانهم في عهد سعيد ، ثم إزداد في عهد إسماعيل ، وفي خلال هذه الأطوار نالوا المزايا الآتية التي اغتصبوها بالعرف والعادة :

١ - إنتزع القناصل سلطة الحكم فيما يقترف رعاياهم من الجرائم التي تقع على الرعايا الوطنيين .

٢ - إلترم الأهالي عندما يقاضون الأجانب أن يرفعوا دعاواهم أمام محاكمهم القنصلية ، وذلك أن التنفيذ في منازل المحكوم عليهم كان يقتضى حضور القنصل ، ولكن القناصل كانوا يمتنعون عن حضور التنفيذ فتحجم السلطات الأهلية عن إقتحام منازل الأجانب . فيضطر الأهلون إلى الإلتجاء للقناصل عساهم يرسلون مندوبيهم لحضور التنفيذ . ولكن القناصل بدلا

(٦) انظر كتاب (نظام الامتيازات الأجنبية في السلطنة العمانية) للمسيو ديروزاس Du Rausas ج ١ ص ٤٢٤

ومابعدا وص ٤٧٣ .

من ذلك أخذوا يفصلون بأنفسهم في النزاع بين الفريقين . فيضطر المدعى مرغما إلى قبول هذه الوساطة بدلا من الحصول على أحكام يتعطل تنفيذها إلى ما شاء الله .

٣ - اغتصبت المحاكم القنصلية سلطة الفصل حتى في القضايا التي يرفعها رعاياها على الأهالي .

٤ - اغتصبت سلطة الحكم على الحكومة المصرية في القضايا التي يرفعها الرعايا الأجانب ، وهذا من أغرب ما يذكر في ضعف هيبة الحكومة ، وقد حكمت المحاكم القنصلية فعلا على الحكومة في قضايا تعويضات والتزمت الحكومة بدفع مبالغ باهظة بطريق التهديد خشية إغضاب القناصل وحكوماتهم .

وقد أحصيت هذه المبالغ في مدى أربع سنوات (من سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٦٨) (٧) فبلغت ٢,٨٠٤,٠٠٠ جنيهه (٨) ، وهذا يعطيك فكرة جليلة عن مبلغ استخذاء الحكومة أمام طغيان الأجانب ، ولقد كان من أسباب هذا الطغيان مجاملة الخديو اسماعيل لقناصل الدول لكي ينال رضا حكوماتهم ويكسب تأييدهم إياه في خلافه مع تركيا ، ولعمري أن الخطر الذي يهدد كيان مصر لم يكن آتيا من تركيا الضعيفة ، بل كان مصدره الاستعمار الأوروبي السياسي والمالي ، وقد دلت الحوادث على هذه الحقيقة ، ولكن نزعة اسماعيل الأوروبية كانت تحجب عنه كثيرا من الحقائق ، وأفضت إلى هذا العدوان المستمر على سلطة الحكومة .

وهذه السلسلة من الاغتصابات هي التي يسميها رجال القانون « العرف » أو « العادات المرعية » ، وقد صدق القاضي الهولاندى فان بملن Van Bemmelen الذي تولى قضاء المحاكم المختلطة في عهد اسماعيل في قوله عنها :

« إن الأوروبيين يعبرون عن الاختصاص المختلط للقنصليات بأنه نشأ عن « العرف » ، وفي الحقيقة أنه وليد الاغتصاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء » (٩)

(٧) في عهد اسماعيل .

(٨) احصاء ماك كون Mac Coon في كتابه مصر كما هي Egypt as it is ص ٢٨٥ .

(٩) مصر وأوروبا للقاضي المختلط فان بملن ج ١ ص ١١٨ .

اضطراب المعاملات

ساعت الحالة من جراء إنتحال المحاكم القنصلية تلك الإختصاصات الباطلة ، فإن كل محكمة من هذه المحاكم كانت تحابي رعاياها وتتحيف حقوق خصومهم ، هذا فضلاً عن أن كل قضاء قنصلي يحكم طبقاً لقانون بلاده ، فلم يكن التعامل بين الناس قائماً على قواعد معلومة ، وضوابط مرسومة ، بل صارت المعاملات عرضة لأهواء المحاكم القنصلية وقوانينها ، وإذا علمت أن القنصليات العامة للدول المتمتعة بالامتيازات الأجنبية كانت سبع عشرة قنصلية أدركت أنه كانت بمصر ١٧ محكمة قنصلية تحكم كل منها طبقاً لقوانين بلادها . ولم تكن تلك المحاكم تقضى فى المنازعات التى ترفع أمامها إلا قضاء ابتدائياً ، وأحكامها تستأنف أمام محاكم الاستئناف فى البلاد التابع لها ، فإذا كان المدعى عليه فرنسياً يرفع الاستئناف أمام محكمة « اكس » بفرنسا ، وإذا كان إيطالياً فأمام محكمة « انكونا » ، وإذا كان يونانياً فأمام محكمة « أتينا » ، وإذا كان إنجليزياً فأمام محكمة « لندن » ، وإذا كان نمسياً فأمام محكمة « تريستا » ، وإذا كان ألمانياً فأمام محكمة « برلين » ، وإذا كان أمريكياً فإلى محكمة « نيويورك » !! فتأمل فيما تقتضيه هذه الفوضى من المتاعب والعقبات ، والنفقات الجسيمة ، وإضاعة الوقت ، مما يؤدى فى الغالب إلى التنازل عن الخصومة بدلا من المقاضاة التى لا يعرف لها نتيجة ولا يؤمن فيها عدل .

إصلاح هذا الفساد

فكر إسماعيل فى إصلاح هذا الفساد ، ولكن بدلا من أن يعالجه بالقواعد المتفق عليها بين الدول ، وهى أن القضاء الأهلى هو صاحب الولاية على المتقاضين القاطنين فى البلد ، اختلفت أجناسهم ، فإن المشروع الذى انتهى إليه الاتفاق بين الخديو والدول يقضى بإنشاء محاكم مختلطة يكون العنصر الغالب فيها للقضاة الأوروبيين ، وتفصل فيما يقوم من المنازعات بين الوطنيين والأجانب .

ولامراء أن نظرة بسيطة فى أساس هذا النظام يتبين منها فساد ، وبعده عن القواعد النظامية فى البلاد المستقلة ، ولقد كان إسماعيل فى غنى عنه بالرجوع إلى النظام القضائى المتبع

في تركيا ، فإن اختصاص المحاكم الأهلية في بلاد السلطنة العثمانية يتناول الحكم في المنازعات المدنية والتجارية بين الرعايا الوطنيين والأجانب ، وفي القضايا الجنائية التي يهتم فيها هؤلاء ، ولما كان مصدر الاختصاص القضائي القنصلي هو الامتيازات الأجنبية في تركيا ، فالإصلاح المعقول هو الرجوع بهذا الاختصاص إلى حدود تلك الامتيازات ، لأن تطبيق الامتيازات في مصر إنما جاء تبعاً لسرياتها في تركيا ، على أساس أن الامتيازات هي معاهدات أبرمتها تركيا وأنها تسرى على مصر كما كانت تسرى على سائر أجزاء السلطنة العثمانية .

وقد نصت معاهدة لندن التي حددت مركز مصر الدولي سنة ١٨٤٠ على أن معاهدات السلطنة العثمانية تسرى أحكامها في مصر ، فمن الوجهة القانونية والدولية ، ما كان يجوز إقرار مزايا لرعايا الدول الأجنبية تريد عما كان لهم في تركيا بمقتضى معاهدات الامتيازات . ولكن إسماعيل ونوبار ، لتزعتها الأوروبية ، لم يجدا غضاضة من التدخل الأوروبي في ولاية القضاء ، مادام هذا التدخل منظماً ، فارتكبا شططاً كبيراً ، إذ لم يجعلوا أساس الإصلاح إتباع النظام الخاص بقضايا الأجانب في تركيا ، وارتضوا نقل سلطة المحاكم القنصلية المتعددة إلى محكمة مختلطة غالبية قضاتها من الأجانب ، فجاء الإصلاح معكوساً مشوهاً ، وحمل في طياته هدم ولاية القضاء في مصر ، ومهد لتغلغل النفوذ الأجنبي في سلطة القضاء والتشريع ، وفي كيان البلاد المالي والاقتصادي .

مذكرة نوبار باشا

(سنة ١٨٦٧)

شرع نوبار باشا في مفاوضة الدول الأجنبية في إنفاذ مشروعه ، وبدأ عمله بتقديم مذكرة تفصيلية إلى الخديو أبان فيها عيوب النظام القضائي القنصلي وامتدح إنشاء قضاء مختلط يوافق روح الامتيازات الممنوحة للأجانب .

المفاوضات بشأن النظام القضائي المختلط

تولى نوبار مفاوضة الدول بشأن نظام المحاكم المختلطة ، وطالت هذه المفاوضات لأن

الجاليات الأجنبية لم تكن تميل إلى إنشائها بل أرادت بقاء سلطة المحاكم القنصلية ، وكانت فرنسا من أشد الدول إعتراضاً على إنشائها ، واعتضت تركيا أيضاً على التخابر في شأنها بين مصر والدول الأجنبية .

إقرار نظام المحاكم المختلطة

واستمرت المفاوضات بين مصر والدول عدة سنوات ، ثم إنتهت باتفاقهن سنة ١٨٧٥ على إنشاء المحاكم المختلطة التي سميت « محاكم الإصلاح » ، وإليك بيان الدول التي أبرمت هذا الاتفاق : الولايات المتحدة : النمسا والمجر . بلجيكا . الدانيمرك . فرنسا . ألمانيا . إنجلترا . اليونان . هولانده . إيطاليا . البرتغال . روسيا . إسبانيا . السويد والنرويج ، ووضعت الحكومة المصرية باتفاقها مع الدول لائحة ترتيب المحاكم المختلطة وقوانينها المدنية والتجارية وقانون المرافعات ، ووافقت الحكومات الأوروبية على هذه القوانين ، وبقيت فرنسا مترددة في موقفها ، فكانت آخر من وافق عليها .

وهاك خلاصة القواعد التي قام عليها نظام هذه المحاكم :

أولاً : تختص بالفصل في المنازعات المدنية بين المصريين والأجانب ، وبين الأجانب الذين ليسوا من جنسية واحدة .

ثانياً : تفصل في المنازعات العقارية إذا كان أحد الطرفين من الأجانب ولو كان الطرفان من جنسية أجنبية واحدة .

ثالثاً : تفصل في المسائل الجنائية بالحكم على المتهمين الأجانب في بعض المخالفات البسيطة .

رابعاً : أما الجنح والجنائيات التي تقع من الأجانب فلا تختص بالحكم فيها ، بل بقيت من اختصاص المحاكم القنصلية ، مع استثناء الجرائم التي تقع على قضاة المحاكم المختلطة ، أو مأموريها القضائيين أثناء قيامهم بعملهم ، فتختص بالحكم فيها .

وقضت لائحة ترتيب تلك المحاكم بإنشاء ثلاث محاكم ابتدائية ، الأولى في الإسكندرية والثانية في مصر ، والثالثة في الاسماعيلية ، ثم نقلت إلى المنصورة ، ومحكمة إستئناف في الاسكندرية .

وللقضاء الأجانب الأغلبية ، ولهم رئاسة الجلسات ، وبما أن المحاكم الجزئية تتألف من

قاض واحد ، فقد جرى العمل على أن لا يكون هذا القاضى إلا أجنبياً ، على الرغم من أن لائحة ترتيب المحاكم لا تنص على ذلك ، ولكنهم ساروا على هذه القاعدة بطريق الاستنتاج والتغلب ، وقالوا ان رئاسة الجلسات التى تتألف من عدة قضاة تكون للأجنبى ، فإذا كانت الجلسة مؤلفة من قاض واحد ، وجب أن يكون أجنبياً .

ولا يسمح للقضاة الوطنيين أن يكون منهم قاضى الأمور المستعجلة ، الذى له سلطة واسعة المدى فى الأحكام ، أو قاضى الأمور الوقتية ، أو قاضى البيوع ونزع الملكية العقارية . وفى ذلك يقول القاضى الهولاندى فان بملن فى لهجة من التهمك : « مادامت القاعدة أن الأغلبية فى الأحكام مكفولة للأجانب فلم يبق إذا جلس قاض واحد إلا أن يكون أجنبياً ولم ترد أصلاً فكرة إسناد هذه المهمة إلى قاض من القضاة الوطنيين ، وكل ما سمح لهم به أن يكون منهم قضاة تحقيق ، أو قضاة متدبّون فى التفاليس » (١٠) ، ولعل هذا النظام هو الذى جعل القاضى فان بملن يصف المحاكم المختلطة بقوله (ص ٢٠٥) : « إنها ركن قوى من أركان السيطرة الأوروبية على مصر » .

وهناك رئاسة واحدة تركت للوطنيين فى النظام المختلط ، وهى الرئاسة « الفخرية » لمحكمة الاستئناف وللمحاكم الابتدائية الثلاث ، على أن هذه الرئاسات ألغيت مع الزمن ، ففما يتعلق بمحكمة المنصورة الابتدائية لم يعين لها سوى رئيس فخرى واحد ، وهو عبد القادر باشا فهمى الذى كان مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة ، ولمناسبة إحالته على المعاش سنة ١٨٩٤ عين رئيساً فخرياً لمحكمة المنصورة ، وظل يشغل هذا المنصب « الفخرى » حتى وفاته سنة ١٨٩٨ ، ولم يعين أحد خلفاً له ، وكذلك ألغيت الرئاسة الفخرية لمحكمة الإسكندرية سنة ١٨٩٦ ، أما محكمة مصر فكان آخر رئيس فخرى لها حنا نصر الله باشا سنة ١٩٠٨ ولم يخلفه أحد ، وآخر رئيس فخرى لمحكمة الاستئناف المختلطة هو أحمد عفيفى باشا وقد شغل هذا المنصب من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩١٤ ولم يعين أحد خلفاً له ، وألغيت هذه الوظيفة من ميزانية المحاكم المختلطة ، ويجدر بنا أن نساءل ماذا كان عمل الرئيس الفخرى لمحكمة الاستئناف المختلطة ؟ إن كل ما كان له من الحقوق أن يرأس الجمعية العمومية السنوية لقضاة محكمة الاستئناف لإنتخاب نائب الرئيس الأجنبى الذى هو الرئيس الفعلى للمحكمة ، وليس له فى الجمعية سوى الرئاسة فقط ، إذا شاء أن يتولاها ، وليس له أن يعطى صوته فى هذا

(١٠) مصر وأوروبا للقاضى المختلط فان بملن ج ١ ص ٢٠٧ .

الانتخاب ، أى أن رأسته شكلية ، لا عمل لها ، فهي أجدر أن تكون مدعاة للسخرية والازدراء .

افتتاح المحاكم المختلطة

(سنة ١٨٧٦)

فى خلال سنة ١٨٧٥ تم تعيين قضاة المحاكم المختلطة ، واستقبلهم الخديو فى حفلة خافلة بسرأى رأس التين بالإسكندرية يوم ٢٨ يونية سنة ١٨٧٥ ، وخطب الخديو مرحبا بهم وبمحاكم « الإصلاح » ، راجيا أن يكون إفتتاح هذه المحاكم فاتحة عصر جديد للمدنية . فرد عليه شريف باشا ، وكان وقتئذ وزيراً للحقانية ، مهتبا الخديو بالعمل المنطوى على الرقى العظيم الذى تم على يديه ، شاكرآ إليه باسم القضاة على الثقة التى وضعها فيهم ، ولم تكن فرنسا قد أقرت بعد النظام القضائى المختلط إقراراً نهائياً ، وبذلك خلت الحفلة من القضاة الفرنسيين ، إذ لم يكونوا عينوا بعد ، واستمرت فرنسا فى تردددها ورفضها ، إلى أن رأت أن النظام سيفذ رغم إرادتها ، فأنهت بالتصديق عليه فى ديسمبر سنة ١٨٧٥ .

وفى أول يناير سنة ١٨٧٦ افتتح رياض باشا وزير الحقانية فى ذلك الحين المحاكم المختلطة فى حفلة أقيمت بسرأى محكمة الإسكندرية ، أعلن فيها رسمياً إفتتاح تلك المحاكم ، وأقيمت فى اليوم نفسه حفلة افتتاح محكمة مصر ومحكمة الإسماعيلية الابتدائيتين ، وبدأ انعقاد جلسات تلك المحاكم فى فبراير من تلك السنة ، وألغيت من ذلك العهد المحكمتان التجاريتان فى القاهرة والإسكندرية إذ حلت محلها المحاكم المختلطة .

نظرة عامة فى القضاء المختلط

قام النظام القضائى المختلط على أساس تحويل هذه المحاكم سلطة الفصل فى جميع المنازعات التى تمس أى صالح أجنبى ، وجعل غالبية القضاة ورأسه الجلسات للأجانب ، فإذا نظرنا إلى حقائق الأمور ، وتركنا الظواهر والمجاملات جانباً ، رأينا فى هذا النظام قضاء أجنبياً ، يفصل فى المنازعات والمعاملات القائمة بين الأجانب والوطنين ، فيما الأجانب فى

كل بلد متمتع بالترز اليسير من الاستقلال ، ويخضعون للقضاء القومى ، نجد الأمر فى مصر على عكس ذلك ، فالوطنيون هم الذين يخضعون للقضاء الأجنبى ، فكأنهم هم الغرباء ، والأجانب هم أصحاب البلاد ، ولا يوجد فى العالم أمة تحترم نفسها وتشعر بالكرامة ترضى بمثل هذا النظام ، لأنه فضلا عن منافاته لركن هام من أركان الاستقلال ، وهو ولاية القضاء ، فإنه نظام جارج للغة القومية ، باعث على الذل والهوان ، إذ كيف يستشعر الكرامة قوم يخضعون فى معاملاتهم مع الأجانب إلى قضاء أجنبى قائم فى عقر دارهم ١٩ .

قلنا ونكرر القول إن القضاء المختلط هو فى الواقع قضاء أجنبى بكل معانى الكلمة ، وما العنصر المصرى فيه إلا أقلية لا ترفع عنه الصبغة الأجنبية ، وإذا دخلت يوما^(١١) أية محكمة من المحاكم المختلطة ، ابتدائية كانت أو إستئنافية ، جزئية أو كلية ، بل إذا دخلت أقلام الكتاب فى تلك المحاكم ، أو أقلام التنفيذ ، رأيت فى نفسك محكمة أجنبية ، ليس فيها للصبغة المصرية وجود ولا مظاهر ، فالقضاء غالبيهم من الأجانب ، ولا يُسمح لقاض مصرى أن يرأس جلسة ما ، واللغة الأجنبية هى لغة المرافعات والأحكام ، لغة التخاطب والتفاهم ، لغة الإعلانات والتنفيذات ، لغة القضاة والكتبة ، والموظفين والمحضرين ، بل الحجاب والفراشين .

أما اللغة العربية ، لغة البلاد وأهلها وحكومتها ، فلا وجود لها فى تلك المحاكم ، ولا يلتفت إليها أحد ، ومن أراد أن يتكلم بها لا يجد من يسمع له إلا إذا شاء المترجم أن يترجمها للغة الأجنبية ، فرنسية كانت أو إيطالية ، والمتقاضون من الأهلين يدخلون هذه المحاكم فيشعرون أنهم فيها غرباء ، ولا يفهمون شيئا مما يجرى حولهم ، ويُقضى فى مصيرهم ومصير أموالهم وأملاكهم وشرفهم ووجودهم ، دون أن يدروا ماذا يفعل بهم .

فالقضاء المختلط هو إذن قضاء أجنبى ، فيه افتيات على ولاية القضاء ، أى على ركن مهم من أركان السيادة القومية ، وفيه أيضا افتيات على السلطة التشريعية ، لأن الدول المتمتعة بالامتيازات الأجنبية ، قد نالت بإنشاء هذا النظام حقاً جديداً ، ذلك أن التشريع الذى يسرى على الأجانب لا يكون نافذاً فيهم إلا بموافقة الدول صاحبة الامتيازات ، فالنظام المختلط لم يقتصر على إنشاء قضاء أجنبى نافذ الأحكام على الرعايا الوطنيين وعلى حكومة البلاد ، بل

(١١) كُتب هذا سنة ١٩٣٢ .

حول الدول الأجنبية حق التدخل في التشريع الذي يسرى على رعاياها ، وهذا حق لم يكن لها قبل إنشاء المحاكم المختلطة .

وقد تجلّى تمسك الدول بهذا الحق حين وقع الخلاف بين الخديو إسماعيل والدائنين في أواخر حكمه ، فإنه لما صدر مرسوم ٢٢ أبريل سنة ١٨٧٩ بتسوية الديون ، وعلى أن هذا المرسوم لم يتقص شيئاً من حقوق الدائنين ، فإن الدول احتجت على صدوره واستمسكت بلائحة ترتيب المحاكم المختلطة ، واعتبرت أن لالحق للحكومة المصرية في أن تصدر أى قانون يتعلق بحقوق الأجانب بأى طريقة مامن غير موافقة الدول ، وهذا ماجعل الكاتب الفرنسى المسيو « جابريل شارم » يقول في بحثه المنشور بمجلة العالمين الفرنسية :

« إن القضاء المختلط الذى كان في نظر انصار القضاء القنصلى يتقص حقوق الأجانب حيال الوطنيين قد أكسبهم على العكس سلطة أقوى وأكبر مما كانوا يستمدونه من الامتيازات الأجنبية ، فإنه بمقتضى الإصلاح القضائى (المختلط) لا يمكن وضع أى نظام مالى يمس الأجانب سواء من الحكومة المصرية أو من الباب العالى من غير موافقة الدول » (١٢)

فهذا القول الذى يقوله كاتب سياسى أوروبى قوى الدلالة على أن مصر خسرت بإنشاء القضاء المختلط استقلالها التشريعى ، والواقع أن المحاكم المختلطة شاركت الحكومة في سلطة التشريع ، وسلبت منها هذه السلطة بالنسبة للأجانب ، ولم يعد في مقدور الحكومة أن تصدر قانوناً نافذاً عليهم إلا إذا صدقت عليه الجمعية التشريعية للمحاكم المختلطة ، أى أن هذه الجمعية صارت سلطة قائمة تغل السلطة القومية الممثلة في هيئاتها التشريعية ، وهذا سلب لأخص أركان الاستقلال ، وقد خسرت مصر هذا الخسران بمعاهدة أبرمتها ، لأن إنشاء القضاء المختلط هو نتيجة اتفاق بينها وبين الدول ، فلا سبيل إلى التحلل من قيود هذا الاتفاق أو المعاهدة إلا بمعاهدة أخرى ، وذلك بعد أن كانت حرة من هذه القيود ، ولم تكن مقيدة من الوجهة القانونية والدولية إلا بمعاهدات الامتيازات كما أبرمتها تركيا ، وكما كانت تطبق فيها ، وقد رأيت أن أحكام هذه الامتيازات أخف وطأة من القيود الواردة في نظام القضاء المختلط ، بل لا تكاد تذكر بجانبها شيئاً .

فمن الناحيتين القضائية والتشريعية ، يتمثل في وجود المحاكم المختلطة الاعتداء البالغ على السيادة الأهلية وعلى الاستقلال القومى ، كما أنه يعارض النظام الدستورى والبرلمانى في

البلاد ، لأن البرلمان لا يستقل بالتشريع فيما يمس حقوق الأجانب ومصالحهم .
 ويزداد هذا الاعتداء ظهوراً وجسامة باتساع المعاملات بين الوطنيين والأجانب ، إذ
 لاشك أنه بسبب تكاثر النازحين إلى مصر من الأجانب ، قد ازداد تبادل المعاملات بينهم وبين
 الوطنيين ، وأصبحت المصالح بين الفريقين مشتبكة ، وحيثما وجدت هذه المصالح صار
 الفصل في المنازعات التي تنشأ عنها من اختصاص القضاء المختلط ، أو بعبارة أوضح القضاء
 الأجنبي ، وكل تشريع يمس الأجانب عن قرب أو بعد لا يسرى عليهم إلا إذا وافقت عليه
 الجمعية التشريعية للمحاكم المختلطة .

ومهما يكن لهذا النظام من أنصار فهم لا يكتفون أنه مظهر من مظاهر التدخل الأجنبي ،
 وأنه ضرب من ضروب الوصاية الأجنبية التي تنتقص السيادة القومية في أنخص أركانها ، في
 ولاية القضاء ، وفي سلطة التشريع ، وفي النظام الدستوري والبرلماني .

ويجب أن لا ننسى أن هذا النظام لا يمثل العدالة في قدسها ، بل يمثل أولاً وقبل كل شيء
 رعاية المصالح الأجنبية وإهدار حقوق الأهليين في سبيل تلك الرعاية .

فمن يوم أن أنشئت المحاكم المختلطة توطدت مصالح الدائنين الأجانب من الشركات
 والأفراد ، واستقر الرهن العقاري وترع الملكية على قواعد مضبغة لأحكام المدينين من الأهليين
 وحقوقهم ، ولا يوجد في العالم محاكم تشبه المحاكم المختلطة في قسوة إجراءاتها حيال المدينين ،
 وتعريض أملاكهم وأموالهم للبيوع الجبرية بأجنس الأثمان ، وبأسرع من لمح البصر ، وتحميلهم
 فادح النفقات والمصاريف الرسمية وغير الرسمية .

وقد كانت حرباً على مصر وعلى الخديو إسماعيل الذي أنشأها ، فانه لما ارتبكت أحواله
 المالية أصدرت ضده الأحكام جزافاً للدائنين الأجانب ، وتشددت في تنفيذها ، وأسرفت
 أقلام محضريها في اقتضاء ما كان يحكم به على الخديو ، حتى أوقعت الحجز على منقولات
 القصور الخديوية ، وأعلنت بيعها بالمزاد ، وأظهرت من التجيز للأجانب في دعاوهم على
 الحكومة ما جعلها مضرب الأمثال في انتهاك العدالة ، فكانت من الكوارث التي أثقلت كاهل
 الخزانة والبلاد بالمغارم الباهظة ، ورأى إسماعيل من تحيزها للأجانب ما جعله يتقم من نوبار
 باشا الذي كان السبب في إنشائها ، وفي ذلك يقول القاضي الهولندي فان بلمن : « إن
 المحاكم الأجنبية (كذا يسميها) صارت سلطة أقوى من الحكومة المصرية ، وقد أدرك الخديو
 إسماعيل في الوقت الأخير وبعد وقوع المحذور أنه بإبرامه الاتفاقات المنشئة لهذه المحاكم قد خلق

لنفسه أسياً جديداً ، إلى جانب سيادة القنصليات » (١٣) ، وقال في خضوع تلك المحاكم للمؤثرات الأجنبية (١٤) : « إن هذه المحاكم التي يرتعد لها الخديو والباشوات لم تكن مستقلة تمام الاستقلال عن العنصر الأجنبي في مصر ، فبينما حكومة البلاد عزلاء أمامها ، كان الأجانب يعدونها محاكمهم ، ويرون أنها أنشئت خصيصاً لمناصرتهم في جميع الأحوال ، والقضاء لمصلحتهم ضد العرب والترك والخديو ، فكانوا منها في موقف حصين ، إذ يحميهم الرأي العام الأوروبي ، والمحامون ، ورجال الأعمال ، والصحف ، فضلاً عن المال الذي هو عدة الكفاح ، وتشد أزهرهم قوات القنصليات والدول ، والجاليات الأوروبية ، التي تتحفز لمهاجمة كل قاض وكل محكمة لاتنحاز إلى جانبهم ، وكان التأثير الأجنبي الواقع من الجاليات الأجنبية كالفرنسية والإيطالية ، وحتى اليونانية ، والرعايا المتمتعين بالحمايات ، يبدو أكثر مايكون في الإسكندرية ، حيث تبذل دار البورصة جهودها للسيطرة على سراى الحقانية (المحكمة المختلطة) المجاورة لها .

وقال في موضع آخر (ج ١ ص ٢٥٥) : « إن المحاكم المختلطة تحت تأثير الضغط الأجنبي قد أسرفت في إصدار الأحكام ضد الحكومة والخديو لصالح الأجانب من المقاولين والموردين أو من الأفاقيين من مختلف النحل ممن كانوا يطالبون بما ليس لهم حق فيه ، أو بأضعاف ما يستحقون ، ولقد أدى الإسراف في هذه الأحكام إلى تضخم الديون السائرة التي أثقلت كاهل الحكومة وتفاقم النكبة التي تولدت منها .

وقال أيضاً : « إن المحاكم المختلطة هي أداة للسيطرة الأوروبية والاستغلال الأجنبي في مصر ، فهي محاكم أجنبية ، تقضى بين الناس بلغة أجنبية ، وتطبق قانوناً أجنبياً ، ونفعها للبلاد ضئيل ، أما ضررها فكبير على الشعب المصري ولاسيما الفلاحين ، ولقد اعتدت على سلطة الحكومة المصرية والخديو ، وخدمت بأحكامها التحالف الأجنبي الذي يستغل البلاد ، ويعد عملها على الأخص في البيوع الجبرية والرهون العقارية كارثة على مصر » (١٥) .
ومما يذكره أنصار هذا النظام في معرض دفاعهم عنه أنهم يعدون افتتاح المحاكم المختلطة إحدى الحوادث الثلاث البارزة في عصر إسماعيل ، فيضعونها بجانب افتتاح قناة السويس سنة

(١٣ ، ١٤) مصر وأوروبا للقاضي المختلط فان بلمان ج ١ ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(١٥) مصر وأوروبا للقاضي المختلط فان بلمان ج ١ ص ٣٤١ .

١٨٦٩ ، وإنشاء صندوق الدين سنة ١٨٧٦ ، ^(١٦) فهذا السياق يدل على حقيقة هذا النظام ، فلا نزاع في أن قناة السويس وصندوق الدين هما من المنشآت التي تقصت استقلال مصر المالي والسياسي ، وطبيعي من وجهة النظر الأوروبية أن يوضع بجانبها إنشاء المحاكم المختلطة ، لأن وجود هذه المحاكم هو نقض لاستقلال البلاد القضائي والتشريعي .

ومن أبعد الآراء عن الصواب ما يذكرونه من أن وجود هذه المحاكم ضروري لنهضة البلاد وتقدمها ، وأن رءوس الأموال الأجنبية ما كانت لتستغل مرافق البلاد إذا لم يكن يحميها هذا النظام ، ولعمري ليس يسع العقل أن يسبح مثل هذا المنطق الذي يقتضي أن لا تكون نهضة ولا يكون تقدم إلا بهدم استقلال البلاد .

فليت شعري ألم يكن في البلاد نهضة وتقدم في عصر محمد علي ، أي قبل أن تنشأ المحاكم المختلطة ؟ أو ليس في البلاد المستقلة نهضة اقتصادية دون أن يكون بها مثل تلك المحاكم ؟ ليست المسألة مسألة نهضة وتقدم ، بل هي استغلال الأقوياء للضعفاء ، فوجود هذه السلطة القضائية والتشريعية الأجنبية في البلاد لا يبدو أن يكون مظهرا من مظاهر تدخل الدول الأجنبية في شؤون مصر ، واهدارها استقلالها ، فليس ثمة شك في أن هذه المحاكم إنما وجدت لحماية المصالح الأوروبية ، فهي مظهر من مظاهر الحماية أو الوصاية الأجنبية التي تعددت أشكالها .

ومن الخطأ ما يستشهد به أنصار هذا النظام من التجاء طائفة من المصريين إلى المحاكم المختلطة في منازعاتهم ، ويتخذون هذا ذريعة لتسويقها ، ويقولون إن هذه الظاهرة هي شهادة من المصريين بصلاح هذا النظام ^(١٧) .

فليس مجهولا أن المصريين الذين يتحايلون على القانون لرفع دعاواهم أمام المحاكم المختلطة لا يقصدون إلا إرهاب مدينهم بجرهم أمام محاكم لا يعرفون لغتها ويضلون في إجراءاتها ، ويحتملون من المصاريف والنفقات الباهظة ماتوء به كواهلهم ، وليس مجهولا أن قضايا المطالبة بالديون في المحاكم المختلطة تنهى في الغالب بما يتخللها من فداحة المصاريف القضائية وغيرها إلى اقتضاء الدين اضعافا مضاعفة ، وتؤدي إلى خراب المدينين وتجريدتهم من أملاكهم وأموالهم .

(١٦) الكتاب الذهبي للمحاكم المختلطة ص ٤٣٢ .

(١٧) الكتاب الذهبي للمحاكم المختلطة ص ١٧٧ ، ٢٤٦ .

فهذه الوسيلة التي يلجأ إليها فريق من الدائنين المصريين هي ذريعة للتكيل بمدينهم ،
وهي لانتفض دليلاً للدفاع عن هذا النظام ، بل هي من أظهر عيوبه .
وصفوة القول ان نظام القضاء المختلط قد نقض سيادة مصر واستقلالها في ولاية القضاء
والتشريع ، وقد كان هذا النظام ولم يزل أداة لاستغلال مصر واستعبادها اقتصادياً ومالياً ،
وإن المصري الذي يستطيع إلغاء المحاكم المختلطة وإحالة اختصاصها إلى المحاكم الأهلية يسدى
إلى مصر حقاً أعظم خدمة ، وينال تقدير الوطن عن جدارة واستحقاق ، ويخلد اسمه إلى الأبد
في سجل الحركة القومية»^(١٨) .

* * *

(١٨) كُتب بهذا سنة ١٩٣٢ ، تاريخ ظهور الطبعة الأولى ، ثم ألغيت الامتيازات الأجنبية بعد ذلك بموجب معاهدة
« مونترو » في ٨ مايو سنة ١٩٣٧ وقد نصت على إلغاء هذه الامتيازات ، وعلى بقاء المحاكم المختلطة لغاية ١٤ أكتوبر سنة
١٩٤٩ ، أي مدة اثني عشرة سنة ، وهي المدة التي سميت « فترة الانتقال » وبانتهاءها تلغى المحاكم المختلطة ويصبح
الاختصاص كله للقضاء الوطني .

الفصل الخامس عشر

الحالة المالية والاقتصادية

بدأت حالة البلاد المالية مزدهرة في أوائل حكم اسماعيل ، إذ صادفتها الحرب الأهلية الأمريكية ^(١) التي أدت إلى نقص محصول القطن الأمريكي وصادراته ، وزيادة إقبال المصانع على القطن المصري وارتفاع أسعاره ، فكانت سنوات الحرب سنوات يسر ورخاء لمصر .

كان محصول القطن المصري سنة ١٨٦٠ لا يزيد عن نصف مليون قنطار تقريبا ، بيع بثمن مقداره ١,١٠٧,٨٨٧ ج ، وبلغ ٥٩٦,٢٠٠ قنطار سنة ١٨٦١ وبيع في تلك السنة بمبلغ ١,٤٣٠,٨٨٠ ج . ثم صعد في السنوات التالية وتضاعف سعره كما تراه في البيان الآتي :

متوسط سعر القنطار	صادرات القطن	
٢٨٠	قنطار	سنة ١٨٦١ ٥٩٦,٢٠٠
٤٦٠	»	سنة ١٨٦٢ ٧٢١,٠٥٢
٧٢٥	»	سنة ١٨٦٣ ١,١٨١,٨٨٨
٩٠٠	»	سنة ١٨٦٤ ١,٧١٨,٧٩١
٦٣٥ ^(٢)	»	سنة ١٨٦٥ ٢,٠٠١,١٦٩

فترى من هذه المقارنة مبلغ الزيادة الكبيرة في الثمن ، ويتبين منها مقدار ما دخل البلاد من النقد مقابل بيع القطن ، وترى أيضا مقدار اطراد الزيادة في المحصول ذاته ، ولا غرو فإن ارتفاع أسعار القطن زاد في إقبال الناس على زراعته ، فصار محصوله سنة ١٨٦٥ أربعة أمثال ما كان عليه سنة ١٨٦٠ .

(١) ابتدأت سنة ١٨٦١ وانتهت سنة ١٨٦٥ .

(٢) كتاب إحصاء مصر سنة ١٨٧٣ ص ١٧٤ Statistique de l'Egypte ، وبيان السعر عن الإحصاء الوارد في

« الأهرام » عدد ٢٥ يوتية سنة ١٨٩١ .

ويتبين من الجدول الآتي اطراد الزيادة في سعر القنطار من رتبة جود غير مدى السنوات الخمس التي استمرت فيها الحرب الأمريكية مع مقارنتها بالسنتين السابقتين عليها :

السنة ١٨٥٩ ١٨٦٠ ١٨٦١ ١٨٦٢ ١٨٦٣ ١٨٦٤ ١٨٦٥

أقل سعر للقنطار

(بالريال) ١٠ $\frac{1}{4}$ ١١ $\frac{2}{4}$ ١٦ ٣٠ ٣٧ ٢٢ $\frac{1}{4}$

أقصى سعر للقنطار

(بالريال) ١٤ $\frac{1}{4}$ ١٣ ١٧ $\frac{1}{4}$ ٣٢ ٤٦ $\frac{1}{4}$ ٥٢ ٤١^(٣)

على أنه لم تكد الحرب الأمريكية تنهى سنة ١٨٦٥ حتى حدث رد فعل في أسعار القطن ، وبدأت الأزمة في مصر تلك السنة ، لما كان متوقعا من منافسة المحصول الأمريكي للقطن المصري ، ويتبين من الجدول الآتي تناقص أسعار القطن ومحصوله مدى السنوات التي أعقبت الحرب .

صادرات القطن متوسط سعر القنطار

متوسط سعر القنطار	صادرات القطن	سنة
٦٣٥	٢,٠٠١,١٦٩ قنطار	١٨٦٥
٧٠٥	١,٢٨٨,٧٦٢	١٨٦٦
٤٥٠	١,٢٦٠,٩٤٦	١٨٦٧
٣٨٠	١,٢٥٣,٤٥٥	١٨٦٨
٤٦٠	١,٢٨٩,٧١٤	١٨٦٩
٣٩٠	١,٣٥١,٧٩٧	١٨٧٠
٣١٥ ^(٤)	١,٩٦٦,٢١٥	١٨٧١

كان من نتائج صعود أسعار القطن في سنوات الحرب الأمريكية أن انغمس الأهليون في الترف والإسراف ، وتوسعوا في النفقات ، واستدانوا من المرابين بفاحش الفوائد بأمل استمرار الصعود في أسعار القطن ، ولم يتبصروا في العواقب ، فركبتهم الديون ، وأخذت الحالة تسوء في نهاية سنة ١٨٦٥ ، إذا أخذ الدائنون يطالبون بديونهم ، وحدثت أزمة عاجلتها الحكومة بالتدخل بين المدينين ودائنيهم صونا للثروة العامة ، وضنا بها أن تستقل إلى أيدي المرابين والتجار

والمالين الأجانب ، فتعهدت بسداد ديون الأهلين على أن ترجع بها عليهم كما تقدم بيانه (ص ٣٨) .

تأثرت الحالة المالية بسبب هذه الأزمة ، على أنها لم تكن السبب الوحيد لسوء الحالة ، وقد كانت أزمة طارئة لانتلبث إذا عولجت بالحكمة وحسن التدبير أن تروى وتعود البلاد سيرتها من الثبات والتقدم ، ولكن السبب الجوهرى لسوء الحالة هو توالى الديون الفادحة التى اقترضها الخديو إسماعيل وتكلمنا عنها فى الفصل الثانى عشر ، فإن هذه القروض قد حملت البلاد حكومة وشعباً عبئاً فادحاً عجزت آخر الأمر عن احتماله ، وناهيك بقروض أفضت بالحكومة إلى الإعسار وتدخل الدائنين فى إدارتها ، فكان شأنها شأن المدين الذى ركبته الديون وعجز عن السداد ووضعت أملاكه وأمواله تحت الحراسة القضائية .

فالقروض إذن هى السبب الأساسى لسوء حالة البلاد المالية ، وقد ظهر أثرها فى اختلال توازن الميزانية ، إذ ابتلعت فوائد الديون معظم موارد الدخل ، ولم يبق من هذه الموارد إلا النزر اليسير لإنفاقه على حاجات البلاد ومراقبتها .

الميزانية فى عهد إسماعيل

لم يكن للحكومة ميزانية بالمعنى الذى نفهمه اليوم ، لأن الخديو لم يفرق بين مالية الحكومة وماليته الخاصة ، بل كان يعتبرهما أمراً واحداً ، وكانت كل أموال الدول رهن إرادته ، يتصرف فيها كما لو كانت أمواله الخاصة ، ومن هنا جاء الخلل وسوء الإدارة وضياع الأموال بغير حساب ولارقب ، ولا يمكن أن يطلق لفظ « ميزانية » على تلك الأرقام الإجمالية التى كانت الحكومة تنشرها عن إيراداتها ومصروفاتها ، لأن هذه الأرقام لاتبين حقيقة الإيراد والمنصرف ، ولم تكن مطابقة للواقع ، فإن كثيراً من أبواب الإيراد كانت تغفل فى الميزانية ، ولا يعرف أين تذهب متحصلاتها ، ولم يكن من المحتمل أن ميزانية يتولى وضعها وتنفيذها وزير مالية مثل إسماعيل باشا صديق لمدة ثمانى سنوات متوالية تكون ميزانية جدية يُعرف منها حقيقة الدخل والخرج ، بل لابد أن تكون مثال القوضى والخلل ، ولم يكن للمجلس الخصوصى (مجلس الوزراء) ولا المجلس شورى النواب تأثير فعلى فى المسائل المالية ، بل كانت إرادة الخديو هى القانون ، وأوامره ، حتى الشفوية ، هى النافذة فى كل الشؤون .

ميزانية سنة ١٨٧١ - ١٨٧٢

نشر هنا مفردات ميزانية سنة ١٨٧١ - ١٨٧٢ ^(٥) كنموذج للميزانية في ذلك العهد :

الإيرادات

جنيه	
٤,٥٢٣,٦٦٥	أموال وعشور الأقطان بما فيها المتحصل من ضريبة السدس
١٤٣,٠٣٥	عشور ونخيل
١٥٥,٥٨٠	ويركو (ضريبة) أرباب الحرف مربوطة على اعتبار المشغولات
	رسوم المحاكم الشرعية وعوائد مبيعات الأقطان والأموال وعوائد
٨٦,٧٨٠	الأوزان وعوائد الذبيح وغيره
٧,٩٢٠	أموال جهات الواحات
١٤,٠١٥	عوائد زيوت وأموال
٢٩,٨٩٠	إيجار أقطان الميرى
٦٠٠	عوائد كورنتينه وغيره
٤٩٢,١١٠	إيراد الجمارك
٥٦٢,٨٨٥	صافي إيراد السكك الحديدية
١٠٤,٠٠٠	صافي إيراد السودان
١٧٥,٠٠٠	إيراد الملاحة
١٧٠,٣١٠	أرباح أسهم قناة السويس
١٨٥,٠٠٠	أرباح ورق التمغة وتمغة المصوغات وغيره بالمالية
	أموال الالتزامات وهي التزام المطرية والرسالة والنظرون والأسماك
٢٨٥,٧٩٥	وغيره وإيرادات الهاويسات
	إيجار أقطان وأموال الميرى ورسوم مبيعات الأملاك والأقطان بمصر
١٨٥,٥٠٠	واسكندرية ودمياط ورشيد
٢٠٢,٥٣٥	إيراد المحافظات
٧,٢٩٣,٦٢٠	مجموع الإيراد

(٥) عن «الوقائع المصرية» عدد ١٠ أغسطس سنة ١٨٧١ بعد أن حولنا الأكياس إلى جنيهات مصرية.

المصروفات

جيبه	
٣٠٠,٠٠٠	مخصصات الخديو
١١٠,٧٢٥	مخصصات العائلة الخديوية
٦٥٨,٣٣٥	ويركو الاستانة (الجزية)
٢٦,٨٠٠	ديوان الداخلية وأعضاء المجلس الخصوصى (مجلس الوزراء)
٧٠٠,٠٠٠	ديوان الجهادية والمدارس الحربية
١٥٢,٧١٠	ديوان المالية وملحقاته
٢١٠,٠٠٠	ديوان البحرية ووابورات النيل
٩,٠١٥	ديوان الخارجية
	مجلس الأحكام ومجالس الدعاوى والاستئنافات ومجلس التجار
٣٣,٦١٠	(المحكمة التجارية)
١٤٨,٠١٥	مديريات الأقاليم بحرى وقبلى
١٧,٨٧٥	ديوان الأشغال العمومية
٠٣٦,٣٤٥	مجلس الصحة والاستباليات
٨٥,٢٢٥	دواوين المحافظات
٨٩,٢٨٠	ضبطيات مصر والاسكندرية
٥٣,٠٢٠	ديوان المدارس (وزارة المعارف) ومكاتب الدروس
٢٨,٣٠٠	ديوان الجمارك

مرتبات ومعاشات

جنيه	
١٧,٩٥٠	مرتبات حريم وإشراقات
٢١٣,١٦٠	مرتبات أرباب المعاشات والموظفين
٤٢,٨٦٥	قيمة المرتب إلى الأشخاص المستودعين
٦٦,٧٧٠	مخصصات الحج الشريف والتكايا
	ربح أسهم قناة السويس الذى أعطى لها لمدة معلومة مقابل ثمن
١٧٠,٣١٠	الأمالك والأراضى
٢٠٠,٠٠٠	احتياطى

مخصصات القروض

٢٥٨,٥٠٠	دفعية قرض سنة ١٨٦٢
٦٠٤,٧٨٥	دفعية قرض سنة ١٨٦٤
٩٢٩,٤٦٠	دفعية قرض سنة ١٨٦٨
٥٢,٤٨٠	القومبانية المجيدية
٥٧٢,٨١٠	قرض السكة الحديدية

دفعيات الأشغال العمومية الجارية وذلك عن المستحق فى سنة ١٢٨٨ هـ

٢٩٢,٥٠٠	إنشاء رصيف ميناء الإسكندرية
١٣٨,٨٧٠	إنشاء ميناء السويس
١١٥,٧٢٥	إنشاء التربة الإسماعيلية بما فيها عمليات القناطر
٢٨,٩٣٠	كوبرى قصر النيل
٥٣,٩٠٠	تطهير ترعة المحمودية
٢.٨٢٥	تركيب فنارات السويس
٦.٤١٩,٠٩٥ ج	مجموع المنصرف

الزيادة (المزعومة) في الميزانية

الإيراد	٧,٢٩٣,٦٢٠
المنصرف	٦,٤١٩,٠٩٥
الوفر (المزعوم)	٨٧٤,٥٢٥ ج

وقد أوردنا في الفصل السابق الأرقام التي كانت الحكومة تنشرها عن الميزانيات السنوية وتقدمها لمجلس شورى النواب ، وأظهرنا الشك في صحة هذه الأرقام ، فإن ماورد فيها من زيادة الدخل على الخرج لا ينطبق على الواقع ، ولما تولت لجنة التحقيق الأوروبية فحص الميزانية من سنة ١٨٧٧ تبين مبلغ ما فيها من العجز وإليك البيان :

السنة	الإيراد جنيه	المنصرف جنيه	العجز جنيه
١٨٧٧	٩,٥٨٩,٩٠٠	١٠,٩٧٢,١٠٠	١,٣٨٢,٢٠٠ (١)
١٨٧٨	٧,٤٣٢,٩٨٢	١٠,٨٧٣,٥٤٨	٣,٤٤٠,٥٦٦ (٢)
١٨٧٩	٩,٩٤٩,٠٠٠	١٠,٣٣٠,٠٠٠	٣٨١,٠٠٠

الضرائب

لم تكن للضرائب قاعدة معلومة ولا قوانين أو لوائح يعرف منها حدود ما يجبى من الأهلىن ومواعيد الجباية ، بل كانت المسألة متروكة لأهواء الحكومة ، وكان يكفى كلما احتاج وزير المالية إلى النقود أن يطلب من كل مدير مبلغاً من المال « لاحتياج الحكومة إليه » ، فيصدع المدير بالأمر من غير بحث فيما إذا كانت المديرية أدت ما عليها من الضرائب أم لا ، فيوزع المال المطلوب على المراكز ويؤمر كل عمدة بتحصيل نصيبه في هذا المطلوب ، فهوى الحكومة إذن كان هو أساس النظام المالى وقاعدة الضرائب في ذلك العصر ، ولم يكن ثمة رقابة على مقدار

(٦ ، ٧) عن التقرير النهائى للجنة التحقيق الأوربية للنشور في الكتاب الأصفر الفرنسى ١٨٧٨ - ١٨٧٩ ص ٢٠٦ .

٢٠٧ ، وبلاحظ أن العجز يزيد بما قدرته اللجنة في تقريرها الابتدائى الذى أوردنا خلاصته ص ٨٠ .

مايجي ومايدخل خزائن الحكومة ، بل كانت الأيدي تتقاسمه من يوم جبايته إلى حين إنفاقه . كتب القاضي الهولندي فان بلمان يصف هذه الحالة كما شاهدها بقوله : « كانت الأمور تجري في عهد الخديو السابق (إسماعيل باشا) ووزير ماليته المفتش (اسماعيل صديق) على المنوال الآتي : يؤدي المدير كل مرة إلى وزير المالية المبلغ المطلوب منه ، ولا يصل كله إلى خزائن الحكومة ، بل يقطع الخديو جزءاً منه ، ثم يليه المفتش فيقطع جزءاً آخر ، والمدير لا يفوته قبل ذلك أن يستبق لنفسه نصيباً مما جباه ، ومأمورو المراكز يسبقون المدير إلى هذه الوسيلة ، ولم يكن ثمة عقبات تعترض هذه التصرفات ، لأن القوانين المالية كانت مبهمة غامضة ، والضرائب تجبي أحياناً مقدماً ، وقد تجبي الحكومة أكثر مما تستحقه ، ولا يستطيع الممولون أن يرفعوا شكواهم ، وإذا شكوا فلا تسمع لهم شكوى ، لأن الحكومة لا تعطى إيصالاً بما يدفع لها من الأموال ، ولأن الناس يعيشون في جو من الاستبداد والمحسوبة والإرهاب »^(٨) ولم تكن الضرائب موزعة على الأهالي توزيعاً عادلاً ، بل كانت الأهواء تتحكم في إعفاء المتصلين بالخديو وحاشيته ، وإرهاق الفلاحين بفادح الأتاوات لسد العجز في ميزانية الحكومة ، وكانت أطيان الخديو لا تدفع الضرائب ، وبالرغم من قرار مجلس شورى النواب في دور انعقاده الثاني سنة ١٨٦٨ في تعديل الضرائب وجعل ترتيب درجاتها منوطاً بمندوبي الحكومة ومن يرافقهم من العمد والأعيان فإن العدل كان أبعد ما يكون في ربط الضرائب على الأطيان أو على النخيل .

وقد زادت الضرائب في عهد إسماعيل زيادة مطردة ، وبدأت الزيادة منذ تورط في القروض ، إذ لم يجد مورداً لسداد فوائدها السنوية سوى زيادة الضرائب ، فكان يزيدوها كلما احتاج إلى المال لينفقه على مطالبه الكثيرة وعلى سداد فوائد الديون .

من أجل ذلك ابتدعت الحكومة أنواعاً جديدة من الضرائب ، كالسدس ، والرى والإعانة^(٩) والمقابلة^(١٠) ، وضريبة ترعة الإبراهيمية ، وهي ضريبة إضافية فرضت على الأطيان المستفعة بهذه الترعة ، وماربط من العوائد على المباني ، ومعاصر الزيوت ، ومعامل الدجاج ، ومانقرر على الدواب ، كضريبة المواشي وعوائد الأغنام ، وعوائد دواب الركوب ،

(٨) مصر وأوروبا للقاضي المختلط فان بلمان ج ١ ص ٦٠ .

(٩) سبق الكلام عنها ص ١٠٢ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٤ . (كتابنا . الطبعة الأولى)

(١٠) راجع ص ٣٩ . (الطبعة الأولى)

والعربات بمصر والإسكندرية ، وما فرض على الأشخاص مثل الويركو ، اى الضريبة على أرباب الحرف والصناعات ، والضريبة الشخصية ، وعوائد الرخص للقبانية والدلالة على ما يباع من المصوغات ، وعوائد الصوف ، والدخولية ^(١١) ، وضريبة الملح ^(١٢) ، ورسم القيدية وكان يؤخذ بحساب عشرين قرشاً على كل عرض يقدم لأحدى دوائر الحكومة الخ . وبلغ ما كان يدفع من المال وملحقاته عن الفدان الواحد في بعض السنوات خمسة جنيهات ونصف كما تقدم بيانه ، وهو مبلغ ينوء به المالك ويزيد عما يجبى الآن من الضريبة على الفدان وما كان يجبى في عهد سعيد باشا .

كان ازدياد الضرائب على هذا النحو عبثاً فادحاً ، بل ظلماً بالغاً ، لأن المالك لم يكن يبقى له من غلة أرضه شيء يذكر بعد أداء الضرائب وملحقاتها ، فلا عجب أن تؤدي هذه الحالة بالأهلين إلى الضنك والبؤس ، وكانوا في كثير من الأحيان يضطرون إلى بيع حاصلاتهم بأبخس الأثمان قبل أوان نضجها ليؤدوا من ثمنها قيمة الضريبة ، وكذلك كانوا يضطرون إلى بيع مواشيهم ، وقد نشأ عن فداحة الضرائب أن هجر كثير من الملاك أراضيهم وتركوها بوراً ، وقد سمي هؤلاء « المتسحين » وكثر عددهم بحالة أفلقت بال الحكومة ومجلس شورى النواب ، فوضعت قانوناً لتوزيع أطيان المتسحين كما تقدم بيانه .

وزاد الحالة بلاء وضنكاً سوء نظام الجباية وما اشتهر عن عاملها في ذلك الحين من الظلم والرشوة والقسوة والإرهاق ، وكانت الحكومة لا اضطرارها إلى المال تجبى الضرائب مقدماً ، وخاصة في سنوات العسر المالي ، فكانت تكره الأهلين على أداء الضريبة قبل حلول موعدها بتسعة أشهر ، وفي بعض الأحيان بسنة كاملة .

وازدادت حالة الأهلين عسراً وضنكاً بعد فرض نظام الرقابة الثنائية الأوروبية وتأليف الوزارة المختلطة ، فإن العنصر الأوروبي في الحكومة لم يكن يعنيه إلا أن تجبى الضرائب بمنتهى القسوة لوفاء أقساط الديون ، وجاء نقص النيل سنة ١٨٧٧ نقصاً جسيماً لم يسبق له نظير في

(١١) مما يدل على كثرة أصناف الضرائب التي فرضت في عهد إسماعيل إنه صدر مرسوم في ١٧ يناير سنة ١٨٨٠ أوائل عهد توفيق باشا قضى بإلغاء نيف وثلاثين صنفاً منها .

(١٢) منشأ هذه الضريبة أن الحكومة كانت تحتكر الملح ففرضت على كل فرد من الأهلين رسماً أو ضريبة مقابل ما يفترض أن يصرف له من الملح في السنة ، وبلغ ما كانت تحصله الحكومة من هذه الضريبة ٢٠٠,٠٠٠ جنيه في السنة ، وقد رهن متحصلاتها ضمن مازهن وفاء لقرض سنة ١٨٧٣ ثم ألغيت في أوائل عهد توفيق باشا .

عهد اسماعيل ، فزاد الحالة الاقتصادية سوءاً ، إذ حرمت أطيان بأكملها وخاصة في الوجه القبلي من الزراعة ، وظهرت عواقب هذا النقص سنة ١٨٧٨ ، فاشتد الكرب بالناس ، وحدثت بالوجه القبلي مجاعة نشأت عن بوار الزراعة وفداحة التكاليف واقتضاء الضرائب مقدما ، ومات بسبب هذا المجاعة عشرة آلاف شخص ونيف ، معظمهم من مديريات جرجا وقتنا وإسنا ، فكانت هذه الأيام من أسوأ مآثره البلاد من البؤس والشقاء الاقتصادي . وكان من نتائج زيادة الضرائب والإرهاق في جبايتها أن اضطر الفلاحون من أجل أدائها إلى الاستدانة ، لأن عمال الجباية كانوا يلجأون إلى الضرائب بالكرباج لإكراه الأهالي على أداء ما يطلب منهم ، فكان الأهالي يختارون أهون الشرين ، فيستدينون من المرابين ما يطلب منهم من المال ، ومن هنا تفاقمت ديون الأهالي ، فقد استهدفوا لآفة الاقتراض بالربا الفاحش ، حتى ركبهم الديون ، وتزعت أملاك الكثيرين منهم ، وكان المرابون كلهم أو معظمهم من الأجانب ، أو من في حكمهم من الرعايا المشمولين بالحمايات الأجنبية ، فتغلغلوا من ذلك الحين في أملاك الأهلين ، وازداد نفوذهم وسلطانهم ، وأخذوا يجمعون الثروات الضخمة ، ويستعبدون الأهالي ، ومن ثم تعرضت الملكية العقارية في مصر للخطر .

فحق ملكية الأطيان الزراعية لم يكد يتقرر في عهد سعيد باشا ويتوطد في أوائل عهد إسماعيل حتى أصابه صدع شديد في أواخر هذا العهد ، وذلك على أثر طغيان سيل الإفرنج ، وانتقال الملكية إليهم ، أو اكتسابهم عليها حقوق الرهن التي تجعل حق الملكية في حكم العدم ، وتجعل المالك في يد الدائن المرهن أجيراً وأسيراً .

وصف المسيو جابريل شارب هذه الحالة التي شاهدها بنفسه وصفاً مؤثراً قال فيه : « إن الحالة التي تسترعى النظر هي مسألة الملكية الزراعية ، فإن الأطيان والمتاجر أخذت تنتقل من عدة سنوات (كتب هذا سنة ١٨٧٩) إلى أيدي الأوروبيين ، ذلك أن الإرهاق في فرض الضرائب على الفلاحين جعل بقاء الأرض في أيديهم أمراً بعيداً عن الإمكان .

« كان الفلاح في عهد سعيد باشا يؤدي الضرائب من غير مشقة ، إذ كان يوفيه من غلة أرضه ، ويبقى له بعد ذلك ما يقوم بأوده ، ويعيش به عيشة رغداً ، في بلاد اشتهرت بقله تكاليف المعيشة ، وفي أوائل عهد اسماعيل كان الفلاح أحسن حالا وأكثر رغداً ، فإن ارتفاع أسعار القطن الناشئ عن الحرب الأمريكية جعل إيراده يبلغ الضعف ، وما كان يبيعه من قبل بثلاثة جنيهات صار يبيعه بثمانية أو عشرة جنيهات ، ولم ير الفلاح يسراً ورخاء مثلاً رآه في ذلك

العهد ، ولكن هذا اليسر مالبث أن تبدل عسراً وضنكاً ، فقد هبطت أسعار القطن بعد انتهاء الحرب الأمريكية ، وهبط الدخل هبوطاً جسيماً ، وفي الوقت نفسه زادت مطالب الحكومة ، وأخذت الضرائب في ازدياد ، فاضطر الفلاح إلى أن يهود بكل ما كان مدخراً أو محبوباً عنده ، ولم يبق لديه إلا أرضه ، فإذا ما أرهقته الحكومة في طلب الضرائب اضطر أن يلجأ إلى أحد المرابين الأجانب ليقرضه بالربا الفاحش ، ويرهن أرضه ، فإذا ما تأخر عن الوفاء سيق إلى المحاكم فتتزع ملكيته وتباع أرضه بأبخس الأثمان ، وكان سعر القروض الربوية يبلغ أربعين أو خمسين في المائة ، ولوحظ كثيراً أن سيلا من المرابين كانوا يتبعون جباة الضرائب في القرى ليقرضوا الفلاحين المال المطلوب منهم بأفحش الفوائد ، وقد تبلغ الفائدة ١٠ أو ١٢٪ في الشهر الواحد أى ١٢٠ إلى ١٤٤ في السنة .

ويقول المسيو شارم إن هذه الوسيلة قد أدت إلى هبوط قيمة الأراضي ، فالفدان الذى كان يباع (فى أوائل سنى حكم اسماعيل) بثمانين جنيهاً صار يباع (سنة ١٨٧٩) بثمانية جنيهات فقط ، وإن الأجانب الذين يملكون الأراضي بطريق المزاد أو بطريق الإكراه كانوا يسومون الأهالى الخسف ويعاملونهم بأسوأ أنواع المعاملة (١٣) .

وكتب القاضى الهولندى (فان بلمن) يصف هذه الحالة بما يوافق فى الجملة وصف المسيو جابريل شارم ، وقد كتبت أقوالها فى أوقات متقاربة ، قال فى هذا الصدد :
« انتشر المرابون انتشاراً هائلاً فى عهد اسماعيل ، ونصبوا شباكهم فى طول البلاد وعرضها ، يمتصون بها دماء الفلاحين ، ومعظم المرابين من الأروام والأوروبيين أو الرعايا المشمولين بالحمايات القنصلية ، والطريقة المخربة التى تجبى بها الضرائب مقدماً كانت فى الواقع لصالح المالىين من رعايا القنصليات ، وفى بعض الأحيان كانت الحكومة تقترض من هؤلاء مبلغاً من المال ، على أن تكل إليهم الرجوع على الفلاحين وجباية الضرائب منهم فى جهة معينة ، فكانوا يجوبون القرى مصحوبين برجال السلطة ويستخلصون من الأهالى أكثر مما أدوه للحكومة وأكثر من الضريبة المستحقة » (١٤) .

(١٣) مجلة العالمين الفرنسية عدد أغسطس سنة ١٨٧٩ ص ٧٩٧ .

البذخ والإسراف

وزاد الحالة الاقتصادية سوءاً ضروب الإسراف التي ابتدعها الخديو إسماعيل والتي تكلمنا عنها في الفصل الحادى عشر ، فإنها اقتضت خروج أموال البلاد إلى غير أهلها ، سواء أكانوا داخل البلاد أم خارجها ، ولا عجب فإن مادة الإسراف وصنوفه ومظاهره كانت أجنبية « من وارد أوروبا » ، فقددت البلاد ملايين الجنيهات تسربت إلى الخارج في وقت هي أحوج ماتكون إليها ، ونقص بذلك رأس مال الثروة القومية ، أضف إلى ذلك تلك الملايين التي أنفقها إسماعيل على ضفاف البوسفور ، فقد فقدتها البلاد وابتلعها تلك العاصمة النهممة إلى المال ، وقد رأيت كم بذل فيها من الرشا لرجال الاستانة ، وكم انفق فيها على إقامة الحفلات والولائم ، وكان لا يكاد يمر عام إلا ويقضى الخديو بالاستانة أو بأوروبا ردحا من الزمن ينفق فيه الأموال بغير حساب ، وكانت رحلاته وسياحاته في العواصم والمدن الأوروبية تكلف البلاد الآلاف بل الملايين من الجنيهات ، وفي عهده ظهرت بدعة اصطيفاف السراة والأعيان في الخارج ، تلك البدعة التي كلفت البلاد إلى الآن مئات الملايين من الجنيهات .

وكان الخديو مثالا يحتذىه باشوات القطر وأمراؤه وكبرأؤه وأعيانه (والناس على دين ملوكهم) ، فقلدوه في البذخ والإسراف ، وتمشى داء الإسراف في مظاهر حياتهم الاجتماعية والشخصية ، كابتناء القصور والاستكثار منها ، والإنفاق من غير حساب على زخرفتها وتأثيثها ، وأسرفوا في حفلاتهم وأفراحهم ، وولائمهم وأسفارهم ، وملاهيهم وأهوائهم ، مما اضطر معظمهم إلى الاستدانة من المرابين والبنوك ، ورهن الأملاك والعقار ، فخربت بيوت عامرة ، وضاعت ثروات طائلة .

استغلال الأجانب مرافق البلاد

ثم إن اصطفاء إسماعيل للأوروبيين وركونه إليهم واجتذابهم إليه ، كل ذلك مكن لهم من مرافق البلاد ، فجاءوا برؤوس أموال لهم استثمروها في إنشاء المتاجر والبنوك والبيوت المالية ، والشركات ، والمشارب والملاهي ومحال الدعارة ، فتفتحت الثغرات لخروج ثروة الأهلين إلى

أيدي الأجانب ، وامتدت أيدي الأعيان والكبراء والفلاحين وسائر الطبقات إلى الاستدانة من البيوت الأجنبية ليشتروا الأقطان والعقار ، فوجدت في البلاد ثروات مادتها أجنبية ، ولاريب في أن هذا الأساس يؤدي إلى تبعية الثروة القومية للأجانب ، دولاً وشركات ، جماعات وافراداً ، فالاستقلال المالي قد أصابه التصدع من هذه الناحية ، فضلاً عن النواحي الأخرى ، وأهمها القروض التي عقدها الخديو .

صحيح أن بعض رعوس الأموال الأوروبية قد ساعدت على تقدم البلاد ورفاهيتها ، لكن هذا التقدم كان على حساب الاستقلال الاقتصادي ، لأن كل تقدم مادته أجنبية هو بالنسبة للأمة أسرواسترقاق ، وذل واستعباد ، ومهما نالت الأمة من الرفاهية والثروات والفوائد الوقتية فإنها لاتعدل تبعيتها وخضوعها لرعوس الأموال الأجنبية ، هذا إلى أنها تصبح عرضة للآزمات والشدائد إذا ماسحب الأجانب أموالهم لأي سبب ما ، فإن هذه الأموال لدخولها في بناء الأمة الاقتصادية تصير جزءاً من كيانها ، وتشعر الأمة بالحاجة إليها ، فتكون أداة تهديد مستمر لها يجعلها أبداً خاضعة لإرادة الأجانب ، محتاجة إلى استرضائهم ، والتزول على إرادتهم ، وأمامنا دليل قائم يؤيد هذه الحقيقة ، وهو أن تقدم الثروة العقارية المصرية بواسطة البنوك والشركات ذات رعوس الأموال الأجنبية قد أفضى بثروة البلاد إلى أن أصبحت تحت سيطرة الأجانب وتحت رحمتهم ، وأصبح أكثر الملاك الوطنيين أجراء للأجانب ، وهذا ليس استقلالاً ولا تقدماً ، بل هو الاستعباد الاقتصادي الذي يستتبع حتماً الاستعباد السياسي ؛ لأنه لا يمكن لأمة أن تتحرر سياسياً وهي خاضعة في كيانها الاقتصادي للأموال الأجنبية ، ولانحتاج هذه الحقيقة لإقامة الأدلة والبراهين عليها ، فاننا نلمسها بأيدينا في عصرنا الحاضر ، ولقد قام عليها الدليل في عصر اسماعيل ، فإنه وضع في عنقه أغلال الأسر والذل باعتماده على رعوس الأموال الأجنبية ، وانتهى به الأمر إلى أن فقد استقلاله أمام نفوذ أصحابها وسلطانهم ، ثم فقد عرشه نزولاً على إرادتهم .

ومما ساعد رؤوس الأموال الأوروبية على التغلغل في مرافق البلاد إنشاء المحاكم المختلطة ، فإنها كانت ولم تزال حامية لهذه الأموال وسيلها إلى تكبيل البلاد والأهلين بقيود الرهون العقارية وتزع الملكية ، والسيطرة على مرافق الأهلين وحقوقهم وأموالهم ، كما بينا ذلك في الفصل الثالث عشر ، وبحسبك أن مصر لم تعرف تلك الرهون ولاعرفت تزع ملكية المدينين بشكل مفزع قبل إنشاء تلك المحاكم ، وبيان ذلك أن الرهن الحيازي كان هو المألوف في مصر

قبل إنشاء القضاء المختلط ، ولم يكن ثمة خطر كبير من ورائه ، لأن الفلاح لا يتخلى بسهولة عن أرضه ولا يرضى بتسليمها للدائن منذ البداية طبقاً لأحكام الرهن الجيازي ، فكان طبيعياً ألا تميل نفسه إلى هذا النوع من الرهن الذي يشبه أن يكون مجرداً من الملكية ، فلما أنشئ النظام القضائي المختلط ووضعت قوانينه تقرر الرهن العقاري الجديد الذي بمقتضاه يرتن الدائن الأرض مع بقائها في حيازة المدين ، على أن يكون للدائن حق نزع ملكيتها جبراً إذا تأخر المدين عن الوفاء ، فهذا النوع الجديد من الرهن قد أغرى الفلاحين والملاك بالتهافت عليه ، لأنه في الظاهر لا يخرج الأرض من حيازة صاحبها ، ولكنه في الواقع كارثة على الملكية العقارية ، لأن السهولة التي يقدم بها المدين على الرهن واطمئنانه بادئ الأمر إلى بقاء ملكه تحت يده ، وقلة تبصره في العواقب ، كل ذلك قد رغب إلى الأهلين الاستدانة بالربا الفاحش وترتيب حقوق الرهن العقاري على أملاكهم ، وقد انتهجوا بادئ الأمر لهذه الوسيلة التي تمكنهم من الحصول على المال ، ولكنها أدت إلى نزع أملاك المدينين وخروجها نهائياً من أيديهم إلى أيدي المرابين والبيوت المالية الأجنبية ، وليس أسهل أمام المحاكم المختلطة من إجراءات نزع الملكية ، والبيع الجبرية ، ولأدعى منها إلى الخراب ، لما تقترن به من قسوة الإجراءات وفداحة المصاريف الرسمية وغير الرسمية ، فالرهون العقارية والبيع الجبرية هي من الكوارث التي جاءت مع النظام القضائي المختلط والتي أدت إلى تسرب الثروة العقارية إلى أيدي الأجانب ، ولو كان في البلاد مشرع حكيم لحظر هذا النوع من الرهن كما منعه أخيراً بالنسبة لصغار الملاك في قانون الخمسة الأفدنة .

والامتيازات الأجنبية عامة كانت من عوامل طغيان نفوذ الأجانب المالي ، لأنها فضلاً عن أنها تجعل لهم كياناً مستقلاً في جسم الدولة فإنها جعلت أموالهم غير العقارية بمنجاة من الضرائب ، فلم يكونوا يؤدون العوائد الشخصية ولا عوائد الحرف أو عوائد المحلات التجارية والصناعية ، ولم يكونوا يؤدون سوى ضريبة العقارات ، ومع ذلك كانوا يتلكأون في أدائها ولا يعترفون إلا بما يروق لهم منها ، ولم يلتزموا بشئ من التكاليف العامة سوى الرسوم الجمركية ، على أنهم كانوا أيضاً في هذا يتحايلون على التخلص منها بتنظيم حركة واسعة النطاق من التهريب ، فكان كثير من الواردات يجرى تهريبه من السواحل والثغور ، وتقف الامتيازات الأجنبية حجر عثرة في سبيل تفتيش السفن والمنازل وضبط المهربات ، وترتب على تلك الفوضى أن الأجانب استثمروا أموالهم وزادوها أضعافاً مضاعفة ، دون أن يشاركوا الأهلين في

أعباء الضرائب والتكاليف العامة ، فوقع معظم العبد على عاتق الأهلين ، وفي هذا من الخسران مالا يحتاج إلى بيان .

وصفوة القول إن تبعية مصر المالية والاقتصادية للأجانب قد ظهرت في عهد اسماعيل ، ثم استمرت واتسع مداها في عهد الاحتلال الإنجليزي .

وقد كان السبيل المأمون للنهضة الاقتصادية والعمرانية أن تقوم برءوس أموال أهلية ، كما سارت في عهد محمد علي ، فلبس من ينكر أن التقدم الاقتصادي قد ظهر في عهده ، وتجلي في أعمال العمران التي نهض بها ، كإقامة القناطر ، وشق الترع ، وإقامة المصانع ، واستحداث الزراعات الحديثة وغير ذلك ، مما بسطناه في كتاب (عصر محمد علي) ، ولكونها قامت من غير اعتماد على رؤوس الأموال الأجنبية كانت نهضة قومية سليمة من عناصر التبعية والاستعباد ، ولا يعترض على ذلك بأن محمد علي لجأ إلى السخرة في إقامة هذه الأعمال ، فإن السخرة كانت أيضا قائمة في عهد اسماعيل ، وكان الفلاحون يسخرون لأفي الأعمال العامة فحسب بل وفي أملاك الخديو وحاشيته أيضا .

التجارة

زادت التجارة الخارجية زيادة مطردة في عصر اسماعيل ، وذلك لازدياد وسائل العمران ونمو الحاصلات الزراعية واتساع المواصلات البرية والبحرية .

وتتألف صادرات مصر في ذلك العهد من القطن والسكر والأرز والقمح والفول والذرة والشعير والعدس والحمص والبقول والتمر والحناء والحلبة والزعفران والصدف والسلامكي وبعض المنسوجات والحبال والصوف والكتان والنظرون والأفيون والشمع وواردات السودان كسمن الفيل والصمغ وريش النعام .

ونستورد من الخارج المنسوجات والملبوسات والأثاث الحريرية والسجاد والطرايش والأجواخ والفحم والأخشاب وأدوات البناء والحديد والنحاس والآلات والأواني والمجوهرات والعقاقير والغاز والزيوت والفاكهة والدخان والأنبذة والمشروبات الروحية والمواشى والخرذوات والسكاكين وأصناف العطاراة والزجاج والورق .

وكان ميزان التجارة لصالح مصر إذ كانت الصادرات أزيد من الواردات .
وليس لدينا احصاءات دقيقة عن حركة التجارة في ذلك العهد ، فإن البيانات الواردة في
تقرير لجنة « كيف » وفي كتاب (مصر كما هي) لماك كون ص ١٧١ و ص ٤٠٥ تختلف عن
الإحصاءات الواردة في كتاب إحصاء مصر عن سنة ١٨٧٣ ص ١٦٤ و ١٦٦ ، وعن إحصاء
المسيو فرنسوا شارك رو Roux في كتاب (إنتاج القطن في مصر) ص ٨٤ و ١٠٠ .
على أننا اعتمدنا على إحصاء كيف ، وقد أخذنا عنه أرقام الصادرات والواردات من سنة
١٨٥٠ أي من عهد عباس الأول إلى سنة ١٨٧٥ (١٥)

السنة	الصادرات بالجنيهات	الواردات بالجنيهات
١٨٥٠	٢,٠٤٣,٠٠٠	١,٦٢١,٠٠٠
١٨٥١	٢,١٥٥,٠٠٠	١,٦٨١,٠٠٠
١٨٥٢	٢,٢٧٠,٠٠٠	١,٥٧٥,٠٠٠
١٨٥٣	١,٨٤٨,٠٠٠	٢,٠٠١,٠٠٠
١٨٥٤	٢,٠٨٧,٠٠٠	٢,١٤١,٠٠٠
١٨٥٥	٣,٢٨٦,٠٠٠	٢,٥٢٧,٠٠٠
١٨٥٦	٤,٠٢٩,٠٠٠	٢,٥٦٨,٠٠٠
١٨٥٧	٣,١٠٤,٠٠٠	٣,١٤٩,٠٠٠
١٨٥٨	٢,٥٣٣,٠٠٠	٢,٧١٥,٠٠٠
١٨٥٩	٢,٥٦٥,٠٠٠	٢,٤٩٤,٠٠٠
١٨٦٠	٢,٥٣٥,٠٠٠	٢,٦٠٤,٠٠٠
١٨٦١	٣,٤٢٢,٠٠٠	٢,٥٦٨,٠٠٠
١٨٦٢	٤,٤٥٤,٠٠٠	١,٩٩١,٠٠٠
١٨٦٣	٩,٠١٤,٠٠٠	٣,٠٦٣,٠٠٠
١٨٦٤	١٤,٤١٦,٠٠٠	٥,٢٩١,٠٠٠
١٨٦٥	١٣,٠٤٥,٠٠٠	٥,٧٥٣,٠٠٠

السنة	الصادرات بالجنيهات	الواردات بالجنيهات
١٨٦٦	٩,٧٢٣,٠٠٠	٤,٦٦٢,٠٠٠
١٨٦٧	٨,٦٢٣,٠٠٠	٤,٣٩٩,٠٠٠
١٨٦٨	٨,٠٩٤,٠٠٠	٣,٥٨٢,٠٠٠
١٨٦٩	٩,٠٨٩,٠٠٠	٤,٠٢١,٠٠٠
١٨٧٠	٨,٦٨٠,٠٠٠	٤,٥٠٢,٠٠٠
١٨٧١	١٠,١٩٢,٠٠٠	٤,٥١٢,٠٠٠
١٨٧٢	١٣,٣١٧,٠٠٠	٥,٠٠٥,٠٠٠
١٨٧٣	١٤,٢٠٨,٠٠٠	٦,١٢٧,٠٠٠
١٨٧٤	١٤,٨٠١,٠٠٠	٥,٣٢٢,٠٠٠
١٨٧٥	١٢,٧٣٠,٠٠٠	٥,٦٩٤,٠٠٠

ويلاحظ أن حركة التجارة الخارجية كان معظمها (ولم يزل) في أيدي البيوت التجارية الأجنبية ومعظم مآثره من الأرباح عائد إليها .

الصناعة

يرجع إلى الخديو إسماعيل الفضل في استحداث صناعة السكر بواسطة المصانع الكبرى التي أنشأها في الوجه القبلي ، وسبق الكلام عنها ، وصناعة الورق بإنشاء مصنع الورق في دار الطباعة ببولاق ، وقد أنشأ من مصانع الغزل والنسيج ما تكلمنا عنه في الفصل العاشر . ولكنه لم يوجه همهته إلى إحياء الصناعات الكبرى التي ظهرت في عهد محمد علي ولم يفكر في إنشاء المعامل التي تنتج من المصنوعات ما ينمي ثروة البلاد وتغنيها عن أن تبقى عالة على الصناعة الأجنبية .

ثم إن اقتباسه عادات الأوروبيين في مآكلهم وملبسهم وطريقة معيشتهم ، جعله يقتنى لوازم الحياة الأوروبية وزينتها من أوروبا ، وتبعه في ذلك الأمراء والأميرات من آل بيته ، وطبقة الباشوات والكبراء والأعيان ، والمتعلمون ، وسيدات تلك الطبقات الممتازة ، فقلدوه في اقتباس العادات الأفرنجية واقتناء لوازمها وكالياتها من المصنوعات الأوروبية ، كالملابس

والمنسوجات ، وأدوات الزينة والزخرف ، وأثاث المنازل ورياشها . والمآكل والمشارب . وقد أصيبت الصناعة الوطنية من هذه الناحية بضرية شديدة ، لأنها لم تستطع أن توثاق مطالب المعيشة الأوروبية ، وكمالياتها وأزياءها المتغيرة كل يوم ، وعجزت عن مباراة الواردات الأجنبية ، ومن هنا طغى سيل هذه الصناعات على البلاد ، وبارت الصناعات الأهلية القديمة كالنسيج والدباغة والنجارة وصناعة الأثاث وما إليها .

ولو اتبع الخديو سياسة اقتصادية قومية لجعل التحول إلى العوائد الأوروبية مقرونا بإنهاض الصناعات اللازمة لها حتى لا تبور الصناعة الأهلية ويطنى عليها سيل المصنوعات الأجنبية ، ولا يسرى هذا الرأى على ما استوردته البلاد من المصنوعات الإنتاجية ، كالآلات الزراعية مثلاً أو المواد التى تزيد من ثروة البلاد ، فإن استيرادها من الخارج يزيد من إنتاج البلاد الاقتصادى ، ولكن واردات الملبس والأثاث والرياش وما إلى ذلك من الكماليات أدت بلا مرء إلى نقص رأس مال الثروة القومية وتهدم الصناعات الأهلية .

ولانقول هذا غلوًا فى النقد ولا إسرافاً فى الرأى ، وإنما هو ما يراه المنصفون من الأوروبيين الذين عاشوا فى عصر اسماعيل ، فقد كتب القاضى الهولندى فان بلمن يقول فى هذا الصدد ما خلاصته :

« إن الخديو إسماعيل هو أول من مهد السبيل لسيطرة أوروبا الاقتصادية على مصر ، فإن أوروبا ، وبخاصة باريس ، قد أفسدت على هذا الأمير دينه وأخلاقه وماله ، وفتنته فتنة شاملة ، فلم يعد يعنى إلا بكل ما هو أوروبى ، وبكل ما يراه الأوروبيون ، واعتزم من يوم أن تولى عرش مصر أن يعيش كملك إفرنجى فى قصوره وأثاثه ، ومأكله ومظهره وملبسه ، ومن الأسف أن كل ما أنفقه فى هذا السبيل لم يعد بالفائدة إلا على أوروبا ، إذ كان يستورد من مصنوعات تلك الأشياء الهالكة ، العديمة الجدوى ، وتلك الأسماك التى لم تزد الثروة القومية جنيهاً واحداً ، وكان يدفع أثمانها أضعافاً مضاعفة ، ولأجل أن يستوفى مطالبه الخارقة فى هذا الصدد ، لم تكفه الأموال التى يجيئها من شعبه على فدايتها ، فأمدّه أصدقاءه الأوروبيون بالقروض الجنسية ذات الشروط المخربة ، وقد دعا أفراد أسرته والباشوات وموظفى الحكومة إلى تقليد الأوروبيين فى ملبسهم ومسكنهم وطريقة معيشتهم ، فبادروا إلى تلبية دعوته ، وأخذ الكبراء والسراة يستوردون من أوروبا الملابس والبسط والستائر وأنواع الأثاث والعربات ، وأدخل الخديو الحياة الإفرنجية فى قصور نسائه ونساء آل بيته ، فتهافتت الأميرات وزوجات

الباشوات والأغنياء على هذا الضرب الجديد من البذخ تهافتاً شديداً ، وأسرف أولئك النسوة القليلات الحظ من العلم والعاطلات من العمل في شراء الفساتين التي لاعداد لها ، وابتياح التحف الثمينة والمركبات الفخمة ، وكسوت جميع جوارهن بكل ما أبدعته الأزياء الباريسية من فاخر الملابس ، وسخرتهن بدعة (الموضه) وتغييراتها ، وانقضت المنسوجات الشرقية والسجاجيد والأرائك وأدوات الزخرف والطوائف القديمة التي كانت تمتاز بمتانة الصنعة والقدرة على البقاء ، ولاتسل عما خسرت مصر من جراء ذلك ، فقد استولى الأوروبيون على التجارة الكبرى وعلى الحياة المالية » (١٦)

الفصل السادس عشر

الحالة الاجتماعية

يصح أن يسمى عصر اسماعيل عصر التجدد الاجتماعي ، فقيه أخذت الهيئة الاجتماعية المصرية تتطور إلى حالات جديدة ، وتقتبس من أساليب المجتمع الأوروبي وعاداته ، ومال الناس إلى محاكاة الأوروبيين في المسكن والملبس والمأكل وسائر أنماط الحياة . وكان انتشار التعليم من العوامل التي ساعدت على هذا التطور ، فإن الطبقة المتعلمة بحكم دراستها علوم أوروبا ولغاتها صارت طليعة الطبقات الأخرى في تقليد الإفرنج واقتباس عوائدهم وأساليبهم ، فأخذ الناس من كل ذلك مزيجاً من النافع والضار .

ففي المسكن شرعوا يبنون البيوت على النظام الأوروبي ، ويهجرون التخطيط القديم الذي درجوا عليه في خلال العصور ، ولاشك أن التخطيط الأفرنجي أدعى إلى توفير أسباب الصحة والنظافة والراحة والنظام ، ولكن إلى جانب هذه المزايا فقد البناء ذلك الطراز العربي الجميل الذي كان يتجلى في قصور الخاصة ، والذي يعد بلا مرأى في الفن ، فهذه القصور أخذت تتلاشى مع الزمن حتى صار مابقي منها معدوداً من الآثار القديمة ، ثم عادت الطبقة الممتازة إلى إحياء الطراز العربي وإدخاله في قصورها الحديثة .

وهجر المتعلمون ومن حاكاهم من السراة والأعيان الملابس الشرقية ، كالجبة والعباءة والعمامة ، وارتدوا الطربوش والبدايات الإفرنجية ، وتضاءلت الأزياء القديمة وحلت محلها الأزياء الأوروبية ، فيما عدا القبعة ، فقد استمسك المصريون بالإعراض عنها .

ودخلت العوائد الأوروبية في أساليب المآكل والولائم ، فأخذ الناس يمدون الموائد ويتناولون الطعام على النمط الإفرنجي ، ولا مرأى في أن الأساليب الأوروبية في هذا المجال أرقى وأصح من الأساليب القديمة ، ولكنها مع الأسف قد استتبعت محاكاة الإفرنج في تعاطي المشروبات الروحية ؛ وهذه آفة جاءتنا من أوروبا ، وبدأ دخولها مصر على أيدي الأغنياء والسراة والمتعلمين ، ثم سرت إلى الطبقات الجاهلة ، فعم منها الفساد ، وصارت من شر

الآفات التي ابتلى بها المجتمع المصرى وكان منها بريئاً .

ومن مظاهر التطور الاجتماعى إقبال الناس على الرياضة والتمتزه ، فقد أخذوا يرتادون المنتزهات والضواحي ، وخاصة بعد انتشار العربات التي سهلت المواصلات بين العاصمة وضواحيها ، فأخذ سبل المركبات لا ينقطع عصر كل يوم فى طريق شبرا ، ثم فى طريق الجزيرة والجيزة والأهرام ، وكان لإنشاء جسر (كوبرى) قصر النيل فضل كبير فى ميل الجماهير إلى التمتزه ، لاجتلاء محاسن النيل وجسره البديع والتمتع برياض الجزيرة والجيزة ، وكانت (شبرا) هى منتزه سكان القاهرة من قبل ، ثم أخذ الناس يتحولون إلى كوبرى قصر النيل وما يليه من القصور الفخمة والحدائق الغناء والطرق المعبدة ومناظر الطبيعة الرائعة .

وبدا على المجتمع الميل إلى المرح والحبور ، ويرجع هذا الميل إلى الثراء والرفاهية ، ثم إلى انتشار التعليم ، ومن هنا ظهرت النهضة الغنائية فى عصر إسماعيل ، وأزداد إقبال الناس على سماع الأغاني والموسيقى ، وارتقت أساليب الغناء ، وزادت مكانة المغنين فى النفوس ونالوا من محبة الناس حظاً عظيماً ، وفى مقدمتهم عبده الحمولى ، وارتقى الذوق الموسيقى فى المجتمع . وأقبلت الطبقات الممتازة على حضور المسارح ومشاهدة الروايات التمثيلية ، ثم قلدها الطبقات الأخرى ، وابتدع الخديو إسماعيل سنة الرقص الأفرنجى ، فكان يقيم فى سراى جابدين والجزيرة حفلات راقصة (باللو) بالغة منتهى الفخامة ، وكان يدعو إليها الكبراء وذوى المراكز الاجتماعية ، ورجال السلك السياسى وعقيلاتهم ، وكانت «الوقائع المصرية» تعنى باختيار هذه الحفلات وتصفها فى مكان بارز من صحائفها .

وكان لحفلات الأفراح فى ذلك العصر بهجة بالغة ، فقد كان السراة والأعيان يفتنون فى تفخيمها وتعظيمها ، ويتنافسون فى مظاهر البذخ والإسراف فيها ، وبلغت بعض هذه الأفراح من البهاء والروعة ما جعلها أحاديث الناس ، يتناقلونها جيلاً بعد جيل ، أما أفراح الخديو إسماعيل ، فحدث عنها ولا حرج ، وخاصة الأفراح التى أقامها احتفالاً بزواج أنجاله الأمراء ، إذ عقد لولى عهده محمد توفيق باشا (الخديو) على الأميرة أمينة هانم (أم المحسنين) كريمة إلهامى باشا ابن عباس الأول ، وللأمير حسين (السلطان حسين) على الأميرة عين الحياة بنت الأمير أحمد رفعت بن إبراهيم باشا ، والأمير حسن باشا على الأميرة خديجة هانم بنت الأمير محمد على الصغير بن محمد على باشا ، وكان الاحتفال بزواجهم أعظم أفراح هذا العصر ، ولا يزال الناس يذكرون فخامة هذه الأفراح ويسمونها (أفراح الأنجال) .

وامتاز هذا العصر ببهجة الحفلات العلمية المدرسية التي كانت تقام لمناسبة انتهاء الدراسة في المعاهد العالية ، الحرية والملكية ، والمدارس الثانوية والابتدائية ، فقد كان يحضرها الخديو أحيانا ، ويشهدها كبار رجال الدولة ، وتوزع فيها الجوائز والمكافآت على أوائل الناجحين .

ولحفلات سباق الخيل في ذلك العصر مظاهر رائعة ، إذ كان يتسابق الجمهور إلى مشاهدتها في القاهرة (بالعباسية) أوفى الإسكندرية وتعطى فيها الجوائز للخيل الفائزة ، فكان هواة الخيل يتنافسون في اقتناء الجياد الكريمة ، ويحضر الخديو إسماعيل ، وكبار رجال الدولة هذه الحفلات ، وتشر أنباؤها بعناية كبيرة في « الوقائع المصرية » ، واشتهر على باشا شريف بتنظيم هذه الحفلات والعناية بها وأحراز قصب السبق في اقتناء خير الجياد .

واستمرت حفلات الموالد والأعياد موضع إقبال الناس ورعاية الحكام ، وبقيت للموالد في القاهرة والأقاليم مكانتها التقليدية في النفوس .

الحياة العائلية

واستتبع انتشار التعليم ارتقاء الحياة العائلية ، وأخذ الناس يفهمون الروابط الزوجية على نحو أرقى من الفهم القديم ، وينظرون إلى الزوجة كشريكة المرء في حياته ، وقسيمته في سرائه وضرائه « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ، وقلّ تعدد الزوجات في الأوساط المثقفة . كما قلّ الطلاق والتسري ، وبدأت العائلات تعنى بتعليم البنين والبنات .

النهضة النسائية

وبدأت النهضة النسائية في عصر إسماعيل ، إذ أنشئت المدارس لتعليم البنات كما تقدم بيانه (ص ١٩٩ ج ١ الطبعة الأولى) وبدأت المرأة تشترك بنصيبها في النهضة الاجتماعية والأدبية ، فكانت « عائشة عصمت تيمور » طليعة هذه النهضة ، وكان لرفاعة بك رافع الطهطاوى فضل كبير في ترقية المرأة المصرية ، فهو أول من دعا إلى نهضتها وإلى تعليم البنات

وتثقيفهن أسوة بالبنين^(١) ، وتنجلي لك فكرته من كونه وضع كتاباً مشتركاً لتثقيف البنات والبنين على السواء سماه (المرشد الأمين للبنات والبنين) طبع سنة ١٨٧٢ ، وهو كتاب قيم في الأخلاق والتربية والآداب ، ووضعه كما يقول في مقدمته بحيث « يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية » ، ودعا فيه إلى وجوب تعليم البنات وإعدادهن من طريق التربية والتعليم للعمل والقيام بواجبهن في المجتمع ، قال في هذا الصدد : « ينبغي صرف الهمّة في تعليم البنات والصبيان معاً لحسن معاشرّة الأزواج ، فتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً ، ويجعلهن بالمعارف أهلاً ، ويصلحن به لتشاركة الرجال في الكلام والرأى ، فيعظمن في قلوبهم ، ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش ، مما ينتج من معاشرّة المرأة الجاهلة لمرأة مثلاً وللمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال ، على قدر قوتها وطاقها ، كل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء واقتعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء » .

فالدعوة إلى نهضة المرأة في مصر ترجع كما ترى إلى رفاعة بك ، ثم جاء من بعده المرخوم قاسم بك أمين . فجددها ووسع نطاقها .

طبقات الشعب

تلك نظرة إجمالية في التطور الاجتماعي على عهد إسماعيل ، والآن ننتقل من الإجمال إلى التفصيل فتابع الكلام عن الطبقات التي يتألف منها المجتمع على النحو الذي اتبعناه في دراسة هذه الطبقات على عهد الحملة الفرنسية وفي عصر محمد علي^(٢)

(١) عن كتاب (عصر محمد علي) ص ٤٩٣ من الطبعة الأولى و ٤٠٠ من الطبعة الثانية .

(٢) راجع الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية ص ٤٨ وعصر محمد علي ص ٦٠١ (طبعة أولى) .

عدد السكان

بلغ عدد سكان مصر في أواخر القرن الثامن عشر ثلاثة ملايين نسمة ، وزاد عددهم قبلوا سنة ١٨٤٥ أى في أواخر عهد محمد علي ٤,٤٧٦,٤٤٠ نفس^(٣) وبلغوا سنة ١٨٥٩ في أواخر حكم سعيد باشا خمسة ملايين^(٤) ، ثم بلغ عددهم في أواخر حكم إسماعيل نحو ستة ملايين نسمة ، وهذا مستفاد من أن الإحصاء الرسمي الذي حدث يوم ٣ مايو سنة ١٨٨٢ دل على أن عدد السكان بلغ ٦,٨٠٦,٣٨١ نسمة في ذلك اليوم ، أى بعد انتهاء حكم إسماعيل بثلاث سنوات ، فلا يمكن أن تصل الزيادة في تلك السنوات إلى أكثر من ثمانمائة ألف نفس .

الأسرة الحاكمة . الحدين والأمر

تفرعت الأسرة الحاكمة وكثر عدد أفرادها في عهد خلفاء محمد علي ، بما أنجبه هو وأبناؤه من الأمراء والأميرات ، وصاروا يمثلون طبقة ممتازة في المجتمع ، واقتنوا القصور الفخمة واقتنوا الأملاك الواسعة والثروات الضخمة .

وقد عني محمد علي بتنشئة أبنائه تنشئة صالحة ، فعلمهم في المدارس وأرسل بعضهم إلى أوروبا لإتمام علومهم ، وعنى على الأخص بأن ينالوا حظاً وفيراً من النشأة الحربية ، ففي الحق أنه لم يقصر في تثقيفهم وإعدادهم للقيام بالمهام الكبيرة .

ولكن خلفاءه قصرُوا في الاندماج في الشعب والاعتزاز بالانتساب إليه ، فمع أن محمد علي هو باعث نهضة اللغة والآداب العربية ، فإن الأمراء والأميرات من آل بيته قلما كانوا يتعلمون اللغة العربية ويدرسونها ، بل قليلا ما كانوا يتخاطبون بها ، وكانت التركية هي لغة التخاطب والتفاهم في بيوتهم ، وقد عنيوا بدراسة اللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية أكثر من عنايتهم بتعلم العربية ، وهذا نقص كبير أدى إلى تراخي علاقة الكثيرين منهم بالشعب ، ثم إلى قلة أعمالهم القومية والحزبية ، بل أفضى ببعضهم إلى إثارة المعيشة خارج القطر المصري سواء في الاستانة

(٣) عصر محمد علي ص ٦٠١ من الطبعة الأولى و ٤٩١ من الطبعة الثانية .

(٤) إحصاء مالك كون في كتابه (مصر كما هي) ص ٢١ .

أوفى أوروبا ، واعتبارهم غرباء عن الشعب .

وثمة ظاهرة أخرى بدت على الأمراء والأميرات من البيت العلوى ، وهى التنافس والتحاسد بينهم ، مما أدى فى بعض المواطن إلى بغض متبادل وعداء شديد ، ولو ساد الوفاق والصفاء بين أفراد البيت المالك وصرفوا جهودهم إلى ما فيه خير البلاد وسعادة أهلها لالت على أيديهم أعظم الثمرات .

ويرجع هذا العداء إلى أن من يتولى الحكم كان ينظر بعين البغض وسوء الظن إلى باقى الأمراء ، ويخشى منهم على مركزه ، فيهيئ له الخوف أن يتقى شرهم بوسائل الإيذاء والعدوان ، فعباس الأول كان معروفاً عنه كرهه لأفراد أسرته من أعمامه وعماته وأبناء عمومته ، وكان يمقت سعيد باشا وارث الملك من بعده ، حتى اضطره إلى العزلة بالإسكندرية ، وحتى على عمته الأميرة نازلى هانم حتى قيل أنه شرع فى قتلها ، لولا أن رحلت عن البلاد ، وسكنت الاستانة ، وقيل إنها هى التى حرضت للملوكين اللذين قتلاه فى قصره بينها كما تقدم بيانه ، أما سعيد باشا فقد كانت طبيته تحول دون تفكيره فى إيذاء الأمراء من آل بيته ، فلم ينل أحداً منهم سوء أو أذى على يده ، ولكن إسماعيل كان على العكس يسيء الظن بهم ، وقد بدأ عليه حين وفاة سعيد عدم رعاية واجب الاحترام نحو عمه ، إذ كانت وفاته بالإسكندرية ، فلم يحتفل بتشييع جنازته ، ولا عني بأن يؤدي له فى موته ما يليق بمقامه ، بل أمر بأن يدفن بأسرع ما يمكن بالإسكندرية ، دون أى مظهر من مظاهر الحفاوة والرعاية ، وفى الوقت الذى سيربه إلى جدته كان هو يقيم الأفراح فى القاهرة إيداناً باعتلائه عرش مصر .

وعداً إسماعيل لأخيه مصطفى فاضل ولعمه عبد الحليم أمر مستفيض ، وله حوادث يتناقلها الناس ، فإسماعيل ومصطفى فاضل على أنهما أخوان وأبوهما البطل إبراهيم باشا ولكنها من والدتين مختلفتين ، وقد ولدا فى يومين متقاربين ، وكان لهما أخ ثالث أكبر منهما سناً وهو أحمد رفعت الذى آلت إليه ولاية العهد فى عهد سعيد باشا ، لكنه غرق فى حادثة كفر الزيات الشهيرة فصار إسماعيل ولياً للعهد ، ولما ارتقى العرش لم يحسن معاملة أخيه مصطفى فاضل ، بل أخذ يكيد له ويعمل على إقصائه عن البلاد ، ويذل ما فى وسعه لشراء أملاكه فى مصر واضطراره إلى الهجرة منها ، وسعى جهده أيضاً فى حرمانه ولاية العهد التى كانت له بحكم نظام الثورات القديم ونجح فى مسعاه ، فاشترى أملاكه ، وغير نظام الوراثة وجعلها فى نسله ،

وكذلك اشترى أملاك الأمير عبد الحلیم ، ومن ثم غادر كلاهما مصر وسكنا وعائلاتها الاستانة وأوروبا واشتدت العداوة بينهم طوال عهد إسماعیل .

علماء الأزهر

لم يكن لعلماء الأزهر شأن كبير في تطور الأحوال العامة سياسية كانت أو اجتماعية ، ولقد بينا فيما سبق من الكلام كيف ضعفت مكانتهم عما كانوا عليه في عهد الحملة الفرنسية وأوائل عصر محمد علي (عصر محمد علي ص ٦٠٦ الطبعة الأولى) ، ويلوح لنا أن الأزهر ومن يتصل به من العلماء والطلبة قد استردوا في عصر إسماعیل شيئاً من المكانة التي كانت لأسلافهم من قبل ، فقد نال بعضهم مكانة عالية ومترلة سامية في الهيئة الاجتماعية ، نخص بالذكر منهم الشيخ محمد العباسي المهدي الذي كان من أفاضل العلماء في ذلك العصر ، فقد تولى مشيخة الجامع الأزهر وإفتاء الديار المصرية سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧١ م) ، وعلى يده بدأ إصلاح الأزهر ، وفي عهده أنشئ نظام الامتحان لتخريج العلماء كما تقدم بيانه (ج ١ ص ٢٧٩ الطبعة الأولى) ، وكان إليه المرجع في تعيين القضاة الشرعيين وفي كل ما تقره الحكومة مما له مساس بالمسائل الشرعية ، ونال عند الخديو إسماعیل احتراماً كبيراً ومترلة عظيمة ، وقلده سنة ١٨٧٢ علاوة على مشيخة الأزهر والإفتاء عضوية المجلس الخصوصي العالي^(١) (مجلس الوزراء في ذلك الحين) للنظر فيما له مساس بالأحكام الشرعية من الشؤون ، أي أنه صار من وزراء الدولة ، وهي ميزة لم ينلها العلماء من بعد .

وظل الأزهر كما كان المعين الذي استمدت منه النهضة العلمية والأدبية عناصر الحياة ، فكثير من العلماء والأدباء والشعراء في ذلك العصر نشأوا وتخرجوا فيه ، ومعظم أساتذة دار العلوم في الآداب واللغة هم من علمائه أو طلابه ، واستمر هذا المعهد العظيم يمد المدارس والوظائف والقضاء والمحاماة والصحافة والحياة العامة بنخبة من رجاله ، وهذا يدل على حيويته ومبلغ القوة الكامنة فيه .

ولما جاء السيد جمال الدين الأفغاني مصر سنة ١٨٧١ وجد في تلاميذ الأزهر وطائفة من المتسبين إليه البيئة الصالحة التي بث فيها تعاليمه وأفكاره ، فنفخ في الأزهر روح النهضة وغرس

(٥) الوقائع المصرية عدد ٥٣٩ (٩ يناير سنة ١٨٧٢) .

فيه مبادئ التقدم الفكرى والعلمى ، وقد بدت ثمارها بظهور المدرسة العلمية الحديثة التى حمل لواءها فيما بعد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، فاتجاه السيد جمال الدين إلى الأزهر فى بث تعاليمه الحرة دليل على ما فيه من الاستعداد للنهضة العنسية والاجتماعية ، وحسبك أن الشيخ محمد عبده إمام هذه النهضة فى ختام القرن التاسع عشر هو من علماء الأزهر الأعلام ، فالشخصيات الكبيرة التى نشأت فى الأزهر قد أسبغت على هذا المعهد مكانة سامية ، وساعد على ظهور هذه المكانة فى ذلك العصر احتفاظ علمائه بكرامتهم حيال ولاية الأمور ، واستمسكهم بالتقوى والتعفف والنزاهة ، وابتعادهم عن الزلى للحكام ، مما رفع من منزلتهم وجعل لهم فى نفوس الخاصة والعامة مكاناً عظيماً .

الموظفون

ارتقى مستوى الموظفين عما كانوا عليه من قبل ، لأن كثيراً من الوظائف قد شغلها خريجو المدارس فى عهد محمد على وخلفائه .

ولكن من الواجب أن نقرر حقيقة مؤلمة ، وهى أن معظم الموظفين (وحيث لا يشمل الجميع) لم يضعوا نصب أعينهم الإخلاص فى أداء الواجب نحو البلاد وتوفير مصالح الأهلى ، ورعاية الحق والعدل ، ولو جعلوا هذه القاعدة أساساً لأعمالهم لسعد الشعب فى عهدهم وشعر بالعدل والكرامة ، ولتحرر من الأرزاء التى كان ينوء بها ، ولكن الموظفين كانوا فى الغالب يتخذون الوظائف وسيلة للاستغلال والإثراء ، ومن هنا جاء سوء الإدارة وانتشار الرشوة ومظالم الحكام ، وقلما كان الرؤساء من الموظفين والحكام ينظرون إلى مصالح البلاد والأهلى ، بل أهملت هذه الناحية إهمالاً جسيماً ، حتى لم يكن للأهلى حقوق محترمة ولا كرامة مصونة أمام الموظفين .

الزراع والصناع والتجار

أما الفلاحون فقد ساءت حالتهم بما زاد عليهم من أعباء الضرائب ، وما اقترن بها من القسوة فى تحصيلها ، ولم يشعر الفلاح فى عهد اسماعيل بالراحة والرخاء اللذين كان يشعر بهما

فى عهد سعيد ، وظلت السخرة سائدة فى ذلك العهد ، ولم تكن قاصرة على المنافع والأعمال العامة بل كانت تستخدم لاستصلاح أطيان الخديو وأطيان الحكام ، وبقيت المظالم يروح الناس تحت نيرها ، وقاعدة الحكام فى معاملة الفلاحين هى القهر والإرهاق ، وكان الضرب بالكرباج عادة مألوقة فى جباية الضرائب أو لاقصاص ممن يخالفون الأوامر أو يستهدفون لغضب الحكام لأى سبب ، ولم يكن ثمة قانون ولا قضاء عادل يحميان الضعيف وينصفان المظلوم ، ولأرقابة على الحكام من حكومة عادلة أو مجالس نيابية أو صحافة أو رأى عام ، ووقع على الأهلىن إرهاب آخر من ناحية الأجانب من المرابىن وغيرهم ، إذ وجد هؤلاء من حسن رعاية الحكومة ومن حماية الامتيازات الأجنبية ما جعلهم يستغلون الفلاحين والأهلىن عامة إلى أقصى درجات الاستغلال ، حتى انتزعوا منهم الأملاك والأموال وكبلوهم بالديون الباهظة ، ولم يجد الفلاح من الحكومة حماية لحقوقه ومرافقه ، بل كانت تقاسم الأجانب إرهابه واستغلاله ، ولم يتحرر الفلاح فى هذا العصر من الفقر والفاقة ، وظل يعيش عيشة الكد والكدر ويقنع بأقل الحاجات والنفقات .

الأعيان

كان الأعيان أحسن حالا من الفلاحين وسائر الأهلىن ، فقد اقتنوا الأطيان والضياح واستصلحوا أطيانهم القديمة ، وزادت ثرواتهم بما أنشأته الحكومة من أعمال العمران كشق الترع وإقامة القناطر وتسهيل وسائل الرى ، وإنشاء السكك الحديدية ، وتعبيد طرق المواصلات ، فزاد دخلهم من أطيانهم وأملاكهم ، واتسعت عليهم الدنيا ، وراعت الحكومة جانبهم ، وكانوا هم من ناحيتهم يخضعون لأوامر الحكومة ويتلفون إلى الحكام لينالوا رضاهم ويأمنوا على مصالحهم ، وفى كثير من المواطن كانوا يكسبون رعايتهم إذ يصلونهم بالهدايا والرشا وما إلى ذلك ، وكان الأعيان من الأسر الكبيرة يحتفظون بعصبيتهم العائلية ومراكزهم الاجتماعية ، فازدادت منزلتهم وعظم جاههم ، وراعى الخديو جانبهم ، وأنعم على كثير منهم بالألقاب والرتب - وكانت نادرة فى ذلك العصر - وأسند المناصب الإدارية والقضائية إلى فئة منهم ، فكان منهم المدىرون والمأمورون ورؤساء المجالس (المحاكم) الابتدائية والاستئنافية ، ومجلس شورى النواب كاد يكون مقصورا على طبقهم ، وكان لبعضهم فيه مناقشات تدل على

حظ من العلم والذكاء الفطرى وسلامة المنطق .
وكان الأعيان على وجه عام كرام النفوس ، قويمى الأخلاق ، فيهم مروءة ووفاء ،
وشهامة وسماح ، وفضيلة ودين ، ويلوح لنا من هذه الناحية أنهم كانوا خيراً ممن خلفوهم فى
العصر الحديث .

* * *

الفصل السابع عشر

شخصية الخديو إسماعيل والحكم على عصره

في شخصية إسماعيل اجتمع الجانب الحسن إلى الجانب السيئ ، وظهرت آثار الجانبين معا في أعماله وسياسته خلال الثمانية عشر عاما التي تولى فيها حكم مصر .
إن أخلاق إسماعيل هي العامل الأول في شخصيته ، فدراسة أخلاقه تعطينا عنه صورة عامة .

لقد كان بلا مراء آية في الذكاء والفهم وسرعة الخاطر ، وقوة الذاكرة ، ومضاء العزيمة ، وعلو الهمة ، وكان شجاعاً ، لا يعرف الجبن والإحجام ، قوى الشخصية ، عظيم المهابة .
أما ذكاؤه فكان يشع من عينيه البراقتين ، وقد لحظ هذا الذكاء وتبينه كل من عاشروه أو حادثوه من الأصدقاء والأعداء على السواء .

كان يفهم مراد محدثه ويحيط بالأمور ويدرك الأشياء بسرعة خاطر تشبه البرق الخاطف ، وكان قوى الذاكرة يدهش محدثيه بقدرته على استيعاب التفاصيل والدقائق عن الحوادث الماضية ، كبيرها وصغيرها ، رغم مضي السنين على وقوعها .

وتبدو لك قوة إرادته ومضاء عزمته من الهمة التي كان ينفذ بها مشاريعه فلم يكن يعرف التردد والإحجام وإذا أراد أن ينجز عملاً لا تقف في سبيله عقبة إلا ذللها ، أما شجاعته فحسبك أن تتبينها من السياسة التي رسمها لنفسه في السنوات الأخيرة من حكمه ، حين أدرك سوء نية الدول الأوروبية واعترم مقاومتها ، فقد علمت ما كان من إصرار تلك الدول على أن يكون لها وزيران أجنبيان داخل هيئة الوزارة المصرية ، ورأيت كيف وقف إسماعيل موقف المعارضة واتبع حياها خطة المقاومة ، وهي سياسة تقتضي حظاً كبيراً من الشجاعة والاستخفاف بالمخاطر ، وفي سبيل هذه المقاومة غامر بعرشه ، وضحي به فعلاً ، وقليل من الملوك من يضحون بعروشهم في سبيل مقاومة المطامع الاستعمارية .

وكان إسماعيل بلا نزاع محباً لبلاده ، راغباً في تقدمها ، عاملاً على أن يسير بها في مضمار

الحضارة والعمران ، ساعياً في توسيع ملكها وإعلاء شأنها كما بينا ذلك في فصول الكتاب .
فالذكاء ، وقوة الإرادة ، والشجاعة والإقدام ، والرغبة في إعلاء شأن مصر ، هذه هي
الصفات التي تمتاز بها شخصية إسماعيل .

ظهرت نتائج هذه الصفات في مختلف الأعمال التي تمت على يده ، فقد سعى ووفق في
الحصول من تركيا على أقصى ما يمكن من الحقوق والمزايا ، كي يصل بمصر إلى الاستقلال
النام ، فهذه نزعة مجيدة تدل على شدة حبه لعظمة مصر ورفعة شأنها .

وانجهدت همته إلى توسيع أملاك مصر في إفريقية ، فأكمل فتح السودان ووصل بحدود
مصر إلى منابع النيل ، وشواطئ المحيط الهندي ، أي إلى حدودها الطبيعية ، وبذل في هذا
السبيل أقصى ما لديه من عزيمة وقوة ، وتلك لعمري صفحة مجيدة من صحائف إسماعيل ،
ترين تاريخه ، بقدر ما يزدان بها تاريخ مصر القومي .

وعنى بقوة البلاد الحربية بتنظيم الجيش وإنشاء المدارس الحربية العالية وتسليح الجند
بأحدث الأسلحة ، وتزويد الحصون والقلاع بالمدافع الضخمة .

ووجه أيضاً همته إلى إنهاض البحرية المصرية حربية كانت أو تجارية ، فرفع علم مصر على
مياه البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والأقيانوس الهندي .

وله على العلم والأدب أباد بيضاء بما أنشأه من المدارس العالية والمعاهد العلمية ، وتجديده
عهد البعثات ، فمدرسة الحقوق ، ومدرسة المهندسخانة ، ودار العلوم ، ومدارس البنات ،
والمدارس الصناعية ، والمدارس الثانوية والابتدائية ، ودار الكتب ، والمتحف المصري ،
ودار الآثار العربية ، والجمعية الجغرافية ، والنهضة العلمية والأدبية ، والحركة الفكرية التي
ظهرت في عهده ، ونهضة الصحافة ، والتأليف ، والطباعة والنشر ، هي من آثاره الخالدة
كما تراه مفصلاً في الفصل التاسع .

وأعمال العمران التي تمت على يده ، كفتح الترع ، وإقامة الجسور ، والعناية بزراعة
القطن واستحداث مصانع السكر ، وإصلاح القناطر الخيرية ، وزيادة مساحة الأقطان
الزراعية ، وإنشاء السكك الحديدية والكبارى ، والأسلاك البرقية ومصلحة البريد ، وتعمير
المدن وتخطيطها ، وتنظيمها ، كل هذه الأعمال قد نهضت بعمران مصر وتقدمها .

وقد بسطنا الكلام عن هذه الأعمال المجيدة في فصول هذا الكتاب ، ففيها بيان لما
ذكرناه ، وتفصيل لما أوردناه .

كل هذه مآثر عادت على البلاد بالخير العميم ، وإن ننس لا ننس آخر صفحة ختم بها حياته السياسية ، إذ قاوم المطامع الاستعمارية التي بدت من الدولتين الانجليزية والفرنسية ، ولو أنه أثر الإذعان والاستسلام لبقى على عرشه يتمتع بهذا الملك العريض ، ولكنه إني على الدول طلباتها ، وأصر على أن تكون الوزارة خالصة للمصريين ، واستجاب إلى مطالب الأحرار ، وعهد إلى شريف باشا تأليف وزارة وطنية خالية من العنصر الأوروبي ، وأقر مبدأ مسئولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب .

ولا شك أن موقفه في هذا الصدد هو دفاع عن استقلال البلاد ، ومناصرة للحركة القومية ، وفي هذا السبيل استهدف لغضب الدول الأجنبية حتى فقد العرش والتاج ، فهو من هذه الناحية ضحية كبرى في سبيل الاستقلال والدستور .

والإقدام على هذه التضحية الغالية ، وما أعقبها من النفي والتشريد والحرمان ، عمل جليل يزين تاريخ إسماعيل ،

فالصفحة التي ختم بها إسماعيل حياته السياسية جديرة بأن تسجل في صحائف الحركة القومية بالفخار والإعجاب .

وإذ ذكرنا الحسنات ، فمن الواجب علينا أن نتقل إلى الأخطاء والسيئات لنؤدي واجبنا نحو الحقيقة كاملة ، فنقول إنه بجانب الحسنات التي ذكرناها ، يوجد الجانب السيئ من شخصية إسماعيل ، وهو بذخه ، وإسرافه ، وعدم تقديره العواقب ، وضعفه أمام الملذات والشهوات ، وقد أدت به هذه العوامل مجتمعة إلى التبذير في أموال الخزانة العامة ، فلم تكفه الملايين التي كان يحببها من الضرائب ، بل عمد إلى البيوت المالية والمرابين الأجانب يستدين منهم القروض الجسيمة ، ولا يخفى أن هذه القروض هي الوسيلة التي تذرعت بها الدول للتدخل في شؤون مصر ووضع الرقابة المالية عليها .

صحيح أن هذه القروض لو استبدانتها دولة أوروبية لما كانت في نظر الدول مسوغاً للتدخل في شؤونها ، والعبث باستقلالها ، وإنما كان تدخل الدول في شؤون مصر اضطهاداً مقصوداً منه تحقيق أطماع استعمارية قديمة ، ولكن مما لا نزاع فيه أن الحكمة كانت تقتضي إدراك هذه المقاصد ، وتعرف هاتيك المطامع ، والابتعاد عن شرها ، بدلاً من الوقوع في حبالها ، وليس من شك في أن الديون هي من الوسائل الفعالة لتدخل الدول الأوروبية في شؤون الأمم الشرقية ، ولم يكن إسماعيل في حاجة إلى من يبصره بمطامع إنجلترا والدول الأوروبية في مصر ،

فإن تاريخ محمد علي وإبراهيم صفحة ناطقة بتطلع إنجلترا إلى وضع يدها على البلاد وما وقوفها في وجه فتوحات إبراهيم وأثمارها بمصر في مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠ ببعيد عن ذاكرة إسماعيل ، فلم يكن ينقصه الاعتبار بالحوادث السياسية ، لأن ما لقيته مصر في عهد أبيه وجده كان جديراً بأن يفتح عينيه ، ويبصره بالخطر الذي يتهدد مصر من ناحية التدخل الأوروبي .

لكن إسماعيل لم يفتن لعواقب التدخل ، لأن ثمة عيباً كبيراً في سياسته عامة ، وهو ركونه الشديد إلى الأوروبيين والدول الأجنبية ، واعتماده عليهم ، وثقته بهم ثقة لأحد لها ، وهذه الثقة كانت من عوامل تورطه في القروض الخارجية فقد كان لحسن ظنه بالأجانب لا يحسب حساباً لليوم الذي ينقلبون عليه ، وتتحول تلك القروض أداة للتدخل الأجنبي ، ومن مظاهر هذه الثقة أنه عهد إلى الأجانب من رعايا الدول الاستعمارية بمهمات خطيرة من شؤون الدولة ، وأطلعهم على أسرارها ، ومكّن لهم من مرافقتها ، ففي عهده تعددت البيوت المالية والشركات الأجنبية التي تغلغت في البلاد ، وعهد إلى الأجانب بمناصب كبرى من التي كانت الحكمة تقتضي إبعادهم عنها ، كتعيين السير صمويل بيكر الرحالة الإنجليزي حاكماً لمديرية نطوط الاستواء ، والكولونل غردون باشا حاكماً لها من بعده ، ثم حاكماً عاماً للسودان ، والمسيو مترنجر محافظاً لسواحل البحر الأحمر ومديراً لشرق السودان ، والجنرال استون باشا رئيساً لأركان حرب الجيش المصري ، والأميرال ماكيلوب مديراً للموانئ والفنارات ، والمستر موريس وكيلها ، والمسيو فردريكو مديراً لوابورات البوستة الخديوية ، والمستر كليار مديراً للبريد ثم للجمارك ، وهلم جرا ، كما أنه أسند الكثير من المناصب العالية في دوائره وأملاكه وبطانته إلى موظفين من الإفرنج .

كل هذه التعيينات ترجع إلى إشراف إسماعيل في ثقته بالأجانب والاعتماد عليهم ، وتلك نقطة ضعف كبير في سياسته تبين لنا الفرق بينه وبين محمد علي .

لقد تولى إسماعيل الحكم والطريق أمامه معبد بما قام به محمد علي وإبراهيم من جلائل الأعمال ، فكان مطلوباً منه أن يكمل البناء الذي شاده جده وأبوه ، ويحتفظ باستقلال الدولة التي ألفت المقادير زمامها إليه ، ولم يكن يغيب عن ذهنه أن محمد علي كان يخشى على مصر من التدخل الأجنبي ، فلم يمد يده إلى الاستدانة من الخارج ، ولا رضى أن يعهد إلى الأجانب بالمناصب الخطيرة أو يمكن لهم في البلاد ، وبلغ به بعد نظره أن رفض تحويل شركة الإنجليزية امتياز مد السكة الحديدية بين القاهرة والسويس ، كما رفض شق قناة السويس ، لكيلا

تكون ذريعة للتدخل الأوروبي في شؤون مصر .

فالتريق إذن كانت مرسومة أمام الخديو إسماعيل ، ولم يكن مطلوباً منه إلا أن ينهض بأعمال التقدم وال عمران معتمداً على موارد الخزانة العامة ، وهى موارد تكفى للقيام بتلك الأعمال لمن يحسن تدبير شؤونها ، ولكنه تنكب سبيل أبيه وجده ، وتورط في القروض تلو القروض دون حاجة إليها ، ومن غير أن يفكر في طريقة إيفائها أو إيفاء فوائدها ، حتى ابتلعت هذه الفوائد ، معظم موارد الميزانية ثم عجز عن الوفاء ووقعت الحكومة في الإعسار كما رأيت مفصلاً في الفصل الحادى عشر ، وكانت النتيجة أن نالت الدول الأجنبية حقوقاً ومزايا تشل سلطان الحكومة ، وهذه المزايا أشبه ما تكون بالوصاية على مصر .

ولقد ظهرت هذه الوصاية بمظاهر مختلفة ، من إنشاء صندوق الدين ، إلى فرض الرقابة الثنائية على مالية مصر ، إلى تعيين لجنة تحقيق أوروبية تفحص شؤون الحكومة المالية والإدارية ، إلى تعيين وزيرين أجنيين في الوزارة المصرية لهما حق الفيتو ، أى وقف كل عمل تشريعى أو تنفيذى للحكومة ، ولا شك أن هذه الأحداث كما قلنا في مقدمة الكتاب قد تصدع لها صرح الاستقلال الذى نالته مصر بجهودها وتضحياتها العظيمة من عهد محمد على ، فهذه الحالة المحزنة التى وصلت إليها البلاد كانت نتيجة سياسة إسماعيل المالية . ولا نكران أنه سعى في السنوات الأخيرة من حكمه فى أن يتخلص من هذه الوصاية التى اتخذت شكلاً مهيناً من التدخل الفعلى فى شؤون مصر ، ووقف تجاه الدول الأوروبية موقف المقاومة العنيفة ، ولكن كان ذلك بعد أن تغلغل النفوذ الأجنبى السياسى والمالى فى مصر ، فلم يستطع له دفعا ، وغلبته الدول على أمره .

فإذا نظرنا إلى الأمور فى جوهرها وحقائقها ، نجد أن المسألة المصرية قد تراجعت فى عهد إسماعيل ، إذا قورنت بما كانت عليه فى عهد محمد على ، ولئن كان إسماعيل قد نال من تركيا مزايا وحقوقاً زادت نظرياً من حدود الاستقلال ، فإن مصر من الوجهة العملية كانت فى عصر محمد على أكثر استقلالاً مما صارت إليه فى عهد إسماعيل ، وحسبك دليلاً على ذلك أن إسماعيل باشا هو العاهل الوحيد من ولادة الأسرة المحمدية العلوية الذى خلع بفرمان من السلطان بناء على طلب الدول ، وليس يخفى أن خلع الخديو بأمر من السلطان هو من أشد المظاهر الهادمة لاستقلال مصر ، لأنه تدخل مهين فى سيادتها الداخلية ، ومن تصارييف القدر أن يقع هذا التدخل ضد الخديو الذى نال من تركيا أقصى ما يمكن من مزايا الاستقلال ،

ويرجع ذلك إلى الضعف الذى أصاب البلاد من ارتباك أحوالها المالية وتضعف قوتها الحربية والمعنوية ، فسهل على الدول أن تتدخل فى شؤونها وتعبث باستقلالها ، ولا شك فى أن الفرق كبير من هذه الناحية بين حالة مصر فى عهد محمد على وحالتها فى عهد إسماعيل .
 فى عهد محمد على لم يكن ثمة صندوق دين ، ولا نفوذ للأجانب ، ولا رقابة منهم على مالية الحكومة ، ولا وزراء أوروبيون داخل الحكومة ، ولا محاكم مختلطة غالبية القضاة فيها من الأجانب ، فهذه النظم والأوضاع قد تقررت فى عهد إسماعيل ، وهى قيود شلت سيادة الحكومة الأهلية ونقصت مزايا الاستقلال الفعلى ، وظلت تنمو وتشتد حتى أواخر عهد إسماعيل ، واستمرت البلاد من بعده تتعرض فى أذبال الارتباك المالى والرقابة الأوروبية إلى أن انقلبت الرقابة احتلالاً إنجليزياً عسكرياً ، وهو الاحتلال الذى نعانىه إلى اليوم (سنة ١٩٣٢) .

والخلاصة أن عصر إسماعيل كان عهد تقدم وعمران ، اختلطت به أخطاء وأغلاط أفضت إلى تصدع بناء الاستقلال المالى والسياسى .
 ولو خلت شخصية إسماعيل من عيوبها لجعل من مصر يابانا أخرى ، ولصارت على يده دولة من أقوى الدول المستقلة وأعظمها شأنًا .
 ولكن هكذا شاء جَد مصر العاثر أن تتلاحق الأخطاء وتختلط السيئات بالحسنات فى تاريخ إسماعيل ، فاغتنمت الدول الاستعمارية الفرصة فى أغلاطه ، والضعف الذى انتاب البلاد على عهده ، ووجدت من ذلك سبيلاً إلى تحقيق أطامعها فى أرض الكنانة ، والضعف فى كل عصر آفة الأمم ، ومضيعة لحقوقها ، والقوة هى سياج حريتها واستقلالها ، وقد يما طمع الأقوياء فى الضعفاء ، سنة الله فى خلقه ، ولن نجد لسنة الله تبديلاً .

وثائق تاريخية

وثيقة رقم ١

مذكرة شريف باشا إلى الدول

عن امتلاك مصر منطقة البحيرات الاستوائية (انظر ج ١ ص ١٢٢ الطبعة الأولى)
 « أفادت الأنباء الأخيرة الواردة إلى القاهرة أن غردون باشا قد استولى نهائياً على منطقة
 (مروي) الواقعة على نهر السومرست (نيل فكتوريا) ، وأن الجنود المصرية أسسوا محطة في
 (ماسندى) عاصمة (أونورو) ، وأخلد الأهليون إلى الطاعة والسكينة ، وأرسل غرون باشا
 القوة اللازمة من الجنود بقيادة نور اغا وهو ضابط كفء عارف بأحوال البلاد لإنشاء محطة
 عسكرية في (أورتدنجانى) وأخرى على شاطئ بحيرة فيكتوريا بالقرب من شلالات
 (ريبون) .

« وأفادت الأنباء الأخيرة أيضاً أن غردون باشا احتل (مقانقو) على شاطئ بحيرة
 ألبرت ، حيث يصب نهر السومرست في البحيرة ، ووصل بين مقانقو (الدفلاى)^(١) الواقعة
 على النيل الأبيض حيث وصلت السفن الحديدية تصحبها إحدى البواخر النيلية .
 « وعلى ذلك قد تم إلحاق جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت بمصر
 وفتحت البحيرتان وروافدهما ونهر السومرست للملاحة ، وصارت ممهدة للاكتشافات التى
 يقوم بها غردون باشا .

« وإني لسعيد إذ أعلن نتيجة هذه الحملة التى كللت بالنجاح بفضل كفاءة من اشتركوا فيها
 وما أظهروه من الهمة والإخلاص تحت قيادة غردون باشا تحقيقاً للغاية التى قصد إليها الخديو
 وهى نشر لواء الحضارة وإحياء التجارة والزراعة فى تلك البلاد » .

(١) انظر مواقع هذه الجهات على الخريطة ص ١٢٠ من الجزء الأول من هذا الكتاب . (الطبعة الأولى)

اللائحة الأساسية لمجلس شورى النواب

الصادرة في ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٦

(انظر ج ٢ ص ٧٨ الطبعة الأولى)

« في ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٣ ، (٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٦) أمر عالي إلى سعادة راغب باشا (رئيس مجلس شورى النواب) ، منطوقه :

« حيث أن مجالس الشورى شوهدت منافعها ومحسناتها الجليلة في الممالك المتقدمة ، كان أملي تشكيل مجلس شورى بمصر ، تنتخب أعضائه من الأهالي ، فالآن أشكر الله تعالى ، على أني عاينت من أهالي مملكتنا ، من الأهلية والاستعداد - ما يزيد حصول هذا الأمل ، فصممنا بالاتفاق على تأسيس المجلس المذكور ، ولذا صار عقد المجلس الخصوصي برياستنا ، وصارت المداولة بحضور أربابه لدينا في تنظيم لائحة كيفية تأسيسه ، وانتخاب أعضائه ، وصار إعمالها حسب ما هو موضح أدناه ، تحتوى على ثمانية عشر بنداً ، وقد عيناكم برياسة ذلك المجلس ، وصدر أمرنا على تلك اللائحة لناظر الداخلية لإجري مقتضاه ، كما قد صدر أمرنا أيضاً عنها ، إلى مفتش عموم الأقاليم ، لنشرها إلى أهالي الأقاليم لأجل انتخاب الأعضاء بموجبها ، وأصدرنا هذا لكم لمعلوماتكم بذلك ، وانتخاب ما يلزم لكم من الكتاب ، واستحضار الدفاتر والأوراق اللازمة لهذا الخصوص بمعرفتكم وما القصد من هذا إلا التشاور ، والتعاون على توسيع عمارية ومدنية الوطن ، والاقتطاف من ثمار مآثر انضمام الآراء في الأمور النافعة ، فنسأل الله ، أن يوفقنا في كل الأمور » .

البند الأول : تأسيس هذا المجلس مبنى على المداولة في المنافع الداخلية ، والشعورات التي تراها الحكومة ، أنها من خصايص المجلس ، ليصير المذاكرة ، وإعطاء الرأي عنها ، وعرض جميع ذلك للحضرة الخديوية .

البند الثاني : يجوز انتخاب من بلغ عمره ، خمسة وعشرين سنة ، وما فوق ذلك ، بشرط أن يكون موصوفاً بالرشد والكمال ، وأن يكون من الأشخاص المعلومين عند الحكومة بأنه من الأهالي التابعين لها ، ومن أولاد الوطن .

البند الثالث : يحرم من صلاحية هذا الانتخاب ، الأشخاص الذين حكم على أموالهم

وأَملاكهم ، بأحكام الإفلاس ، وتعلقت بها حقوق للغير ، إلا إذا أعيدت تلك الحقوق .
التي حرموا منها ، وأيضاً الفقراء المحتاجين ، والأشخاص الذين أعينوا على حالهم ، قبل
الانتخاب بسنة ، والأشخاص الذين صار مجازاتهم بالليمان والطرْد بحكم .

البند الرابع : إن الأشخاص الذين يتخبون النواب ، يلزم أن يكونوا من الذين لم يحكم
على أموالهم وأَملاكهم بأحكام لإفلاس ، وتعلقت بها حقوق للغير إلا إذا أعيدت تلك
الحقوق إليهم ، وألا يكون سبق مجازاتهم بالليمان ، والطرْد بحكم ، وألا يكونوا من الداخلين .
سلك العسكرية تحت السلاح .

البند الخامس : المستخدمون في الخدمات الميرية ، والمستخدمون في الجهات الخارجة عن
الميرى سوى كانوا من العمْد ، والوجوه ، وغيرهم ، وكذا الداخلون سلك العسكرية ، سوى
كانوا تحت السلاح ، أو إمدادين - لا يجوز انتخابهم ليكونوا من أعضاء المجلس . وأما من
رفتوا من المستخدمين بلا جنحة ، حسب الإيجاب أو انقضت مدتهم في الإمدادين فيجوز
الانتخاب منهم ، إن كانوا حائزين الأوصاف المعتبرة المذكورة .

البند السادس : إن انتخاب الأعضاء من الأقاليم ، يلزم أن يكون على حسب التعداد
فلذا يلزم انتخاب واحد أو اثنين من كل قسم ، من أقسام المديريات بحسب كبر القسم ،
وصغره ، ويصير انتخاب ثلاثة في مصر ، واثنين في الإسكندرية .

البند السابع : حيث أن كل بلد ، عليه مشامخ معينون ، برغبة الأهالي ، فبالطبع هم
المنتخبون ، من طرف أهالي ذلك البلد ، والنائبون عنهم لانتخاب العضو ، المطلوب انتخابه
في القسم ، إذا كان تلك المشايخ ، حائزين الأوصاف المعتبرة المذكورة ، فهؤلاء المشايخ
يحضرون المديرية ويكتب كل أحد منهم ، اسم من يتخبه في القسم ، في ورقة مخصوصة ،
ويضعها مقفولة بالصندوق المعد لقسمه بالمديرية .

البند الثامن : بعد ما يتم وضع الأوراق بالصناديق تفتح على يد المدير ، والوكيل ، وناظر
قلم الدعاوى ، وقاضى المديرية ، فينظر إذا كان أكثر الآراء ، متفقة على انتخاب واحد في
القسم فيصير هو نائباً عن القسم ، وإن تساوت الآراء في انتخاب اثنين ، أو ثلاثة ، فيقرع
بينهم بحضورهم والذي تصيبه القرعة يصير نائباً عن القسم ، وفي كلا الحالتين يؤخذ من
المشايخ الحاضرين بالمديرية في البلاد ورقة بأختامهم ، بما استقر عليه الحال ، في انتخاب تلك
النواب ، وأما الانتخاب في مصر ، والإسكندرية ، ودمياط ، فيصير باتفاق أو أكثرية آراء

وجوه ، وأعيان تلك المدائن .

البند التاسع : يصير تجديد انتخاب الأعضاء ، في كل ثلاث سنين ، حسب ما هو موضحاً بالبند السابع .

البند العاشر : أعضاء المجلس لا يزيدون عن خمسة وسبعين شخصاً .

البند الحادى عشر : لا يعقد المجلس ، إذا غاب من أعضائه أكثر من الثلث ، وإن كان أحد الأعضاء ، له عذر ضرورى - فيلزم عرض عذره ، على رئيس المجلس قبل انعقاده . بشهر ، فإن قبل عذره بالمجلس فيها ، وإلا فإن لم يحضر بعد إعلانه ، عدم قبول عذره - يصير انتخاب غيره بدله ، من قسمه حسب اللائحة .

البند الثانى عشر : لا يصح التوكيل عن أحد الأعضاء ، بل هو يحضر المجلس بنفسه .

البند الثالث عشر : يصير تحقيق حال كل عضو من أعضاء المجلس حين اجتماعهم ، بمعرفة قومسيون فإن وجد مستكمل الشروط ، المعبرة المحررة - فى البنود السابقة - يقبل وإلا فتلقى نيابته ، ويتمخ غير من قسمه وجهته .

البند الرابع عشر : بعد ما يصير تحقيق أحوال النواب ، المنتخبين بالقومسيون ويوجدون حائزين الأوصاف المذكورة ، فى البنود السابقة ، فيعطى قرار عنهم بالقومسيون ويعرض عنه إلى رئيس المجلس ، ومنه أيضاً إلى الأعتاب الخديوية ، ليعطى كل واحد منهم بيورلدى . يتضمن كونه منتخباً ، فى ظرف ثلاثة سنين ، فى شورى النواب .

البند الخامس عشر : حيث من المعلوم ، أن كل مجلس من المجالس الماثلة لهذا ، له صدور نظامنامه ، فبالطبع صدور نظامنامه هذا المجلس ستعطى له .

البند السادس عشر : إن عقد المجلس سيكون فى هذا العام ، فى ١٠ هاتور لغاية ١٠ طوبة ، وأما من السنين الآتية فيصير انعقاده فى ١٥ كيهك ، لغاية ١٥ أمشير .

البند السابع عشر : لولى الأمر جمع المجلس ، أو تأخيره ، أو تحديد مدته ، أو تبديل أعضائه ، وانتخاب غيرهم فى مدة معلومة حسب ما هو موضح بهذه اللائحة .

البند الثامن عشر : لا يجوز قبول عرضحالات من أحد ما بالمجلس .

اللائحة النظامية

حدود ونظامنامه مجلس شورى النواب
(الصادرة فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٦)

- بند ١ : مجلس الشورى يكون بالمحروسة مصر .
- بند ٢ : مجلس الشورى وظيفته المداولة ، فى المنافع الداخلية ، والعقود التى تراها الحكومة أنها من خصايصه تصير المذاكرة فيه ، وإعطاء الرأى عنها ، كما هو مذكور فى بند فى اللائحة الأساسية ، فيما تحصل المداولة فيه بمجلس الشورى ، فيما يتعلق بالمنافع الداخلية ، يرسل من طرف الرئيس إلى المجلس الخصوصى ويجرى المذاكرة عنه بالأقلام ، والقومسيونات بمجلس الشورى ، حسبما يأتى بعده بما يتعلق بالعقوبات من بند ١٦ إلى بند ٢٠ وبند ٢٣ فى هذه اللائحة ، وبعد إعطاء التقارير عنها ، تنظر بمجلس الشورى أيضاً كما فى بند ٢١ ، وبند ٢٢ ، وبأتمام المذاكرة ، وإعطاء الرأى يعرض جميع ذلك للحضرة الخديوية .
- بند ٣ : رئيس مجلس شورى النواب ، ووكيله ، ينصبان من طرف الحضرة الخديوية .
- بند ٤ : افتتاح مجلس شورى النواب ، إما أن يكون بذات الحضرة الخديوية ، أو من يوكل لذلك بالإرادة السنية ، وتقرأ فيه مقالة ، فإن كان افتتاحه بالحضرة الخديوية ، فقرائة المقالة بالنطق الخديوى أو من يتوكل فى قرايتها متعلق بالإرادة العلية ، وإن افتتحه الموكل ، فإما أن تكون المقالة من الحضرة الخديوية ، ويقرأها الموكل بالافتتاح أو أنها تكون من الموكل بالافتتاح ، وهو الذى يقرها بموجب الأمر .
- بند ٥ : بعد افتتاح مجلس شورى النواب وقراءة المقالة يكون لأربابه الحق ، فى أن يقدموا جواباً عنها فى مدة يومين ، وهذا الجواب لم يكن إلا من قبيل الرسوم ، بحيث لا يقطع فيه شىء عن أمر من الأمور المقتضى نظرها بمجلس الشورى .
- بند ٦ : إذا كانت المقالة من الحضرة الخديوية ، فبعد تحرير جوابها من مجلس الشورى ، يجب تقديمه للأعتاب الكرام ، بواسطة رئيس مجلس الشورى ، ويكون معه من كل قلم اثنان من الأعضاء بالملابس الرسمية ، تصير تسميتهم بمعرفة جميع الأعضاء .
- بند ٧ : حيث تقرر فى بند نمرة ٢ ، وبند ٣ ، وبند ٥ من اللائحة الأساسية ، الأوصاف

اللازمة ، في حق من يحصل انتخابهم لوظيفة العضوية ، ففي حال الانتخاب بالمديرية إذا كان المجوز له انتخاب النواب ، يعينون أشخاصاً من الغير ، جازر تعيينهم لذلك فبالطبيعة بحسب الموضح بالبند الثالث عشر من اللائحة الأساسية ، يصير الإيضاح من المديرية ، إلى مفتشى العموم عن كفيّتهم ومن طرفه يصير تبين ذلك ، بالكشف الذى يرسل لرئيس مجلس الشورى ، بأسماء النواب الذى تعينوا ، لأجله أجرى منطوق البند المشار عنه .

بند ٨ : من بعد افتتاح مجلس الشورى ، وقرابة المقالة ، يصير تقسيم المجلس إلى خمسة أقلام ، بانتخاب نفس الأعضاء بعضهم بعضاً ، ورؤساء الأقسام يكون انتخابهم بمعرفة الأعضاء أيضاً ، وفي الأقسام المذكورة يجرى التفحص عن المتخبين ، حسب المدون في بند ١٣ من اللائحة الأساسية ، بمعنى أن كل قلم يتفحص عن حال المتخبين الذين هم بقلم آخر ، وأعضاء القلم الجارى فيه التفحص المذكور ، يصير التفحص عنهم بمعرفة قلم من الأقسام الأخر ، وبعد إعطاء القرارات اللازمة عن ذلك يصير إعطائهم إلى رئيس مجلس الشورى لعرضهم للحضرة الخديوية كما في بند ١٤ من اللائحة الأساسية .

بند ٩ : متى تم تحقيق صحة الانتخاب ، لزم رئيس مجلس شورى النواب ، أن يعرض للحضرة الخديوية بذلك ، ولا يتظر صدور الحكم بخصوص الانتخابات الموقوفة أو المتنازع فيها ، متى كان الذين صح انتخابهم يجوز انعقاد مجلس الشورى بهم ، كالموضح في بند ١١ من اللائحة الأساسية .

بند ١٠ : ترتيب أشغال مجلس الشورى يكون بالنمر ، بحسب ما يراه رئيسه ، ويكون لذلك دفتر واضح ، يبين تلك الأشغال مادة مادة ، بغاية الاختصار ، وتواريخ ورودها ، والنمر التى وضعت عليها ، بالنسبة لترتيب رؤيتها ، وملحوظة تباشر فيه عما يجرى فيها .

بند ١١ : من يؤمر من الدوات من طرف الحكومة بالمباحثة في شأن تصور من التصورات ، المعروضة للمذاكرة فيها بمجلس شورى النواب ، متى طلب أن يتكلم لزم الإذن له بذلك ، ولا يقتضى إلزامه بالانتظار للنوبة حسب المقيد بدفتر النوبة .

بند ١٢ : مجلس شورى النواب ، له أن يجبر على الحضور بالشورى ، كل من لم يمنعه مانع صحيح معتبر من الحضور ، وذلك بواسطة ترتيب عقوبات ، على من لم يحضر مجلس الشورى وكل رئيس قلم من الأقسام ، يعطى إلى رئيس مجلس الشورى قائمة في كل يوم صباحاً ، بمن حضر من الأعضاء ومن لم يحضر .

بند ١٣ : إذا كان عدد مجلس الشورى ، فى يوم من الأيام ، أقل من القدر الموضح عنه ، بند ١١ فى اللائحة الأساسية ، لزم تأخير عقده إلى اليوم الذى يليه ، وهكذا فى كل يوم (متى اتضح الحال على هذا الوجه) يجب على الرئيس أن يؤخره إلى اليوم الذى يليه .

بند ١٤ : إذا كان عقد مجلس الشورى ، فى يوم من الأيام ، أقل من القدر الموضح عنه ، بند ١١ من اللائحة الأساسية ، لكن نفس الأعلام يوجد بعضهم مستوفياً ، بقدر الثلثين بالنسبة لأصل أعضائه ، فالقلم الذى يكون بهذه الصفة ، لا يصير تعطيله بل ينظر فى الأشياء المحولة عليه .

بند ١٥ : الذى يأمر بافتتاح كل جلسة ، من جلسات مجلس الشورى النواب وقفلها هو الرئيس ، وتقتضى فى آخر كل جلسة ، أن يعين الرئيس من بعد السؤال من الأعضاء ، ساعة افتتاح الجلسة التى تليها ، وترتيب الأشغال بالأوقات المقتضية ، ويعلق الترتيب المذكور فى محل مجلس الشورى ، وترسل صورة الترتيب فى الحال ، إلى كاتب الديوان الحديوى ، ويقتضى أن يجرى الرئيس ما يلزم من طرفه ، لوصول الأخباريات ، والتبليغات اللازمة إليه بأوقاتها المقتضية .

بند ١٦ : التصورات التى تراها الحكومة ، تتلى صورتها بمجلس شورى النواب ، بمعرفة من يندب لهذه المأمورية من طرف الحكومة .

بند ١٧ : بعد قراءة التصورات المذكورة فى بند ١٦ يصير طبعها وتوزيعها على الأقسام للنظر فيها بأوقاتها ، فتبحث فيها ، وتعين الأقسام من مجموعها ، قومسيون مركب من خمسة أعضاء ، يصير انتخابهم بطريقة إعطاء رأى عنهم ، بالصندوق سراً ، وبالقومسيون المذكور ، ينظر فى تلك التصورات ، ويتحرر القرار اللازم عنها .

بند ١٨ : إذا صدر رأى من واحد ، أو من جماعة من الأعضاء ، الغير داخلين القومسيون المذكور ، فى بند ١٧ من هذه اللائحة ، بخصوص مادة من المواد المدرجة ، بالتصورات المرسولة من طرف الحكومة ولم يكن ذلك من الملاحظات المذكورة عنها ، بند ٢٣ من هذه اللائحة - تقتضى أن يصير تسليم ذلك رأى ، إلى رئيس مجلس الشورى ، وهو يوصله إلى القومسيون المختص بالنظر فى ذلك ، ولا يجوز قبول أى رأى كان فيما يتعلق بمادة من ذلك متى تقدم التقرير فى شأنها من ذلك القومسيون إلى مجلس الشورى ، وإنما عند تلاوة ذلك التقرير بمجلس الشورى يجرى ما يلزم له فى المذاكرة ، وأخذ الآراء حسب الوارد بينود هذه

اللائحة ، من بند ٢٠ إلى بند ٢٢ .

بند ١٩ : كل من أورد رأياً ، بخصوص مادة من المواد المدرجة بتلك التصورات ، كما ذكر في بند ١٨ من هذه اللائحة - كان له حق التكلم في هذا الخصوص ، بالقومسيون المختص بالنظر في ذلك .

بند ٢٠ : متى تقدم التقرير الصادر من القومسيون ، بخصوص صورة مادة ، لزم أن يتلى بمجلس الشورى ، ويطلع ، ويوزع على أعضاء مجلس الشورى ، قبل المذاكرة بأربعة وعشرين ساعة على الأقل .

بند ٢١ : تفتح المذاكرة بخصوص التقرير المذكور عنه في بند ٢٠ من هذه اللائحة في الوقت المعين له ، في ترتيب أشغال مجلس الشورى ، ويقتضى افتتاح المذاكرة أولاً ، فيما يتعلق بصورة التصور المعروضة على وجه العموم ، ثم فيما يتعلق بكل قلم ، أبواب منها خاصة .
بند ٢٢ : من بعد أخذ الآراء ، عن كل مادة خاصة من المواد ، المتركب فيها التصورات المذكورة - يجب أخذ الآراء أيضاً ، بخصوص مجموع تلك التصورات على وجه العموم .

بند ٢٣ : إذا ترائى للقومسيون المختص ، بالنظر في إحدى التصورات المرسولة ، من طرف الحكومة ملحوظات فيما يتعلق بذلك - تتقدم إلى رئيس مجلس الشورى ، وقبل تلاوتها بمجلس الشورى ، تبعث في ظرف للحكومة .

بند ٢٤ : المسائل اللازم المداولة فيها ، بمجلس شورى النواب ، بواقع ترتيب أشغاله ، بحسبما يستقر عليه الحال ، في آخر كل جلسة ، كما ذكر بيند ١٥ من هذه اللائحة - يلزم في الجلسة الثانية ، أن كل مسألة فيها ، قبل وصفها في ميدان المداولة يؤخذ رأى مجلس الشورى عن لزوم أو عدم لزوم المداولة فيها ، وعلى واقع ما ينتهى عليه الحال في ذلك - يجرى العمل .
بند ٢٥ : المواد المتعلقة بالمنافع الداخلية ، اللازم المذاكرة فيها بمجلس الشورى ، بواقع ترتيب أشغاله ، كما في بند ١٥ من هذه اللائحة - يلزم أن كل مسألة فيها ، قبل وصفها في ميدان المذاكرة يؤخذ الرأى في مجلس الشورى ، عن لزوم المذاكرة فيها وقتئذ ، أو تأخيرها لوقت آخر ، أو نحو ذلك .

بند ٢٦ : إذا طلب الكلام اثنان ، أو ثلاثة من أعضاء مجلس الشورى في آن واحد ، لزم أعمال القرعة المقتضية في تقديم أحدهم على الآخرين ، بمعرفة رئيس مجلس الشورى .
بند ٢٧ : في حال المكالمة بمجلس الشورى في مسألة ، لا يجوز افتتاح المكالمة في مسألة أخرى .

بند ٢٨ : في حال المكالمة إذا تكلم أحد من الأعضاء فيما هو جارى التكلم من أجله - لا يحصل التكلم من غيره فيها ، قبل إتمام كلام الأول .

بند ٢٩ : لا يجوز لأحد أن يتكلم في كل مسألة ، بمجلس الشورى إلا مرة واحدة ، ما لم يقتضى الحال للتكلم من بعض الأعضاء ، غير مرة واحدة ، إذا احتاج الأمر لإعطاء توضيحات أو لإعطاء الجواب ثانياً مرة ، بناء على طلب عضو آخر . وأما في القومسيونات التي تشكل بمجلس الشورى ، فإن لكل عضو من أعضائها حق التكلم متى شاء .

بند ٣٠ : لا يجوز لأحد من أعضاء مجلس شورى النواب ، أن يتكلم إلا إذا طلب الكلام وأذن له الرئيس بذلك ، ولا أن يتكلم إلا وهو في موضعه .

بند ٣١ : إذا أراد الرئيس أن يتكلم بنفسه - وجب الإصغى إليه (كذا في الأصل) .

بند ٣٢ : يجب أن يكون أخذ الآراء بطريقة أخذ الآراء بالصندوق في الجهر ، وبطريقة الأكثرية المطلقة .

بند ٣٣ : تفريغ صندوق الآراء ، يكون بمعرفة كاتب السر .

بند ٣٤ : لا تكون عملية أخذ الآراء صحيحة معتمدة إلا إذا كان الحاضر بمجلس الشورى كما في بند ١١ من اللائحة الأساسية .

بند ٣٥ : يجب على مجلس الشورى ، احترام حق العدد الأقل منضمة المذكرات به فيجب الإصغى للعدد الأقل ، وأن تسمع الملاحظات الصادرة منهم .

بند ٣٦ : إذا كان عدد الأعضاء المأخوذ رأيهم وهو الأقل ، وأما الأكثر لم يعطوا رأياً في المادة المعروضة - لزم الرئيس أن يسأل باقي الأعضاء عن رأيهم .

بند ٣٧ : رئيس مجلس شورى النواب ، هو الذى يؤدي وظيفة الرئاسة عليه ، وفقط يسأل أرباب مجلس الشورى عن رأيهم ، وليس له رأى مطلقاً ، إلا في صورة انقسام الآراء ، إلى طريقين متساويين ، وأما فيما عدا ذلك من الأحوال فلا يدخل لنفسه برأى ، من جملة الآراء بمجلس الشورى ، وليس له أن يتدخل في مذكرات مطلقاً .

بند ٣٨ : متى صار التصديق على صورة مادة بمجلس الشورى - لزم أن تكون نسختها الأصلية ، مقيدة في دفتر مخصوص لذلك ، ويختم عليها من الرئيس والأعضاء ، ويتحرر نسخة أخرى عليها علامة كاتب السر ، وختم الرئيس ، وتقدم للحضرة الخديوية .

بند ٣٩ : الجئى إلى مجلس الشورى يومياً ، والذهاب منه ، يكون بحسبما يراه رئيسه

باستنساب المجلس .

بند ٤٠ : أعضاء مجلس الشورى ، يحضرون إلى المجلس المشار عنه ، بملابس الحشمة اللائقة ، وجلسهم فيه يكون بهيئة الأدب .

بند ٤١ : لا يجوز لأحد من أعضاء مجلس الشورى النواب ، أن يغيب بدون إذن يصدر إليه منه ، ويتحرز له تذكرة رخصة ، من طرف رئيس مجلس الشورى ، ولا يجوز له أن يحرر تذكرة رخصة ، إلا من بعد صدور الإذن من مجلس الشورى ، ما لم تقتضى الضرورة الملزمة ، تحرير التذكرة على وجه العجلة . وبعد تحريرها على هذه الكيفية يصير إخبار مجلس الشورى ، من طرف الرئيس بذلك .

بند ٤٢ : المحاضر التى تنمر لإثبات مجلس شورى النواب ، تكون مشتملة على أسماء الأعضاء الذين تكلموا بالشورى ، ورأى كل واحد منهم بالأختصار .

بند ٤٣ : المحاضر المذكورة فى بند ٤٢ تقيد بدفتر مخصوص لذلك ، ويقرأها كاتب السر فى أول مجلس للشورى ، المنعقد من اليوم الذى يلى يومها ، ويوضع الرئيس إمضاه ، على ذات الدفتر فى كل يوم .

بند ٤٤ : الأوامر التى تصدر من الحضرة الخديوية ، فيما يتعلق بأحد الخصوصيات المذكورة ، فى بند ١٧ من اللائحة الأساسية ، تتلى بمجلس الشورى فى الحال ويجرى العمل بمقتضاها .

بند ٤٥ : التنبيه بإرجاع من يخرج عن ما يليق ، بحسب الأصول ، إنما هو من وظائف الرئيس لا غير .

بند ٤٦ : إذا خرج المتكلم فى مادة من المواد عن المسئلة المقتضى الكلام فيها - لزم الرئيس أن ينبه عليه بالرجوع إليها ، وعدم الخروج عنها ، ولا يجوز إلى الرئيس أن يأذن بالكلام ، فيما يتعلق بأسباب الرجوع إلى المسئلة المقتضى الكلام فيها .

بند ٤٧ : يؤذن بالكلام لمن خرج عن الأصول ، وتنبيه عليه بالرجوع إليها ، فرجع وطلب الكلام فيعتذر ، ولا يؤذن بالكلام للخارج عن الأصول ، فى غير الصورة المذكورة .

بند ٤٨ : إذا خرج المتكلم عن الأصول مرتين ، فى مسألة واحدة ، وطلب الكلام للاعتذار - يلزم الرئيس أن يسأل أرياب مجلس الشورى ، عن لزوم منعه من الكلام فى بقية الجلسة ، فيما يتعلق بالمسألة ، ويقتضى أن يحكم مجلس الشورى ، فى هذا الأمر بالأغلبية .

بند ٤٩ : إذا خرج المتكلم عن المسألة المقتضى الكلام فيها ، وصار إرجاعه إليها مرتين في مسألة واحدة ، ثم هم بالخروج عنها مرة ثالثة - لزم الرئيس أن يسأل أرياب مجلس الشورى ، عن لزوم منعه من الكلام في باقى الجلسة ، بخصوص المسألة التى الكلام بصددتها تقتضى أن يحكم مجلس الشورى فى هذا الأمر بالأغلبية .

بند ٥٠ : إذا اقتضى الحال التنبيه ، على أحد من الأعضاء بالسكوت ، لكونه تكلم فى غير محله ، وقطع الكلام على غيره ، فيقتضى أن لا يؤذن له بالكلام فى بقية الجلسة .
بند ٥١ : لا يسوغ لأحد بمجلس الشورى ، أن يصدر منه مسبة لأحد ، ولا إشارة بالإقرار ، أو بعبءه ، على قول أحدًا بمجلس الشورى .

بند ٥٢ : إذا حصل من أحد الأعضاء ، أمر مخل بانتظام حال مجلس الشورى - لزم أن ينبه عليه بالرجوع عن ذلك ، بالإسم من طرف الرئيس ، فإن أصر على ذلك ولم يرجع لزم الرئيس أن يأمر بقيد التنبيه ، فى ضمن المحضر الذى يتحرر ، بما يقع فى مجلس الشورى بذلك اليوم ، وفى صورة ما إذا أصر على عدم الرجوع عن الأمر ، المخل بانتظام مجلس الشورى - يلزم المجلس المشار عنه ، بناء على طلب الرئيس ، أن يحكم من غير مذاكرة ، بإخراجه من مجلس الشورى ، بمدة لا تقتضى أن تزيد خمسة أيام فقط ، ولا بأس أن يأمر أيضاً ، بإعلان صورة الحكم المذكور ، بالجهة التى يكون انتخاب النائب ، المحكوم عليه من طرفها .
بند ٥٣ : فى مدة افتتاح مجلس الشورى ، وفى الأيام المحددة له ، لا تعمل دعوى على أحد من أعضائه ، بوجه من الوجوه إلا إن كان (لا سمح الله) حصل من أحد منهم ، مادة قتل فظيماً ، لا يعد من أعضاء مجلس الشورى ، ويتعين بدله حسبما فى بند ١٣ من اللائحة الأساسية .

بند ٥٤ : لا يجوز لأحد من أعضاء مجلس الشورى أن يطبع وينشر المقالة التى قالها بمجلس الشورى ، والمذاكرات التى حصلت عنها ، من غير ترخيص رئيس مجلس الشورى له بذلك فإن طبع ونشر بغير ترخيص - يترتب عليه الجزاء اللازم ، بقرار من قومسيون يتعين من القلم الذى هو من أعضاء .

بند ٥٥ : فى مدة العضوية ، إذا حصل من أحد الأعضاء ، ما يمنع لياقة وجوده ، عضواً بمجلس الشورى النواب ، فيما هو واضح فى بند ٢ ، وبند ٣ ، وبند ٥ ، من اللائحة الأساسية يسقط حقه من العضوية ، ويتعين بدله ، كما فى بند ١٣ من اللائحة الأساسية .

بند ٥٦ : فى مدة دوام افتتاح المجلس المحددة له ، لا يقبل الاستعفى من أحد من الأعضاء ، وفى أوقات تعطيله إذا أراد أحداً منهم أن يستعفى - لزم أن يقدم إلى رئيس مجلس الشورى ، ويوصله إلى يد الرئيس ، قبل انقضاء مجلس الشورى بثلاثين يوماً بالأقل وحينئذ يجرى المكاتبه لجهته ، لأجل تسمية خلافة ، كما فى بند ١٣ من اللائحة الأساسية .

بند ٥٧ : رئيس مجلس شورى النواب ، هو المنوط بالضبط اللازم ، فى أثناء الجلسات المنعقدة ، وفيما يتعلق بداخل المحل المعد لإقامة مجلس الشورى .

بند ٥٨ : إذا تراء لريس مجلس الشورى ، تأخير عقد المجلس المشار عنه فى يوم واحد من الأيام إلى اليوم الذى يليه ، ولو كان عدد الأعضاء مستوفياً ، كما فى بند ١١ من اللائحة الأساسية - لا مانع من تأخير عقده فى ذلك اليوم فقط ، ويعرض الرئيس للحضرة الخديوية بذلك فى الحال .

بند ٥٩ : يرسل الخضر اللازم ، لجهة مجلس الشورى من طرف الحكومة .

بند ٦٠ : لا يدخل جهة مجلس شورى النواب ، إلا الأعضاء المنتخبون والأشخاص المتعلقون بمجلس الشورى ، ومن يرسل من طرف الحكومة ، بمأمورية تختص بأشغال الشورى . وهذا يتبع اجراء الحد ما يصدر الأمر من الحضرة الخديوية ، بتجوز دخول من بتصريح له بذلك ، بموجب التذاكر التى تعطى لهم حينذاك ، من طرف ريس مجلس الشورى .

بند ٦١ : حيث ذكر فى بند ٢ ، وبند ٣ ، وبند ٤ ، وبند ٥ ، فى اللائحة الأساسية ، الأوصاف اللازمة فى حق من يحصل انتخابهم ، لوظيفة العضوية بمجلس شورى النواب ، ومن يجوز لهم انتخاب النواب ، فى الانتخاب السابع ، تقضى أن الذى يحصل انتخابهم للعضوية يكون لهم دارية بالقراءة والكتابة ، زيادة على الأوصاف المقررة فى حقهم ، وفى الانتخاب الحادى عشر ، يحتاج أن الذين يجوز لهم انتخاب النواب يكون لهم إلمام بالقراءة والكتابة ، علاوة على الأوصاف المنصوصة فى شأنهم أيضاً .

مراجع البحث

نذكر هنا أهم المراجع التي اعتمدنا عليها في بحث فصول الكتاب

مراجع عامة عن عهد عباس وسعيد وإسماعيل

- الحخطط التوفيقية . للعلامة على باشا مبارك . في عشرين جزءا . وقد تكلمنا عنها
(ج ١ ص ٢٣٩ الطبعة الأولى) .

- « الوقائع المصرية » .

- مجلة الجمعية الجغرافية الملكية

Bulletin de la Société Royale Geographie

Bulletin de l'Institut Egyptien - مجلة المجتمع العلمي المصري

Gaillardot - مجلة مصر (1894—1897) Revue d'Egypte للمسieur جليار دوبك

Revue des Deux Mondes - مجلة العالمين الفرنسية

وقد بينا في هوامش الكتاب الأعداد التي رجعنا إليها .

- التوقيعات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية والقبطية - للواء

المصري محمد مختار باشا طبع سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) .

- النتيجة المستحسنة لحساب مائة سنة . للسيد مصطفى محمد الفلكي ومحمد أفندي نجيب

طبع سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) .

- مجموعة القوانين والقرارات .

- مجموعة الأوامر والقيودات بالدفترخانة المصرية (دار المحفوظات) .

- قاموس الإدارة والقضاء . لفيليب جلاد في ستة أجزاء .

- كتاب الوثائق الدولية للسلطنة العثمانية . لنورادنجيان أفندي تم طبعه سنة ١٩٠٣ في

أربعة أجزاء Recueil d'actes internationaux de l'Empire ottoman

- الوثائق الدبلوماسية والفرمانات السلطانية الخاصة بمصر طبع سنة ١٨٨٠ .

Actes diplomatiques et firmans imperiaux relatifs à l'Egypte

— مجموعات المعاهدات ، لدى مارتنس في ٣٥ جزءاً

De Martens—Recueil général des Traités

— مجموعة معاهدات الباب العالي . للبارون دي تستام طبعة سنة ١٩٠١ في عشرة

Recueil des traités de la Porte Ottomane-par De Testa أجزاء

— تاريخ الدولة العلية العثمانية . لمحمد بك فريد .

— تاريخ المسألة الشرقية . لمصطفى كامل باشا طبع سنة ١٨٩٨ .

— مذكرات عرابي باشا (كشف الستار عن سر الأسرار) .

— حقائق الأخبار عن دول البحار . لإسماعيل باشا سرهنك طبع سنة ١٣١٢ هـ في

جزأين .

— الكافي ، لميخائيل بك شارويم طبع سنة ١٨٩٨ في أربعة أجزاء .

— البحر الزاخر في تاريخ الأوائل والأواخر . لمحمود باشا فهمي طبع سنة ١٣١٢ هـ .

— كشف الستار عن أسرار مصر — لمدام أوليب ادوار طبع سنة ١٨٦٥

Les mystères de l'Egypte dévoilés — Mme Olympe Audauard

— مصر الخديو — لا دوين دي ليون طبع سنة ١٨٧٧

The Khedive's Egypt—Edwin de Leon

— تاريخ أوروبا السياسي من افتتاح مؤتمر فيينا سنة ١٨١٤ إلى انتهاء مؤتمر برلين سنة

١٨٧٨ . للمسيو ديبيدور

Histoire diplomatique de l'Europe—Debidour

— دائرة المعارف الفرنسية الكبرى La Grande Encyclopedie

مراجع خاصة بعهد عباس وسعيد

المراجع السابقة ثم :

— مصر الحديثة — للمسيو مريو (طبعة سنة ١٨٦٤)

L'Egypte, Contemporaine—Merruau

— (وله) مصر تحت حكم سعيد باشا (مجلة العالمين عدد ١٥ سبتمبر سنة ١٨٥٧)

- الفلاح (ذكریات عن مصر) - لادمون أبو. طبع سنة ١٨٦٩
Le Fellah, par Edmond About
- سليمان باشا - للمسيو فانترينييه Soliman Pacha, par Vingtrinier
(فيه تاريخ حروب مصر من سنة ١٨٢٠ إلى سنة ١٨٦٠) طبع سنة ١٨٨٦ .
- مصر سنة ١٨٥٨ للمسيو دلاتر Delatre وهي مقالة منشورة بمجلة الشرق والجزائر
والمستعمرات السنة الثامنة والتاسعة L'Egypte en. 1858. Rêvue d'Orient,
D'Algerie et des Colonies — VIII (1858) et IX (1859)
- مصر وسوريا Egypte et Syrie للمسيو ديكان Du Camp المجلة المذكورة بالسنة
الثامنة .
- رسائل عن مصر - لبارتلمى سان هيلير طبع سنة ١٨٥٧
Lettres sur l'Eypte, par Barthelemey Saint Hilaire.
- رحلة سعيد باشا في السودان للدكتور أباته باشا طبع سنة ١٨٥٨
Voyage de Mohamed Said Pacha dans ses provinces du Soudan—Abbâte
- مراجع خاصة بعصر اسماعيل
- المراجع السابقة ثم :
- مصر كما هي Egypt as it is للمستر ماك كون طبع سنة ١٨٧٧
- (وله) مصر تحت حكم اسماعيل Egypt under Ismaïl طبع سنة ١٨٨٩
- مصر وأوروبا L'Egypte et l'Europe للقاضي المختلط فان بملن Van Bemmelen
طبع في جزأين سنة ١٨٨٢
- رسائل عن مصر الحديثة للمسيو جليون دنجلار
Lettres sur l'Egypte contemporaine, par Gellion-Danglar
- المسألة المصرية La Question D'Egypte للمسيو دي فريسنيه
De Freycinet طبع سنة ١٩٠٥ .
- المركز الدولي لمصر والسودان
Situation internationale de l'Egypte et du Soudan
- للمسيو كوشري Cocheris طبع سنة ١٩٠٣

— المسألة المصرية والقانون الدولي La Question égyptienne et le droit international

لدى مارتنس De Martens طبع سنة ١٨٨٢

— أوروبا ومصر للمسيو نوتوفيتش Notovitch طبع سنة ١٨٩٨ .

— الكتاب الأصفر (مجموعة الوثائق الدبلوماسية الفرنسية) .

— الكتاب الأزرق الإنجليزي Blue Book

— خديويون وباشاوات Khedives and Pachas للمستر مويرلى بل Moberli Bell

طبع سنة ١٨٨٤ .

— مصر مرحلة فرحلة L'Egypte à petites Journées للمسيو رونه Rhoné

طبع سنة ١٨٧٧ .

— مصر الأخيرة La dernière Egypte للمسيو ليك Lepic طبع سنة ١٨٨٤

— مصر وتقدمها في عهد إسماعيل L'Egypte et ses Progrès sous ismaïl Pacha

للمسيو رونشي Roncheti طبع سنة ١٨٦٧

— مصر وإسماعيل باشا لساكرى وأوتربوى Sacré et Outrebon طبع سنة ١٨٦٥ .

— التأليف عن مصر والسودان للأمير إبراهيم حلمى The litterature of Egypt

and the Sudan في جزأين . وفيه بيان للمؤلفات التي ظهرت عن مصر منذ العصور

القديمة إلى سنة ١٨٨٥ وله ملحق لغاية سنة ١٨٨٧ .

— سياحة السلطان عبد العزيز في مصر .

Voyage de Sultan Abdul-Aziz de Stamboul au Caire.

للمسيو جاردى Gardey طبع سنة ١٨٦٥ .

— معلومات جغرافية Notices géographiques للعلامة قدرى باشا (عن مصر وبلدانها

وتاريخها) طبع سنة ١٨٦٩ .

— إنجلترا في مصر England in Egypt للورد ألفرد ملنر طبع سنة ١٨٩٣ .

— مصر الحديثة Modern Egypt للورد كرومر طبع في جزأين سنة ١٩٠٨ .

مصر Egypt للبارون مالورتي Malortie طبع سنة ١٨٨٣

— الحياة الاجتماعية في مصر Social life in Egypt لستانلى لين بول S. Lane Poole

طبع سنة ١٨٨٤

- أفكار عن نظام الوراثة المباشرة في عرش مصر

Reflexions sur la succession directe dans le Vice Royaume d'Egypte

للمسيو جوبتي Gobetti طبع سنة ١٨٦٨ .

- مصر ومؤتمر برلين L'Egypte et Congrès للمسيو برنسويك Brunswick طبع سنة

١٨٧٨ .

- مصر طبقا لمعاهدات ١٨٤٠ - ١٨٤١

L'Egypte d'après les traités de 1840—1841

للمسيو برديانو Bordeano طبع سنة ١٨٦٩ .

- مصر وتركيا للمسيو جي لوساك Gay Lussac طبع سنة ١٨٦٩ (رد على الرسالة

السابقة) .

- مصر وتركيا للمسيو تريفيزاني Trevisani طبع سنة ١٨٦٩ .

- الخديو والسلطان . للمسيو حيومون Guillaumot طبع سنة ١٨٧٠ .

- الخلاف بين مصر وتركيا Le differend Turco-Egyptien للمسيو لوري Laury

طبع سنة ١٨٦٩ .

- خديو مصر . للمسيو جيومو Guillaumont طبع سنة ١٨٩٦ .

- كلمات رد Quelques mots de reponse للمسيو ادوارد Edourds

- كلمات عن مصر - الخديو والفلاح

Quelques mots sur l'Egypte Contemporaine

لألفريد ميرارج Mayrargues طبع سنة ١٨٦٩

- مصر في معرض باريس العام سنة ١٨٦٧

L'Egypte à l'Exposition ubiverselle de 1867

للمسيو شارل آدمون Edmond طبع سنة ١٨٦٧

- مصر وتركيا للمسيو فردينان دلسبس طبع سنة ١٨٦٩ .

اليوجريه اجيسيان Le Progrès Egyptien مجلة أسبوعية كانت تصدر بالإسكندرية

(سنة ١٨٦٨ - ١٨٧٠) معارضة سياسة إسماعيل .

- مصر الحديثة L'Egypte moderne للمسيو منتو Montaul طبع سنة ١٨٦٩ .

- مصر تحت حكم إسماعيل للمسيو مريو Merruau (مجلة العالمين عدد ١٥ أغسطس سنة ١٨٧٦) .
- مجلة أركان حرب الجيش المصرى .
- الجريدة العسكرية .
- مصر للمصريين لسليم النقاش طبع سنة ١٨٨٤ فى تسعة أجزاء (ناقص منها الجزآن الثانى والثالث) .
- تاريخ المسألة المصرية من سنة ١٨٧٥ - ١٩١٠ .
- تعريب الأستاذين عبد الحميد العبادى ومحمد بدران عن الأصل الإنجليزى Egypt's Ruin ليتودور رودستين Rothstein طبع سنة ١٩١٠ .
- تاريخ مصر فى عهد الخديو إسماعيل باشا (١٨٦٣ - ١٨٧٩) .
- لإلياس بك الأيوبى طبع سنة ١٩٢٣ فى جزأين .
- التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر . للمستر ويلفرد سكاون بلنت Blunt Secret history of the English occupation of Egypt
- طُبع سنة ١٩٠٧ وعُربته جريدة « البلاغ » للأستاذ عبد القادر حمزة .
- صور مصرية Croquis egyptiens لشونسكى Chonsky طبع سنة ١٨٨٧ .
- خواطر فى السياحة Impressions de voyage
- لمدام لى شيلد Mme Lee Childe طبع سنة ١٨٨٢ .
- (ولها) شتاء فى القاهرة. Un hiver au Caire طبع سنة ١٨٨٣
- نظرة فى حالة القاهرة القديمة والحديثة للمسيو رونه Rhoné
- Coup d'oeil sur l'etat present du Caire ancien et moderne
- أسماء كبار موظفى الحكومة المصرية من سنة ١٢٧٧ إلى ١٢٩١ هـ (١٨٦١ - ١٨٨٥ م) وهو كتاب مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٥٤ تاريخ .
- إحصاء مصر Statsitique de l'Egypte لدى رينى بك De Regny مدير إدارة الإحصاء (السنة الأولى) ١٨٧٠ - (السنة الثانية) ١٨٧١ - (السنة الثالثة) ١٨٧٢ .
- إحصاء مصر سنة ١٨٧٣ Statistique de l'Egypte ، أصدرته وزارة الداخلية بالفرنسية وقد أشرنا إليه فى الهامش أحيانا باسم رينى بك لأنه وضع مقدمته وتولى ترتيبه على

نسق الكتاب السابق ، وله ترجمة عربية بعنوان (الكوكب الدرى فى الاستقراء للمصرى) طبع سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) .

- دليل مصر العام Guide general d'Egypte للمسيو فرنسوا لفرناى Fr. Levernay طبع سنة ١٨٧٠ .

- إحصاء عام لمصر من سنة ١٨٧٣ - ١٨٧٧ Essai de statistique general de لا ميتشى بك Amici طبع سنة ١٨٧٩ فى جزأين .

Egypte - مصر القديمة والحديثة وتعدادها الأخير

L'Egypte ancienne et moderne et son dernier recensement

لا ميتشى بك Amici طبع سنة ١٨٨٤ .

- الإحصاء السنوى العام الذى تصدره مصلحة الإحصاء ابتداء من سنة ١٩١٠

تجربة حكومة أوروبية فى مصر Un essai de Gouvernement europeen en Egypte للمسيو جابريل شارم Gabriel Charmes رسالة مأخوذة عن مجلة العالمين (١٥ أغسطس وأول سبتمبر و ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٩) .

- (وله) خمسة أشهر فى القاهرة Cinq mois au Caire طبع سنة ١٨٨٠

- تاريخ الصحافة . للفيكونت فيليب طرازى طبع سنة ١٩١٣ فى جزأين .

- اسماعيل باشا خديو مصر . للمسيو رافيس Ravaisse طبع سنة ١٨٩٦ .

- حياة البلاط فى مصر Court life in Egypt للمستر بتلر Butler طبع سنة

١٨٨٧ .

- شريف باشا . للمسيو سانتيردى بوف Santerre de Beuve طبع سنة ١٨٨٧ .

- نوبار باشا ، للمسيو هولنسكى Holynski طبع سنة ١٨٨٥ .

- نوبار باشا . للمسيو برتران .

- إنجلترا ومصر ، للمستر ديسى Dicey طبع سنة ١٨٨١

- جغرافية مصر ، لأمين باشا فكرى طبع سنة ١٢٩٦ هـ .

- تقرير اللورد دفرين عن مصر سنة ١٨٨٣ .

- شئون سياسية عن مصر Choses politiques d'Egypte لبوريلى بك Borelli bey

طبع سنة ١٨٩٥ .

- كتر الرغائب في منتخبات الجوائب ، لأحمد فارس الشدياق طبع سنة ١٢٩١ -
١٢٩٨ في سبعة أجزاء .

- انجلترا في مصر L'angleterre en Egypte
للدأام جوليت آدم Juillette Adam تعريب على بك فهمى كامل .
- مصر L'Egypte للكاتب الألماني جورج ابرز G. Ebers وله (ترجمة فرنسية للمسيو
ماسبرو) في جزأين طبع سنة ١٨٨٠ .
- باريسى في القاهرة Un Parisien au Caire للمسيو بريير Perrieres طبع سنة
١٨٧٣ .

- مصر الحديثة L'Egypte moderne
للمسيو مونتأان Montant (اطلس به رسوم وصور) .
- مؤتمر الاستانة والمسألة المصرية سنة ١٨٨٢ للدكتور سيد كامل طبع سنة ١٩١٣
La Conference de Constantinople et la. Question égyptienne en 1882

مراجع خاصة بقناة السويس

- مراسلات ويوميأات ووثأاق عن تاريخ قناة السويس .
للمسيو فردينأان دلسبس Ferdinand De Lesseps طبع من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٨٨١ في
خمسأة أجزاء .
Lettres, Journal et documents pour servir à l'histoire du Canal de Suez
- (وله) أصول قناة السويس Les origines du Canal de Suez طبع سنة ١٨٩٠
- (وله) ذكريأات أربعين سنة Souvenirs de quarante ans طبع سنة ١٨٨٧ في
جزأين .
- قناة السويس . للمسيو فوازأان بك Voisin bey (طبع سنة ١٩٠٢ - ١٩٠٧) في
سبعة أجزاء .

- قناة السويس ، للمسيو ديبلأاس Desplaces طبع سنة ١٨٥٩ .
- حول طريق Autour d'une Route للمسيو شارل رو J. Chrlés Roux
- (وله) برزخ وقناة السويس L'Isthme et le Canal de Suez طبع سنة ١٩٠١ في
جزأين .

- قناة السويس البحرية Le Canal maritime de Suez
للمسيو فونتين Fontaine (وقد نقلنا عنه صورة ابتداء العمل في حفر القناة) .
- افتتاح قناة السويس L'Inauguration du Canal de Suez للمسيو نيكول Nicole وفيه رسوم للرسام ريو .
- عائلة فرنسية Une famille Francaise للمسيو بريدييه Bridier وفيه ترجمة فردينان دلسبس طبع سنة ١٩٠٠ .
- فردينان دلسبس . لبرتران وفرييه Bertrand et Ferrier طبع سنة ١٨٨٧
- قناة السويس وما تكلف مصر Ce que coûte à l'Egypte le Canal de Suez
- للمسيو درفيو E. Dervieu طبع سنة ١٨٧١ .
- شراء أسهم قناة السويس أو الغزوة الإنجليزية في مصر
L'invasion anglaise en Egypte. L'achat des actions de Suez
- للمسيو شارل لساج Lesage طبع سنة ١٩٠٦
- قناة السويس والسياسة المصرية
Le Canal de Suez et la politique Egyptienne
- للأستاذ حسين حسنى طبع سنة ١٩٢٣ .
- مراجع خاصة بالسودان
- مجلة الجمعية الجغرافية السابق الكلام عنها ، و «الوقائع المصرية» و «مجلة مصر»
و «مجلة العالمين» الفرنسية .
- السودان بين يدي غردون وكتشتر لإبراهيم فوزى باشا في جزأين .
- الإسماعيلية Ismailia للسير صمويل بيكر Sir Samuel Baker طبع سنة ١٨٧٥
- (وله) ألبرت نياتزا Albert-Nyanza طبع سنة ١٨٦٨
- مصر ومديرياتها المفقودة L'Egypte et Ses provinces Perdues للكولونل شابي
لونج بك Chaillé Long bey طبع سنة ١٨٩٢ .

- (وله) أفريقية الوسطى Central Africa طبع سنة ١٨٧٦ .
- (وله) الأنبياء الثلاثة غردون والمهدى وعراي Les trois prophètes طبع سنة ١٨٨٦ .
- (وله) منابع النيل Les Sources du Nil
- (وله) مصر وأفريقية والأفريقيون Egypt, Africa and Africans طبع سنة ١٨٧٨
- (وله) مصر والسودان وكسلا (مجلة العالمين الفرنسية عدد أول نوفمبر سنة ١٨٩٤)
- اكتشاف منابع النيل
- Journal of the discovery of the surces of the Nil
- للرجالة اسبيك Speke طبع سنة ١٨٦٣ (وله ترجمة فرنسية).
- النيل والسودان ومصر Le Nil, le Soudan et l'Egypte تأليف شيلو بك Chelu Bey طبع سنة ١٨٩١ .
- دراسة حوض النيل لدى لاموت De La Motte (محاضرة بالفرنسية) طبعت سنة ١٨٨٠ .
- جبر الكسر في الخلاص من الأسر. لمحمد رفعت بك (تكلما عنه ج ١ ص ١٤٧ الطبعة الأولى).
- الكتاب الأزرق الإنجليزي Blue Book عن سنة ١٨٨٣ .
- الكولونل غردون في أفريقية الوسطى Colonel Gordon in Central Africa للمستتر هيل Hill طبع سنة ١٨٨١ (وفيه رسائل غردون إلى أخته).
- يوميات غردون باشا Journal of Gordon at Khortoum طبع سنة ١٨٨٥ .
- مصر والسودان L'Egypte et le Soudan للمسيو هنري بنسا Pensa طبع سنة ١٨٩٥ .
- النار والسيوف في السودان لسلطين باشا. أصله بالألمانية وله ترجمة فرنسية Feu et fer au Soudan طبع سنة ١٨٩٩ . وله ترجمة عربية لجريدة «البلاغ» عن النسخة الإنجليزية.
- السودان وغردون والمهدى Le Soudan, Gordon et le Mahdi للكابتن هومان Heumann طبع سنة ١٨٨٦ .

- تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته لنعوم بك شقير طبع سنة ١٩٠٣ في ثلاثة أجزاء .

- تركة مصر في الأقاليم الاستوائية

La succession de l'Egypte dans les provinces équatoriales

للمسيو ديهران Deherain (مجلة العالمين عدد ١٥ مايو ١٨٩٤) .

- نشرات هيئة أركان حرب الجيش المصرى (عن السودان)

Publications of the Egyptian General Staff

للكولونل بردى باشا Purdy طبع سنة ١٨٧٧ .

- سبع سنوات في السودان Sept ans au Soudan لجسى باشا Gessi pacha

- في باطن أفريقية (١٨٦٨ - ١٨٧١) Au coeur de l'Afrique

للعالم الرحالة جورج شونفرت Schweinfurth طبع سنة ١٨٧٥

- عشر سنوات في - مديرية خط الاستواء والعودة مع أمين باشا

Dix années dans Afrique Equatoriale فى كازاتى Casati طبع سنة ١٨٩١

- السودان المصرى The Egyptian Sudan تأليف وليس بودج Wallis Budge فى

جزأين طبع سنة ١٩٠٧ وفيه بيان عن المؤلفات الخاصة بالسودان .

- مصر المسلمة والحبشة المسيحية Moslem Egypt and Christian Abyssinia

لوليم داي Dye طبع سنة ١٨٨٠

- الحملة المصرية على الحبشة Expedition des Egyptiens contre l'Abyssinie

للمسيو سوتزارا Suzzara (مجلة مصر) Revue d'Egypte عدد مارس وأبريل ومايو سنة

١٨٩٦ .

- السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية . للأستاذ داود بركات ، طبع سنة

١٩٢٤ .

- مصر والسودان فى نظر العلم والتاريخ للدكتور أحمد فؤاد طبع سنة ١٩٣٠ .

- فاشودة وفرنسا وإنجلترا Fachoda, la France et l'Angleterre

لروبير دكى Rober de Caix طبع سنة ١٨٩٩

- تقسيم أفريقية Le partage de l'Afrique لبانينج Banning طبع سنة ١٨٨٨ .

— تقسيم أفريقية Le partage de l'Afrique لدى فيل Deville طبع سنة ١٨٩٨ .

— مسألة أفريقية La Question d'Afrique
للمسيوريمون روتزيمون Raymond Ronze طبع سنة ١٩١٨ .

عن الحالة المالية والاقتصادية

— تاريخ مصر المالى من عهد سعيد باشا (سنة ١٨٥٤ - ١٨٧٦)
Histoire financière de l'Egypte لمؤلف مجهول J.C. قيل أنه بايونو Paponot وقيل أنه ج. كلودى J. Claudy طبع سنة ١٨٧٨
— تقرير لجنة كيف Cave المنشور ذيلًا لكتاب (مصر كما هي) لملك كون.
— التقرير الابتدائي للجنة التحقيق العليا الأوروبية

طبع سنة ١٨٧٨ Commission supérieure d'enquête — Rapport préliminaire
— التقرير النهائي للجنة المذكورة

Rapport concernant le règlement provisoire de la situation financière
طبع سنة ١٨٧٩ على حدة ووارد أيضا في الكتاب الأصفر الفرنسي.
— الملكية العقارية في مصر La propriété foncière en Egypte ليعقوب ارثين باشا.
طبع سنة ١٨٨٣ وله ترجمة عربية.

— حقيقة المالية المصرية La vérité sur les finances égyptiennes
للمستر جوشن Goschon طبع سنة ١٨٧٨

— مصر ومستقبلها الزراعى والمالى

L'Egypte, son avenir agricole et financier للمسيو بايونو Poponot

— الأقطان والضرائب في القطر المصرى لجرجس بك حنين طبع سنة ١٩٠٤
— القوانين العقارية في الديار المصرية للجامعة السير إلدون جورست.
— تحفة الخديوى إسماعيل لصعيد وادى النيل. أو أعظم ترعة للرى في الدنيا (ترعة الإبراهيمية) لمحمد بك إسماعيل حب الرمان طبع سنة ١٩٠٠ .

— الرى في مصر L'irrigation en Egypte للمسيو باروا Barrois طبع سنة ١٩١١ .

— مذكرات عن أهم أعمال المنفعة العامة في مصر.

Memoires sur les principaux travaux d'utilité publique en Egypte

للينان باشا دى بلفون Linant de Bellefonds طبع سنة ١٨٧٢ .

— مصر والجغرافية L'Egypte et la Geographie لبونولا بك Bonola bey وفيه بيان

أعمال العمران التي تمت في مصر على عهد الأسرة المحمدية العلوية طبع سنة ١٨٩٠ .

— زراعة القطن في مصر والغزالون في إنجلترا . للمسيو جون نينه J. Ninet (مجلة

العالمين عدد أول ديسمبر سنة ١٨٧٥)

— حالة مصر الاقتصادية والمالية والسودان المصري

La situation economique et financière de l'Egypte.

Le Soudan Egyptien للمسيو ارمنجون Arminjon طبع سنة ١٩١١ .

— إنتاج القطن في مصر La production du coton en Egypte

للمسيو فرنسوا شارل رو Fr. Ch. Roux طبع سنة ١٩٠٨

— مذكرات المستشار المالي

— تقارير اللورد كرومر

— مصر اليوم l'Egypte d'aujourd'hui لكريساتي Cressati طبع سنة ١٩١٢

عن التعليم والنهضة العلمية والأدبية

— التعليم في مصر ، لأمين سامي باشا طبع سنة ١٩١٧ .

— مجلة « روضة المدارس » .

— كتاب الوسيلة الأدبية . للشيخ حسين المرصفي طبع سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) في

جزأين .

— سر الليال في القلب والإبدال . لأحمد فارس الشدياق طبع الجزء الأول منه سنة

١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) .

— التعليم العام في مصر L'instruction publique en Egypte

للمسيو دور بك Dor bey طبع سنة ١٨٧٢ .

— التعليم العام في مصر (بالفرنسية) ، ليعقوب أرتين باشا طبع سنة ١٨٩٠ .

- ترجمة حياة على باشا مبارك ، للدكتور محمد درى باشا .
- ترجمة حياة محمود باشا الفلكى . لمحمد مختار باشا وإسماعيل باشا الفلكى .
- ترجمة حياة إسماعيل باشا الفلكى . لأحمد زكى باشا .

عن الحركة الوطنية والحياة النيابية

- مضابط مجلس شورى النواب .
- « الوقائع المصرية » .
- صحف « الوطن » و « مصر » و « التجارة » و « الأهرام » و « الفار دالكسندرى » .
- « الريفورم » و « المونيتور اجبسيان » التى كانت تصدر فى ذلك العهد .
- صحيفة « الجوائب » التى كانت تصدر بالأستانة ، لأحمد فارس الشدياق .
- تجربة حكومة أوروبية فى مصر للمسيو جابريل شارم - مصر الحديث للورد كرومر (تقدم ذكرهما) .
- الرد على الدهرين للسيد جمال الدين الأفغانى .
- حاضره العالم الإسلامى . للكاتب الأمريكى ستودارد . تعريب الأستاذ عجاج نويهض
- وفيه فصول وتعليقات مستفيضة للأمير شكيب أرسلان .

عن القضاء

- إدارة نظام القضاء فى مصر
- Comment on administre la justice en Egypte
- للكوفتش Lucovich طبع سنة ١٨٦٦
- مصر وأوروبا للقاضى المختلط فإن بلمان (تقدم ذكره) .
- المحاكم المختلطة فى مصر للمسيو هيروروس Herreros طبع سنة ١٩١٤ .
- نظام الامتيازات فى السلطنة العثمانية .
- Le regime des Capitulations dans l'Empire Ottoman
- للمسيو ديروزاس Du Rausasse طبع سنة ١٩٠٥ فى جزاين .
- الامتيازات الأجنبية . لعمر بك لطفى طبع سنة ١٣٢٢ هـ .

- كتاب المحاماة . لأحمد فتحي زغلول باشا طبع سنة ١٩٠٠ .

- تطور المركز القضائي للأجانب في مصر

De l'évolution de la condition Juridique en Egypte

للمسيو لامبالا Laembala طبع سنة ١٨٩٦

- الكتاب الذهبي للمحاكم المختلطة

Le Livre d'Or du cinquantenaire des Jurdictions mixtes d'Egypte

أصدرته نقابة المحاماة أمام المحاكم المختلطة ، طبع سنة ١٩٢٦ .

* * *

راجع هذا الكتاب

المستشار حلمي السباعي شاهين

نائب رئيس قضايا الحكومة

* * *

فهرست هجائی للكتاب

الرقم الأول يشير إلى الجزء والذي يليه إلى الصحيفة ، وبينهما هذه العلامة - وحرف (ن) يشير إلى أن صاحب الاسم كان من أعضاء مجلس شورى النواب^(١) .

* * *

(١) قد عاوننى الأستاذ الأديب الشيخ محمود أبورية الموظف بمجلس مديرية القهيلية فى وضع فهرست الطبعة الأولى ، والأستاذ الأديب محمد إبراهيم جمعة المدرس بمدرسة حلوان الثانوية فى فهرست الطبعة الثانية ، فلها منى جزيل الشكر والثناء .
ومن يرغب فى مراجعته أو الرجوع إليه فأمامه الطبعة الأولى من جزئى الكتاب (عصر إسماعيل الجزء الأول . وعصر إسماعيل الجزء الثانى) .

فهرست الجزء الثانى

الفصل العاشر

أعمال العمران

صفحة	صفحة
١٩ المواصلات والسكك الحديدية	٣ صورة عبد الرحمن الرافعى (المؤلف)
..... الخطوط التى أنشئت فى عهد عباس	٥ مقدمة الطبعة الثالثة
٢٠ وسعيد	٩ منشآت الري والزراعة
٢٠ الخطوط التى أنشئت فى عهد إسماعيل	٩ الترع
٢٢ التفرقات	١٠ التربة الإبراهيمية
٢٤ البريد	١٠ قناطر التقسيم
٢٤ المتحف المصرى	١٣ التربة الإسماعيلية
٢٦ دار الآثار العربية	١٤ الترع الأخرى
٢٦ دار الرصد	١٥ القناطر
٢٦ مصلحة الإحصاء	١٥ إصلاح القناطر الخيرية
٢٦ مصلحة المساحة	١٥ مجالس تفتيش الزراعة ووزارة الزراعة
٢٧ الأعمال الصحية	١٦ التوسع فى زراعة القطن والقصب ..
٢٩ عمران المدن	١٦ زيادة مساحة الأقطان المزروعة
٢٩ فى القاهرة	١٧ منشآت الصناعة
٣١ فى الإسكندرية	١٧ معامل السكر
٣٢ القصور	١٩ معامل النسيج
	١٩ معامل الطوب والمداغة والزجاج والورق

الفصل الحادى عشر

مأساة الديون

٣٤ قرض سنة ١٨٦٤	٣٣ ديون مصر فى عهد إسماعيل
٣٧ قرض سنة ١٨٨٥	بيان هذه القروض وهل كانت مصر فى حاجة
٣٨ قرض سنة ١٨٦٦	إليها ٣٤

صفحة

٦٧	التوقف عن الدفع
٦٨	إنشاء صندوق الدين
٦٨	(بدء الوصاية الأجنبية على مصر) ..
٦٩	مشروع توحيد الديون
٦٩	مرسوم ٧ مايو سنة ١٨٧٦
٧٠	إنشاء مجلس أعلى للمالية
٧٠	الرقابة الثنائية
٧٢	مقتل إسماعيل باشا صديق
	مرسوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ وتسوية
٧٣	الدين العام
٧٥	نظام الرقابة الثنائية
٧٦	إدارة صندوق الدين
	لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية
٧٦	وميناء الإسكندرية
٧٨	لجنة التحقيق العليا الأوروبية
٨٠	إن بلادى لم تعد في أفريقية
	مرامى السياسة الإنجليزية وتأليف
٨٢	الوزارة المختلطة
٨٣	إنشاء مجلس النظار
٨٦	وزارة نوبار باشا الأولى
٨٦	قرض جديد . سلفة الدومين
٨٧	ختم التراع بين الخديو والدائنين

صفحة

٣٩	قرض سنة ١٨٦٧
٤٠	ظهور إسماعيل باشا صديق
٤١	قرض سنة ١٨٦٨
٤٣	الحصول على المال باستعمال الحيلة ..
٤٤	قرض سنة ١٨٧٠
٤٥	الديون السائرة
٤٦	الحالة المالية سنة ١٨٧٠
٤٧	قانون المقابلة
٤٩	القرض المشتمل سنة ١٨٧٣
٥١	الشعور بسوء الحالة المالية سنة ١٨٧٤
٥١	دين الرزنامة سنة ١٨٧٤
٥٢	ما أخذ من بيت المال والأوقاف الخيرية
٥٢	مطلوبات من الحكومة لم تدفع قيمتها
	مقدار ما دخل خزانة الحكومة من
٥٢	القروض
٥٤	الخلاصة
٥٥	إسراف إسماعيل
٥٥	أمثلة من إسراف إسماعيل
٥٨	التدخل الأجنبي في شؤون مصر المالية
٥٨	بيع أسهم مصر في قناة السويس ...
٦٥	بعثة كيف الإنجليزية
٦٧	التنافس في النفوذ بين إنجلترا وفرنسا

الفصل الثاني عشر

الحركة الوطنية والحياة النيابية

٩٣	الانتخابات الأولى للمجلس
	أعضاء مجلس شورى النواب
٩٤	سنة ١٨٦٦

٨٩	إنشاء مجلس شورى النواب
٨٩	نظام المجلس
٩٢	الحياة السياسية في عصر إسماعيل

١٢٦	دور الانعقاد الأول سنة ١٨٧٠
١٢٧	لجان المجلس
١٢٨	تغييرات في الأعضاء
١٢٨	أعمال المجلس
١٢٨	الميزانية
١٢٩	دور الانعقاد الثاني سنة ١٨٧١
١٣٠	تغيير بعض الأعضاء
١٣١	لجنة الرد على خطاب العرش
١٣١	أبحاث المجلس
١٣٢	الميزانية
١٣٢	سنة ١٨٧٢
١٣٣	الدور الثالث سنة ١٨٧٣
١٣٣	تغيير في الأعضاء
١٣٤	مباحث الأعضاء
١٣٤	المسألة المالية
١٣٦	الميزانية
١٣٧	إيقاف الحياة النيابية مستين
١٣٨	أدوار النهضة والمعارضة
١٤٠	جمال الدين الأفغانى . ترجمة حياته
١٦٥	عود إلى الحياة النيابية
١٦٥	الهيئة النيابية الثالثة
١٦٨	اجتماع مجلس شورى النواب بطنطا
١٦٩	دور الانعقاد الأول
١٧٠	تغييرات في الأعضاء
١٧١	لجان المجلس
١٧١	الجواب على خطاب العرش
١٧٢	النواب البارزون
١٧٣	الدور الثاني
١٧٥	قرارات المجلس
١٧٦	الدور الثالث

٩٦	افتتاح المجلس وخطبة العرش
٩٧	لجنة الرد على خطبة العرش
٩٨	الجواب على خطبة العرش
١٠٠	لجان المجلس
١٠١	اعتماد عضوية النواب
١٠٢	محاضر الجلسات
١٠٣	طريقة المداولة في المجلس
١٠٤	مباحث المجلس
١٠٨	انتهاء الدور
١٠٩	رواية لا أصل لها
١١١	دور الانعقاد الثاني
١١٣	لجان المجلس
١١٣	تغييرات في الأعضاء
١١٣	قرارات المجلس
١١٤	المناقشة في المسألة المالية
١١٤	ميزانية سنة ١٨٦٨ - ١٨٦٩
١١٦	دور الانعقاد الثالث
١١٦	خطبة العرش وأهميتها
١١٧	أعمال العمران في عهد إسماعيل
١١٧	الجيش والبحرية
١١٨	مقاصد إسماعيل
١١٩	السودان في خطبة العرش
١١٩	التعليم
١٢٠	الجواب على خطبة العرش
١٢١	تغييرات في الأعضاء
١٢١	المسائل التي تباحث فيها المجلس
١٢٢	الميزانية
١٢٢	المصروفات وأقساط الديون
١٢٣	الهيئة النيابية الثانية
١٢٣	انتخابات سنة ١٨٧٠

صفحة

١٩٩	الجمعية الوطنية
٢٠٠	المطالبة بتأليف وزارة وطنية
٢٠١	اللائحة الوطنية
٢٠٣	نظرة عامة في مشروع اللائحة الوطنية
٢٠٣	قبول الحديو اللائحة الوطنية
٢٠٤	احتجاج الوزراء الأوروبيين
٢٠٤	البلاغ الرسمي عن الجمعية الوطنية ..
	كتاب الحديو إلى شريف باشا وتكليفه
٢٠٥	تأليف الوزارة
	مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس
٢٠٦	النواب
٢٠٨	تقرير لجنة التحقيق النهائي
٢٠٨	تأليف الوزارة الوطنية برئاسة شريف باشا ..
٢١٠	الحفلات الوطنية
٢١٠	وزارة شريف باشا ومجلس النواب ..
٢١٣	دستور سنة ١٨٧٩
٢٢٠	دستور سنة ١٨٨٢
٢٢٥	محمد شريف باشا
٢٢٥	ترجمة حياته

صفحة

١٧٧	خطبة العرش
	جواب المجلس على خطبة العرش
١٧٨	خطاب تاريخي
١٧٩	أعمال المجلس
١٨٠	المسائل المالية
١٨٢	نشاط المجلس
١٨٢	المسألة الدستورية
	سياسة الوزارة النوبارية وأثرها في تطور
١٨٥	الحركة
١٨٧	تبرم الموظفين
١٨٨	إحالة ٢٥٠٠ ضابط على الاستبداد
١٨٩	ثورة الضباط على وزارة نوبار باشا ..
١٩١	البلاغ الرسمي عن ثورة الضباط
١٩١	سقوط وزارة نوبار باشا
١٩٣	وزارة توفيق باشا
١٩٥	مجلس شورى النواب ووزارة توفيق باشا ..
١٩٦	جلسة تاريخية
١٩٨	قرار المجلس
١٩٨	عريضة النواب إلى الحديو

الفصل الثالث عشر

خاتمة التراع بين الحديو إسماعيل والدائنين

٢٥٤	رحيله إلى منفاه
٢٥٦	إسماعيل في منفاه
٢٥٦	وفاته

٢٤٥	الموقف السياسي
٢٤٦	مرسوم ٢٢ أبريل سنة ١٨٧٩
٢٥١	خلع إسماعيل

الفصل الرابع عشر نظام الحكم في عهد إسماعيل

صفحة	صفحة
٢٦٤	النظام السياسى ٢٥٧
٢٦٦	المجلس الخصوصى ثم مجلس النظار . ٢٥٨
٢٦٦	مجلس شورى النواب ٢٥٨
٢٦٧	التقسيم الإدارى ٢٥٩
٢٦٧	النظام القضائى ٢٥٩
٢٦٨	المحكمة التجارية المختلطة ٢٦٠
٢٧٠	مجلس الأحكام ٢٦٠
٢٧٠	إنشاء المحاكم المختلطة ٢٦١
٢٧٠	حدود الامتيازات الأجنبية فى تركيا . ٢٦٣
٢٦٤	اتساع حدود الامتيازات فى مصر ...
٢٦٦	اضطراب المعاملات
٢٦٦	إصلاح هذا الفساد
٢٦٧	مذكرة نوبار باشا ١٨٦٧
٢٦٧	المفاوضات بشأن النظام القضائى المختلط
٢٦٨	إقرار نظام المحاكم المختلطة
٢٧٠	افتتاح المحاكم المختلطة
٢٧٠	نظرة عامة فى القضاء المختلط

الفصل الخامس عشر الحالة المالية والاقتصادية

٢٨٨	البذخ والإسراف ٢٧٧
٢٨٨	استغلال الأجانب مرافق البلاد ٢٧٩
٢٩١	التجارة ٢٨٠
٢٩٣	الصناعة ٢٨٣
٢٧٧	نظرة عامة
٢٧٩	الميزانية فى عهد إسماعيل
٢٨٠	ميزانية سنة ١٨٧١ - ١٨٧٢
٢٨٣	الضرائب

الفصل السادس عشر

الحالة الاجتماعية

صفحة	صفحة
٣٠١	نظرة عامة ٢٩٧
٣٠٣	الحياة العائلية ٢٩٩
٣٠٤	النهضة النسائية ٢٩٩
٣٠٤	طبقات الشعب ٣٠٠
٣٠٥	عدد السكان ٣٠١
	الأسرة الحاكمة - الخديو والأمراء
	علماء الأزهر
	الموظفون
	الزراع والصناع
	الأعيان

الفصل السابع عشر

شخصية الخديو إسماعيل والحكم على عصره

وثائق تاريخية

الصادرة في ٢٢ أكتوبر سنة	مذكرة شريف باشا إلى الدول عن
١٨٦٦ ٣١٧	امتلاك مصر منطقة البحيرات
مراجع البحث ٣٢٥	الاستوائية ٣١٣
فهرست هجائي للكتاب ٣٤٠	اللائحة الأساسية لمجلس شورى النواب
فهرست الجزء الثاني ٣٤١	الصادرة في ٢٢ أكتوبر سنة
فهرست الخرائط والصور ٣٤٧	١٨٦٦ ٣١٤
	اللائحة النظامية لمجلس شورى النواب

فهرست الخرائط والصور

صفحة

١١	خريطة التربة الإبراهيمية
١٢	قناطر التقسيم بدیروط
١٠٧	إسماعیل راغب باشا رئیس مجلس شورى النواب
١١١	عبد الله باشا عزت رئیس مجلس شورى النواب
١٤٠	جمال الدين الأفغانى
١٦٣	السید جمال الدين الأفغانى فى مرضه الأخير
١٧٤	قاسم رسمى باشا رئیس مجلس شورى النواب
١٧٤	جعفر مظهر باشا رئیس مجلس شورى النواب
٢٠٩	زعماء الحركة الوطنية فى عهد إسماعیل
٢١١	حسن راسم باشا رئیس مجلس شورى النواب
٢٢٦	محمد شریف باشا

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤ .

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضات القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢ .

تاريخ الحركة القومية (فى جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد على :

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (فى جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الثورة العربية والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢) .

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩) .

محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١).

ثورة سنة ١٩١٩ في جزأين :

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (في جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ .
الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شوب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم .
الجزء الثاني : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاکمات الثورة ولجنة ملر . والحوادث التي لا يستها ومفاوضات ملر واستشارة الأمة في مشروع ملر . والتبليغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية . ونتائج الثورة في حياة مصر القومية .

في أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : في ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ مصر القومي من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)

الجزء الثاني : تاريخ مصر القومي من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ - سنة ١٩٤٩) .

الجزء الثالث : تاريخ مصر القومي من ولاية فاروق عرش مصر في ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١)

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ :

(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧)

الكفاح في القنال سنة ١٩٥١ - حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ .

وزارات الموظفين - أسباب الثورة - فاروق يمهّد للثورة .

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ :

تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة :

من فجر التاريخ إلى الفتح العربي (طبع سنة ١٩٦٣)

تاريخ مصر القومي :

من الفتح العربي حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف

مذكراتي (١٨٨٩ - ١٩٥١) :

خواطري ومشاهداتي في الحياة .

شعراء الوطنية في مصر :

تراجمهم . وشعرهم الوطني . والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

مجموعة أقوال وأعمال في البرلمان : (مجلس النواب الأول) طبع ١٩٢٥

أربعة عشر عامًا في البرلمان :

في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥

وفي مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥) .

كتب مختصرة

مصطفى كامل :

باعث النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)

بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١٩٥١)

الزعيم الثائر أحمد عرابي :

(الطبعة الأولى - يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغاني : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :

استقلال أم حياية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية :

(طبعت سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩)

مصر المجاهدة في العصر الحديث :

في ست حلقات تشمل على كفاح الشعب في عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه في العهود التالية إلى بداية

ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

(تحت الطبع)

مختارات من دواوين الشعراء في الجاهلية والإسلام .

رقم الإيداع	١٩٨٢/٢٦٤٣
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٠٣٣-٦

١/٨٠/٣٧٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هذه الأعمال الكاملة

يُنظر إلى عبد الرحمن الرافعي على أنه جبري مصر الحديث ،
فقد عكف طوال عمره على كتابة التاريخ المصري فبدأه بتاريخ
الحركة القومية في عصر المماليك والحملة الفرنسية . . حتى ثورة
٢٣ يوليو في سبع سنوات ، وإلى جانب هذه الحقبة التاريخية
نجدته يكتب أيضاً مؤلفات أخرى هامة . .
وكتابات الرافعي تتسم بالصدق والدقة والحيدة . . فهو يبدأ
بذكر أسباب الحادث ثم سرده ثم رأيه فيه . . ومن ثم فإن فكر
الرافعي يسود هذه المؤلفات ويعبر عن كفاح الشعب المصري في
مواجهة القوى المختلفة والملابسات التي أحاطته . .
ودار المعارف تقدم هذه الأعمال الكاملة للقارئ العربي . .
حتى يقف على تاريخ وطنه العظيم . . وكفاحه المشرف . .
ومطالبته الدائمة بالحرية والحق والديمقراطية .